

الكتاب الجامعي ٣٣

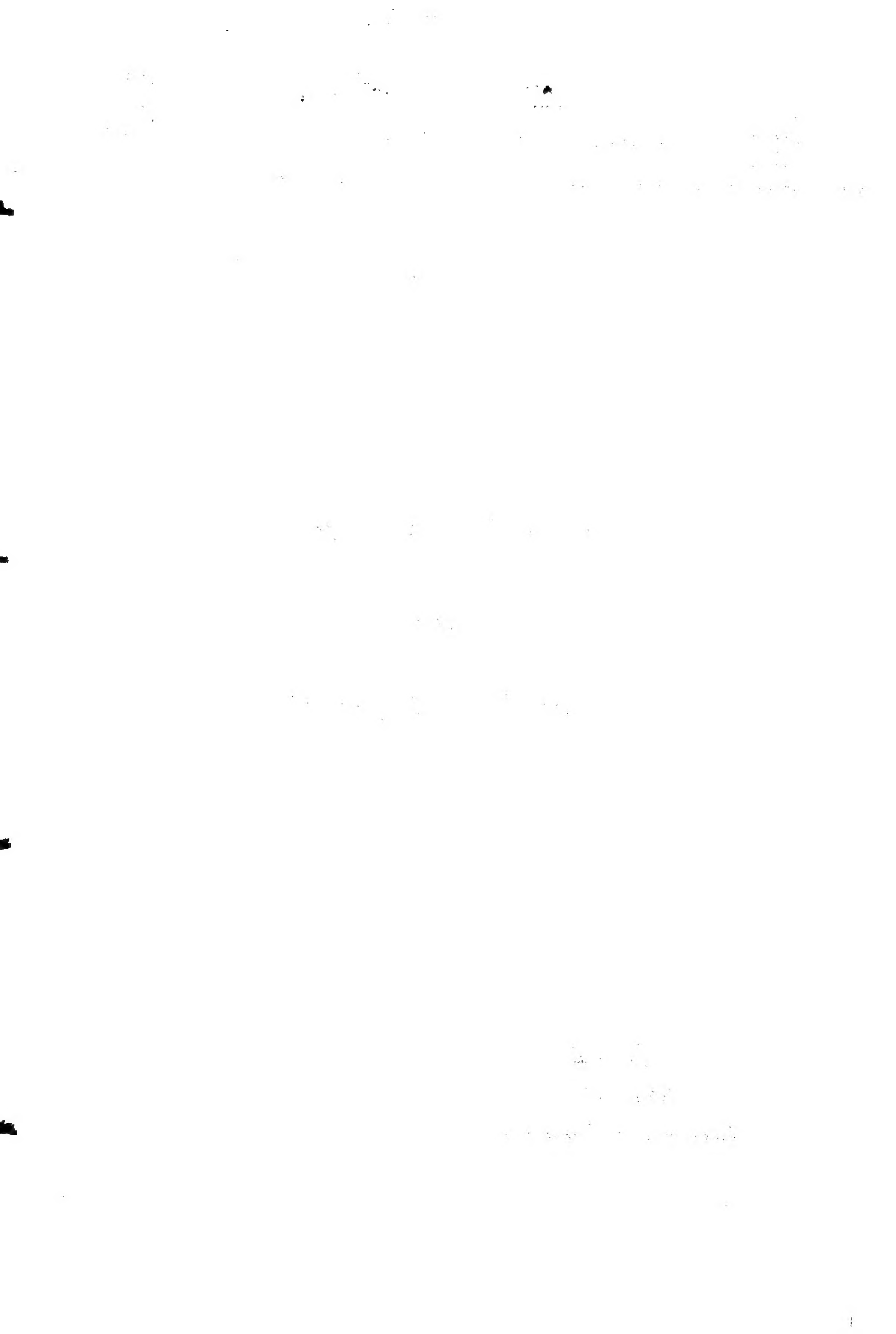
الدكتور/ عبد العليم عبد الرحمن خضر

أصل الأجناس البشرية

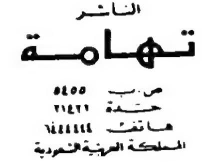
بين

العلم والقران الكريم

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
جدة المملكة العربية السعودية




بسم الله الرحمن الرحيم


الناشر
تهامة
ص.ب ٥٤٥٥
جدة ٢١٤٢١
هاتف ٦٤٤٤٤٤٤
المملكة العربية السعودية

تصميم وتنفيذ وطباعة شركة دار العلم للطباعة والنشر
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

أصل الأجناس البشرية
بين العلم والقرآن

المقدمة

لقـد خلق الله سبحـانه وتعالى الانسان وهو أعلم بمن خلق، وهو الذى يعلم الطريقة الصحيحة في بيان الحقائق الكبرى في هذا الوجود الذي يتعامل معه الانسان.

وإنني في هذا الكتاب أحاول أن أوضح للبشرية جمعاء أن القرآن الكريم ينهج منهجاً خاصا متميزا فى شرح قصة خلق الانسان.

وقبل كل شيء اهتم القرآن الكريم بايضاح أن الله سبحانه وتعالى قد نصب من إيجاد هذا الانسان وخلقه ابتداء واعادته بعد البعث ثانية دليلاً على وجوده وقدرته. .

قال تعالى: ﴿**إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾.

ونستشهـد بقـول [ابن تيمية] في كتابه: «النبوات» على أن الانسان خلق خلقاً متكاملاً في أحسن صورة. . يقول شيخ الاسلام: «فالاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة، وهى طريقة عقلية صحيحة، وهى شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها، فإن نفس كون الانسان حادثا بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة، فإن هذا يعلمه الناس كلهم بقولهم، فهو إذن عقلى لأنه بالعقل تعلم صحته، وهو شرعى أيضاً». .

وقد تأرجحت آراء [غير المسلمين] في النظر إلى الانسان وأصل الأجناس البشرية تأرجحاً هدَّه الضلال والتخبط والضياع. . فالكنيسة المسيحية تريد من الانسان فوق ما يحتمله، فهى تكبت نوازعه وتضغط عليه وتجعله واقعاً تحت سيطرة الصراع بين الجسد والروح، والرهبانية دليل على ذلك.

ومـدارس علـم النفس التجـريبى فى الغرب أفسدت الحقائق الانسانية والنظرة

الصحيحة للانسان، لأنها كانت لا تخرج بعد كل تجربة إلا بمزق وجزيئات تعجز عن تفسير الكيان الإنساني المتكامل. والمدرسة السلوكية تفسر الانسان على أساس سلوك [الحيوان] وردود أفعاله المنعكسة. والمدرسة الميكانيكية تفسر انضباط الانسان بما يشبه الجهاز الآلى، وتنفى عنه كل شعور واحساس وروح!!!

أما فرويد، فإن أسس نظرته للإنسان أنه كائن أرضى بحت، لا يرتفع بمشاعره عن عالم الأرض إلا في حالات الشذوذ، وهو يقطع الصلة بين الروح والجسد، ويفسر كل سلوك على أساس اللذة الجنسية.

وجاء [داروين] لينظر إلى الإنسان على أنه [حيوان] تطور من بعض القرود وتأثرت بهذه النظرية المشئومة كل الأفكار الغربية عن أصل الأجناس البشرية..

وهنا جاء دورى فى هدم كل الأفكار الغربية ونظرتها لنشأة الانسان، وقد أتخذت من المفهوم الاسلامى لنشأة الإنسان محوراً أساسياً لهذا الكتاب، وهدفى الأساسى في هذا الكتاب هو إثبات أن الإنسان فى نظر الإسلام أكرم الكائنات على الله، خلقه في أحسن تقويم وتولاه بالإلهام والتعليم، وحلاه بالعقل الكريم والقلب السليم وأعده لشرف خلافة الأرض.

كما كان هدفى من هذا الكتاب اثبات إن الإسلام الذى يرميه الملحدون بداء غيره من الديانات، وينسبون إليه معاداة العلم (أحيانا).. ومنافاة العقل أحياناً أخرى.. هو وحده الذى احتضن العلم وتحاكم الى العقل، وميز الحق بخصائصه.. وما على هؤلاء إلا أن يرددوا النظر فى القرآن الكريم وفي السنة المطهرة ليروا الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العلم والعمل والحق والعقل، وأنه هو (وحده) من بين الأديان السماوية الذى عرف الفطرة (الطبيعة) وسماها باسمها، ووصفها بأوصافها، وشهد لنفسه أنه دين الفطرة، بل أنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وفي كتابى هذا

أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن

أقدم الدلائل الملموسة على شمول القرآن وصدقه ودقة منهجه في معالجة الموضوعات التى تخص الإنسان ونشأة الأجناس البشرية.. ففى [الفصل الأول]

شرحت أهم نظريات العلم عن بدء الحياة على الأرض، والنـظرة القـرآنية لأصل الحياة، وبرهنت على سبق القرآن للمس هذه المفاهيم. وإذا كان العلم قد قال بنشأة الحياة من الماء فقد قال القرآن بذلك قبل ألف وأربعمائة عام.. قال تعالى:

﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ (الأنبياء: ٣٠)

ولما كان غرض الأول هو هداية الفكر العام وتوجيهه وتيسير تلك المفاهيم على سائر الأذهان، أو على الأقل أغلبها فقد لمست جوانب الموضوع لمسا علميا مبسطا، حيث شرحت دعوة القرآن الى السير فى الأرض لمعرفة ما كان عليه (الخلق) في بداية النشأة، وذلك من خلال دراسة «الحفريات».. فهى بالفعل سجل حافل بأسرار الحياة وفيها ألف دليل ودليل على عظمة الله وانفراده بالخلق..

وفى [الفصل الثاني] تناولت بالشرح والتحليل والمقارنة التاريخ الجيولوجى للأرض ونشـأة الحياة.. وسـوف نرى كيف يدعـونـا القرآن الكريم الى استخدام القياس العقلي، ذلك في قوله تعالى:

﴿**فاعتبروا يا أولى الأبصار**﴾ (الحشر: ٢)

ومن المؤسف المبكى ـ بعد كل ذلك ـ أن يأتى العلم بكل أسباب التقدم المادى، سواء كان في دوائر البحث أو التطبيق التكنولوجى وأساليب المعيشة، ومن المؤسف المبكى أن يأتى بها فى شكل آلى سطحى، يحيط بالظواهر ولا يلمس البواطن.. قد يشبع الأجساد، ولكنه لا يطفىء ظمأ النفوس..

ولكننى فى [الفصل الثالث] اكتشفت أن (العلم) برىء من نتائج انحرافه، وأن العلماء أنفسهم هم الذين حرفوا مناهجه.. وتوصلت إلى أنه لا تعارض بين العلم والإيمان (إذا) كان القائمون على أمر العلم ممن خشعت قلوبهم لملك الملوك وفاطر السموات والأرض، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير المتعال..

وتقدم بى البحث فى الفصل الثالث إلى مرحلة الشرح العلمى للخصائص العامة للأجناس البشرية حسب الرأى العلمى المعتدل عند علماء الجغرافية البشرية، ثم شرحت وسائل انتشار الانسان فى الأرض تحقيقا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾.

وفي [الفصل الرابع] شرحت كيف هاجر الإنسان القديم في عصور ما قبل التاويخ من موطن النشأة الى كل بقاع الأرض، وتحقيق الخلافة فى الأرض.

وفى [الفصل الخامس] تحدثت عن أصل الإنسان في القرآن الكريم وبينت أن القـرآن الكريم نص على أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ومتكاملاً، ولم ينحدر من (أصل آخر).

قال تعالى: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ (التين: ٤)

وبـرهنت على أن القرآن في هذا (الاطار) يشرح حقيقة تطور الإنسان من مادة الأرض (تـرابهـا) إلى مرحلة الـطين ثم الى مرحلة الحمـأ المسنـون، ثم إلى مرحلة الصلصال، ثم كانت نفخة الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكائن المصور (على صورة الانسان).

قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

وفى [الفصل السادس].. بيَّنت الأسس الواهية التى استند إليها [داروين] فى تفسيره لأصل الأنواع والإنسان، كما تابعت مسيرة (التطور) وحللت الملامح العامة للفكـر التطورى، مبينا أن ذلك يتعارض مع أبسط معطيات المنطق والعقل، وأن الدراورنية ما هى إلا فكر تدميرى متسلط على الأديان السماوية لهدمها وتقويض دعائمها.

وتناولت فى [الفصل السابع] ملامح «الداروينية» الحديث عند [روبرت ليرمان]، [ووليم هويلز]، [ولويس ليكى]، [وجون نابيير]، [ورياكيموف]، [وبيير ليروى]، [وتيلهارد]، [وفيتكتور بوناك]، [والعالم الالمانى بولك]، [وهكسلى]، وغيرهم.

وبرهنت على فساد أفكارهم، وشططها وبعدها عن العلم والايمان. وفى [الفصل الثامن]، شرحت كيف تتحقق التوافقية بين العلـم والقرآن، وقلت أن ذلك لا يتحقق إلا إذا كان العلم صادقـاً نابعـاً من نفس مؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. عندئذ فقط يمكن أن تقترب (الحقيقة العلمية) من القرآن ومفاهيمه.. أما النظرية العلمية مهما كان صاحبها، فلن ترقى فى يوم من الأيام إلى درجة الاقتراب من

الحقيقة القرآنية لأن النظرية مجرد فرضية قد تصدق وقد تنهدم غدا.

وفى [الفصل التاسع] شرحت الأسس العلمية التى نخرج بها من المفهوم القرآنى لنشأة الإنسان. وكيف تعمق تلك الأسس إيمان المرء بالله خالق السموات والأرض الواحد، القهار.

وتـذكـرت كيف سلك الملاحدة، وعلماء الأديان من فلاسفة ومتكلمين وغيرهم مسالك مختلفة فى الدفاع والهجوم فى أمر وجود الله تعالى.. وكأن الله سبحانه وتعالى موضوع اختلاف أو نقاش.

وتذكرت على الفور أيضاً ما جاء فى القرآن الكريم في تساؤل رائع..

﴿**أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ بل لا يوقنون**﴾.. (الطور: **٣٥-٣٦**).

وفى [الفصـل العاشر] أعلنتُ على العالم أجمع سقوط نظرية (داروين) وفسادها وتخريفها، ولم يكن ذلك تعصبا منى، أو انغلاقاً داخل فكرة شخصية أو انتماء لجماعة أو مدرسة فكرية معينة.

وإنما جاء اعلانى بسقوط نظرية [داروين] من خلال دراسات علمية معمقة، لكل من المفهوم القرآنى والعلمى لنشأة الإنسان ووجدت أن كلا من العلم والقرآن قد اتفقا على فساد (النظرية المنحرفة) وعدم استنادها إلى أى دليل علمى أو منطقى.

وجاء في الفصل الأخير (الحادى عشر).. تأكيداً على خطورة الفكر «الداروينى» الذى يروج له أعداء البشرية والملحدون، وبرهنت على وجود الصلة والرابطة القوية بين نظرية [داروين] وأتباعه وظهور التفرقة العنصرية المسعورة بين الأجناس البشرية على أساس اللون أو الجنس أو الدين.

وبرهنت على رفض الإسلام لأى تفرقة بين إنسان وآخر لا تقوم على التقوى.
عملا بقوله تعالى:

﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾. (الحجرات: **١٣**).

إننى فى هذا الكتاب المتواضع: [أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن] أثبت بالدليل على وجود التوافقية المطلقة بين العلم والقرآن، فالعلم يبحث في الكون وهو

كتاب الله المنظور، والقرآن كتاب الله المقروء. . كلاهما من عند الله. . العلم علم الله، والقرآن كلام الله. . ولا تعارض بينهما.

وفي هذا الكتاب سلخت الجلدالمزيف عن الأفكار الهدامة في المجتمع البشرى ومنها «الداروينية القميئة»، فأصبحت عارية مفضوحة أمام الجميع، المسلم وغير المسلم على السواء. . ليعرفوا الأبعاد الخطيرة التى ترمى إليها التيارات المناهضة للأديان ومنها [الداروينية] القديمة والحديثة التى ثبت ضلالها، وزيفها وبطلانها.

وخير ما أختتم به مقدمة كتابى. . دعاء لله الخالق القادر المتعال:

«اللهم اهدنى الصراط المستقيم، وأرنى الطريق الذى يوصلنى إليك، إنك يا رب نعم المولى، ونعم النصير».

دكتور/ عبدالعليم عبدالرحمن خضر

سنتريس / منوفية

الفصـل الأول

بدء الحياة على الأرض بين نظريات العلم وحقيقة القرآن

- استحالة نشأة الحياة حسب قانون الصدفة
- فجر الحياة على الأرض
- فشل العلم في تفسير كيفية نشأة الحياة
- الماء والحياة بين العلم والقرآن
- كيف يقيس العلماء عمر الصخور
- ما هى الخلية الحية؟
- العلم يهدم نظرية الخلق الذاتى
- مقـدمات الحياة
- قراءة فى السجل الحيوى لصخور القشرة الأرضية
- من مظاهر عظمة الخالق سبحانه وتعالى
- نظرية الانتقال وموقف الاسلام منها

الفصل الاول
بدء الحياة على الأرض بين نظريات العلم
وحقيقـة القـرآن

دعنا نسير مع فرضيات العلم ونتصور الأرض بالحالة التى كانت عليها قبل بدء الحياة، وربما كان ذلك منذ ثلاثة بلايين من السنين. فالجبال والبحار جرداء، وليس من نباتات تفيد من النشادر فى ماء المطر المتساقط من السحب مندفعا الى البحار. والواقع أنه ليس بين جميع الكائنات الحية التى تعيش اليوم كائن يمكن له أن يحيا لو أنه وجد فى ذلك الزمن البعيد. وكانت الأنهار والبحار والاجواء تكاد تتكون من الماء والنشادر وحدهما، إذ لم تكن النباتات الخضراء قد وجدت بعد لتكوين الأكسجين، ولا البكتريا لتكون النتروجين. وكانت الأشعة الشمسية فوق البنفسجية القاتلة تخترق طريقها خلال الجو الى سطح الأرض إذ لم يكن هناك حزام من الاكسجين يحول دون وصولها. ولم تكن مياه البحار والمحيطات مالحة بعد، إذ لم تكن الأنهار قد جرت زمناً كافيا لاذابة الاملاح من الأرض ونقلها الى البحار.

ولكن المحيط أخـذ في التغير. فقد جرت تفاعلات كيمائية بأمر الخالق سبحانه وتعـالى بين الماء والصخور المحتوية على عنصر الكربون، فتكونت مركبات كيماوية جديدة عديدة. وقد زاد من سرعة هذه التفاعلات الاشعة المنبعثة من المواد المعدنية المشعـة والاشعة الشمسية فوق البنفسجية والصواعق حتى أصبح المحيط كالحساء الغنى بالمـركبـات الكربونية. وبمرور الزمن اتحدت هذه المركبات البسيطة وكونت الجـزئيات الكبـيرة المعقـدة التركيب التى تتميز بها المواد الحية. وكان من بين هذه الجـزئيات احماض امينية، وبروتينات، وسكر وأحماض نيوكليكية ومركبات كربونية أخرى وهى التى تتكون منها الآن المادة الحية.

والمحاليل التى على هذه الشاكلة تكوِّن، فى ظروف غامضة، نقيطات دقيقة غاية

في الصغر من المواد الكيماوية المركزة. وقد تكون فى المحيط ملايين لا حصر لها من هذه النقيطات، كادت تكون جميعا غير ثابتة فى تركيبها، وسرعان ما تفككت وأعادت محتوياتها الى المحيط الفسيح. ولكن القليل النادر منها كون، مركبات ثابتة بل كان للبعض منهـا أيضا خاصية امتصاص المزيد من المواد التى تتركب منها من المحيط فازداد حجمهـا. ولابـد هنا أن نعترف بعجزنا عن تفسير النقطة التالية، وهى أن النقيطات الأكبر من غيرها أصبحت غير ثابتة وانشقت الى نصفين.

والحقيقة أن تسابق الفطريات الحديثة حول نشأة الحياة تجعلنا نتوجس خيفة من الاندفاع وراء أى منها وتصديقها، فقد وضعت حديثاً نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم [الجـماد]. . فذهب بعض البـاحثـين الى أن الحياة قد نشـأت من [البروتين] أو من [الفيروس] أو من تجمع بعض الجزيئات «البروتوجينية» الكبيرة.

لكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به: هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين.

ويظل القرآن الكريم هو صاحب الاجابة الشافية عن أصل الحياة من ذلك الربط بين نشأة الكون ونشأة الحياة. .

قال تبارك وتعالى :-

﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون﴾.

[الأنبياء/ ٣٠].

استحالة نشأة الحياة حسب قانون الصدفة

يزعم الملحدون من أصحاب نظرية [الصدفة] ان الحياة وجدت هكذا بالصدفة فى صورة هلامية أو كما يسمونها [بروتوبلازمية]، وهى الجبلة الأولى التى تتضمن جسماً مستديراً هو [النواة] ومن كليهما تكونت [الخلية]. . وأن الحيوانات كثيرة الخلايا قد نشأت فيما بعد من احادية الخلية، بينما كثيرات الخلايا كانت لدى أول أمرها بسيطة التركيب كحيوان المرجان وقناديل البحر وغيرها.

وهؤلاء الملحدون لا يستطيعون ـ وأتحداهم أن يستطيعوا ـ إقامة الدليل العلمى على مجرد [تجمع] الذرات والجزئيات فى بحر البروتوبلازم القديم يمكن أن يؤدى الى ظهور الحياة عن طريق [الصدفة]. .

● لن يستطيع الملحدون الاتيان بالدليل على صدق تخريفهم المسمى [الصدفة]. . لسبب بسيط. . هو أن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية. . وهى تتكون من خمسة عناصر هى الكربون والايدروجين، والنتروجين والأكسجين والكبريت. . ويبلغ عدد الذرات فى الجزىءالواحد ٤٠ ألف ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة [٩٢] عنصراً موزعة بقدر معلوم، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزئيا واحداً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى ان تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا [الجزىء].·. وقد حاول أحد العلماء حساب الفترة الزمنية التى يجب أن تستغرقها عملية خلط العناصر المذكورة هى (١٠)^٢٤٣ سنة. . معنى ذلك أنه قبل وجود الكون وما بعد أيامنا هذه بمليون سنة أمامه ٢٣٩ صفر. . واشترط العلماء توفر مواد كونية تساوى حجم الكون مليون أمامه ٤٣١ صفر مرة. . فهل هذا معقول؟. . كل تلك الأرقام المستحيلة يطلبها قانون الصدفة لتكوين [جزىء] واحدة من جزئيات الخلية الحية. .

ألا يكفى خلق الانسان من بلايين الخلايا [الحية] التى تحركها اشعاعة الحياة «تلك النفخة الالهية العظمى فى المادة» ألا يكفى هذا لكى يؤمن الملحدون بالخالق الواحد الأحد الفرد الصمد؟

يقول العلماء أن الأبحاث الحديثة فى الكيمياء الحيوية Biochemistry وعلم الخلية والفيروسات Viruses قد وضعت تصورات لا بأس بها لتقريب فكرة ظهور الاحياء على كوكبنا الأرضى إلى أذهان الناس. وبالطبع لا يمكن أن يدعى احد أن العلماء قد وصلوا إلى رأى حاسم حول سر ظهور الحياة على الأرض. . وأغلب الظن [حسب اعتقادى الشخصى] ـ انهم لن يصلوا إليه وإلى الأبد. .

لكن الأمر الذى لا مجال فيه لأى شك أن كل القرائن من علوم الاحياء ووظائف الأعضاء ومن علوم الجيولوجيا والحفريات[1] القديمة أن الأرض بعد أن تكونت ظلت لمدة ملايين من السنيين تتركب من كتلة ملتهبة لا تسمح اطلاقا ـ خلال ذلك الوقت الموغل فى القدم ـ بأن تترك أية حفريات (Fossils)[2] فى طبقات الصخور القديمة، لسبب بسيط. . وهو أن تلك الكائنات لم تكن تحتوى على عمود فقرى،[3] أو أى أعضاء صلبة يمكن أن تترك أثرا فى صفحات التاريخ الرسوبى للصخور. ويقول العلماء أنه كانت هناك طرق عديدة مختلفة فى انتاج الطاقة من تلك المواد، وعاشت الخلايا الاولى على انواع كثيرة مختلفة من الغذاء. . بعد عدة تحولات متعددة فالبكتريا التى فى التربة منها ما يتحول الى نيتريت، والبعض الآخر يؤكسد مركبات الحديد، وغيرها تحول كبريتيد الايدروجين (وهى غاز كريه الرائحة له رائحة البيض الفاسد) الى كبريتات، ومنها ما يفسد اللبن أو الكرنب (الملفوف) بتحويل سكر الحليب الى حمض اللاكتيك (وهذا التفاعل أساس صناعة «اليوغورت» أو اللبن الزبادى والكرنب المخمر). وزيادة على ذلك فالبعض منها يفسد النبيذ بتحويل الكحول الى

---

(١) الحفرية «Fossil» هى كل مخلف نباتى أو حيوانى وجد مدفونا دفنا طبيعيا فى الصخور الرسوبية. . وقد تكون الحفرية اجزاء من نباتات أو عظام حيوانات مدفونة فى الرسوبيات القديمة، وقد تكون اجزاء من نباتات كجذوع وفروع متحجرة، وقد تكون طابعا أو صورة للفراغ الداخلى للجسم المدفون بعد أن تفنى مادته مثل القواقع والمحار والاصداف وأوراق الشجر المطبوعة على الفحم النباتى، وقد يبقى الحيوان كما هو بلحمه وعظمه فى طبقات الجليد. . ولكن ذلك امر نادر الوقوع. .

(٢) أنظر فى ذلك: عثمان جمعة ضميرية ـ التصور الاسلامى للكون والحياة والانسان ـ دار الأرقم ـ الكويت ـ ص ٥٩.

(٣) أ. كريسى موريسون ـ العلم يدعو للايمان ـ ترجمة محمود صالح الفلكى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ص

وكذلك: د. فاروق كامل عزالدين ـ دراسات فى جغرافية الانسان ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ص ٨٣.

وكذلك: موريس بوكاى ـ القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ـ [الطبعة العربية] ـ دار المعارف ـ ص ٢١١.

خل، ومنها ما يفسد الزبد بتحويل ما به من دهن الى حمض بوتيريك[1]. وكانت أمثال هذه العمليات اكثر كثيراً مما هى عليه الآن عند بدء الحياة فى المحيط. وقد توقف معظمها بعد أن استهلكت المواد الخام أو ادخلت فى تركيب الخلايا الحية. وتحول المحيط بدوره من «حساء» الى ماء قراح. (٢)

لقد كان المورد الأصلى للغذاء فى طريقه الى الزوال، فمن أين للكائنات الحية أن تأتى بالمزيد؟ الظاهر أنها «تعلمت» أن تنتج المواد العضوية الجديدة من المواد التالفة التى تتخلف فى المحيط عن العمليات الحيوية للخلايا وكيف لا وقد ضمن الخلاق العظيم رزقها. . !! وأبسط أنواع النباتات الخضراء فى أيامنا، وهى الطحالب «الزرقاء - الخضراء» تتكون من خلايا ليس لها نويات واضحة فهى، فى تركيبها، تشبه البكتريا كثيراً، إلا أنها تحصل على الطاقة عن طريق العملية الكيماوية التى تقوم بها جميع النباتات والحيوانات الراقية، أى بأكسدة المواد السكرية. (٣)

غير أن محاولات العلماء للكشف عن أقدم أشكال الحياة فوق الارض لم تنته[4]. . فقد فحص بعضهم صخورا قدروا عمرها بحوالى ٢٠٠٠ مليون سنة ولم يعثروا فيها على أى أثر للمراحل المفقودة من سجل الحفريات على الأرض. . ولكن بعضهم يقول أنه وجد أدلة على وجود أشكال بدائية للحياة بين صفحات رسوبيات يقدر عمرها

---

(١) روبرت ل. ليرمان - الطريق الطويل الى الانسان - ترجمة د. ثابت جرجس قصبجى - بيروت ص ٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٤.

(٤) اسحق ازيموف - السؤال الذى أجاب عنه داروين - ترجمة: اليونسكو العدد ٢٥٢ سنة ١٩٨٢ ص ١٥. وفى مسألة الكشف عن أصل الحياة يقول أزيموف: «ومع أن العلماء قد بدأ يخامرهم الشعور بأن التطور البيولوجى حقيقة واقعة، فإن الأمر لم يكن مقنعا تمام الاقناع نظرا لأن احدا منهم لم يكن يعرف كيف حدث هذا التطور، إذ ما الذى يجعل من الممكن تحول نوع إلى آخر؟ ولم ير أحد قط نوعا من الأنواع وهو يتحول. فالقطط كانت دائما تضع هريراتها والكلاب جراءها والأبقار عجولها، ولم يحدث قط أن ولدت القط جروا أو البقرة هريرة أو وقع أى خطأ من الأخطاء.

وأول من حاول من العلماء أن يقوم بدراسة جادة لكيفية حدوث التطور هو العالم الفرنسى جان باتيست دى لامارك. وقد ظن أن التطور يحدث نتيجة لحياة الكائن الحى. فلو أن ظبيا كان يتغذى بأوراق الأشجار، فإنه سوف يقضى حياته كلها مشرئبا بعنقه ليبلغ الأوراق فى قمم الاشجار. وبذلك يطول عنقه قليلا على مدى سنوات عمره، وترث صغاره العنق الاطول ثم تمد بدورها اعناقها الى علو أكبر وهكذا الى أن تظهر الزرافة بعد وقت متناهى الطول. ويعرف ذلك «بالتطور عن طريق وراثة الصفات المكتسبة».

=

بحوالى ٥٠٠ مليون سنة وهى مرحلة يطلق علماء الجيولوجيا (الحقب الفجرى). [١]

فإذا رجعنا القهقرى الى الماضى البعيد، وجدنا ان كوكبنا هذا الذى نعيش على سطحه كان كرة ملتهبة تدور فى الفضاء يغلفها خليط من الغازات والابخرة الساخنة، أو هكذا تصورها علماء الجيولوجيا وعلماء الفلك وكان ذلك فى البداية السحيقة منذ ٥٠٠٠ مليون من السنين أو ما يزيد.

= غير أن هذه النظرية لم يحالفها التوفيق. [أولا] لأن الصفات المكتسبة لا تورث. فانت تستطيع أن تبتر ذيل الفأر ولكن صغاره ستولد جميعا بذيول لا يقل طولها قط عن الطول المعتاد. [وثانيا]: كيف تأتى للزرافة أن يكون لها جلدها المزركش الذى يختلط على نحو بالغ النفع من الظلال المبرقشة التى تلقها الاشجار على الارض وبذلك تخفيها عن عيون اعدائها؟ هل يمكن أن تكون الزرافة قد حاولت أن تزيد من نقش جلدها؟ كلا بالطبع.

وجاء تشارلز داروين العالم الانجليزى [فنشر] عام ١٨٥٩م كتابا بعنوان [أصل الأنواع] قدم فيه حلا حقيقيا للمشكلة.

وهو يرى أن الكائنات الحية على وجه العموم تنتج صغارا تفوق اعدادها ما يمكن أن تفى بحاجته موارد الغذاء المتوافرة. ولو أن ولد الظباء شبت كلها وكبرت جيلا بعد جيل لسرعان ما يبلغ عددها ما يكفى لتعرية جميع الاشجار والنباتات ولحاقت المجاعة بها جميعا. ولكن ذلك لا يحدث، لأن قلة من ولد الظباء هى التى تعيش لتكبر، واغلبها تأكلها حيوانات أخرى. فهناك منافسة، إن جاز القول، بين صغار الظباء في سبيل البقاء على قيد الحياة وقتا يسمح لها التكاثر.

ثم هناك ظاهرة أخرى جديرة بالنظر. فعند دراسة الحيوانات الصغيرة نجد أنها ليست متماثلة تماما وانه يوجد بينها دائما بعض الفروق فبعضها اقوى قليلا من البعض الآخر أو أسرع عدوا أو له لون ينسجم على نحو أفضل مع الوسط المحيط فيمكنه من الاختفاء وما الى ذلك. وبعبارة أخرى فإن لبعضها، فى مجال المنافسة فى سبيل النمو الآمن مميزات تعمل لصالحه. ومن ثم فهذا البعض هو الذى يرجح له أن يعيش ليكبر وينقل صفاته الى صغاره. وعلى ذلك فإن هذه الصفات كما نرى ليست مكتسبة بل فطرية. وذلك هو ما يعرف بـ «الانحرافات الطبيعية» عند علماء الاحياء.

(١) د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر ـ الانسان فى الكون بين القرآن والعلم عالم المعرفة ـ جدة ـ ص ١٧.

فجر الحياة على الأرض

ما لبث سطح الأرض أن برد رويداً رويداً وتقلصت قشرتها فكونت التضاريس المعـروفة وهطلت أمطار غزيرة كما انبثق من باطن الأرض كميات كبيرة من المياه، ملأت الـوهاد والمنخفضات وكونت البحار والمحيطات الأولى. . إنها إرادة الخلاق العظيم في إعداد الأرض للحياة، وتهيئتها لتكون مستقراً للانسان ومتاعاً الى حين.

ثم مرت من بعد ذلك فترة طويلة جدا من عمر الأرض، كانت وحدة الزمن فيها تقدر بملايين السنين، وذلك من قبل أن تدب الحياة [بالأمر الالهي كن] على سطح الأرض ممثلة فى صورة كائنات أولية بسيطة التركيب عاشت ردحاً من الزمن لا يعلمه إلا الله، في مياه البحار الأولى.

ومما لا ريب فيه أن الكثير من هذه الكائنات الهلامية الاولى التى عمرت البحار القديمة قد اندثرت كلية من سجل الحفريات، ولم تترك أثرا يستدل به عليها، وكان ذلك أبان الحقبين الاركى، والاول القديم، اللذين استغرقا نحوا من ١٥٠٠ مليون سنة من حساب الزمن فى عمر الأرض[١]. . وقد استطاع «وليم سمث W. Smith» أن يجمع بعض أنواع الحفريات وأن يرتبها بحيث يكون المحتوى منها على أنواع بسيطة من الاحياء منها ضمن الطبقات الرسوبية السفلى. . بينما الطبقات التى فوقها تحتوى على أنـواع أبعد من البساطة وأقرب الى التعقيد، وهكذا حتى نصل الى الطبقات السـطحية. ومعنى ذلـك أن الـطبقـات التى وجدت فيها الأنواع المعقدة[٢]، قد أصبحت على السطح فى متناول البحث العلمى.

ولم يبدأ السجل الحفرى المعروف للكائنات التى تعاقبت على وجه الأرض بعد ذلك الا منذ نحو ٥٠٠ مليون سنة فقط من عمر الأرض الطويل. . وهذا هو التاريخ الذى اتخذه العلماء أساسا لبدء حقب الحياة القديمة ذلك الحقب الذى استغرق بدوره نحوا من ٣٠٠ مليون من السنين تطورت الحياة خلاله من كائنات أولية بسيطة الى أخرى معقدة التركيب، وتميزت فيه المملكة الحيوانية عن المملكة النباتية.[٣].

---

(١) د. انور عبد العليم ـ قصة الانسان القديم وحضاراته ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ سنة ١٩٦٥ص ٦: ٧.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ١٧.

(٣) د. انور عبد العليم ـ المرجع السابق ص ٨.

أمـا النبـاتـات فقد اكتسبتْ القدرة على انتاج السكر، واستعملت ثانى اكسيد الكربون، وهو المادة التالفة الرئيسية التى تخرجها عمليات الحياة، كمادة خام. ولكن كيف توصلت الخلايا الى ذلك؟ والرد أن السر كامن فى اللون الأخضر للنباتات، فالمـادة الخضراء فى خلايا النبـات وتعـرف بالكلوروفيل، تقـوم فى حالة توفر ضوء الشمس، بتركيب السكر من الماء وثاني اوكسيد الكربون. وقد ورثت الخلايا الخبرة فى تحضير واستعمال الكلوروفيل من الطحالب الزرقاء ـ الخضراء الاولى[1]، إنها فطرة الله التى فطر الخلق عليها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وبقيام الـطحـالب الـزرقـاء ـ الخضراء يصنع الطعام، استمرأت بعض لخلايا الأخرى هذا المرعى فاخذت فى الاستفادة من هذا المورد بالتهام وهضم الطحالب الزرقاء ـ الخضراء بما تحتويه. وكان ذلك فى مبدأ الامر مجرد غذاء اضافى. وهناك نوع يسمَى «كريسامبيا» (Chrysameba) استمر يزاول هذه الطريقة فى التغذية الى يومنا هذا، وهو كائن نباتي ـ حيوانى وحيد الخلية وله نواة كاملة التكون وسوطان طويلان (فلاجلا) يعوم بهما فى الماء. ويحتوى كريسامبيا على مادة الكلوروفيل مما يجعله قادرا على تكـوين غذائـه بنفسـه، ولكنه قادر فى الوقت ذاته على ابتلاع وهضم الخلايا الاخرى الدقيقة. والكثير من أقربائه تعتبر حيوانات لاشك فى أمرها إذ أنها فقدت الكلوروفيل واصبحت تعتمد كل الاعتماد على ما تتناوله من غذاء. ولعل الحيوانات الاولى كانت من انواع السوطيات البسيطة عديمة الاخضرار التى على هذه الشاكلة، وقد نشأت عن سلف أخضر اللون[2]. . ولكن هذا التفسير رغم اهميته العظمى فانه لم يؤكد لنا مثلا عما اذا كانت اول الاشياء الحية التى ظهرت على الارض قد اخذت شكل خلايا ام صورة أشياء ابسط من الخلايا كأن تكون جزئيات حية (Living molecules) مثلا. . كما ان دراسة الحفريات لم تجب عن السؤال التقليدي : كيف بدأت الحياة. .

---

(١) روبرت ل. ليرمان ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٢٤٨.

■ ـ فشل العلم في تفسير كيفية نشأة الحياة

● ـ لم يبق بعد هذا ـ والحالة هذه ـ إلا أن نصغى لصوت القرآن الكريم وهو يشرح لنا مقدار عظمة الله تعالى وإرادته فى خلق الحياة على هذه الارض بالارادة الالهية المباشرة: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون».

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب نشأة [ذاتية]، ثم شاءت إرادته أيضاً أن يجعل لاعادة النشأة الانسانية طريقاً معيناً، طريق التقاء ذكر وأنثى، واجتماع بويضة وخلية تذكير فى الانسان، وكذلك فى كل المخلوقات الأخرى.. ومنذ البدء، أخرج الله الحى من الميت.. «يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى» ولا يقدر إلا الله سبحانه وتعالى أن يصنع ذلك..(١).

.. لا يقدر إلا الله أن ينشىء الحياة منذ البدء من الموات..

.. ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحى بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية..

.. ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة، فى دورة لم يعلم أحد يقيناً بعد متى بدأت ولا كيف تتم؟..

■ ـ ونحن لن نستطيع استعراض النظريات التى حاولت الاجابة عن هذا السؤال الا اذا تذكرنا قوله سبحانه وتعالى.. «قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق».. (العنكبوت: ٢٠) فالسير فى الارض وعلى ضفاف الانهار وشواطىء البحيرات القديمة، والقيام بدراسات ميدانية هى السبيل الى اكتشاف أصل الحياة(٢).

● ـ والنظر فى قوله تعالى: **«وجعلنا من الماء كل شىء حى»**.. (الانبياء: ٣٠).. يعطينا بداية الخيط لتتبع بآراء العلماء فى هذا الشأن.. فالآية ـ كما يقول أصحاب الفضيلة المفسرون ـ يمكن ان تعنى ان صورة للحياة لابد وان يكون مصدرها الماء كمادة جوهرية.. ولعل ذلك يتفق مع قول العلماء بأن اصل الحياة مائى وأن الماء هو العنصر الاول لكل خلية حيه، فلا حياة ممكنة بلا ماء..

---

(١) عثمان جة ضميرية ـ المرجع السابق ـ ص ٦٠. (٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ١٨.

الماء والحياة بين العلم والقرآن

يقول سبحانه وتعالى :

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون» (الأنبياء/ ٣٠)

وحول تلك الآية الكريمة يقول «موريس بوكاى» . .

ليس هناك شك في مفهوم المصدر. فالعبارة يمكن أن تعني أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهرية، أو أن أصل كل شيء حي هو الماء، ويتفق هذان المعنيان تماماً مع البحث العلمي : فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية، فلا حياة ممكنة بلا ماء .

وتسمح المعطيات الحديثه بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمى إلى عالم النبات، فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ماقبل العصر الكمبرى « Precambrien» أى في اقدم الأراضى المعروفة، ولابد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل . . وقد أتت ـ كما يقول موريس بوكاى ـ من المحيطات .

وتشير كلمة ماء، إلى ماء السماء، كما تعنى ماء المحيطات، أو أى سائل آخر، وبالمعنى الأول، فالماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية .

ـ قال تعالى : **«وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى»** (طه/ ٥٣) .

وتلك هى أول عبارة عن [الزوجية] فى النباتات . . أما كلمة [ماء] بمعناها الثانى أى ذلك الذى يعنى «سائل» دون تحديد مستخدمة فى شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أى حيوان . .

ـ وقال سبحانه وتعالى :ـ

«والله خلق كل دابة من ماء» . [النور/٤٥] .

■ ـ وقد اختلف العلماء فى طريقة وجود الماء فى الارض .

● ـ قالوا . . نشأت الارض أول مرة . . ومن حولها غلاف جوى من غازات وأبخرة . . ومع الزمن، بردت الارض فتكثف بخار الماء ـ أحد مكونات الغلاف الجوى الأول وتساقطت الأمطار الأولى فوق الأرض . .

● ـ وقالوا . . عند درجات الحرارة والضغوط العالية . فان الماء المصهور الصخرى والمعدنى يمكن ان يمتزج كلية وبأية نسبة . ولكن عندما يبرد المصهور ويتجمد . فان المـاء يندفع الى الخارج ويتبخر، ويضاف الى غلاف الكرة الارضية الهوائى . وبينما القشرة الارضية تبرد وتعطى ما بها من بخار ماء الى الجو المحيط، فان كميات كثيفة من السحب تتكـون، وتبدأ الأمطار الأولى تنهمر، فإذا السيول تجرى فى اخاديد الارض . ولكن ماء الامطار الاولى المتساقطة، لم يمكث طويلا، لان درجة حرارة القشرة الارضية كانت ما تزال اعـلى من درجـة غليان الماء . ولهذا استمرت عملية التبخير الى الهواء عشرات بل مئات السنين . . تتساقط الامطار على سطح ساخن فلا تلبث ان تتبخر، لتتكثف فتتساقط من جديد، حتى اصبحت درجة حرارة الصخور السطحية، أقل بكثير من درجة غليان الماء . وعلى هذا الاساس بدأت المياه تتجمع فى برك، وتنـدفـع فى بحار على هيئة شلالات وسيول الى التجاويف والمنخفضات العظمى فى الارض، مكونة البحار والمحيطات تحت تأثير عمليات التعرية المختلفة على سطح الكرة الارضية .

وجدير بالذكر، ان تلك البحار الاولى ليست هى بحار ومحيطات اليوم بذواتها . ذلـك لان توزيع الماء على سطح الكرة فيها تتبع العلماء، قد تغير كثيرا، علة ذلك التغيير، هى ما تسمى بالتحـركـات الارضية وزحـزحة القارات والكتل السطحية للارض، حتى اضحى اليوم حوالى ٧٠ر٨٪ من سطح الكرة الارضية مغطى بالبحار والمـحيطات بمتــوسط عمق من اثنــين الى ثلاثــة اميال، ومســاحــة كلية تبلغ ١٤٣ر٣٩٠ر٠٠٠ ميل مربع .

ولقد تبقى القاع العميقة للمحيطات فى الغالب الاعم بطبوغرافية تشبه ما كانت عليه فى النشأة الأولى .

وقد تطرأ عليها تغييرات تماثل ما طرأ على اليابسة من تشققات وخسوف لاخاديد وانبثاق لجبال .

وكل ذلك بالطبيعة فوق ما يسمى بالقشرة الارضية .

وهى تحت المحيطات لا تعدو عدة أميال .

وهى فوق القارات تقارب العشرين ميلا .

■ . كيف يقيس العلماء عمر الصخور؟

● . استخدام ظاهرة الاشعاع:

اكتشف العلماء سنة ١٨٩٦ ان عنصر اليورانيوم ومركباته المختلفة تقوم تلقائياً بارسال أشعة غير مرئية شبيهة فى مفولها بأشعة اكس . واستخدام العلماء تلك الحقيقة فى حساب عمر الصخور. إذ أن قياس عمرها بواسطة حساب معدلات الاشعاع أمكن التوصل اليه بمعرفة الزمن الذى يمضى منذ تبلور العنصر المشع إلى وقتنا الحاضر عن طريق حساب كمية العنصر الوليد ومعرفة معدل تحلل العنصر المشع الى وليده غير المشع . وبعضهم يستخدم طريقة تحول اليورانيوم الى رصاص فى المعادن الغنية بعنصر اليورانيوم فى ذلك. وقد وجد العلماء أن انسب الصخور لقياس العمر المطلق هى الصخور النارية والتحولة والتى تحتوى على معادن متبلورة بأحجام معقولة .

ومن ذلك توصل العلماء إلى أن اقدم الصخور الظاهرة من القشرة الأرضية تبلغ من العمر ٣٦٠٠ مليون سنة ، وأنها صخور جرانيتية جينيسية .

● . حساب معدل زيادة ملوحة البحار والمحيطات:

وتتلخص تلك الطريقة فى معرفة العمر الظاهري للمحيطات والبحار ومن ثم عمر أقدم الصخور على الأرض ، وقد بنى « E. Hally» تلك الطريقة على أساس أن مياه البحار والمحيطات كانت فى الأصل مياها عذبة ، ملوحتها الحالية متجمعة أصلاً من صخور القشرة الأرضية بواسطة المجارى المائية التى تقطعها فتذيب كل ما يمكن اذابته من الأملاح المكونة للصخور، ثم تحمله الى البحار والمحيطات فتركز نسبة الملوحة فى مياه البحار عاماً بعد عام . وقد تمكن العالم البريطاني « Joly» من التوصل الى عمر البحار والمحيطات عن طريق قسمة = مجموع كميات الأملاح فى البحار والمحيطات الحالية ÷ معدل الزيادة السنوية فى ملوحة البحار والمحيطات الحالية

= ١٥ × ١٠^١٥ طن ÷ ٦ × ١٠^٧ طن = العمر الظاهرى للمحيطات والبحار = ٢٥٠ مليون سنة .

●- استخدام معدل تجمع الصخور الرسوبية وسمكها فى معرفة عمر الصخور:

توصل العلماء الى طريقة أخرى لقياس العمر الزمنى للصخور عن طريق قياس أقصى سمك للطبقات الرسوبية الموجودة على سطح الأرض، ثم معرفة العمر النسبى لكل فترة جيولوجية عن طريق قياس متوسط معدل تجمع هذه الطبقات الرسوبية، وبقسمة الرقم الأول [سمك الصخور] ÷ الرقم الثانى [معدل التجمع السنوى لها] = الزمن اللازم لتجمع طبقات كل فترة جيولوجية من فترات التاريخ الجيولوجي للأرض. ثم بقسمة [مجموع سمك الطبقات الرسوبية على سطح الأرض ÷ معدل المتوسط السنوى لتجميع الصخور الرسوبية] = عمر الصخور الرسوبية.

●- استخدام معدل تبرد الأرض فى قياس عمر الصخور:

وفى هذه الطريقة يتم حساب عمر الصخور من معرفة الزمن الذى انقضى على تجمد القشرة الأرضية بواسطة رسم منحنيات حرارية مبنية على أساس أن هناك تياراً حراريا مندفعاً خلال القشرة الأرضية يمكن قياسه بواسطة حساب معدل الارتفاع فى درجة حرارة الاعماق كلما توغلنا فى باطن الأرض.

●- ويستدل الجيولوجيون أيضا على عمر الصخور بعدة طرق، من بينها الحفريات. وعن طريق الكائنات المائية، يمكن للانسان معرفة ما اذا كان اى جزء من الارض غمرته المياه فى وقت من الاوقات، وكذلك تحديد الزمن الذى كانت المياه تغمر فيه.. وهكذا. عرفنا ان البحر الابيض المتوسط قد غمر بمياهه جزءا كبيرا من أرض مصر حتى بلغ قريبا من أسوان فيما بين الواحات غربا والقصير شرقا.

هل، أجبنا عن سؤال.. الماء، من أين؟..

لا.. فذاك تتبع واستقراء لحوادث الارض، ولكن النشأة الاولى، يعلمها من أنشأها. ولا يعلمها سواه.. فتلك ارادة الخلق عند الخالق.. اراد فكان، ولا راد لإرادته سبحانه وتعالى له الحمد وله الملك وهو على كل شىء قدير.

قال تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾.

● ـ وكما تغير شكل البحار والمحيطات كما ذكرنا من قبل حدث كذلك تغير فى التركيب كما يقول علماء البحار والمحيطات . .

. . فالاصل . . هو الماء العذب ، تساقطت به الامطار الاولى . . وقد تساقطت الامطار وتكونت المجارى المائية ، فقد أخذت تغسل الارض من املاحها ومعادنها المختلفة ، فتذيب وتحمل معها ما تصبه اخيرا فى البحار والمحيطات .

● ـ واذا نوقشت امكانية الحياة على كوكب ما . . فان اول سؤال يطرح هو: أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية للحياة من الماء؟ . . وجاء فى تفسير [المراغى] . . «ان الماء أصل جميع الأحياء ، وهو الذى ينزل اليه امر التدبير والتكوين»[1] . . وقد اخرج الإمام [احمد] عن [ابى هريرة] قال: عن كل شىء ، قال: (كل شىء خلق من ماء)[2] . . وتسمح المحيطات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية من طحالب أو حيوانات وحيدة الخلية ترجع إلى ما قبل الكمبرى وانها نشأت فى المحيطات القديمة ، بقدرته سبحانه وتعالى .

ويرجح العلماء أن تكون الحياة الأولى قد حدثت فى الماء الذى احتوى على كمية هائلة من المادة فى السائل والذى بدونه ما استطاعت أن تشكل التكوين الكيميائى المعقد ، والخالق وحده هو الذى يعرف سر ذلك .

■ ـ ويرى بعض العلماء أن نشأة الحياة الأولى فى الماء..

. . لا يمكن ان تكون قد جرت فى المحيطات المفتوحة ، وبدلا من ذلك ربما تكون قد حدثت فى بيئات هادئة مثل البحيرات على طول الشوطىء للبحار القديمة جدا . وكم من الوقت مضى للتطور الكيميائى لكى ينتج اول شىء بدائى حى فذلك غير معروف ، ومن المحتمل انه لن يعرف ابدا . وقبل ٦٠٠ مليون سنة او نحو ذلك ، كشف سجل الصخور عن شواهد متفرقة من الحياة ولكن الاكتشافات الجديدة قد

---

(١) تفسير المراغى ج ١٢ ص ٦ .

(٢) الحديث اخرجه الامام احمد واسناده على شرط الصحيحين ، واخرج ابن ابى حاتم بعضه .

ـ انظر فى ذلك مختصر نفسير ابن كثير ـ تحقيق الشيخ محمد على الصابونى ، الجزء الثانى ص ٥٠٦ .

اثبتت وجود خلايا حية حقيقة ترجع الى نحو ٣٠٠٠ مليون سنة(١).

ونحن نعمد الى تقسيم جميع الاشياء الحية الى حيوانات او نباتات . . وأول خلايا حية لابد انها كانت فى النباتات ففى حين ان النباتات تستطيع ان توجد بغير حيوانات لكن الحيونات لا تستطيع ان تبقى بدون نباتات، والنبتات وحدها قادرة على صناعة الجزئيات العضوية لتى تتكون بها المادة الحية . والحيوانات قد تحصل على بعض المواد مثل الاكسجين والاملاح البسيطة اللازمة لمعيشتها من الهواء والماء ولكن امداد الغذاء الاساسى للحيوان يأتى من عالم النبات، سواء مباشرة عن طريق أكل النبات او أكل حيوانات اخرى تعيش بالتالى على النباتات. والنباتات بالاكثر عبارة عن مصانع تستطيع ان تأخذ موادا كيميائية بسيطة من ثانى اكسيد الكربون والماء والنتروجين وتضمها فى مركبات عضوية (حيث يكون فيها الكربون من العناصر الرئيسية) لتكون بروتوبلازما حية. وما ان تتكون هذه المركبات عن طريق النباتات حتى يمكن ان تستخدمها الحيوانات التى ربما تحطمها وتعدلها فى هيئات كيميائية جديدة. ولكن الحيوانات ذاتها لا تستطيع ان تصنعها.

ولضم المواد فى مركبات معقدة فان ذلك يحتاج الى طاقة، وبالرغم انه فى البدء كان هناك احتمال بعض اختلاف فى الوسائل، فان معظم النباتات وجدت مصدر طاقتها فى أشعة الشمس. وكان أول «اختراع» للنباتات عبارة عن مركب [الكلوروفيل] الذى يعطى اللون الاخضر لكل ورقة نبات حية وعود عشب على سطح الارض، ومعظم أعشاب البحر والنباتات البدائية للبحر فالطاقة المشعة من الشمس بأسرها [الكلوروفيل] وتستخدمها النباتات فى نشاطاتها الصانعة(٢)، فسبحان الله الذى أتقن كل شيء صنعه وهو الخلاق العظيم . .

ومن المعروف أن أجنة معظم الحيوانات الراقية تمر بدور يشبه الكرة الجوفاء فى الفترة الأولى من نموها الجنينى، ولذلك فمن المعقول ان نستنتج قياسا على ذلك ان بعض المخلوقات المشابهة لهذا الدور فى التاريخ المترامى البعد أسلافا تمثل خطوة الانتقال من الطور ذى الخلية الواحدة الى الطور عديد الخلايا.

---

(١) الفرد شيروود رومر ـ اصل وتطور الحياة فى البحر ص ٣٩٥، وكذلك: د. محمد فتحى عوض الله ـ الماء ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ص ٦٥.

(٢) انظر: خلق لا تطور ـ تعريب: د. احسان حقى ـ دار النفائس ـ ص ٣٥.

وقد تحولت مستعمرة الخلايا الى الحيوان عديد الخلايا يتحول خلاياها الى عدة انواع. ومن الحيوانات عديدة الخلايا البسيطة للغاية نوع يبلغ طوله نحو بوصة يعيش فى الماء العذب ويسمى [الهيدرا Hydra] و(جسمه مركب من أنبوبة بسيطة يوجد فى طرفها العلوى عدد من الاذرع تحيط بفتحة تعمل فماً وإستا فى الوقت ذاته. ويؤدى هذا [الفم - الإست] الى تجويف فى وسط الجسم يبطنه نسيج داخلى يسمى «الانـدودرم» وظيفته الرئيسية هضم الطعام. والطبقة الخارجية من الخلايا تكون نسيجا مختلفا تمام الاختلاف يسمى «الاكتودرم»[1]، فتبارك الله الذى أحسن صنع كل شىء خلقه.

■ - وتقول [نظرية التطور]: بأن الحياة الأولى ظهرت على سطح الارض من الجماد بوسائلها الخاصة!!!. ولكن كل المواد الارضية مركبة من عناصر كيمياوية، والعنصر مكون من ذرات ذات عدد ذرى موحد لا يمكن تفكيكه بالتحليل الكيماوى العادى فاذا كان الجماد قادرا على ان يتطور من تلقاء نفسه كما تخرف نظرية التطور فهل شوهدت هذه القدرة فى العناصر الأرضية؟ الجواب هو بالنفى، وسبب ذلك [علمى بحت]. . وهو أن اكثر الذرات مستقرة وبعضها يتحول بالتفكك الى عناصر مستقرة أكثر بساطة أى أنه ينحط ويرجع الى الوراء لا يتطور ويتقدم، وهذا الامر يتم تبعا للمبدأ العلمى المعروف باسم (ضابطة التغيير)[2] وهذا يعنى ان كل كيان منظم يكمن فيه ميل الى التراجع إلى كيان أقل تنظيما، ولا يمكن الحصول على نظام جديد من غير تدخل قوة خارجة.

● - تلك القوة الخارجة. . هى قوة [الله سبحانه وتعالى]. . الخالق. . البارىء. . المصور. . القادر. . العزيز. . الرحمن ذو القوة المتين.

● - **وهذا الرأى الذى يستند الى اساس سليم - لأنه من القرآن الكريم - يهدم نظرية [النشؤ الذاتى او التلقائى** Spontaneous Generation] والتى تقول بأن الحياة تنشأ تلقائيا من مواد غير حية، ومن مؤيديها القدامى [أرسطو Aristotle]، وشارك فى هدمها بعد ذلك كل من الطبيب الايطالى «ردى» Redi فى القرن السابع عشر

(١) المرجع نفسه - ص ٣٦.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٧.

والقسيس الايطالى [سبالانزانى Spalanzani] فى القرن الثامن عشر حيث أثبتا خطأ نظرية النشؤ التلقائى من مواد غير حية(١) . . ولكن بعد اكتشاف البكتريا Bacteria ظل بعض العلماء يؤمنون بامكانية نشؤ الكائنات الدقيقة جدا تلقائيا من اى وسط عضوى «Organic Medium» حتى تمكن العالم البكتريولوجي الفرنسي الشهير «باستير» Pasteur من إثبات خطأ هذا الرأى كلية . . وبالتجربة(٢) . . ويمكننا محاولة تقديم عرض مختصر لقصة الحيوانات فى البحر. وفى ذلك يقول العلماء : لقد بدأت المملكة الحيوانية بهيئات ذات خلية وحيدة هى البرزويات (الحيوانات الوحيدة الخلية) والموجودة بوفرة اليوم . ولكن قبل ان نعثر على أقدم حفرية للحيوان بزمن طويل فى العصر [البلوزويك] هناك حدث التقدم نحو اعضاء حية ذات خلايا متعددة اكبر، وأول خطوة غير صحيحه فى هذا الاتجاه نتجت فى عقدة كتل من الخلايا معا في الهيئات التى تسمى الاسفنج مع اعضاء غير صحيحه من تكوينها، وبدا هذا على أنه خط جانبى اعمى لم يؤد الى شىء اعلى . وفى نحو نفس الوقت فان تطور نوع منظم تنظيما جيدا من الحيوانات ذات الخلايا المتعددة بدأ يظهر على هيئة مخلوق له طبقتان صغيرتان . ويحتمل ان هذا الحيوان (اذا كان ذلك مؤكداً) عاش ملتصقا بالاسطح مع اختلاف أنسجته بحيث اختصت الطبقة الخارجية لحمايته، فيما يسمى «بالعلاقات الخارجية» . فى حين ان الطبقة الداخلية عملت على هضم المواد الغذائية التى جاءت بها فتحات الفم عند نهاية واحدة(٣) . ولا يوجد مثل هذا الحيوان اليوم، وبالرغم من ان بعض الحيوانات البحرية الدنيئة سميت حيوانات بحرية لافقارية إلا انها ذات تجويف بطنى يقوم مقام القناة الهضمية (الهيدريات والمرجان وغير ذلك) وهى متشابهة فى كثير من الخواص . وحيوان من هذا النوع ذو اعضاء ذات خلايا متكاثرة واختلاف فى الانسجة يعرف باسم المنزويات، وجميع الحيوانات غير ذات الخلية الواحدة بروتوزويات والاسفنج الشاذ يضعه علماء الحيوان كأعضاء فى المملكة العظيمة : الميتازويات ـ الحيوانات ذات الخلايا الكثيرة ـ وهذه الحيوانات البدائية قد تطورت

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٣٨ .

(٢) د. علم الدين كمال ـ تطور الكائنات الحياة ـ عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد الرابع ص ٩٥٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٩٥٤ ـ وكذلك

- Lynn W.11967: The historical Roots, P.1203

وانخرطت فى مجموعة او نحو ذلك من تقسيمات الى اجزاء اصغر تسمى «سلالية» والتى حصل معظمها على تكوينات مميزة عندما ظهرت لاول مرة فى سجل الحفريات للحياة البحرية(١).

ان مظاهر قليلة هامة تميز تاريخ واسلوب حياة هذه الهيئات البحرية المتنوعة. فحيوان البحر كان له طريقتان ليعيش بهما - وربما كان يبحث عن غذائه بنشاط او ربما كان يظل ساكنا ينتظر وصول المواد الغذائية اليه، وربما اضطر اما ان يذهب ليبحث عن طعامه او ظل «جالسا» وكان هناك بالتأكيد مناهج متوسطة للعمل، ولكن للجزء الاكبر تصنف الحيوانات فى صنف واحد أو أخر.

ومن المحتمل ان بقاء الحيوان بدون حركة منتظرا ذرات الطعام لتأتى اليه فى تيارات الماء التى تتدفق امامه كان اسلوب الحياة لاقدم عصور الحيوانات العضوية البدائية.

وهكذا فان الواقع لا يكشف عن اى تطور تدريجى للعناصر الارضية، نحو مواد أكثر تعقيدا او نحو مركبات عضوية. هذا بالاضافة الى أنه لو كان التطور امرا واقعا لكان من الواجب على العناصر غير الحية ان تتطور وتتحول لا الى عناصر اخرى فقط او الى اجسام عضوية مركبة بل الى اشياء اكثر تعقيدا كالخلية الحية(٢). وهذا مالم يحدث بالطبع.

■ - ما هى الخلية الحية؟

ان الهوة التى تفصل بين الخلية الحية وبين العناصر غير الحية هوة عميقة، حتى ان احسن المختبرات تجهيزا غير قادرة على إعداد خلية بسيطة من الجماد، وحينما تكون قادرة على ذلك فان التجارب لا تفيد الا بان تثبت بانه لابد للعناصر من ان تخضع لفعل قوة مدبرة لكى تنتج مادة حية.

ومن الخطأ الظن بان الخلية شىء بسيط وانه بالمستطاع ان تنبثق عن المادة غير الحية بسهولة ومن غير يد القدرة. إذ أن كل شىء يرجع الى قدرة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٥٥.

(٢) د. احسان حقى - المرجع السابق ص ٣٩.

ـ وقد كتبت مجلة «لـوك» فى عددها الصادر فى ١٦ (كانون الثانى) يناير ١٩٦٢ تقول: «ان الخلية لا تقل تعقيداً عن مدينة نيويورك». هذا، واننا بقدرما نفحص الخلية الحية بدقة بقدر ما نجدها معقدة. وقد كتب العالم التطورى «لورن ايزله» فى كتابـه: (السفرة الواسعة) بهذا الصدد يقول: «قال العالم بالاحياء الالمانى ـ فون برتالانفى ـ ان الالمام بتفصيل النظام الفيزيائى الكيماوى لابسط خلية يفوق طاقتنا» «وقال العالم بعلم الحيوان الاستاذ فى جامعة كمبردج» سرجيس غرى»[1] القول ذاته فى مجلة (العلم اليوم)[2] اذا يقول: «ان الجرثومة هى اشد تعقيدا من اى نظام جمادى يعرفه الانسان، ولا يوجد مختبر فى العالم يمكن ان يوازى فى نشاطه الحيوى الكيماوى اصغر جهاز حى».

■ ـ ولا شك ان جميع الكائنات الحية تتكون من مادة كانت موجودة قبلا كالتراب والماء.. ولكنها لا تتمثل (حية) الا اذا نفخ فيها الله سبحانه وتعالى من روحه ـ وهذا ما سنشرحه بمشيئة الله فى (المبحث التالى) من هذا الكتاب عند الحديث عن التطور البيولوجي للكائنات الحية فى القرآن ـ فأجسام الناس والنباتات والحيوانات فى حد ذاتهـا ليس لها حول ولا قوة.. اذ انها جميعـا تتحلل الى العناصر التى بدأت بها: التراب، الماء، الهواء.. اذ الفرق بين انسان ميت وانسان حى ان ذلك الانسان بموته لم يفقد فى الواقع شيئا من مكونات جسمه، ولكنه فقد شيئا كان به قبل ذلك.. انه الروح الخفية او جوهر الحياة، التى لا يعرف سرها إلا خالقها سبحانه وتعالى.

وقد ظهرت نظريات كثيرة عن (جوهر الحياة).. منها ما قال به تاليس « Thalis» الاغريق القديم من أن الكائنات الحية تتولد من تأثير اشعة الشمس والهواء والحرارة على زبد البحر، وبالطبع لم يعط اى تفسير على الاطلاق لكيفية حدوث الحياة من هذه العناصر. وماتت النظرية[3]..

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٠.

(٢) روبرت ل. ليرمان ـ المرجع السابق ص ٢٤٣.

(٣) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٤١.

■ ـ العلم يهدم نظرية الخَلْق الذاتى

سادت نظرية الخلق الـذاتى فى أوربا ردحاً من الزمن حتى جاء العالم الايطالى [فرنسيسكو ريدى] سنة ١٨٦٨ ، وهدم ما كان سائداً من أن المواد غير الحية يمكنها ان تنتج انواعاً من المخلوقات الحية!!!! . .

وفى سنة ١٦٧٥ اكتشف [فان ليفنهوك] عن طريق اختراع عدسات قوية وجود مخلوقات حية صغيرة جداً مستقلة بذاتها ولا تنتج انوعاً أخرى .

وفى سنـة ١٧٦٧ قام العالم الايطالى [لزارو سبلترانى] بأول هجوم حقيقى على نظرية الخلق الذاتى . وفى سنة ١٨٣٦ خطا العالم الألمانى [تيودور شوان] خطوة موفقة إذ أثبت انهدام تخريف الملحدين الذين زعموا بتولد الحياة فى السوائل ذاتياً، بأن قضى على ما فى [السائل] من أى أثر للحياة بالتسخين حتى الغليان . . ووجد أن أى نوع من الكائنات لم يتولد مرة أخرى من تلقاء نفسه فى هذا السائل .

وفى سنـة ١٨٦٠م نجح العالم الفرنسى [باستير] فى اقتلاع آخر جذور الادعاء بالخلق الـذاتى من عقول الناس بتجاربه المشهورة التى اثبتت على وجه اليقين أن الحياة من عند [الله]، ولم يكن سببها الهواء ولا الروح المزعومة فيه، وانها نتجت من [سر الحياة] الذى وضعه الله فى الكائنات .

وقال أوجستين « Augustine » أن المادة نفسها التى تدخل فى عملية التولد الذاتى تحتوى على بذور غير مرئية للحياة . . من أين؟ . . لم يستطع الاجابة . .

كما قال ديكارت Descartes ونيوتن بالتولد الذاتى للحياة دون تدخل اى نوع من جوهر الحياة يأتى من وراء الطبيعة . . كيف؟ . . هكذا بدون تعليل . .

* يقـول العـالم التطورى «لورن ايزله» فى كتابه «الطفرة الواسعة» : «ولقد ادت الجهود الكثيرة التى بذلت الى التأكيد على ان المتحول (اميب) هو ايضا مصنع كيماوى معقد يعمل بوسائله الخاصة، وان ما كان يقال من أنه قطرة بسيطة من البروتربلازما (الأجسام الحية) اصبح أمرا معروفاً، وانه متى عرف تركيبه اصبح بالامكان خلق كائنات حية مثله، قد ثبت الآن انه قول هراء ليس له ادنى نصيب من الصحة، [إذ

---

(١) د. حسين فرج زين الدين، وآخرون ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧٦.

لا يملك الخلق إلا الخلاق العظيم سبحانه وتعالى .]

وكان فشل الجهود الكثيرة التى بذلت فى هذا المجال من العلماء، جعلتهم فى وضع مضطرب وجعلتهم يلحون فى تقديم النظريات بشأن [أصل الحياة] من غير ان يقدروا على اثبات نظرياتهم . . وبعد ان اتهم العلماء رجال الدين بانهم يعتمدون فى اقوالهم على الاساطير والخوارق عادوا مضطرين واخترعوا لانفسهم اساطير جديدة هى ان «ما لا يستطيع العلم ان يوجده اليوم قد استطاع ايجاده عند خلق العالم» .

● ـ ان هذه الاقوال المناهضة للواقع تثبت ان العناصر الارضية غير الحية لا تنقلب الى كائنات حية فجأة وقد اعترف بذلك «لورن ايزله» بهذه العبارات :

«من الجدير بالملاحظة ان اول كتاب فى علم طبقات الارض بعد ان اغرق المبتدئين البسطاء فى بعض المستنقعات الصغيرة او فى حفر خيالية من المحيط، حملهم بقفزة واحدة، باطمئنان وسرعة، الى اول مراحل الحياة بحيث جعلهم يرون السر الغامض، اذا كان هناك من سر، وكأنه شىء بسيط، وقد انتقد هذا الوضع العالم بالاحياء الانكليزى «ودغر» الذى نبه منذ بضع سنوات الى هذا الواقع بقوله : «ان المركبات العضوية غير مستقرة فى الطبيعة وان جسيم الكلوروفيل لا يستمر فى البقاء ولا يأتى الى الحياة من عند نفسه، فالاصرار على ان الظروف فى الماضى كانت تسمح بحدوث هذه الظاهرة، على الرغم من ان معلوماتنا بالطبيعة لا تؤيد هذا الافتراض، انما هو عقيدة اعتقدوها، ولا يريدون ان يتحولوا عنها، لكى يؤكدوا على ان ما اعتقدوه قد وقع حقا»(١) .

وكتب العالم التطورى «رويتر فورد بلات» فى كتابه (نهر الحياة) بشأن الخلية الحية يقول : «ان وحيدة الخلية الاولى هى من الكمال فى حالة لم تحتج معها الى التطور قط، ولم يطرأ على حجمها وطبيعتها اى تبديل منذ ان ظهرت فى عالم الحياة على الارض والى يومنا هذا» .

فذا كانت الخلية حصيلة التطور فلماذا لم تستمر فى تطورها؟ او هل كانت هذه الآلة المعقدة كاملة، بطريق المصادفة، منذ يومها الاول؟ وهل نعرف آلة من صنع الانسان لم يحتج بلوغها درجة الكمال سنوات من البحث والدراسة؟ انه لم يحدث حتى الآن ان

---

(١) د. احسان حقى ـ المرجع السابق ص ١٨ .

اخترع، حتى أعظم الناس عبقرية، آلة كاملة لا يمكن ادخال تحسين عليها. فى حين أن الخلية آلـة كاملة. فهـل من العلم فى شىء ادعاء [التطوريين] الذين يزورون الواقع، ويقولون بان المواد غير الحية والمحرومة من الذكاء قد استطاعت ان تصنع مالم تستطع اكثر العبقريات الانسانية رفعة أن تصنعه؟..

● ـ نعم.. اذا كانت الخلية حصيلة التـطور، فلماذا لم تستمر فى تطورها؟.. ثم.. كيف حدث تطور الخلية؟

● ـ هل يستطيع العلم الاجابة؟.. بالطبع لا.. !!..

■ ـ الجميع يتوقفون عند كيف؟.. ولم يعط اى منهم فكرة عن شكل الحياة الاولى ولا الظروف التى ادت الى ظهورها.. كل ما عرفه البشر أن ثمة كائنات احادية الخلية ظهرت (بطريقة ما) وانها استطاعت ان تتميز عن العالم غير العضوى بانها تنمو وتتكاثر.

ومن هذه البـداءة الغامضة فى جوف الزمن انبعثت تلافيف الاحياء الاخرى.. **«فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون»..** (سورة الروم: ١٧ ـ ٢٠).

■ ـ ومن النظريات التى حاولت تفسير كيفية الحياة.. [النظرية الكونية].

« Cosmosic theory» وهى تعتبر أن (البذور او الجراثيم الاولى للحياة Apores) وصلت الى الارض «بطريقة ما» من مكان اخر فى الكون.. واهم ما يوجه اليها من نقد، انها لا تضع التفسير العلمى المقبول لكيفية نشوء الحياة.. وكل ما فعلته انها نقلت مكان النشأة من الارض الى مكان بعيد (وغير محدود) من الكون.. كما يُعْتَرَضُ ـ عليها باستحالة مرور (بذور الحياة) من كوكب الى اخر لعدة اسباب منها: الجفاف الشديد والبرد القارس والاشعاع القوى الذى يتميز به الفضاء فيما بين الكواكب المختلفة(١)..

---

(١) د. علم الدين كمال ـ المرجع السابق ص ١٥ ـ كذلك: جيمس س هانران و. دافيد بوشنيل.. بيولوجيا الفضاء ـ ترجمة زكريا فهمى ـ دار النهضة العربية ص ١١٨ : ١٦٣.. والنظرية الكونية (الكوزموزا) تعتبر الفضاء ملىء بجراثيم الحياة الطافية فى جميع ارجائه، وهى التى تخصب الارض بالحياة وغيرها من الكواكب المسكونة.. وهذه الفرضية تضع =

وبعد ان اكتشف ليونيهوك « Leeuwenhoek» المجهر القوى ظهرت معظم أنواع الكائنات الدقيقة التى نعرفها الان، ولم يكن تعليقه الا وصفا لما هى عليه فقط.. بل ان الوصف فى حد ذاته لم يكن كاملا شاملا لمظاهر الحياة فى هذه الكائنات(١)..

●. مقدمات الحياة

حاول ميللر «Miller» منذ سنوات قليلة البحث عن أسباب (أدنى) صور الحياة، أو مقدماتها، فوجد ان احداث تفريغ كهربى خلال جو خال من الاكسجين، وبه ايدروجين وامونيا، وميثان، وبخار ماء، يحدث مجموعة مدهشة من المركبات العضوية، ووجد ان هذه المجموعة تشتمل على كثير من الاحماض الامينية التى لا تقل عن «البروتينات» فى التعقيد غير درجة واحدة، وظلت هذه (الدرجة) مجهولة حتى توصل الانسان الى طرق الكروماتوجرافيا الدقيقة.. ولكن.. كل ما استطاع الانسان التوصل اليه هو معرفة التركيب الكيماوى للبروتين.. ولكن أين هذا من قدرة صاحب الروح وواهبها فى الصخر اذ يقول له: «كن فيكون»؟!!!

● ـ وهكذا سقطت جميع الفرضيات التى نادى بها العلماء.. سقطت بلا أى اجابة عن السؤال الدائم.. من أين؟.. لكننا نحن.. بعد استعراض بعض التصورات البشرية عن نشأة الحياة.. نعود للقرآن الكريم الذى اتخذنا منه المنهج الايمانى للدراسات الكونية فى كل كتاباتنا.. نعود لقوله تعالى:

«**وجعلنا من الماء كل شىء حى**» (الانبياء: ٣٠). وحول ذلك المعنى العظيم يرى «أناكسيماندر» الفيلسوف اليونانى [٦١١ ـ ٥٤٦ ق. م].. أن الأرض ظهرت الى الوجود بفعل نوع من تكثيف الماء.. وكذلك من عنصر الطين الاول أو البدائى ثم أخذت فى الصلابة، وأنها طفت ـ كما هى ـ على الماء فى شكل جسم كروى.

الحياة على قدم المساواة مع المادة، واعتبرت كلتيهما وحدات ازلية خالدة منذ خلقنا فى الماضى اللانهائى.. وقال اصحابها بان (جرثومة) الحياة تاتى الى الارض ممتطية صهوة أحجار الشهب. وقد رأينا كيف سقطت هذه (الفرضية) التى لا اساس لها..

* من بين الذين هدموا هذه النظرية كيماوى سويدى يدعى «ارهينوس» ولكنه لم يات بجديد.

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥.

كما يرى ان الكائنات الحية قد تولدت من أصول أولية فى الطين الذى كان يغطى ـ يوما ما ـ سطح الأرض، وأن أول ما نشأ: النبات والحيوان، ثم الانسان.

وقد أيده تلميذه «زينوفانس» الذى ولد بمدينة «كولوفون» بآسيا الصغرى [ت/ ٤٩٠ ق. م]، وقال بأن العالم نشأ من تكثيف الماء ومن عنصر الطين الأول، وقال بأزلية الله الذى لا يدرك كنهه، وعارض الاعتقاد بتعدد الآلهة.

✓■ ـ والماء هو الجسم الوحيد الذى يوجد بحالته الطبيعية فى المراحل الثلاث: ؛ الصلابة والسيولة والبخار. والحرارة الكامنة فى انتقال الماء من مرحلة الى اخرى. حرارة كبيرة، ولذا فهى بحكم الانتقال المستمر من مرحلة الى مرحلة، تستطيع ان تلعب دورا هاما فى تنظيم درجة الحرارة. ويرجع الفضل الى هذه الظاهرة فى احتفاظ جسم الانسان بدرجة حرارة تكاد تكون ثابتة، وفى ان الفروق فى درجة حرارة الجو، لا تبلغ حدا كبيرا قد يؤدى بالحياة. والواقع ان الماء يستطيع ان يخفض درجة حرارة [وسط] حار، بالتكاثف والتبلور. وبالعكس، فهو يستطيع ان يرفع درجة حرارة [وسط] بارد بالانصهار او التبخر. وبالرغم من التغييرات التى تتعرض لها تلك الثوابت الطبيعية، فان الماء يشترك فى تعريف بعض الوحدات القياسية: فالسُعر الحرارى يقاس بالنسبة للحرارة النوعية للماء وكذلك اتخذت الدرجة المئوية وحدة للقياس بالنسبة لحدين معينين، هما الصفر والمائة، والنقطة الثلاثية للماء، وهى نقطة تقاطع منحنيات التبخر والتصعيد والانصهار للثلج العادى. . وهكذا.

ان تحليل الماء الذى لا يمكن اجراؤه الا بالتسخين لدرجة حرارة عالية او بالكهرباء أو بتأثير بعض الاشعاعات يتطلب قدرا كبيرا من الطاقة كما ان للماء خاصية تسمح له بتعديل الاتصالات الأيونية، مما يجعل له قوة اذابه بالغة. ولذلك فهو فى حالته الطبيعية يمكن ان يحتوى على اثار لمعظم العناصر المعروفة سواء فى حالة ذائبة أو عالقة.

✓ ولقد اوضح (كافندش Cavendish) فى القرن الثالث عشر، ان الماء يتكون من الايدروجين والاوكسجين، وبذلك بطل الاعتقاد القديم (الفيثاغورسى) بان الماء ليس الا عنصر بسيط له رمز كيميائى عبارة عن (يد ٢ ا ـ اى ذرتين من الايدروجين وذرة واحدة من الاوكسجين). الا ان مزيداً من التقدم العلمى ادى الى اعتبار ان الماء يعد فى الحقيقة مزيجا من ١٨ جسما مركبا، تبدأ بثلاث ذرات من الايدروجين ومثلها

من الاوكسجين. . ويعد ذلك نظيراً للماء(١).

وكان المحلول المائى للبحار البدائية يحتوى على خليط معقد للغاية من الاملاح المعدنية والطين اللازب والاحماض ومزيج ضخم من الكربون والغروانيات الطينية. . فى هذا الوسط المائى المخلوطْ نزلت اشعاعة الحياة بالأمر الالهى. . «كن». . فاذا بالمزيج يتحرك ويتخلق على الصور التى ارادها الله ان تظهر على الارض.

اى أن حالة البحار البدائية من حيث درجة الحرارة والاشعاع والتركيب الكيميائى كانت قد بلغت درجة الاستعداد لاستقبال الامر الالهى الاعظم بانطلاق الحياة فوق الكوكب الارض. .

ويبـدو ان ثمـة مركبات من الكربون (Carbon) متعددة الانواع كانت اول ما استقبل اشعاعة الحياة من الخالق الاعظم فدبت فيها حركة شاملة من اتحاد عناصرها بعضها البعض ونجم عن ذلك تواصل سلسلة التطور التى رسمها الخالق الاعظم فى قانونه الالهى العام الاعظم للكون. . فتكونت تبعا لذلك أجهزه فيزيائية كيميائية. Physico- Chemical تتمتع بفطرة [طبيعة] ثابتة نسبيا وتتميز بالصفات الاساسية للحياة(٢). .

واذا جاز لنا ان نطلق على تلك الاجهزة الفيزيائية والكيميائية اسم كائن حى فانه يجدر ان يكون مفهوما للقارىء (انه) ليس عبارة عن اجتماع الذرات من الكربون والـطين والمـاء والاملاح هكذا بالصدفة(٣)، ولكنه (مجتمع) على مستوى رفيع من التنظيم يشتمل على تسلسل من الذرات والجزئيات والمجموعات الغروية التى هيئت لوظائف معينة، وواضح انها لحكمة معينة. . من [خالق] مقتدر بصير، فطر الحياة وأبدع خلقها وتنسيقها. . وكل شىء عن الحياة يؤكد خضوعه لقانون منظم ثابت ـ هو القـانـون الالهى العـام الاعظم للكون ـ مطلق الصدق، والشمولية لأحداث الماضى والحاضر والمستقبل. .

---

(١) د. محمد فتحى عوض الله ـ المرجع السابق ص ٦٦.

(٢) يعتقد بعض العلماء ان هذه الكائنات البدائية او الاولية Proto- Organisms كانت تشبه فى اول مراحلها (الجين Gene اى يمكن اعتبارها كرموزوما يعيش عيشة مستقلة «والجين» هو الذى يحمل الصفات الوراثية ويوجد على من الكروموزمات داخل النواة«Nucleus» فى خلايا جميع الكائنات الحية على الارض.

(٣) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦.

فالنظام الشمسى (مثلا) له قانون منظم يتفرع من القانون الالهى العام الاعظم للكـون ـ هو ما نسميه (بـالتجـاذب) وليس من المصـادفـة ان يتحـد الايدروجين بالاكسجـين دائـما بنسبة (٢ : ١) وهذا الميل للاتحاد بهذه النسبة هو نتيجة (لقانون كيماوى) نسميه ـ نحن البشر ـ التكافؤ، وهو ملازم للتركيب الاليكترونى للذرات، وهو الذى يعتمد بدوره على (تركيب النواة). . وهكذا. . وبمعنى اخر. . فان اتحاد ذرتـين من الايدروجـين بذرة من الاكسجـين ليس قانونا (مفروضا) على الخواص الـطبيعية لهذه الذرات، ولكن نسبة الاتحاد (ملازمة) لتنظيم الذرات نفسها، وهو الذى وُضِعَ بقانون الهى دائم ثابت مسيطر على الذرات وحركتها وطاقتها لانه الله هو (خـالقها). . وهو وحده الذى وضع معادلات تسييرها وتنظيمها وتهيئتها لاستقبال الحركة والحياة[١]. .

■ ـ اننا لا نستطيع ان (نتصور) كيف كان شكل الكرة الارضية (بالتحديد) عند فجر الحياة. . وكيف نستطيع ذلك وقد قال الله سبحانه وتعالى:

● ـ ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ [الكهف/ ٥١]

قراءة فى السجل الحيوى لصخور القشرة الأرضية

كل ما يمكن تصوره. . (مجرد تصور) بناء على المعطيات الحالية ومحاولة الرجوع بها الى الوراء. . ان كل شيء مادى تقع عليه عيوننا يمثل خلاصة مركزة لتاريخه الماضى القديم. فاذا قمنا بدراسة حصاة من الكوارتز حصلنا عليها من شاطىء مجرى ماء مثلا وجعلنا صفاتها تقص علينا قصة ماضيها لعلمنا منها الشيء الكثير. ففى شكلها الناعم المستدير وسطحها المصقول الدليل الساطع على مرور فترة زمنية طويلة كان تيار المـاء خلالها يدحرجها فى قاع النهر فتنفصل عنها الاجزاء البارزة ويتولى الاحتكاك صقل سطحها. والآن فلنكسر الحصاة ونلقى نظرة فاحصة على شكلها الحبيبى المكتنز وتركيبها الكيماوى، فالعين الخبيرة تستنبط تاريخ الحصاة من مثل هذه الاشياء[٢].

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧.

(٢) روبرت ل. ليرمان ـ المرجع السابق ص ٥٨.

لقد كانت فى بادىء الامر جزءا من كتلة من الصخر الضخم المحتوى على معدن الكوارتز. وتفتت الصخر الى أجزاء صخرية صغيرة بفعل عوامل التعرية المختلفة مثل الجليد والحرارة والتغيرات الكيماوية وجذور النباتات. ثم حملت تيارات مياه الانهار الصخـور الصغـيرة ودفعتها الى البحار حيث قامت الامواج بدقها الى حبيبات من الرمل، وطحنت المواد المعدنية الاكثر ليونة الى حبيبات دقيقة ناعمة حملتها التيارات المـائيه السفلية الى قاع المحيط تاركـة الـرمال البيضاء اللامعة المكونة من الكوارتز الصلب النقى. وتلا ذلك تماسك حبيبات الرمل أثر عمليات كيماوية فتكونت صخور رملية. وتعرضت الصخور بدورها الى الضغط المتناهى فى الشدة الناتج عن تقلصات القشرة الارضية فتحولت الى كوارتزيت كثيف. ومنذ ذلك الحين ومياه النهر الحالى دائبة على حمل قطع من هذا الكوارتزيت والقيام بتنعيمها وصقلها وهذا التاريخ من ألفه إلى يَائِهِ مسجل فى الحصاة الصغيرة التى نحملها فى يدنا، اذ لا يمكن تفسير صفات هذه الحصاة الا بتعاقب الحوادث بالترتيب الذى اوردناه دون غيره(١).

يقول العالم الانجليزى (هويل Fred Hoyle) : ان اول الزمان لا حد له، وهو فى الماضى اللامتناهى الذى لا اول له. . وهكذا حاول العلماء ان يغوصوا بعلمهم فى غياهب الماضى فما اهتدوا. وهم اقل هديا. بل اضل بالنسبة للمستقبل. ويقول عالمنا الكبير الدكتور [احمد زكى] رحمه الله :-

ان الانسـان يحيا حياة دنياه هذه بجسمه، ويستمد الجسم الهدى فى الحياة من عقله. ولقد فهم الانسان، بعقله الكثير من اشياء الحياة، ولا اقول كلها. والذى فهمـه انـما يتصل. بممارسة العيش اشد اتصال أما ما وراء العيش، فتتعثر عقول الناس فيه. وبالعيش، اقصد حاجات الطعام، والفكر ايضا والعواطف.

وكأنى بخالق الخلق عندما اراد خلق الانسان، شاء ان يجعل العقول التى يصنعها بشتى الخلائق، درجات. واعطى الانسان تلك الدرجة من العقول التى تتفق وحاجة هذه الاجسام، وحاجة العيش على سطح هذه الارض.

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٩.

ويقحم الانسان هذا العقل فى تفهم مالم يخلق لفهمه، فيكون كناطح صخرة، تنكسر عليها قرونه[1].

. . . هذا الانسان . .

ميزه الله سبحانه وتعالى بطبيعة خاصة، وخلق خاص، وكرمه بفطرة معينة، ترتفع به فوق طبائع الموجودات الأخرى، بما فيه من عقل يفكر به، وارادة يختار بها ما يشاء أن يفعله أو يتركه، ولذا أسند إليه عمارة الكون، واستخلفه فى اثراء الحياة بالحركة والنشاط، وجعله موضع تكريمه الذى أكده فى قوله تعالى :-

«ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» . .

. . هذا الانسان . .

وقد كرمه الله تعالى، مطلوب منه أن يتعرف طبيعته البشرية المتفوقة، وأن يعلن عن هذا التفوق فى تصرفاته كانسان، والفروض التى فرضها الانسان، وتهدف جميعها إلى معاونة الانسان فى ايقاظ معنى الانسانية فيه، وفى حمله على أن يكون انسانيا فى سلوكه، وفى تحريك وجدانه ليتجه إلى فعل الخير، وتلبية ضميره ليكون حيا يعصم صاحبه من الزلل، ويقيه شر الانحراف[2].

ان الانسان خلق اعمى، رغم ما له من عينين، وعليهما فقط ان يبصرا ما أُذِنَ لهما أن يبصراه. والانسان قد يكون أشد جهلا بالذى خرج منه النور، أو وقع عليه النور. . فيحسبه الانسان علما. ثم لا يكون الا متاهات مظلمة يوقع الانسان نفسه فيها، إذا كان بعيداً عن الخط الالهى للانسان فى الأرض.

من مظاهر عظمة الخالق سبحانه وتعالى

■ - إن الله سبحانه وتعالى، هو رب الازل ورب الابد ورب الكون وكل ما فيه خلق الأنهار لتصب حمولتها من الرمل والطين ومفتتات الصخور والمعادن المذابة فى البحار. وخلق الغلاف الجوى ففى أول عصور خلق الأرض لم يكن هناك أكسجين

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص ٢١.

(٢) د. فاروق عز الدين - دراسات فى جغرافية الانسان - دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة - ص ٣.

فى الهواء الجوى، ولذلك كان الفضاء خاليا من الطيور والهوام . . ولم تتمكن الكائنات الحية من توطيد اقدامها الا فى (الماء) فى المستنقعات والسهول المبللة والمياه الضحلة ومصبات الانهار، والشواطىء، . . ومن المحتمل ان بعض انواع من الكائنات رسخت أقدامها فى المحيطات، اذ كانت تقتات بصعوبة بالغة على الاغذية الشحيحة المبعثرة على سطح الماء العميق . . حتى البحار كانت خالية من الاسماك، ولم يكن هناك أثر للطحالب الخضراء، لكى تغشى سر الاحداث الثورية الخطيرة التى كانت تجرى تحت سطح المياه الهادئة(١) . .

ومن المؤكد . . ان تلك الكائنات البدائية لم تترك سدى . . فقد هيأت لها الرعاية الالهية جزئيات فى الهواء الجوى، وفى البحار فى العصور البدائية الاولى . فتيسر امتصاصها بسهولة على سطح المياه الغروية . . ولقد توافرت تلك الجزئيات من الطين اللازب وغيره من المواد الرسوبية عند مصبات الانهار، وفوق المياه الضحلة بتأثير الرياح، والمد والجزر، ثم تماسكت تلك الرواسب بحمولتها من الكربون ثم ترسبت فى قيعان البحار الضحلة بفعل عملية (التخثير)، وأصبحت (مواداً غذائية) دسمة فى هذا الوسط الذى (يحتمل) ان يكون مهد الحياة الذى استقبل الاشعاعة الالهية الاولى بالامر المقدس «كن».

■ - والسؤال الان . ترى كيف (تطورت) هذه الصور «البدائية للحياة» الى المستوى الحالى الذى اراده الله سبحانه وتعالى أن تكون عليه؟(٢).

● - وقبل اى شيء فى هذا الشأن . . نقول لكل البشر:

كل أدمى «مخلوق فريد» خلقه الله متكاملا لا يشمله تطور الطحالب والفيروسات الى ديناصورات وحشرات وغابات . . ان كان هذا التطور قد حدث أساساً . .

- قال تعالى . . «**لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم**» . (الزيتون : ٤).

- وقال تعالى . . ﴿**وصوركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين**﴾ . . (غافر: ١٦٤).

* فقد جعل الله الانسان أرفع الأحياء وأرقاها، وخصه بالسمو على مجرد الوجود

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق - ص ٢٢ .
(٢) خصصت للحديث عن نشأة الانسان فى القرآن الكريم مبحثا خاصا به .

البيولوجى بما نفخ فيه من روحه ووهبه من طاقات وقوى انفراد بها دون سائر مخلوقات الله[1]. .

الانسان إذن وجد على الارض متكامل الصورة. . ولم يتدرج من ضفدعه الى تمساح الى قرد. . الى انسان. . لماذا؟

● ـ لأن لعالم الاحياء قانوناً لا تستطيع الكائنات تجاوزه وقد أكدته العلوم تأكيدا قاطعا، وكتبت «مجلة العلوم الامريكية» فى عدد ديسمبر ١٩٦٦، بهذا الصدد تقول: «تتمثل الحياة فى أشكال لا عداد لها، ونسل كل شكل من هذه الاشكال مثله، فالخنازير تلد خنازير، والحمير تلد حميرا، والسنديانة تظل سنديانة جيلا بعد جيل.

وتأكيدا لهذا القانون فقد وجد العلم جماعات من الحيوانات وأخرى من النباتات، وليس بينها وسيط، بل كل كائن فى كل جماعة يستطيع أن يتكاثر وأن يلد ابناء من جنسه ولكنه لا يستطيع ان ينسل اذا تلاقح مع كائن من غير جنسه. وقد ثبت علميا بأن الافراد التى يكون تلاقحها مثمرا تنتج نوعا واحدا مثلها، ومجموعة الانواع تشكل جنسا ومجموعة الاجناس تشكل اسرة. وعلى سبيل المثال نقول: ان اسرة السنوريات يدخل فيها فيما يدخل النمر والاسد والهر وغيرها، وهى انواع كثيرة تنتمى الى جنس واحد. وأسرة السنوريات تضم أيضا جنس (أوس) الذى منه الذئب، وفيها وراء الاسرة الصنف والطبقة والمعلقات. وليس هناك من كائنات انتقالية بين الكائنات الموجودة فى أيامنا هذه[1].

● ـ يقول كتاب «علم الاحياء اليوم»: [باستطاعة نوعين مختلفين ـ ولكنهما من جنس واحد ـ ان يتلاقحا بغية جمع احسن صفات النوعين فى واحد. ويكون النقل اقوى من ابويه جسما وقد يكون عقيما ولابد من تكرار التلاقح].

يجب ان يلاحظ بان[النغل] يأتى من كائنات حية متقاربة ارثيا، بحيث يمكن تصنيفها فى نوع واحد، وكثير من النغولة تكون عقيمة، واذا تركت لنفسها فانها لا تسعى الى الانتاج، واما ما كان خصيبا منها، فانه اذا استمر بالتلاقح فانه ينتهى عند حدود النغولةاى[العقم]، ولذا فاننا نشاهد فى النوع الواحد أنواعا مختلفة محدودة،

---

(1) Lynn White J.,Op. Cit., FF. 1205- 1227.

بينما يفترض الا تكون محدودة ومثالا على انتهاء التلاقح عند حدود معينة نأخذ الذرة الصفـراء فقـد زيـد محصولها خلال بضع سنين زيادة خيالية بفضل التلاقح ، ثم وصلت الى حد لم يعد بالامكان زيادة انتاجها اذا استنفدت كل عوامل التحسين ومن الجدير بالملاحظة هو أن ما حصل من التلاقح كان ذرة صفراء ولم يؤثر التلاقح فيها فيحولها الى نبات اخر، بل ان التحسن حدث فى الذرة نفسها ، وهذا ينطبق على عالم الحيوان وقد حبطت كل الجهود التى بذلت من أجل الاستمرار فى التلاقح الى ما لا نهاية ولكنها اصطدمت بحواجز العقم التى لا يمكن اجتيازها . ان هذا الحاجز الذى لا يخترق هو الذى يحدد الاختلاف بين الأنواع الكبيرة(١) .

● ـ ان نظرية [التطور العضوى] تدور حول فكرة تقول بان انتقالات ذات مجال ضيق قد احـدثت تغيـيرات ادت الى تبديل شكل كائن حى بشكل اخر. فما هى الحقيقة فى هذا الامر؟ وهل الانتقال يأتى بالافضل المفيد؟ وهل يأتى بأشكال لحياة جديدة؟ .

ان عبارة الانتقال تعنى التغيير الارثى فى داخل بلازما الخلايا التناسلية وهذا مالم يحدث إلا نادرا جدا ، ويؤكد الاستاذ «دوبز هنسكى» بان الانتقال بسبب تغيرات فى الجينات المورثات واختلافات فى الكيان الارثى أمر محتمل ضمن العوامل الاولية للتطور. ويقول الاستاذ «شينفيلد» فى كتابه : (الانسان الجديد والوراثة) ما يلى :

● ـ «نستطيع فى أيامنا هذه تفسير آلية التطور اعتمادا على حالات نادرة لانتقالات نافعة من كل نوع حدثت مرات كثيرة ومتتابعة على فترات طويلة» . . ونحن نؤكد أن ذلك كله مجرد فرضيات ساقطة لم يثبت صدقها . .

(1) Ibid., P. 1230

نظرية الانتقال وموقف الاسلام منها

■ ـ لماذا ظهر الانتقال؟ يقول كتاب: (علم الاحياء اليوم) ما يلي: لعل حدوث الانتقـال كان بسبب عوامل توجد عادة في البيئة مثل الاشعة الفضائية وغيرها من الاشعاعات الكهربائية، وحالات استقلاب داخل الخلايا او بالتالي لاخطاء في اعادة انتاج المورثات[١]..

وعلى سؤال: هل يحدث الانتقال كثيرا؟ اجاب كل من الاستاذين «والنس ودوبز هنسكى» في كتابهما: (الاشعاعات والمورثات والانسان) بما يلي:

ان الانتقالات في مورث ما هي حالات استثنائية ومعنى هذا القول ان المورثات تتوالد، عادة بدقة.

ويؤكد العـالم التطورى «وادنكتن» في كتابه: (العلم اليوم) قائلا «تحدث هذه الظاهرة نادرا، ولعلها تحدث مرة في مليون حيوان او في مليون كائن حى»[٢].

اما مستعمرات الحيوان والنبات فقد ساق العلماء المؤمنون بنظرية التطور العضوى للكائنات الحية بعض الادلة التى تدعم تصوراتهم ونحن هنا نستعرضها لنرى مدى امكانية الاخهذ بها.. او بشىء منها حسبما يتفق والعقل وقوانين الفطرة[٣]، التى فطر الله المخلوقات عليها.

● ـ يرى العلماء ان الحيوانات الموجودة الآن، وانواع عديدة من الحيوانات التى عاشت منـذ زمن بعيد تشتمل على كثير من الاشكال التى تتدرج من البساطة الى التعقيد ابتداء من الحيوانات الاولية وحيدة الخلية الى الفقاريات الراقية، ويستندون في ذلك الى أدلة مادية من الحفريات التى تم العثور عليها وترتيبها.. واذا كان الخالق الاعظم [سبحانه وتعالى] قد امرنا في سورة العنكبوت[٤] بالسير في الارض والبحث عن صورة بداية الحياة، فإنه [سبحانه وتعالى] يشير الى حقيقة علمية هامة.. هى..

---

(1) John R.Platt, 1966: The step to man, Wiley, PP. 185- 186.

(2) Ibid, P. 890.

(٣) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٢٨.

(٤) سورة العنكبوت ـ الآية: ١٩.

وجود اثار الحياة الاولى البدائية بالفعل فى صخور الارض. . فى نفس الوقت يؤكد لنا الخالق الاعظم جل وعلا أننا لو سرنا فى الارض جادين فى البحث فاننا سنجد كيف كانت صور الحياة الاولى. .

● ـ وتكشف لنا الآية الكريمة عن كشف علمى عظيم لاول مرة. . هو: (لو كانت صورة الحياة الاولى تشبه تماما صور الحياة الحالية. . لما امرنا ان نسير فى الارض بحثا عن بداية الخلق، ولاكتفى بأمرنا أن ننظر فيها حولنا وامامنا فقط لان فيه الكفاية والنسخة من الخلق الاول. .

[فما الذى نستنتجه من ذلك؟]

■ ـ نستنتج ان امر الله سبحانه وتعالى لنا (على لسان محمد عليه الصلاة والسلام) بالسير فى الارض لنرى الادلة على بدء الحياة الاولى يدل على مرور الحياة بعدة مراحل من (التطور) تاهت فيها معالم الحياة الاولى وسط ما آلت اليه من انماط جديدة تماما، ومن ثم وجب على العلماء خاصة والناس عامة ان يسيروا ويفتشوا عن ملامح الحياة الاولى فى الحفريات ليلتمسوا مقدار عظمة الخالق الاعظم فى تطوير صور الحياة والخلق من الشكل البدائى الى الشكل الحالى. . تطور الكائنات اذن يتم من عند الله. . لانه وحده المنفرد بالخلق. . والملك. . أما مسألة ما الذى كانت عليه صورة الحياة الأولى، فلا علم لنا به. . وعلمه عند خالقه، سبحانه وتعالى وهو الخلاق العظيم، وهو بكل شىء عليم.

* *

الفصل الثانى
التاريخ الجيولوجى للأرض ونشأة الحياة

- الحفريات . . صفحات من التاريخ الجيولوجى للأرض.
- نظريات علمية حول نشأة الكواكب .
- التقلبات الجيولوجية وأثرها فى توزيع الأحياء على الأرض.
- السلف المشترك للكائنات الحية قبل ظهور الانسان .
- «كوفييه» يهدم نظرية السلف المشترك للكائنات الحية .
- العقم التطورى والانقراض.
- نظرية النماذج الأصلية .
- عَالَم الفقاريات فى التاريخ الجيولوجى القديم .
- صور الحياة على اليابسة فى العصر السيلورى .

الفصل الثانى

التاريخ الجيولوجى للأرض ونشأة الحياة

لقد استعان العلماء بعلم الجيولوجيا (طبقات الارض) فى تقدير عمر الرواسب التى وجدت بها هياكل الانسان القديم او اجزاء منها. كما يسر العلم لهم ايضا وسائل اخرى جديدة على جانب كبير من الاهمية لتقدير عمر الحفريات او المخلفات التى تركها الانسان القديم فى المواقع التى عثر على بقاياه فيها. وبعض هذه الوسائل يعتمد على الخواص الطبيعية والكيميائية لعناصر موجودة فى تلك المخلفات» ومن هذه الطرق الطريقة الكيمائية المعروفة باسم «كشف الفلورين» وطريقة الكربون المشع او طريقة النظائر المشعة للاكسجين او البوتاسيوم والارجون كما سيرد ذكره. واغلب هذه الطرق قد تم التوصل اليها مؤخرا واصبحت مفاتيح هامة، ليس فقط لعلماء الحفريات بل ايضا لعلماء الاثار.

ولقد كشف العلماء فى مملكة النبات نماذج لمراحل التطور العضوى للكائنات الحية تبدأ بالبسيط منها وتنتهى بالمعقد.. ومن ثم برزت اهمية تتبع طبقات الرسوبيات والبحث عن الحفريات التى نلمس فيها ما طرأ على الكائنات من تغييرات..

الحفريات.. صفحات من التاريخ الجيولوجى للأرض

● ـ الأحفورة:

هى كل ما يحفر عليه فى صخور القشرة الأرضية من بقايا وآثار الحياة السابقة ـ نباتية كانت أو حيوانيه ـ فعندما تموت الكائنات التى تحيا فى البحار ـ [على سبيل المثال] ـ فان بقاياها تهبط الى القاع حيث تتحلل أجزاؤها الحية، أما هياكلها الصلبة

كالأصداف والعظام والأسنان، فانها تدفن بين الرسوبيات التى تتكون على قاع البحر والتى تتضاغط بعد ذلك متحولة الى طبقات صخرية ترتفع من قاع البحر بالحركات الأرضية أو بانحسار الماء عنها نتيجة لهبوط منسوب المياه فى البحار والمحيطات بصفة عامة، فتظهر هذه الصخور على سطح القشرة الأرضية، وتتعرض لفعل عوامل التعرية المختلفة التى تتيح الفرصة للانسان لاكتشاف أسرار الحياة القديمة.

أما على اليابسة، فان الفرص المواتية لتكوين هذه الحفريات نادرة جدا، فان بقايا الحيوانات البرية لا يمكن أن تحفظ على هيئة حفريات الا فى الرواسب التى تتكون فى قيعان البحيرات. أما فى المناطق القاحلة، فلا يتسنى ذلك إلا حين يتعرض المستوى العام لسطح الأرض للارتفاع، نتيجة لتراكم الرمال والأتربة عليه بفعل الرياح، وحين يحدث ذلك فان هيكل الحيوان بعد موته قد تتهيأ له الفرصة فى التحول إلى حفرية إذا غطته الرياح بالتراب. وبذلك يظل محفوظا عبر ملايين السنين اذا لم تجرفه السيول وعوامل التعرية.

وفى كثير من الأحيان لا تبقى [الفضلة] النباتية أو الحيوانية على الاطلاق ولكن تبقى آثار غير مباشرة تدل عليها. ومن أمثلة ذلك الطبعات على الرسوبيات الرطبة [كطبعات الأقدام، وطبعات أوراق الشجر، والأصداف. وحفر بعض الديدان، وآثار تفرعات جذور بعض النباتات فى الأرض.

■ - ويمكن القول أن اكثر الطرق شيوعاً لتكوين الحفريات هى الدفن داخل الصخور الرسوبية، ولكن قد تتكون حفريات بواسطة أربع طرق أخرى هى :-

● - استرجعت هياكل بعض الحيوانات من حفر القطران Tar Pits الذى حفظها من التحلل.

● - وجدت بعض حفريات الحشريات وغيرها من اللافقاريات الأرضية مدفونة فى العنبر.

---

(١) د. زغلول راغب محمد النجار - صور من حياة ما قبل التاريخ - دار البحوق العلمية - الكويت - ص ١٦.
- وكذلك : - Hussey, R. C, 1947 Historical geology, N.Y.P.460

(٢) كانون «أ» جراهام - نظرات فى تطور الكائنات الحية - ترجمة عبد الحافظ حلم - الانجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٨ - ص ٢٨ : ص ٦١.
- وكذلك linton D.L. and Mosely. F. 1958: The Geological ages, Cambridge Univ Press, P. 38.

● ـ وجدت الجثث الكاملة لبعض حيوانات العصر الجليدى (Glacial Period) متجمدة فى الثلج مثل [الماموث Mammoth] فى ألاسكا وسيبيريا.

● ـ وجـدت بقايا أشجار متحجرة من ملايين السنين عن طريق [الاحلال]، وهى اكثر العمليات شيوعاً فى حفظ بقايا الحياة، بحيث تحل مادة السيلكا أو كربونات الكالسيوم محل المادة الخشبية فى جذوع واغصان الأشجار.

● ـ فى بعض الأحيان تحفظ الهياكـل الصلبـة المكونة من مواد عضوية بواسطة تفحمها ودفنها بمعزل عن الهواء فى طبقات الصخور أو الافرازات الصحفية [الكهرمان].

■ ـ أهمية الحفريات:

تعتبر الحفريات أحسن مصدر لمعلوماتنا عن أنواع الحياة التى عاشت فى الماضى السحيق والتى يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالسير فى الارض لاكتشافها ومعرفة صور الحياة الأولى، وذلك فى قوله تعالى:ـ

«**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**». [سورة العنكبوت/ ٢٠].

* فماذا تقـول الحفـريات للعلماء عن التطور البيولوجى للكائنات الحية قبل ظهور الانسان؟.. وما الأدلة التى يستند اليها العلماء فى اثبات ذلك؟.

■ ـ يقول علماء الفيزياء الكونية ان سطح الارض ـ بعد ان انفصلت عن الشمس ـ منذ خمسة الاف مليون سنة كان مثل باطنها.. كره هائلة من النار المشتعلة تدور فى الفضـاء.. وبمـرور مئات الالوف من السنين بردت تدريجيا وخرجت منها غازات وأبخرة ظلت تحيط بها بالقرب من نهاية (ما قبل الكمبرى)[١].. واصبح لها سطح ذو قشرة متجمدة ازدادت سمكا شيئا فشيئا وتكونت التضاريس السالبة او الموجبة، أى ـ المرتفعات والاحواض والقيعان، وتجمعت الابخرة لتكون سحبا عظيمة تكشفت ونزلت امطارا هائلة استمرت الاف السنين دون انقطاع[٢].

(١) ينقسم هذا الحقب الى:

ـ ما قبل الكمبرى الرابع وعمره يزيد على ٣٠٠٠ مليون سنة.

ـ ما قبل الكمبرى الثالث وعمره بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ مليون سنة.

ـ ما قبل الكمبرى الثانى وعمره بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ مليون سنة.

ـ ما قبل الكمبرى الاول وعمره بين ٦٠٠ ـ ١٠٠٠ مليون سنه.

(٢) انظر فى ذلك: - A.K. Wells, 1938: Outlines of Geological History, London, PP. 3-37.

ويرى البعض، ان هذا الكون ظل يتطور ملايين الملايين من السنين قبل ان تولد الكرة الارضية الصغيرة التى عليها يحيا الانسان اليوم. . وفى رأيه ان ميلادها كان كحادث الامس القريب فى تاريخ الكواكب. وان الشمس ليست الا نجما صغيرا من بين ملايين النجـوم، وان حياة الانسان على الارض، اذا قيست الى قصة الارض ذاتها، وعلى قصرها، اشبه بالثوانى الاخيرة فى يوم طويل. وان الانسان نفسه، لم يترك عن وعى وقصد مدونات لاخباره الا عن جزء من خمسين جزءا من وجوده. انظر اذن الى مدى حداثته فى هذا الكون وقصر مشواره على الارض ولكن برغم ذلك، فقد تميز عمن سواه من خلائق بعقل متطور لا جامد، تشحذ همته الايام، وتزيد من حدته تصاريف الزمان ففكر وفرض ودرس وجرب واستنتج، وسار فى درب البحث العلمى المنظم، وخلص الى حقائق وفروض منها:

- ليس فى الامكان اقامة حد محدود لعمر الكون. .

- كانت المادة الام فى الاصل سديما هيوليا، وتطورت الى نجوم ولا تزال الالوف من السحب من الغاز الرقيق تشاهد متناثرة فى السموات فى جميع اطوار الارتقاء، البطىء والمطرد. وقد كتب [جينز J. H. Jeans] العالم البريطانى المعروف، كثيرا يوضح كيف تؤدى الموازنة الطويلة الدائبة بين سحابة واخرى من هذه السحب الى استنباط تقلصها ودورانها وتكثفها، وكيف تنشأ فى آخر الامر من كل سحابة، مجموعة من النجوم، وكل نجم يستحدث لنفسه مجموعة او اسرة من الكواكب، بطريقة او باخرى، الله يعلمها، وتعددت فيها نظريات البشر[1]. . وكلها مجرد نظريات وفروض. .

● - نظريات وفروض، فما شهدوا خلق السموات والارض.

---

(١) د. محمد فتحى عوض الله - المرجع السابق - ص ٧٤ : ٧٥.

■ - نظريات علمية حول نشأة الكواكب

ثم جاء القرن العشرون . .

ومعــه اتســاع وتركيز للحضارة المعاصرة والعلم الحديث . , . وفى ركابه فروض اخرى مغايرة لفروض السابقين فى مجالات الاستطلاع الكونى . . وتعددت الاراء وتشعبت الافكار ولكنها فى مضمونها ومجموعها، لم تأت بعد بالخبر اليقين . . وقال بعض العلماء :

. . انما نشأت الكواكب من جزئيات صغيرة وصلبه كانت تدور حول الشمس وتعاصرها فى ظهورها . وان مصدرها هو المواد التى تناثرت بشدة من الشمس المنصهرة ابان دورانها السريع . وبردت الجزئيات المتطايرة تلك، وتجمعت، وتركزت بالدوران، فكانت الكواكب .

وقالوا . . حقا، قد تكون المادة التى تكونت منها الكواكب قد تمزقت فعلا عن الشمس، ولكن ليس بالتناثر اثر الدوران السريع، ولكن بالانجذاب اثر اقتراب نجم هائل وكبير من الشمس . . وظل [بعض] الشمس المنجذب ذاك، حائرا، لا هو الى النجم الهائم يقترب، ولا هو الى الشمس الام يعود . كان ذلك، عندما تعادلت قوتا الجذب بين الشمس والنجم الهائم والدخيل فأخذ ذلك [البعض] المنجذب يدور حول الشمس الام، بذات السرعة وذات الاتجاه وفى مدارات مختلفة . . وكانت الكواكب .

- وقال آخرون . . ولكن كيف يكون ذلك، والكواكب تبعد عن الشمس مسافات جد شاسعه تصل بها التقديرات الى آلاف المرات قدر أقطارها؟! شىء لا يصدقه عقل، هكذا قال البعض من العلماء .

- وقــال فريق اخـر - بل بتحليل الحركة للكواكب، يمكن القول باطمئنان ان الكواكب قد تكونت اصلا من مادة منتشرة أو سدم . . عوداً على بدء لنظريات (كانط ولابلاس)، وان تلك المادة تدور بانتظام، بما قد أدى الى دوران كل الكواكب التى تكونت عنها، فيما بعد حول الشمس، وفى ذات الاتجاه . كيف كان ذلك؟ امر لم تتم قصته فصولا بعد، وقد قارب القرن العشرون على نهايته . ولكن قصارى قولهم، انه

قد تكونت أجنة، وحيث تكونت تلك الأجنة، كبرت، ونمت بأسرع من غيرها من تجمعات المادة خلال بلايين السنين، وتركزت المادة فيها ومن حولها . .

● واختلفت الأقوال . . !!!

- فمن قائل بان الأرض تكونت متوهجة بانفصالها عن الشمس . . ثم بردت .

- ومن قائل بأن الأرض تكونت باردة من السدم . . ثم سخنت.

- وعلى أية حال، فسواء كانت الارض، بداية، ساخنة أم باردة، فان هناك بعض الشك فى انها بعد تكوينها الاول مباشرة، مرت بحالة الانصهار الكامل. واذا لم يكن ذلك، فأنه لا توجد طريقة مقبولة لشرح توزيع المواد الثقيلة والخفيفة فى هذا الكوكب، حيث يتكون الجوف العميق من المواد الثقيلة كالحديد والنيكل - بقطر يصل حوالى ٤٠٠٠ ميل، يحيط به رداء سمكه ٢٠٠٠ ميل تقريبا متكونا من الاحجار السليكية الخفيفة الغنية بالحديد والمغنسيوم. ثم الغلالة الخارجية أو القشرة الأرضية وهى من طبقة رقيقة من الأحجار الخفيفة يبلغ سمكها من خمسة الى عشرين ميلا بحسب مكانها فى قاع المحيط أو فوق القارات(١).

- واذا سلمنا مع القائلين بأنها بلغت حد الانصهار بعد النشأة الاولى. فانه مع مرور الزمن، لا شك قد حدث فقدان للحرارة، قدر العلماء معدله بما وصل بعد حوالى عشرة الاف سنة بالارض الى ان تفقد كمية من الحرارة كافية لتجمد سطحها الخارجي. وبالتالى يظل الجوف العميق منصهرا. وقد يتعجب بعض القوم ويتساءلون. . ولماذا لا نشعر بهذه الحرارة تحت اقدامنا؟ والجواب، هو أن القشرة الارضية ترقد فوق طبقة أخرى من الصخور البلاستيكية بسمك حوالى مائة ميل، وهى موصل ردىء للحرارة، مما يمنع وصول الحرارة الكامنة فى الباطن الى السطح . . ومع ذلك، فان الكتلة المنصهرة لم تزل، دائمة الغليان والفوران بما هى فيه من درجات حرارة عالية وما هى تحته من ضغوط هائلة ورهيبة. وفى مثل تلك الظروف يختلط مصهور المعادن والصخور والماء ويمتزج امتزاجا. ومع دوام ذلك الفوران، تجد المادة لها منفذا فى اماكن الضعف من القشرة الارضية فتندفع الى السطح، فتكون

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٦.

بركانا يقذف بالحمم الى السطح، ويضيف الى الماء فوق الارض ماء جديدا لأول مرة (Meteoric Water).

وانفجرت الارض عيونا وينابيع سلكت طريقها الى القيعان والمنخفضات فملأتها مع مياه الامطار. وهكذا تكونت البحار الأولى فى ظروف تكونيه بالغة العنف، اذ شهد هذا الحقب حدوث الزلازل الرهيبة واندلاع البراكين والتغير المتطرف فى المناخ.. وفى هذا الحقب (ما قبل الكمبرى).

(Pre-Cambrian Era.) .. تخمرت فى البحار الاولى القديمة محاليل الاملاح وذرات الطين ودقائق المعادن الارضية.. وتكونت منها المواد الخام اللازمة لحمل اشعاعة الحياة القادمة من السماء.. من عند الله سبحانه وتعالى.. ويقول العلماء أن أحدى صفات الانسان وهى صفه كيماوية محضة، ترجع الى صفات الاسلاف التى عاشت فى المحيط. فاذا ازيلت المواد العضوية والماء من كمية من بلازما الدم البشرى فان المواد تبقى فيه تماثل ما تحصل علية عملية تبخر كمية من ماء البحر. أى أن نسبة الصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم والمغنسيوم واليود والكلور وسائر المواد المعدنية فى دم الانسان تتفق مع نسبتها فى ماء البحر. فقد كانت خلايا الجسم فى الكائنات البحرية ملائمة للحياة فى الوسط الكيميائى لماء البحر، وعندما تركت البحار حملت معها جزءا من هذا الوسط على صورة سائل يغمر الخلايا، وقد أصبح فيها بعد جزءا من تيار الدم. وقد زُوِّد الاسلاف «بالكلية» للتحكم فى مقدار الاملاح فى الدم بحيث تبقى نسبتها ملائمة لما كانت الخلايا قد اعتادت عليه.

● - وفى حقب الباليوزوى «Palaeozoic Era»[1].. وصل الامر الالهى بنشأة

---

(١) وينقسم هذا الحقب الى العصر الكمبرى، والاردوفيشى، والسيلورى، والديفونى، والكربونى، وينتهى بالعصر «البرمى».. وترجع كلمة (الكمبرى) الى جبال كمبريا فى ويلز بانجلترا وقد استغرق زمنه (٥٢٠ ـ ٤٢٠ مليون سنة).. اما «الاردوفيشى» فقد استمر فيها بين (٤٣٠ ـ ٣٦٠ مليون سنة).. وكان العصر «السيلورى الذى استمر فيها بين ٣٦٠ ـ ٣٣٠ مليون سنة، ويمتاز بالدفء، والاعتدال.. ثم العصر «الديفونى» الذى استمر فيها بين (٣٣٠ ـ ٢٨٠ مليون سنة) أى ٥٠ مليون سنة، وفيه ظهرت (البرمائيات).. ثم (الكربونى) الذى امتد من (٢٨٠ ـ ٢٢٠ مليون سنة) وظهرت الغلبات الضخمة والحشرات والزواحف الاولى.. ثم «البرمى» من (٢٢٠ ـ ٢٠٠ مليون سنة) وهو العصر الجليدى الاول على الارض والذى شهد حركات ارضية عنيفة، وارتفعت الجبال، وظهرت الصحارى وانقرضت خلاله معظم صور الحياة التى كانت تميز حقب الحياة القديمه.

الحياة على الأرض. . فدبت فى الطين اللاذب اشعاعة الحياة الاولى. وتحركت (الهلاميات) بقدرة الواحد القهار، وهكذا وجدت أول خلية حية فى محيط من «البروتوبلازم». . ويطلق العلماء على تلك الصور البسيطة من الحياة: «العصوبات» «Flagellatia» وهى نصف نباتية ونصف حيوانية. . وبعدها تعددت الخلايا لتكون مخلوقات بسيطة التركيب. . مثل «قناديل البحر» و «ازهار البحر»(١). . وعلى ذلك يمكن اعتبارها طلائع الاحياء «Protozoa» (٢) وقد ظلت تلك الطلائع سابحة فى (المحيطات الاولى) التى نشأت فيها ردحا من الزمن، حتى ظهرت فيها بعد الحيوانات الدودية (Worms) ومنها الرخويات «Mollusks» مثل المحار وحبارات الاسماك. . ويبدو أن الحياة فى فجرها كانت تشق طريقها بصعوبة وبطء شديد. . ففى اواخر عصر ما قبل الكمبرى تقدم موكب الحياة خطوة حاسمة أخرى بعد فترات طويلة جدا من التطور، حيث تفرعت (الديدان) الى فرعين. . فرع مباشر انتهى الى الاسماك النجمية وطحالب البحر وما أشبهها، وفرع الفقاريات «Vertebrata». . ومنذ ظهور هذه الفقاريات (أى الاحياء ذات الهيكل العظمى) بدأ السجل الحفرى فى التنوع والثراء(٣).

وبطبيعة الحال لا يمكن تصور تطور الديدان الى فقاريات مرة واحدة. . وانما تدرجت من خيار البحر Sea oncumber وقنافذ البحر «Sea urchins»، ونجوم البحر «Star Fishs» وقشريات السراطين «Lob stars». . الى الحشرات «Insects» ويقول العلماء أن تلك الكائنات قد تدرجت فى سلم (الحياة) حين صار لها حبل ظهرى. . ثم صارت اسماكا غضروفية، ثم اسماكا عظمية، وتحول (الحبل الظهرى) الى (عمود فقرى) وبذلك ظهرت الفقاريات، وصارت ثنائية التنفس فى الماء بالخياشيم، وفوق الطين اللازب بالرئات البدائية البسيطة. . ثم ظهرت البرمائيات Amphibia ومنها نشأت الزواحف «Reptilles» ففى العصر الترياسى. . حيث كانت صفحة من الحياة القديمة قد اغلقت تماما(٤). .

---

(١) يمكن الرجوع فى ذلك الى: G.Shubert, C.O.Dunbar 1941: Historical Geology, New York, PP.17-28

(2) Ibid., P. 31.

(3) Ibid., PP. 33-35

(4) Ibid., PP. 38-40.

ويمتاز العصر الترياسى علاوة على ذلك ـ وهو اول الصور من الحياة الوسطى ـ بظهور الغابات المخروطية والصنوبرية والسرخسيات . . واختفت فيه ثورات البراكين والهزات الارضية . . فتعرضت الجبال والتضاريس الموجبة كلها بعوامل التعرية وخفت معظم الاراضى وتكونت الصحارى . . وذابت معظم (الثلاجات) . . وغمرت البحار الضحلة اغلب منخفضات اليابسة . . وانتشرت المستنقعات فى معظم الاراتضى[1] وفيه تنوعت الزواحف وتفرعت الى عدة فروع، منها السلاحف والثعابين وظهر حدود الطيور الحديثة والتماسيح والديناصورات، والتى تسمى « Sa ltoposuchus » وكانت حيوانات صغيرة نحيفة يزيد طولها على اربعة اقدام تقريبا وكانت سريعة الحركة وتقف على ساقيها الخلفيتين . . وقد استمر ذلك فيما بين (٢٠٠ ـ ١٧٠ مليون سنة) . .

(1) Ibid., PP. 51-63

التقلبات الجيولوجية وأثرها فى توزيع الأحياء على الأرض

لقد انتـاب الكوكب الارض تقلبات جيولوجية نتج عنها اختلاف العلاقة بين اليابس والماء فظهرت جبال لم يكن لها وجود من قبل ذلك بالاضافة الى انه ظهر فى خلال هذه الفترة التى استغرقت ما يقرب من ١٣٠ مليون سنة انواع من الكائنات الحية اطلق عليهـا اسم الـدقـاصر امتـازت بضخـامة الحجم والتخصص الشديد والملائمة الفريدة للانماط المختلفة للبيئات التى وجدت فيها. هذه الكائنات الضخمة بلغت درجة عالية من التخصص والنمو، غير أن شعار الطبيعة الأبدى هو التغير ومن ثم دارت عجلة الـزمـان فمحت دولـة الزواحف واندثرت كائناتها الضخمة حيث خلفت وراءها فراغا كبيرا لم تقو غيرها من الكائنات أن تملاءه.

ورغم ان هذا التغير كان فجائيا بسبب تغير البيئة او بسبب اخر الا انه كان بداية لصـفـحــة جديدة فى التــاريخ الجيولــوجى حيث بداء زمن الحياة الحــديث أو (الكاينوزويك) الذى ظهرت فيه الثديات وعمر فى نهايته الانسان. ففى هذه الحقبة التى استغرقت ما يقرب من ٧٠ مليون سنة لم يظهر الانسان فيها الا فى خلال المليون سنة الاخيرة فقط رغم ان كثيرا من الكائنات التى تنتمى الى الرئيسيات قد عاشت طوال زمن الحياة الحديثة.

وفى العصر الجوراس ـ وهو العصر الثانى من زمن الحياة الوسطى الذى استمر ٢٥ مليون سنـة فيما بين (١٧٠ ـ ١٤٥ مليون نسمـة) ـ سادت فصائل الزواحف العملاقة.. ومنها «الديناصورات» الرهيبة آكلة اللحم.. والأخرى آكلة العشب.. ومنها نوع طائر.

وفى العصر الكريتاس ـ وهو العصر الثالث من زمن الحياة الوسطى والذى استمر ٧٠ مليون سنة فيما بين (١٤٥ ـ ٧٥ مليون سنة) ـ تعاظمت سيطرة الديناصورات الارضية والتى ابيدت مرة واحدة فى نهاية هذا العصر بشكل غريب ومريب ودون مقدمات أو أسباب واضحة.. وفيه ايضا ظهرت الثدييات الكيسية، وحدث طغيان من البحر على اليابس.. ونبتت انواع مزدهرة من النباتات على الارض لأول مرة.. وانتشرت اوائل الحشرات الصغيرة بين الغابات.

ثم دارت عجلة الـزمان التى لا تتوقف دورة أخرى فمحت دولة الزواحف الجبارة وانقـرضت تلك الكـائنـات من الـوجود فجأة فتركت فراغا هائلا لم يقو غيرها من الكـائنـات على ان يمـلاءه بنفس الكفاءة. وتضاربت أراء العلماء فى اسباب هذا الانقراض المفاجىء للزواحف الماردة، فمن قائل: انه نتيجة كارثة من الكوارث التى تنتاب الارض والكائنات من حين الى آخر دون سبب معروف، ومن قائل: انه تغيير مفـاجئى طرا على الجـو فلم تقـو تلك الكائنات على تحمله، ومن قائل: ان هذه الزواحف قد تضخمت تضخما افقدها القدرة على السعى فلم تعد تقوى على السباحة أو المشى او الـطيران فماتت جوعا، او أن المجاعة كانت بسبب نقص فى الاشجار والاعشاب وجدب فى الثمرات نتيجة الجفاف الذى اعتور سطح الارض..

ومهما يكن من شىء فتلك سنة التطور والحياة ولم يحدث ان عرفت الخلود فصيلة بعينها من الكائنات الحية أو جنس بعينه من الاجناس العديدة التى ظهرت على مسرح الحياة.

وكان انقراض الزواحف نذيرا ببداية عهد جديد او حقب جديد من الاحقاب الجيولوجيه المعروفة، وهو الحقب السيلورى أو حقب الحياة الحديثة، آخر الأحقاب الجيولوجية وأقصرها أمداً، الذى استغرق نحو ٧٠ مليون سنة. ويعتبر هذا الحقب بوجه عام حقب الحيوانات الثدبية وفى الجزء الأخير منه ظهر الانسان.

ولهذا الحقب بالذات اهمية خاصة عند علماء [اصل الانسان]، ولهذا السبب لا نرى بأسا من ان نذكر تلك العصور التى احتواها هذا الحقب والمدى الذى استغرقه كل عصر منها. وخليق بالذكر ان هذا المدى قد حسب عن طريق دراسة الخواص الاشعاعية للمعادن الموجودة فى طبقات الصخور المتراكمة بعضها فوق بعض والتى تحتوى على عنصر اليورانيوم واشباهه. من النظائر المشعة التى تفقد اشعاعها بمعدل ثابت وتتحول فى النهاية الى عنصر خامد هو الرصاص، ومن ثم تتخذ هذه النظائر بمثـابـة ساعـة دقيقـة لحساب عمر الصخور، بل عمر الارض التى نعيش عليها وانقضت مدة طويلة جدا من عمـر الارض كما تقـدم القـول حتى ظهـر الانسان وأكتشفت أقدم الحفريات الآدمية للذين عاشوا فى المليون السنة الاخيرة فقط من عمر الارض، وكـل ذلـك فى رواسب العصر المعـروف بعصر البليستوسين آخر عصور

الحقب السيلورى التى تقدم ذكرها.

● ـ ويعتبر هذا العصر من أهم العصـور الجيولوجية لعدة أسباب منها ظهور الانسان خلاله، واكتشاف الحضارات الاولى للبشرية فى رواسبه الصلصالية وبالنظر ايضا الى انه اقرب العصور الجيولوجية الى العصر الذى نعيش فيه، ومن ثم فالبحث والتنقيب والحفر للحصول على ادلة عن أصل الانسان ومقومات حضارته القديمة فى صخـور هذا العصر ليس امرا بالغ الصعوبة، فلا غرو والحال كذلك أن نال هذا العصر الكثير من اهتمام العلماء من ذوى التخصصـات المختلفـة من جغـرافيين وبيولوجيين وعلماء اصل الانسان وغيرهم.

يمكن القـول اخيرا انه حينما جاء زمن الحياة الحديثة، الذى استمر ٥٠ مليون سنة، كانت كل الزواحف المردة العملاقة والتنين الطائر قد انقرضت تماما. . وظهرت الثدييات ومنها الماشية والافيال والكلاب والخيول والخفافيش وسباع البحر والقردة. . وتـطورت الحياة البحرية الى صورتها الحالية وازدهرت الغابات والاشجار والمراعى وذلك خلال عصور «الايوسين» و «البليوسين» و «الميوسين» و «البلايوسين».

■ ـ ثم ظهرت البشرية الاولى وكانت متميزة عقلا لا جسما. . ومع الزمن، ظهر منها من سكن الكهوف ومنها من سكن الجروف عند ضفاف الانهار. . ولقد كان اقدم ما عثر عليه من بقايا الانسان يرد الى اواخر العهد الحديث المتاخر (البلوسينى) PLeis-tocene وبناء على ذلك فقد قُدِّر عمر الانسان على هذه الارض بما لا يقل عن مليون سنة تقريبا. وفى أواخر ذلك العهد الحديث المتأخر طرأ على الارض ما اصطلح على تسميته بالعصر الجليدى. فقد استفاضت الاغطية الجليدية من القطبين، وتراكمت الثلوج على سلاسل الجبال، وانحدرت الانهار الجليدية فى الوديان فغطت السهول بالجليد، وعانت اذ ذاك بقاع كثيرة فى أوروبة من حالة الاقاليم القطبية الشمالية. . وضاع انسان ذاك العهد بين الثلوج.

بيد ان ذلك العصر الجليدى لم يكن ظاهرة متجانسة. فقد اتفق فى اثناء العهد الاحدث (البليوستوسيتى) ـ وذلك حسبما يعتقد العلماء ـ ان تقدم الجليد وانحسر فى كر وفر مرات عديدة. وفيما بينها كانت الحياة هينة رفيقة بالكائنات البشرية. وكانت الفترة الطويلة نوعا، الدافئة، هى ذلك العصر العظيم الشأن، عصر ساكنى الجروف

حول الانهار. ومع رجعة أخرى للجليد يفزع الانسان ويهرب الى الكهوف، ويتعلم مناهضة الزمهرير وتضطره الحاجة الى الاختراعات والاكتشافات الانسانية الاولى.

● ـ وهكذا يمكن القول ان الماء.. فى احدى صوره.. هو الذى حفز الانسان على التأقلم والاختراع والملاءمة، التى أدت الى تقدم فكرى عظيم الشأن فى حياة الانسان.

■ ـ وبعد استعراض مراحل التطور البيولوجى للكائنات الحية قبل ظهور الانسان.. نتساءل: وما الادلة التى يستند اليها العلماء فى اثبات ذلك؟..

● ـ قال علماء الاحياء ان «داروين» قال (ان الانتخاب) اى ـ انتخاب المتفوقين فى معركة التنافس يعود الى كونهم أكثر تكيفا مع الوسائل التى يفرضها التنافس، ويسأل [داروين] اذا كان التحول العضوى قد يحدث فى ظل الطبيعة الصرفة حدوثه فى ظل التكيف مع الظروف البيئية المختلفة، وان ذلك التنافس لابد ان ينتهى بانتخاب الاكثر تكيفا مع مختلف حالات الحياة.

ومن هذا المنطلق طلع «داروين» بنظرية انتخاب التحولات النافعة التى تولدها الاسباب الطبيعية عن طريق ظاهرة التكيف التى اظهر عجزه سابقا عن تعليلها وأثبت العلماء فيها بعد بطلانها وفسادها.

● ـ ويذهب داروين الى ان الانتخاب الطبيعى انما يقوم اساسا على مقومة التكيف. اذ لا فرق عنده مطلقا بين قولنا ان الفرد الناجح فى معركة التنافس هو الاصلح للبقاء.. أو قولنا هو الاكثر تكيفا مع البيئة.

■ ـ واذا كان داروين قد اعتمد فى افكاره على انتخاب الاكثر انسجاما او تكيفا مع مختلف حالات الحياة، يكون قد خالف عقليا وعرفانيا ما تقول به الآراء والمذاهب السماوية من ناحية، ومن ناحية اخرى اراء الفلاسفة والحكماء الذين ردوا كافة الأمور الابداعية الى قدرة الخالق المبدع المصور، علة العلل، وأسباب وجود كافة الموجودات العلوية والسفلية.

وينتمى معظم [الملحدين] المشتغلين بعلم التطور ـ ان كان للتطور علم ـ الآن إلى [المذهب الداروينى] الجديد فى التطور. ويتلخص هذا المذهب الهدام، فى أن التقدم التطورى قد تم اساساً عن طريق [الانتخاب الطبيعى].

ويزعم هؤلاء الملحدون أن [الطبيعة] تختار الصفات الأصلح من تلك التغييرات الفجائية المزعومة، التى حدثت للكائن الحى نتيجة للطفرة. . وزعم [داروين] وزميله الملحد أيضا [الفريد والاس] من قبل أن [الطبيعة] تختار الصفات الصالحة من الاختلافات الصغيرة المستمرة التى تتراكم بمرور الأجيال، حتى تصبح فى آخر الأمر صفات جديدة مميزة، تعين الكائن الحى على النشوء والارتقاء!!! . . وتبعهما بعد ذلك الملحد «هيجو دى فريز» الهولندى الأصل وزعم بأهمية الطفرة فى احداث تغيير أو تنوع مفاجىء تختلف به السلالة عن الأصل اختلافا واضحاً، ويزعم أن تلك الطفرة يمكن أن تورث، وأنه اذا كان للصفة الجديدة قيمة فى الكفاح والتناحر من أجل البقاء، فان الكائنات الحية التى تحمل هذه الصفة تورثها للأجيال التالية، وأنه حتى إذا لم تظهر هذه الصفة فى الجيل الأول، فانها تظل مختفية فى جيل لتظهر بعد ذلك فى الجيل الذى يليه.

وبتقدم علم الوراثة Genetics وعلم استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية (Domestication and selective beeding) توصل العلماء الى بعض الأدلة التى يستشهدون بها على مرور الكائنات بعدة مراحل تطورية قبل ظهور الانسان. . منها ثبوت (الجينات) وانتقالها الى الاجيال التالية بالوراثة حسب قواعد يمكن معرفتها مقدما. . كما سجل العلماء حدوث طفرات صغيرة وكبيرة فى الكائنات، ينجم عنها تغير فجائى فى الصفات الموروثة يؤدى بالتالى الى أجيال جديدة مختلفة عن الاجداد وذلك بسبب تحورات طارئة على الجينات، من ذلك ما سجله العالم الهولندى دى فريز De Vries على زهرة الربيع Oenothera [1] كما سجل العلماء حدوث طفرات فى

---

(١) د. علم الدين كمال ـ المرجع السابق ص ١٧٨، وفى ذلك يقول «اسحق ازيموف» أن:

فكرة التطور البيولوجى فكرة ضاربة فى القدم. فقد نشأت عندما حاول علماء البيولوجيا تصنيف الكائنات الحية. وكان ارسطو الفيلسوف الاغريقى فى طليعة من فعلوا ذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد.

وفى عام ١٧٣٧، انشأ عالم النبات السويدى، كارولوس لينايوس نظاما يمكن ان ترتب فيه الكائنات الحية بمقتضاه الى انواع مختلفة وتجمع الانواع المتشابهة فى مجموعات، وتضم هذه في فئات من مجموعات متماثلة. . وهلم جرا. واصبح من الممكن رسم شكل تخطيطى تقسم فيه جميع الاحياء الى بضعة فروع رئيسية، وكل فرع منها الى فروع اصغر، وكل من هذه الاخيرة الى فروع اصغر منها حتى ينتهى المرء اخر المطاف الى «الافراد» ـ الى الاوراق ـ المنفردة فى شجرة ما على سبيل المثال.

ولنتصور، ولو بضرب من السحر، ان كل ما نستطيع رؤيته من شجرة حقيقيه هو اوراقها المنفردة موزعة فى الفضاء.(=)

مجموعة من «الجينات» التى تؤدى الى تغيرات كبيرة مثل الاصابع الزائدة فى القطط والارجل الصغيرة في الاغنام، وقد ناقض العالم الألمانى [فايزمان] هذا الرأى، مبيناً أن الصفات التى يرثها الكائن الحى عن أبويه إنما تجىء عن طريق الخلايا الجرثومية، أى البويضات والحيوانات المنوية عند الحيوان، وأنه لا دخل لخلايا الجسم فيها، والخلايا الجرثومية بالطبع لا تخضع لمؤثرات البيئة التى تتطلب من بعض تركيبات الجسم اهمالا أو استعمالا.

ويدعى بعض العلماء وجود اصناف جديدة من الكائنات الحية بواسطة عملية الاستئناس والتربية الانتقالية ويدعون أنها توضح نوع وحجم التغير الذى يمكن ان يحدث فى الطبيعة فى صفات الحيوانات والنباتات بمرور الزمن.

وهناك من [الداروينيين] من يعتقدون بوجود دوافع داخلية فى الكائن الحى، تدفع به فى طريق التقدم والتطور، أى أنه هناك قوة داخلية لا ارادية تدفع بالكائن الحى دائما إلى الأمام. وكان علماء الحفريات فى الماضى يميلون الى الاعتقاد بأن كثيراً من

(=)

فهل كنا سنفترض ان هذه الاوراق قد ظهرت الى الوجود حيث هى الان؟ كلا بالتأكيد بل كنا سنفترض انها اجزاء من شجرة نمت من برعم بسيط، وانتجت اغصانا وغصينات نبتت منها الاوراق.

وعلى نفس النحو بدأ العلماء فى التساؤل عن احتمال وجود «شجرة للحياة» نمت وترعرعت بطريقة تشبه اية شجرة عادية، وعما اذا لم تكن الانوع الحالية قد نشأت من انواع ابسط، وان تلك الانواع ـ الاخيرة نشأت من انواع اخرى اكثر بساطة، الى ان تصل فى النهاية الى اصل واحد هو ابسط اشكال الحياة. تلك هى العملية التى تعرف باسم «التطور البيولوجى».

وحتى اوائل القرن التاسع عشر، كان العلماء قد اكتشفوا ودرسوا اشياء فى الصخور تسمى «الاحافير» وكانت لها هيئات العظام والاسنان والقواقع وغير ذلك من الاشياء التى كانت حية ذات يوم ولكن الصخور طويت عليها لملايين السنين حتى تحولت ببطء الى صخور هى الاخرى.

وكانت هذه الاحافير اشكالا من الحياة لا تشبه الانواع الحية تماما ولكنها تنتمى اليها. وامكن الربط بين تلك الاحافير وبين فروع سابقة فى شجرة الحياة، كما امكن بفضلها معرفة الطريقة التى تطورت بها انواع معينة من الاحياء.
فقد وجدت مثلا حيوانات تشبه الحصان كانت تعيش منذ ملايين السنين. وكانت صغيرة اول الامر وبكل رجل من ارجلها اربعة حوافر. وبعض الزمن وجدت انواع اخرى اكبر بحوافر اقل، الى ان ظهر الحصان الحديث الى الوجود فى نهاية المطاف.

وكانت هناك ايضا حيوانات اخرى اندثرت دون ان تترك وراءها خلفا مثل عائلة «الديناصور» الرائعة، تلك الحيوانات الضخمة التى تمت بصلة الى الزواحف الحديثة (ولا سيما التماسيح الامريكية) ولكنها اختفت جميعا من الوجود او «انقرضت» منذ نحو ٦٥ مليون سنه.

الصفات التطورية حدثت فى اتجاه تقدمى مستقيم غير متشعب ابتداء من الجد الأكبر للقبيلة حتى الفرد الأخير منها، وأن هذا يحدث نتيجة لوجود حافز حيوى يعمل من داخل الكائنات الحية. وان ذلك ضرب من [التطور] المحتوم الذى لا مفر من حدوثه.

أما الداروينيون المحدثون، فيرفضون ذلك، لأنهم اكتشفوا ـ على حد زعمهم ـ أن الخرتيت الذى ينتمى إلى مجموعة الخيول قد تفرع متطوراً من اتجاه مغاير لاتجاه الخيول الأصيلة... ويقولون: اذا كان هذا «التطور» يحدث امام عين الانسان وبتجابه.. وفى معامله والارض من حوله.. واذا كان قد لاحظ ذلك بنفسه فى تجارب استغرقت وقتا قصيرا للغاية (من عصر الحضارات حتى الان اى حوالى ١٥ ألف سنة تقريبا).. فعلينا (على حد قولهم) ان نقتنع بان تغيرات أكثر تأثيرا يجحب ان تكون قد حدثت فى جميع الكائنات الحية خلال فترة طويلة للغاية من الزمن منذ نشأة الحياة فوق سطح الأرض فى اوائل حقب «الباليوزوى» (Palaeszoic Era).

ان الكائنات جمعيا مكونة من مركبات كربونية نشأت اصلا فى المحيط ابدائى الاول. والحياة بدأت بجزئيات تكونت منها خلايا بسيطة يغلب على الظن انها تشبه البكتريا الى حد بعيد. واصبحت هذه الخلايا البسيطة اعلى مرتبة فى نظم حياتها وقامت بتكوين غذائها بنفسها عن طريق استخدام ـ الكلوروفيل. وافترق طريق الحيوان عن النبات حين فقدت بعض السوطيات الخضراء كلوروفيلها وبدأت تحصل على غذائها بأكل وهضم غيرها من الكائنات الحية.

ويرى العلماء أن الحيوانات الوحيدة الخلية الاولى أنتجت ثلاثة خطوط رئيسية من السلالات أدى أحدها الى البروتوزوا الحديثة، والثانى الى الحيوانات الاسفنجية، والثالث الى باقى الحيوانات العديدة الخلايا. ومن المرجح ان يكون اول حيوان عديد الخلايا قد نشأ عن مستعمرة مكونة من بضع مئات من الخلايا الفردية، وقد كونت هذه الخلايا حيوانا من طبقتين من الانسجة، احداهما داخلية وتعرف بالاندودرم وتبطن الفراغ الهضمى، والاخرى خارجية وتعرف بالاكتودرم.

ويزعم العلماء أنه نشأ بعد ذلك خطان من السلالات، أنشأ احدهما اللافقريات جميعا عدا قسم نجوم البحر، وأنشأ الثانى جيوبا ميزودرمية جوفاء تمتد من الاندودرم

كما أنشأ قناة هضمية ذات فتحة فم وفتحة است مستقلتين، واصبح هذا الخط السلالى هو السلف المشترك للحيوانات الجبلية وللمجموعة التى منها نجوم البحر[١].

وتظهر اهمية «الميزودرم» بوضوح فى حالة «البلاناريا» [Planaria] وهى دودة صغيرة منبسطة تعيش على بقايا المواد العضوية المتحللة فى الانهار - فبينما نرى فى الهيدرا أنسجة ولا نرى أعضاء، اذا بالبلاناريا تجهز من «الاندودرم» جهازا هضميا حقيقيا ذا تجويف كثير التفرع. وتتكون من «الميزودرم» اعضاء أجهزوة اخرى كالعضلات الكثيرة والأعضاء التناسلية وجهاز الاخراج المتخصص فى التخلص من المواد التالفة التى تتكون اثناء العمليات الحيوية المختلفة. وقد عمل الميزودرم على تنظيم تركيب الحيوان تنظيما متقدما، وذلك بتجميع الأنسجة معا لتكون الأعضاء[٢].

ويزعم العلماء أن الديدان المفلطحة قد أحرزت تقدما تطوريا هاما آخر، وذلك بنظام تماثل أجسامها الذى يختلف عن كل من قناديل البحر والبوليب، فلو أننا نظرنا إلى الهيدرا من طرفها العلوى لرأينا ان فى الامكان رسم خطوط عديدة تقسم الحيوان الى قسمين متساويين، مثلها فى ذلك مثل النجمة التى يمكن تقسيمها الى نصفين متساويين باى خط يمر فى مركزها.

وتظهر دراسة الأجنة أن سرطان البحر وأقاربه كالجمبرى وذات المائة رجل والحشرات والعناكب، لها سلف مشترك مع الحيوانات الرخوة (القواقع وذرات المصراعين والحبار وغيرها)، وكذلك مع الديدان الحلقية. وكما هو منتظر فان اطوار اليرقات، ان وجدت، تظهر القرابة بشكل اوضح مما تظهره الاطوار اليافعة. فالحبار مثلا (ويعرف ايضا بالسيبيا والسبيط وام الحبر) فى طوره اليافع اقل ما يكون شبها بديدان الارض، ولكن هذين النوعين يمتان بصلة قربى وثيقة لحيوانات تكاد يرقاتها ان تكون متماثلة. وهذه اليرقات الدقيقة التى تسبح حرة فى الماء ذات تماثل دائرى وجسمها مغطى تماما بالأهداب، مما يجعلها تظهر مختلفة تمام الاختلاف عن يرقفات

---

(1) Twenhefee, W., 1950: Principles of Sedimentation, Mc Grow - Hill, PP. 113-121.

(2) Ibid., PP. 135 - 140.

الحبليات الأولية البدائية ونجوم البحر ذات التماثل الجانبى والاهداب المتجمعة فى شرائط[1].

■ ـ وتتلخص النتيجة التى وصل إليها العلماء من مجموعة الشاهدات والفرضيات التى أوردناها فى ان خيوط [التطور] عند بلوغها احد المواضع فى مرحلة التطور التى نشأت ابانها الديدان المفلطحة، تفرعت الى فرعين منفصلين من السلالات قام كل منهما بانشاء تركيبات ارقى.

ومن التوزيع الجغرافى للكائنات الحية توصل العلماء الى وجود نمط تتميز به كل منطقة من المناطق فوق الارض بمجموعات من الحيوانات Fauna تختلف من منطقة لأخرى وان تشابهت المنطقتان فى المناخ. . مثل كل من اواسط افريقية وشمال أمريكا الجنوبية. . حيث تختص افريقيا بانواع خاصة من الحيوانات مثل الفيل والجاموس البرى والحمار الوحشى والزراف والقردة العليا، مما ليس له شبيه فى امريكا الجنوبية التى تتميز بوجود الخفافيش والثدييات عديمة الاسنان. . ويعزى العلماء استقلال كل من المنطقتين المتشابهتين فى المناخ بانواع خاصة من الحيوانات لى ان تطور حيوانات كل منهما كان مختلفا بسبب وجود حواجز طبيعية: Natural barriers ادت الى عزل Isolation كل من حيوانات المنطقتين عن بعضهما. . وانقرضت اسلافها فى بعض المناطق الاخرى اثناء صراعها من اجل البقاء.

ومن دراسة العلماء لاطراف الحيوانات المختلفة وجدوا تشابها كبيرا بينها، اما فى وظائفها او فى اجزائها. . والنوع الاول يسمى «تشابه وظيفى» Analogy . . وفى ذلك يرى العالم الامريكى [سيمبسون Simpson ان بعض الاعضاء الاثرية التى تفقد وظيفتها الاصلية قد يحدث فيها تخصص لاداء وظيفة اخرى. . فمثلا نجد ان جناح طائر البطريق Penguin ضامر الى حد كبير بحيث لا يسمح بالطيران. . ولكنه اصبح مجدافا كفوأ للسباحة، وكذلك جناح النعامة Ostrich صغير جدا غير انه

---

(1) Ibid., PP. 157 - 161

يستخدم فى تحقيق التوازن حينما يغير الطائر اتجاهه وهو يجرى بسرعة[١].

وتوجد عند علماء الأحياء امثلة اخرى للاعضاء المنقرضة فى حيوانات كثيرة. . من ذلك على سبيل المثال عدم وجود أية أطراف للثعابين. . ولكن بعض الانواع البدائية منها مثل (ثعبان البايثون Python) تحتوى على بقايا ضئيلة للطرفين الخلفيين[٢]. .

● ـ ونحن لا نرى فى ذلك شيئاً من الدعم العلمى لنظرية التطور الواهية. .

● ـ السلف المشترك للكائنات الحية قبل ظهور الانسان

ويفسر العلماء مسألة التشابه التشريحى بين الحيوانات بأن كل مجموعة منها قد توارثت خطة متشابهة من الاسلاف (Ancestors) المشتركة لهذه المجموعة، ولقد تحور كل قسم او جنس او نوع من هذه المجموعة بطريقة خاصة تبعا لنوع حياة الحيوان. . ولكنها ظلت جميعا متشابهة، فلو قارنا بين أجزاء الطرف الامامى للطائر والخفاش نجدها متشابهة تقريبا، وكذلك فهى تؤدى نفس الوظيفة وهى الطيران. . مع اختلاف بين الريش فى جناح الطيور والجد فى جناح الخفاش. . ويستنتج العلماء من ذلك ان المنشأ هو (سلف مشترك) واحد Common ancestor . . كما لاحظ العلماء ان الحيتان Whales وجميع الثدييات الاخرى تشترك فى التشابه بين الاطراف الامامية بالرغم من بقاء الحيتان فى الماء، مما جعل العلماء يستنتجون ضرورة وجود سلف واحد مشترك لكل منها فى الماضى السحيق يفسر لنا وجود التراكيب المتشابهة بين الحيوانات المختلفة[٣].

كوفيية يهدم نظرية السلف المشترك للكائنات الحية:

وهو عالم فرنسى شهير تخصص فى علم الحفريات رفض الايمان بنظرية التطور وقال بأن العالم تعرض لسلسلة من الانقلابات والثورات الطبيعية، وكانت هناك فترة من الزمن بين كل انقلاب وآخر، هى ما نسميه الآن بالعصر الجيولوجى.

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٦٨.

(٢) على احمد الشحات ـ نظرية التطور ـ القاهرة ص ٧٢ ـ ٧٤.

(٣) د. علم الدين كمال ـ المرجع السابق ص ٩٦٥.

ويقـول بأنـه فى نهاية كل فترة كانت الحيوانات الموجودة تفنى عن آخرها نتيجة لاحدى الكوارث الطبيعية التى يخصصها الخالق الأعظم سبحانه وتعالى لتبديل أمم المخلوقات بأمم أخرى، ثم تبدأ الفترة التالية بخلق جديد.

أما أوجه الشبه بين المجموعات المتعاقبة، فقد فسرها «كوفيية» بأنها جاءت نتيجة لأن الخالق يعيد خلق الكائنات على صورة أفضل من السابقة، وأقرب إلى الكمال، فتظهر نتيجة لذلك ما يسميه العلماء الآن بالصفات التطورية.

وبدراسة العلماء للتاريخ الجيولوجى للارض وجدوا ان البرمائيات قد نشأت من بعض قصيرات الزعانف بتحول الزعانف الى ارجل وتلاشى الخياشيم مما جعل عبء التنفس يقـع بأكمله على الـرئتـين والجلد، وفى الـوقت ذاته كون جزء من القوس الخيشومى الثانى عظمة الاذن الوسطى التى تتولى نقل ذبذبات الصوت التى يحملها الهواء من طبلة الاذن الى الاذن الداخلية.

ووضعت احـدى سلالات الـبرمـائيات بيضـة ذات غطاء واق لتـلائم المعيشة الارضية، وجلدا جافـا غير منفـذ للماء، وحزاما حوضيا يستند الى فقرتين وبذلك اصبحت زواحف بدائية.

وأصبحت بعض الـزواحف «شبيهـة بالثـدييات» بانشـاء فتحة فى الخد لتتسع عضلات الفك، وبزيادة نمو احدى عظام الفك الاسفل، وتتحول الاسنان الى عدد من الاشكال المتخصصة. ونحن نقول هنا ان دل ذلك على شيء فانما يدل على عظمة الله وانفراده بالخلق.

ويقول العلماء أن الزواحف أصبحت بعد ذلك شبية بالثديات من الحيوانات ذات الـدم الحار، ويشمل ذلك تكون سقف الحلق والحجاب الحاجز وغطاء من الشعر وارضاع الصغار. وكانت هذه الحيوانات هى الثدييات الاولى.

ويقول العلماء أن خطا من خطوط سلالات الثدييات قد استقل مكونا اول آكلات للحشرات بتحسـين طريقة التكاثر. ويشمل ذلك انشاء الرحم، والمشيمة والحبل السرى فى الجنين. . ونحن نقول لهؤلاء العلماء، وهل يكون ذلك الا بقدرة الخالق الواحد سبحانه وتعالى؟ . . ثم يزعم العلماء أن آكلات الحشرات البدائية قد قامت بنشـاء انتج جميع [الثدييات المشيمية] التى تعيش اليوم. وكان من بينها مجموعة

تتكون من «الليموريات والتارسيويدات» تتميز بايد قابضة لها بعض الاظافر المسطحة على الاقل، وبنصفى كرتين مخيتين كبيرين نوعا ما، وكانت العين قد اصبحت اهم اعضاء الاحساس[1].

وقـد أيد بعض العلماء مبدأ [التشبع التكيفى] أو [الانتشار البيئى] زاعمين ان السلالات التى تنحدر من أصل واحد قد تنتشر انتشاراً كبيراً فى بيئات مختلفة إذا ما سنحت لها الفرصة، ويكون لكل منها صفات خاصة ملائمة للبيئة التى تعيش فيها. ويقولون أنه بدراسة [الثدييات المشيمية الراقية] وجد ان أسلافها كانت تعيش على هيئـة حيوانـات صغـيرة من آكلات الحشرات، وذلك عند نهاية عصر الزواحف، ويزعمون أنه باندثار حيوانات [الديناصور] العملاقة، أصبحت الفرصة مهيأة أمام هذه الثـدييات للتطور والأنتشار، فبدأت تعيش فى بيئات مختلفة، وتتخذ كل منها صفات خاصة بها حسب ظروف بيئتها. . وأنه تبعا لذلك ظهرت اسلاف الثدييات المتنوعة التى نعرفها كالخفاشيات والحيتان والبقر والقردة والأسود. . وغيرها. .

ومن دراسـة الحفريات المختلفة Faleeontology وضع العلماء ايديهم على ادلة اخرى على احتمال حدوث التطور البيولوجى للكائنات الحية قبل ظهور الانسان على الارض. . فقد وجدوا ان السجل الحفرى يشتمل فى اول صفحاته على حيوانات تختلف عن تلك التى نشـاهدها فى صفحات المعاصرة. . ويبدأ بحيوانات تختلف اختلافا كبيرا، ثم اعقبت هذه تدريجيا بحيوانات اخرى اكبر شبها بحيواناتنا الحديثة حتى تمتزج تلك بالحيوانات التى تعيش فى وقتنا الحاضر[2].

ويزعـم الداروينيون أنهم من خلال دراسة الحفريات القديمة لمسوا تطور الانواع ببطء واستمـرار حتى تغيرت هيئة الحيوانات والنباتات من فترة الى اخرى ولاحظوا ازدياد الاختلاف بينها ووضوح معدلات التغير مع مرور الزمن. . ويقولون ان ذلك لا يتطلب ان تكون سرعة التغير فى المجموعات المختلفة (او فى الانواع المختلفة لنفس المجمـوعـة) ثابتـة. . فمن الدراسات الجيولوجية للحفريات وجد العلماء ان تطور الخيول قد استغرق ما يقرب من ٥٠ مليون سنة، ويقولون انها هاجرت. . [او بعضها

(١) روبرت ل. ليرمان ـ المرجع السابق ص ٢٥٩.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٦٩.

على الأقل] من امريكا الشمالية الى اوربا، وانها كانت ضئيلة الحجم، اذ ان الحفريات تدل على ان جسمها فى حجمه لم يكن ليزيد على حجم جسم الثعلب وارتفاعها لم يكن ليتعد القدم الواحد، وكانت قصيرة الساق بها اربعة اصابع فى الامامية وثلاثة فى الخلفية، وكذلك لم تكن عيناها على جانبى الرأس كما هى الان، بل كانت فى الجزء الامامى . . وكانت بطيئة السير وتلوذ بالفرار بين الحشائش والنباتات.

العقم التطورى والانقراض

يزعم الملحدون من اتباع المذهب الداروينى ان بعض الأنواع الحية تظل ثابتة خلال فترات طويلة من الزمن، لا يطرأ عليها تغير ما، ويطلق على هذه الظاهرة اسم «العقم التطورى»، أى توقف عملية التطور، ومن ثم يحدث انقراض مجموعات مختلفة من الحيوان بعد ان تكون قد وصلت إلى مراحل معينة من التطور.

وبعض الملحدين من الداروينيين المحدثين يزعمون ان تفسير هذه الظاهرة هو أن الكائن الحى يكون قد وصل الى اقصى ما يمكن أن يصل إليه من التكيف مع بيئته.

ولقد قامت مناقشات حامية بين العلماء حول الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى انقراض الحيوانات . . إلا أنهم لم يصلوا إلى شىء يمكن الاعتماد عليه.

وقد اصبحت الكائنات الحية تثير امام القائلين بالتطور مشكلات كثيرة فبعض الكائنات ذات الخلية الواحدة مثل الاميب، تتكاثر من غير لقاح جنسى بل انها تنقسم على نفسها وتشكل كائنات مثلها. فاذا كان الانتاج من غير لقاح جنسى ناجح، وهو ناجح حقا، على اعتبار انه يوجد حتى اليوم كائنات تتكاثر بهذه الطريقة فلماذا توجد مخلوقات تتكاثر بالتلاقح؟ وكيف تستطيع اعضاء تناسل كل من الذكر والانثى، أن تتطور تدريجيا وبنسبة واحدة مع انها تكون غير نافعة قبل تكونها النهائى؟

واذا كانت غدد اثداء النساء، وغدد ضروع الحيوانات قد نمت بتطور بطىء فكيف استطاعت هذه الاناث ارضاع اطفالها قبل ان يكتمل نمو غدد الاثداء والضروع؟ واذا كانت لديها وسيلة اخرى لتغذية اطفالها فلماذا كانت بحاجة الى انماء الاثداء والضروع؟ واذا كانت الغدد الثديية والضرعية قد ظهرت لانها كانت تمثل طريقة رفيعة لتغذية الاطفال فلماذا يوجد حتى اليوم حيوانات تغذى اطفالها بطرق اخرى، وان هذه الحيوانات تعيش كما تعيش ذات الاثداء والضروع؟.

نظرية النماذج الأصلية

غير ان العلماء يشيرون الى وجود أدلة على حدوث التطور من علم التقسيم Evi-dences From Taxonomy حيث قالوا بأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الكائنات الحية من مجموعة التصميمات Plans تعرف بالنماذج الاصلية، وانها لم تكن فى نفس المرتبة. . فمثلا كل رتبة «مثل الزواحف» تمثل نموذجا اصليا رئيسيا، بينما تماثل الفصائل المختلفة داخل الرتبة الواحدة (مثل السحالى او التماسيح او السلاحف) نموذجا اصليا ادنى مرتبة. . وهكذا. . . ومن اهم هؤلاء العلماء العالم السويدى لينيوس Linnaeus والعالم البيولوجى البريطانى John Ray . . ويقولون بان التصميمات او النماذج الاصلية تتدرج من القبائل الى الرتب فالفصائل Classes فالعائلات Families فالاجناس فالنوع Species وكان هذا التقسيم يشبه الى حد كبير فروع شجرة العائلة، فترتيب هذه الاقسام يوحى بشدة بانها نشأت بواسطة التطور كل من المرتبة التى تسبقه. . وبالرغم من ان الشجرة التصنيفيه من صنع العلماء فانها توحى اليهم بان الكائنات الحية قد اتبعت هذه الطريق اثناء نشوئها. . من بذرة واحدة. . هى اصل الانواع. . [1].

ولا شك ان الهيئات التى تنتمى الى الطبقة العامة من الحيوانات «الجالسة» اى الكائنات العضوية المعقدة ـ اى المتصلة بالقاعدة مباشرة ـ وهى بداية عالية فى مظهرها التكوينى هى اعضاء شعبة اللاحشرية ـ وهى حيوانات بحرية لا فقارية ذات تجويف بطنى يعمل عمل القناة الهضمية بما فى ذلك هيئات قاع البحر المعقدة اى المتصلة بالقاع مثل شقار البحر ومتعدد الرؤوس والشعب المرجانية مع قنديل البحر، كحيوانات حرة فى طفوها. ومعظم الحيوانات المعقدة تعتمد فى طعامها على الطفيليات الصغيرة التى تطفو حولها فى التيارات. والمقعدات هذه لها خاصية واحدة جعلتها ناجحة نجاحا متوسطا بطريقة غير عادية. فقد كونت خلايا لاسعة غريبة يمكن القاؤها مثل شص دقيق لأسر المخلوقات ذات الحجم الكبير وحتى الاسماك الصغيرة.

وشعبة ثانية رئيسية معظم اعضائها من الحيوانات المقيمة اى التى تكثر من

---

(1) G.S Carter - Animal Evolution, PP. 113-121.

الجلوس هى الحيوانات الرخوية. فالمحار والبطلينوس والقواقع تمثل هذه الحيوانات الـرخـوية ومعظمها هيئات مقيمة، تعيش على ذرات الغذاء الذى يجرفه التيار الى الجسم المغطى بالصدف. . والحيوانات الرخوية تصور بطريقة معقدة الطريقة التى ربما تحدث بها التغييرات الجذرية فى شكل الحياة اثناء تاريخ التطور. . ويوحى شكلها المتطور بأن الحيوانات الرخوية المقيمة قد تطورت فى الأيام القديمة من ديدان حلقية نشطة سابحة. .

■ - وهذه النظرية تبدو غير ممكنة ولا تخرج عن حيز الفرضيات حتى لو ادعى بعضهم اكتشـاف نوع قوسى من الحيوانات الرخوية منذ سنوات قليلة مضت فى اعـماق المحيط البـاسيفيكى يحتمـل ان يكـون اثـار من الجسم [الحلقى الاصلى] وفصوصه وهو الذى ضاع كله فى الحيوانات الرخوية النموذجية ونحن نرى انها مجرد فرضيـة ناقصـة حتى لو ادعى بعضهم انـه بعـد ان اصبحت عقيمـة هبت بعض الحيـوانات الرخوية الى النشاط مرة اخرى وان هذه هى حالة الحيوانات الرخوية المقسمة الى اجزاء صغيرة والمعروفة علميا باسم الحيوانات راسيات الارجل التى كان لها قواقع متطورة تطورا جيدا، او الانواع الحديثة التى قللت من الغطاء المحارى وبذلك نقصت من وزنها، وأنه على ذلك اصبحت اعظم نشاطا وعداء كسكان للمحيطات[1].

---

(١) انظر فى ذلـك:

Russel, F.S. et al., 1947: The Seas, Fred. Wor. and Co. Ltd., PP. 220-231.

عَالَم الفقاريات فى التاريخ الجيولوجى القديم

مازال بعض العلماء يزعم أنه كانت هناك شعبا مفقودة وكانت فى البدء اجدادا للحيوانات الجالسة بدلا من المتحركة. كما يزعمون أن الاعضاء البدائيين كانوا عبارة عن حيوانات صغيرة مقيمة غير مهاجرة واحيانا لها ساق فوقها نقطة لحمية تحتوى على تجويف صغير يعمل عمل القناة الهضمية، وفى أعلى يوجد فم وفوق الفم فى جميع الاعضاء البدائية لكل فريق، اذرع تسمى «لوفوفورش» من اثنين الى ستة او نحو ذلك ممتدة الى اعلى والى الخارج لجمع ذرات الطعام وكل ذراع به يد من الاهداب لحمل هذه الذرات الى الفم المفتوح(١). ويدعى العلماء أن تلك المخلوقات أخذت تسير فى اتجاه الحيوانات الفقارية الحقيقة مثل فى الحيوانات البحرية الصغيرة المعروفة باسم الـزقيات (حيوانـات بحرية شبيهه بالزقاق) كالحبار. وهى ملتصقة عادة وفى مستعمـرات ولكنهـا احيانا تطفو بحرية. وفى هذه الحيوانات الدقيقة جهاز تصفية الطعام او شقوق الخياشيم متطوره بدرجة عالية حتى ان اعظم جزء من الحيوان يحتوى على برميل ضخم مناسب وحنجرة تحيطها مجموعة معقدة من فتحات الخياشيم. وقد يكون هذا النوع النهائى لحيوانات الطعام الطافية على هيئة يرقية، [افتُرِضَ] وجودها فى اجـداد الـزقيات وتشير الى اتجاه تطورى جذرى جديد. وفى هذه اليرقية توجد تكوينات تسمح للحيوانات الصغيرة بان تسبح بحرية تامة لفترة قصيرة بطريقة فرخ الضفدع. وبالتباين مع الزقيات البالغة فان هذه اليرقة لها مخ بدائى واعشاء حس ويجـرى فى خلف الجسم حبـل عصبى مثـل ذلك الذى يوجد فى جميع الفقاريات الحقيقية وتحت هذا الحبـل العصبى يوجد تكوين طولى قوى اى الحبل الظهرى، الموجود فى جنين اى حيوان فقارى وهو السلف للعمود الفقرى. وفى الزقيات الحديثة فان هذه اليرقة تستمر لعدة ايام قليلة او ساعات قبل ان تستقر لكى تصبح فى حالة بلوغ وهيئة متكاملة ويفترض العلماء انه فى بعض مراحل العصر [البليوزويك] فان يرقة من هذا النوع استمرت لكى تصبح كاملة الانوثة وعلى ذلك بدأت مجموعات جديدة من الحيوانـات النشـطة جاءت منهـا الفقاريات ونسبت أجدادها الهدبية.

[ويرى بعض العلماء]:-

---

(1) Ibid., PP. 235-238.

● ـ ان اقـدم الفقـاريات المعـروفة، والتى يرجع تاريخها الى ٤٠٠ مليون سنة مضت، او نحـو ذلك فى العصر الاردفيشى للدهر القديم لم تتقدم فعلا فيما وراء المرحلة التى ترى فى ضفدعة الزقيات فيما عدا انها وصفت بانها ذات درع سطحى عظمى بافتراض انها حماية ضد الاعـداء غير الفقـارية. وهى مثـل اقـربائها من الحيوانات الجبلية كانت ولا تزال تتغذى بالمصافى وتصنع بديهيا معيشتها بتصفية المواد الغذائية من خلال بلعوم ضخم[1].

● ـ هذه الفقـاريات الاولية تسمى OSTRACODERMS اصبحت منقـرضـة بوقت طويل قبل الدهر القديم. واقرب نسلها الحى هى الاسماك الجلكية واسماك الحريث (المفترسة للاسماك الاخرى) فى المياه الحالية.

وبالرغم من ان البحر كان المصدر الذى جاء منه اجداد الاسماك، فمن المحتمل ان معظم تطور الاسماك، وعلى الاخص تلك ذات التطور العظمى الاعلى حدث فى المياه العذبة. ويحتمل وجود اثنين من الاقسام الثلاثة الرئيسية للاسماك العظيمة كان لهما شأن قليل مع البحر، فالاسماك المزدوجة التنفس كالاسماك الرئوية، وهى نادرة اليوم، كانت كثيرة فى البحيرات والنهيرات فى ايام الدهر القديم ولكن قليلا منها دخل البحـر. وبطريقة ما وبالمثل سجل تاريخ فريق ثان لاسماك CROSSOPTERYS نفس الأسلوب والنمط الحياتى. وهـذا النـوع من الاسماك على درجة عظيمة من الاهمية لانه كان السبب فى ظهور الفقاريات الارضية. ولكنه كسمك، كان متوفراً فى المياه العذبة وسرعان ما نقص عدده وانقرض تماما قبل نهاية الدهر القديم. وتكشف الاثـار الحفرية ان فرعا جانبيا خاصا من هذه الاسماك يسمى COELACANTHS غادر المياه العذبة مبكرا الى المحيط. ولكن سجل الحفريات قادنا لنعتقد انها اصبحت منقرضة فى اخر ايام [الديناصور]. وعلى ذلك كان الامر على درجة كبيرة من الاهمية العلمية عندما عثر على واحدة منها حية منذ عدد قليل من عشرات السنين اسمها LATIMERNA وقد اكتشف في المياه العميقة للمحيط الهندى الغربى[2].

---

(1) Ibid., PP. 278-281.

(٢) الفرد شيroood رومر ـ المرجع السابق ـ ص ٨١.

● ـ ان تاريخ الفريق الثالث من الاسماك العظيمة يختلف تماما اسماه -AC TINDPTERYGII او اسماك «الشفتين» ذات الزعاف لان زعانفها المزدوجة على عكس زعانف السمك الرئوى لها لحم قليل او هياكل، وبدلا من ذلك فهى اساسا عبارة عن انسجة من اللحم تقويها خيوط قرنية. وفى الايام المبكرة او الاولى لتاريخ السمك العظمى كان وجودها نادرا نسبيا ولكنها زادت فيما بعد بسرعة فى اعدادها وانواعها. وبالرغم من انها مثل الانواع العَظْمِيَّة الاخرى، فربما تكون قد نشأت فى المياه العذبة ثم بعد ذلك غزت البحر وملاءت المحيط منذ ان ظهر الجزء الاعظم لتعداد الاسماك واوجد ممثلين لهذا الفريق المعروف باسم الاسماك العظمية وربما اشتمل على ٣٠٫٠٠٠ او نحو ذلك من الانواع المختلفة من الاسماك البحرية وعدد افراد هذا الفريق لابد انه كان بالوف الملايين(١).

صور الحياة على اليابسة فى العصر السيلورى

دعنا الان نتحول الى صورة الحياة على اليابسة أثناء العصر السيلورى كما يفترضها العلماء فالنباتات وبعدها الحيوانات غزت المياه العذبة ثم بعد ذلك اليابسة. وتقدمت النباتات من البحر الى داخل مياه البلاد فى العصر السيلورى منذ ٤٠٠ مليون سنة مضت او نحو ذلك، ان لم يكن من قبل، ثم ابان العصر الديفونى الذى تبع العصر السيلورى فتقدمت الى الحد الذى نعرفه من الغابات المتحجرة لهذه الايام. وتطور الحيوان وتقدمه نحو وعلى اليابسه لم تكن له جبهة عريضة لان الانواع البالغة النشاط استطاعت ان تدخل المياه العذبة وتحمل التدفق المتجه الى مجارى القارات.

ويرى العلماء ان الانواع المختلفة تشبه بعضها البعض فى اطوارها التكوينية المبكرة اكثر من التشابه الموجود بين الاطوار اليافعة. . ومن ثم ـ وحسبما يرى العالم الالمانى فون بير Von Baer ـ قال العلماء ان الحيوان اثناء تكوينه (الجنينى) لا يمر بالاطوار اليافعه للحيوانات الاخرى وانما يبتعد عنها. . وبمعنى اخر. . يقول العلماء ان

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٠ : ٢٨٨.

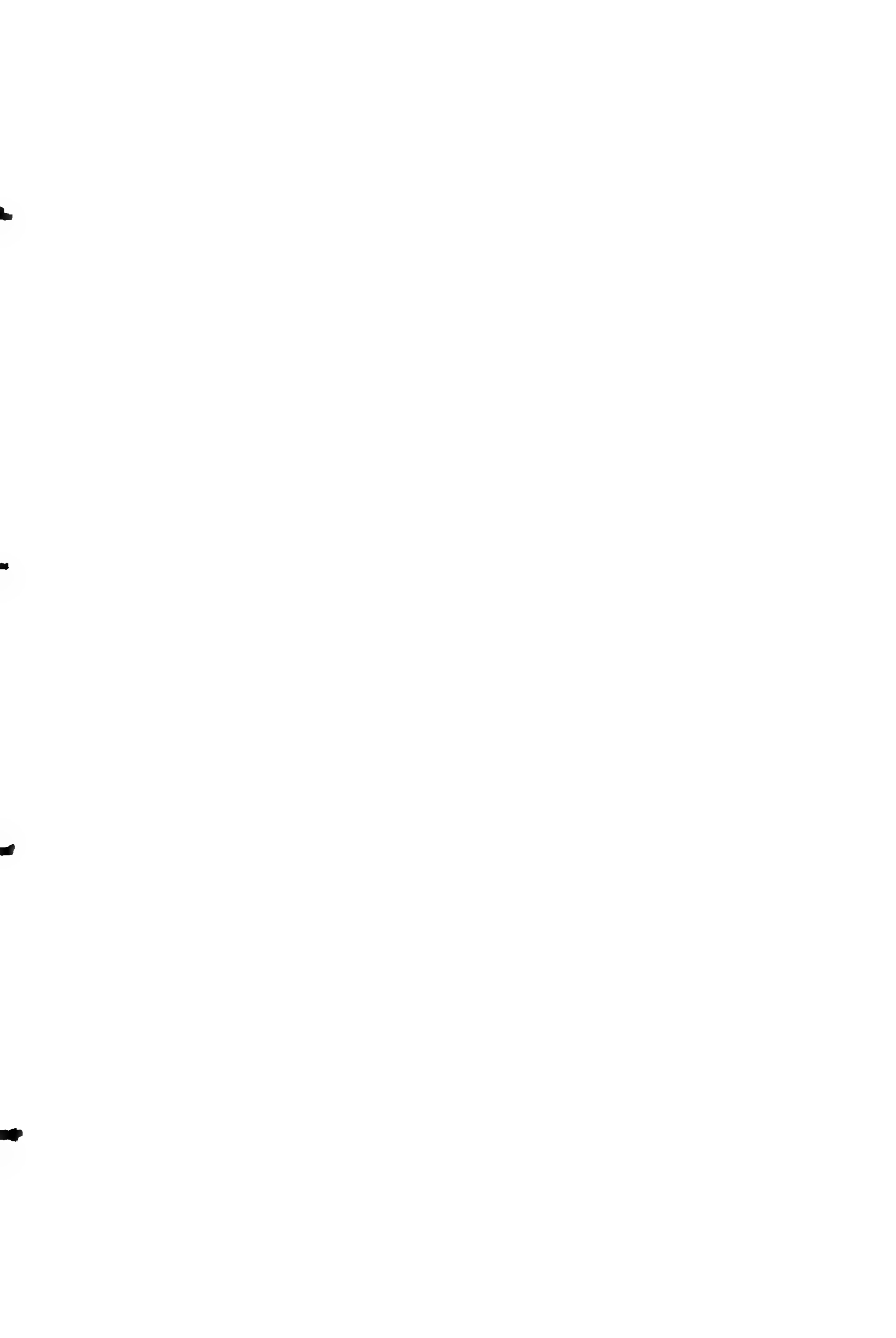
الحيوانات تختلف فى اطوارها البالغة بعضها عن بعض بشكل واضح، بينما تتشابه اجنتها تتشابه تشابها كبيرا لدرجة قد يصعب فيها التفرقة بينها فى الاطوار الاولى من تكـون تلك الاجنـة، ولكن مع تقـدم عملية التكـوين، تنمـوا وتتطور اجنة تلك الحيوانات وأنه كلما نمت بعض الشىء اختلفت فى الملامح عن بعضها بعضا. ويرى العلماء أن علم الاجنة المقارنة Comparative Embryology بذلك يكون قد ساعد على معرفة القرابة او الصلة او وحدة الاصل بين كثير من الحيوانات[1]. .

■ ـ وكيف لا تتحد المملكة الحيوانية بكل انواعها فى الاصل. . والخالق العظيم سبحانه وتعالى واحد. . ؟ . . ﴿**أم خلقوا من غير شىء** أم هم الخالقون﴾. . (الطور: ٣٥).

● ـ واذا كانت كل هذه الحيوانات والنباتات تختلف عن بعضها اليوم وتختلف كلها عن الصورة الاصلية الاولى، فقد امرنا الله سبحانه وتعالى ان نسير فى الارض لنرى كيف كانت تلك الصورة الاولى لنعرف ان قصة الخلق الطويلة لتلك الكائنات انما تشهد على قدرة الله الواحد الخالق المبدع المصور. . فسبحان الله. . وتبارك الله احسن الخالقين.

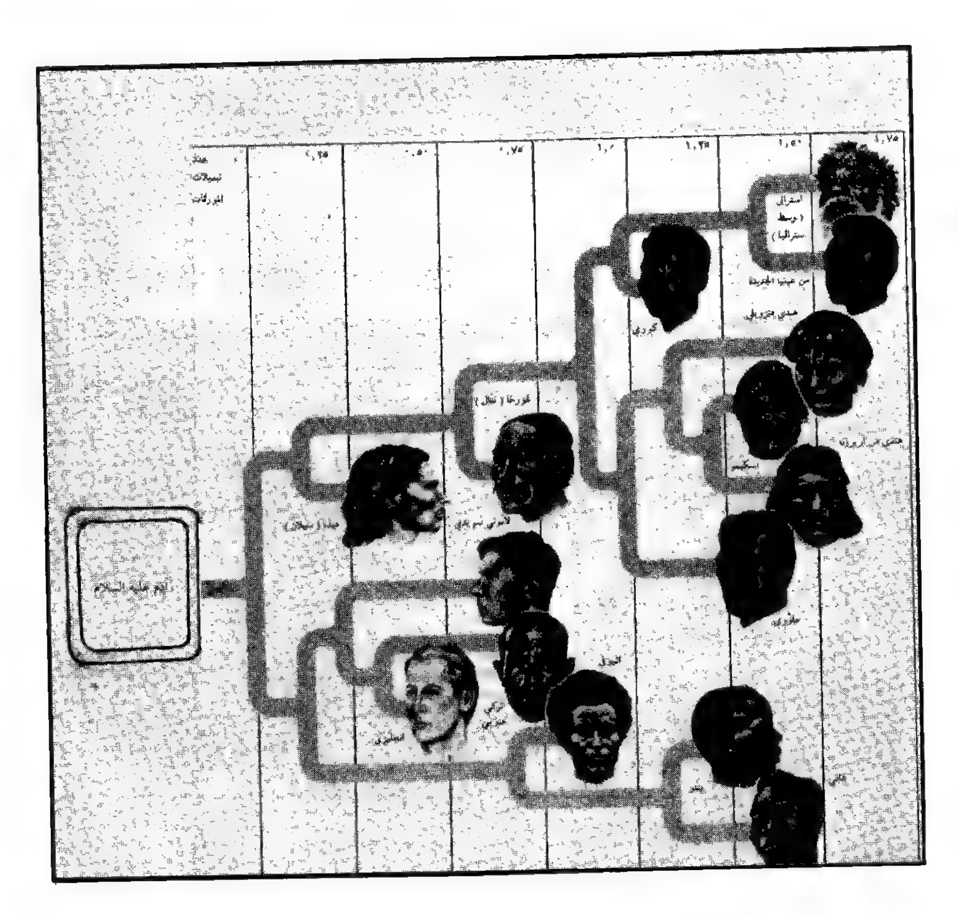
---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضـر ـ المرجع السابق ـ ص ٨١.



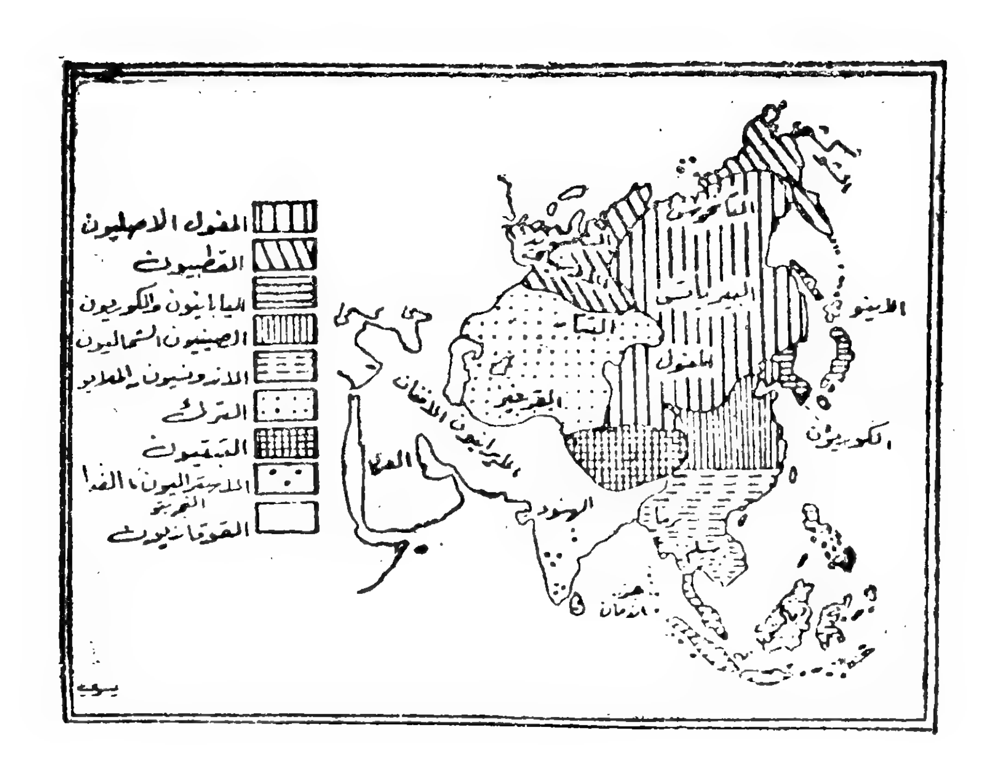
الفصل الثالث
الأجناس البشرية القديمة وانتشار الانسان فى الأرض

- السلالة وأسس تصنيف البشر.
- تصنيف الأجناس البشرية.
- أهم الأسس أو الصفات التى اتخذت أساساً لهذا التصنيف.
- دوافع انتشار الأجناس البشرية فى الأرض.
- الوطن الأول للانسان.
- الاجناس البشرية القديمة فى افريقية.
- التوزيع الجغرافى للأجناس البشرية فى افريقية القديمة.
- الذبذبات المناخية ومراحل التحضر البشرى.
- الانسان كعامل جغرافى.
- أثر الانسان فى البيئة وتأثره بها.
- القنص والصيد عند الانسان القديم.
- العوامل التى أثرت فى انتشار الاجناس البشرية فى الأرض.
- اكتشاف النار.
- الطقوس الجنائزية.
- الفنون البدائية وأنماط التحضر البشرى فى العصور القديمة.
- المعتقدات القديمة والنظم الاجتماعية.



المصدر/ بهجة المعرفة ـ الانسان ـ الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان.

● ـ أقر الاسلام بكل وضوح وحدة [الأجناس البشرية] فى النشأة والمصير، وأمر بالمساواة الكاملة بين جميع أفراده.
قال تعالى: ﴿**يآ أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وإنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾ [الحجرات/ ١٣]

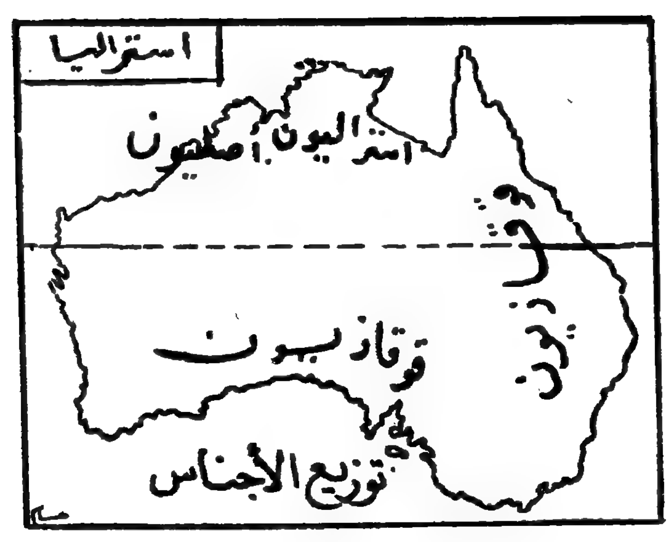


نقلاً عن/ د. يسرى الجوهرى ـ الانسان وسلالاته ـ منشأة المعارق بالاسكندرية ـ مصر

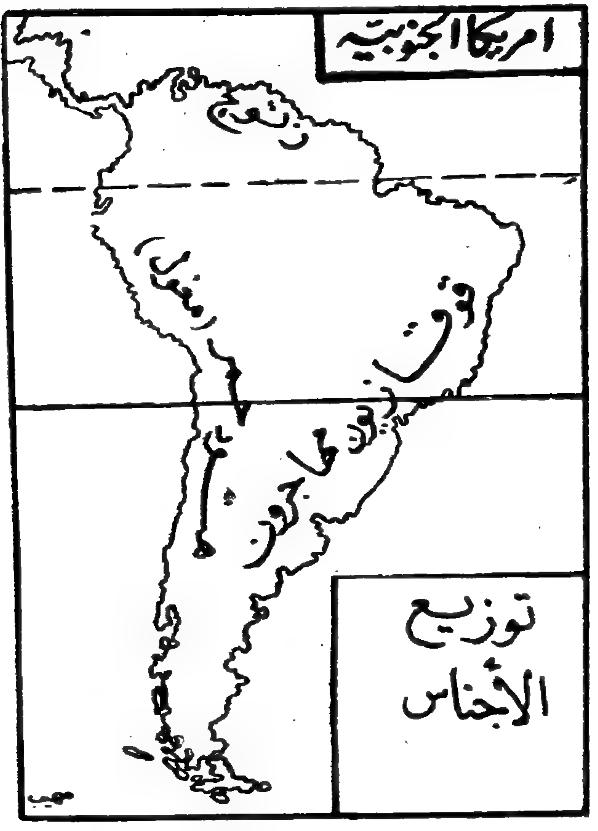
الأجناس البشرية

في

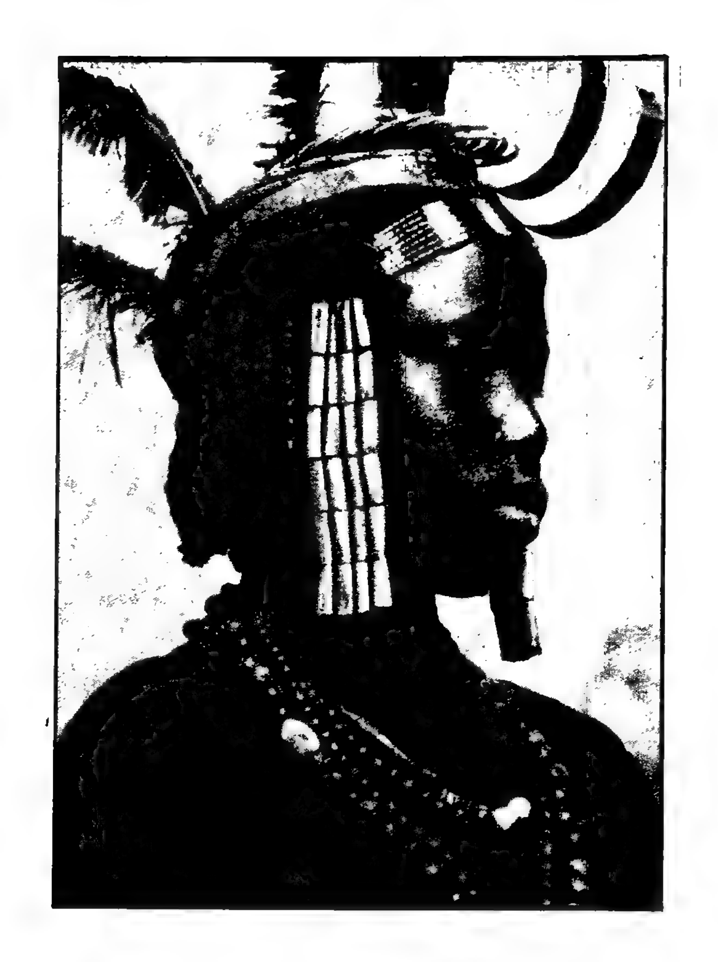
أسيا



توزيع الأجناس البشرية فى استراليا



توزيع الأجناس البشرية فى أمريكا الجنوبية



National Geadraphic Society. /المصدر

ملامح افريقية تبدو واضحة من تقاسيم
وجه هذه الفتاة الزنجية

السلالة وأسس تصنيف البشر

■ ـ معنى السلالة: مجموعة كبيرة من الناس تشترك مع بعضها فى صفات جسمية ظاهرة ثابتة تنتقل بالوراثة، ويعتبر الانسان من نوع متعدد Polytypic Species إذ أنه يتكون من عدد من الأجناس الفرعية، وهذا التعدد نشأ نتيجة الزيادة فى العدد ثم العزلة عن طريق الحواجز الجغرافية.

● ـ تعريف آخر: جماعة من أفراد البشر تتصف بصفات بدنية معينة وراثية تميزها عن غيرها من الجماعات.

تصنيف الاجناس البشرية

● **ـ تصنيف دنكر** J. Deniker :ـ

أول تصنيف علمى للأجناس البشرية، استطاع به دنكر أن يميز بين مجموعات بشرية رئيسية على أساس [شكل الأنف ـ وشكل الرأس ـ شكل الشعر ولونه ـ لون العين]. وهى :ـ

١ ـ مجموعة الشعر الصوفى والأنف العريض وتشمل البوشمن والهوتنتوت فى إفريقيا والأقزام الآسيوين فى آسيا.

٢ ـ مجموعة الشعر المجعد أو المموج وتشمل الدرافيدين والاستراليين والأثيوبيين.

٣ ـ مجموعة الشعر المموج والعيون الداكنة وتشمل الأفغانيين، والادرياتيين والديناريين، والعرب، والبربر، والأوربين.

٤ ـ مجموعة الشعر الأصفر المموج أو المستقيم والعيون الفاتحة وتشمل الأوربيين الشماليين.

٥ ـ مجموعة الشعر المستقيم المموج الأسود والعيون الداكنة وتشمل البولينيزين والاندونيسيين.

٦ ـ مجموعة الشعر السبط المغولية وتشمل الهنود الحمر فى الامريكتين والمغول الشماليين والاسكيمو.

● ـ **تصنيف هادون A.C. Haddon سنة ١٩٢٧ :ـ**

وقد اعتمد فيه على شكل الشعر ثم مجموعة من الصفات المساعدة كشكل الرأس ولون البشرة وطول القامة فى تقسيم المجموعات الجنسية الكبرى إلى مجموعات أصغر تشترك فى صفات عامة للمجموعة. وهى :ـ

١ ـ المجموعة الزنجية [الشعر الصوفى] وتشمل الاندمان ـ السيمانج ـ الأيتيا ـ التابيرو ـ الميلانيزين ـ البوشمن والهوتنتوت ـ الزنوج النيليين ـ والبانتو].

٢ ـ المجموعة القومازية [الشعر المموج] وتشمل : الدرافيدين ـ الساكاى ـ الفدا ـ الاستراليين ـ الهنود ـ الأفغان ـ النزويق ـ سلالة البحر المتوسط ـ الساميين ـ الأوربيين ـ الأناضوليين.

٣ ـ المجموعة المغولية [الشعر المستقيم] وتشمل : الاسكيمو ـ الأرمن الشماليين ـ الأتراك ـ التنجس ـ المغول، البولينيزيين.

● ـ **تصنيف فون ايكشتد E.Von, Eiekstedt سنة ١٩٣٣ :ـ**

وقد قسم الأجناس البشرية إلى ثلاث مجموعات رئيسية وهى الأوربيون (البشر الغربيون)، والسود (البشر الجنوبيون)، والمغول (البشر الشرقيون) مع وجود مجموعات فرعية آخرى، وافترض أن الوطن الأصلى للانسان هو سهول التركستان التى انتشر منها الى باقى آسيا، وذكر أن العزلة الجغرافية هى المسئولة أولاً وقبل كل شيء عن ظهور المجموعات البشرية الكبرى.

● ـ **تصنيف هوتون A.E. Hooton :ـ**

قسم (هوتون) البشر الى ثلاث مجموعات رئيسية وهى البيض أو القوقازيين، والزنوج والمغول، واستخدم فى تقسيمه هذا لون الشعر والعين وشكل الرأس ـ وذلك حسب التصنيف الآتى :ـ

١ ـ القوقازيون البيض (الأوربيون والافريقيون الشماليون) وتضم مجموعات فرعية منها مجموعة البحر المتوسط، والاينو، والكلتيون والنورديون ـ والألبيون ـ والاستراليون ـ والتسمانيون ـ والدرافيديون ـ البولينيزيين ـ الأرمن.

٢ ـ الزنوج: الاقزام النجريللو ـ البوشمن ـ الهوتنتوت ـ الميلاينيزيين.
٣ ـ المغول: المغول الأصليون ـ الاندونيسيون ـ الهنود الحمر.

● ـ **تصميف سونيا كول Sonia Cole :ـ**

وهو يعتبر من أفضل التقسيمات البشرية لسهولته، ولأنه أدخل فى الاعتبار عند التصنيف فصائل الدم التى تعتبر من أدق وأحدث طرق التصنيف، وقد قسمت سونيا الأجناس البشرية إلى ٤ أقسام رئيسية هى :ـ

١ ـ المجموعة القوقازية وقد ضمت جنس البحر المتوسط ـ الألبيين ـ النوردين ـ البربر ـ المصريين ـ الأثيوبيين ـ الصوماليين.

٢ ـ المجموعة المغولية وقد ضمت: الاسكيمو ـ الهنود الحمر ـ الأتراك ـ مغول التبت وشرق آسيا ـ الصينيون.

٣ ـ المجموعة الزنجية وقد ضمت: الزنوج الحقيقيون. الأقزام (النجريللو) ـ الحاميون النيليون ـ البانتو ـ البوشمن والهوتنتون ـ الشعوب الخويسانية.

٤ ـ المجموعة الأسترالية، وقد ضمت: الاستراليين الأصليين ـ الاينو ـ الفدا ـ الميلانيزيين.

والصفات التى تميز أجناس البشر هى صفات جسمية ظاهرة، ولا ينظر الى صفات أخرى كالصفات الثقافية فاللغة أو الدين أو الثقافة انما هى صفات مكتسبة فلا يوجد سلالة مصرية أو سلالة انجليزية فهذا خطأ. فالمصرية والعربية قومية ولا علاقة لها بالسلالة وصفة العربية ترتبط باللغة واللغة مكتسبة قد تتكلمها مجموعات بشرية متعددة والشعودي التى تتكلم من آسيا وافريقية تنتمى الى سلالات جنسية مختلفة. ومن النادر أن يكون هناك شعب من الشعوب مكونا من مجموعة واحدة أو أن تكون جنسا من الأجناس مكونة لشعب واحد (الشعب هنا مرادف للأمة فالأمة العربية أو الشعب العربى شعب واحد وقد تكون فيه أجناس متعددة).

● ـ أما الصفات أو الأسس التى بنى عليها تقسيم البشر الى أجناس فهى: صفات يمكن مشاهدتها كلون البشرة وشكل الشعر أو لونه وشكل العين ولونها أو صفات يمكن تحليلها كفئات (فصائل) الدم أو أسس يمكن قياسها كشكل الرأس وشكل الوجه وشكل الأنف.

والصفات الجسمية ثابتة لا تتغير بسهولة من جيل الى جيل بل هى صفات وراثية تعتبر أساسا لتقسيم البشر الى سلالات ولا يصح اتخاذ أساس واحد من هذه الأسس لتقسيم البشر بل الأفضل أن يؤخذ أكبر عدد ممكن من هذه الأسس لتقسيم الناس الى سلالات ويقسم البشر الى أجناس أهمها الزنوج والمغول والقوقازيون.

■ **ـ وأهم الأسس أو الصفات التى أتخذت أسسا لهذا التصنيف:ـ**

● **ـ شكـل الشعـر**: صفـة ثابتة فشعر الزنوج مفلفل كثير التجعيد وشعر المغوليين مستقيم، وشعر القوقازيين مموج وشكل الشعر يرتبط بقوانين الوراثة ولا يعرف أنه يتأثر بالمناخ أو الغذاء أو السن.

● **ـ شكل الرأس**: وهى صفة ثابتة أيضا من أهم الصفات لتمييز الأجناس فهناك رأس طويل (توجد نسبة عرض الرأس الى الطول ويعبر عن هذه النسبة بكسر مئوى وتعرف بالنسبة الرأسية) وهناك رأس عريض وبينهما رأس متوسط أو معتدل ويغلب أن يكون أصحاب الرؤوس العريضة مستديرو الوجوه وأصحاب الرؤوس الطويلة مستطيلو الوجوه. ومن عيوب هذه الصفة أنها لا تساعد على تمييز الأجناس الرئيسية بعضها عن بعض فالسلالة القوقازية بعضها طويل الرأس وبعضها عريض الرأس فالزنوج غالبيتهم طوال الرؤوس الا أن الاقزام ذوو رؤوس عريضة نوعا ما. والهنود الحمر فى أمريكا بالرغم من تجانسهم فى معظم الصفات الا أنهم يختلفون فى شكل الرأس. ولكن هذه الصفة مفيدة فى التعرف الى الأجناس القديمة وحفريات البشر والأجيال السابقة التى كانت تسكن الأرض.

● **ـ شكل الوجه**: فهناك وجه طويل ووجه عريض وقد ذكرنا أن هناك علاقة بين شكل الوجه وشكل الرأس مع استثناءات وأهم ما يؤثر فى شكل الوجه عظام الوجنتين فبروز عظام الوجنتين يمتاز به المغول، وبروز الفك تمتاز به الأجناس البدائية مثل الأستراليين الأصليين كما يمتاز به الزنوج وهناك تقهقر الجبهة وهى صفة الأجناس البائدة.

● **ـ شكل الأنف**: ولها نسبة بين عرض الأنف وطوله فالزنوج فطسى الآنوف بوجه علم أى أنهم ذوو أنوف عريضة على حين أن أنوف القوقازيين ضيقة وأنوف المغوليين متوسطة وهى صفة هامة فى التعرف على الأجناس البشرية القديمة.

وتتجلى قدرة الله فى خلق صلة بين شكل الأنف وبين الحالة المناخية بالنسبة للموطن الأصلى للسلالة أى حيث تم تكوينها فالمجموعة البشرية التى نشأت فى اقليم حار تحتاج لأنف عريض لكى تستقبل أكبر كمية من الهواء الساخن المخلخل وقد أجمع العلماء على أن للانسان نشأة واحدة وينتمى لنوع وأصل واحد وأكبر دليل على ذلك هو تناسل الأجناس المختلفة فيما بينها. ولو كانت من أنواع متعددة الأصول ومختلفة لكان هناك العقم كما هو الحال فى عالم الحيوان، انما السبب فى هذا الاختلاف انـما يرجع الى عامل الوراثة والى هجرات الأجناس وانتشارها فى مناطق متباينة فى أحوالها الطبيعية.

دوافع انتشار الأجناس البشرية فى الارض

[١] عوامل الطرد :ـ

عادة ما ينشأ الطرد من نقص الغذاء وزيادة عدد السكان فوق طاقة الاقليم، فعند الجماعة التى تحترف الصيد قد تنقص الجماعات أما نتيجة لكثرة ما يصادفها أو بسبب فتك الوباء بها، وفى هذه الحالة لابد لهذه الجماعة من الهجرة والبحث عن مكان آخر تمارس فيه حرفة الصيد، بحيث يكون كثير المياه غنى المرعى.

ويقل أثر المناخ فى الأنسان كعامل طرد بشرى كلما أرتقى ومارس من الحرف ما يتناسب مع هذا الرقى، فأثر المناخ اقوى فى جماعة الصيد، والجماعة الرعوية منه فى الجماعة الزراعية.

[٢] عوامل الجذب :ـ

يرى العلماء ان عامل الجذب أقل أثراً وشدة من عامل الطرد، لأن الانسان يعز عليه عادة ترك وطنه، وابسط حالات الهجرة نتيجة لعامل الجذب هى هجرة الشعب الذى يعيش على مراعى فقيرة أو فى الهضاب المجدبة بالقرب من سهول غنية أو وديان خصيبة، والشعوب الزراعية اكثر الشعوب تعرضا للغزو من جيرانهم عبر التاريخ.

[٣] عامل التحكم الجغرافى :ـ

يرى العلماء ان حركة الأجناس البشرية كحركة السوائل، تتخذ دائما الطرق الأقل

مقـاومـة، فالمكان المكشوف والخاص من الغابات مثلاً هو اصلح الأمكنة لسكنى الانسان القديم لأنه من المتعذر عليه قطع أخشاب الغابه بواسطة الآلة الحجرية بل إن قطعهـا بواسـطة الفئـوس الجـديدة صعب للغـاية، ولهذا السبب يمتاز المكان المكشوف بتعاقب الغزوات عليه وكثرتها.

ويلاحظ على الحواجز الجبلية أنها حواجز قوية تتجنبها الحركات البشرية الكبيرة ولكن يلاحظ أيضا أن هذه الحواجز يمكن اختراقها من مناطق خاصة هى الممرات.

وقد يكون الدافع الحقيقى لهجرات الشعوب فى مظهره غير مباشر، مثال ذلك ما يقوله بعض المؤرخين، من أن بناء «سور الصين العظيم» قد أدى إلى سرعة سقوط الامبراطورية الرومانية، ويقصد بذلك أن هذا السور منع [هجرات] الشعوب من قلب أسيا الى الشرق فاتجهوا غربا وأسقطوا هذه الامبراطورية.

وعلينا أن ندرك جيداً أن الظروف الجغرافية ـ والمناخية على وجه الخصوص ـ كان لها دور كبير فى تشكيل مناطق الطرد ومناطق الجذب على سطح الأرض منذ الأزمنة العابرة وحتى حدوث كارثة الجفاف بمنطقة الساحل الافريقى فى أيامنا هذه.

■ ـ والآن.. أين كان الانسان الأول [آدم عليه السلام وأبناؤه] قبل الانتشار فى الأرض للعمل فيها والسعى فى مناكبها حسب الأمر الالهى؟.. وكيف انتشر هذا [الأصل المشترك] لجميع الأمم البشرية فى أصقاع الأرض؟..

بعد النشأة الأولى فى مكان ما لهذا [الأصل المشترك] بدأت الجماعات البشرية فى الارتحال لظروف طبيعية أو مطاردة عناصر أقوى. وكان الانسان الفطرى فى عهد البداوة الأولى كالطفل الرضيع فى علاقته بالبيئة أكثر منه فى حالة الانسان المتحضر اليوم، فان طول الاقـامـة والتعـرض فى بيئـة معينة لصفات طبيعية خاصة يصبغ الأجناس البشرية بصبغة تصبح على مر الزمن غير قابلة للتحول فاذا عاش الانسان فى بيئة حارة أسودت بشرته. واتساع الأنف يعطيهم القدرة على تنفس كمية أكبر من الهـواء والـدليل على أن للانسـان نشـأة واحـدة أن حضـارات العصر الحجـرى القـديم[1]. متشـابهـة فى أوربا وافريقية وآسيا وأن مخلفات هذا الانسان الجسمية

(١) د. فيليب رفله ـ الجأغرافية البشرية ـ الأنجلو ص ١٢

متشابهة مما يدل على أصل واحد وموطن واحد انحدرت منه وانتشرت فروع استوطنت فى بيئات متباعدة فغيرت من أشكالها، مصداقا لقوله تعالى: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**» [الحجرات /١٣].

الوطن الأول للانسان:

من المعقول القول ان الانسان قد عاش أوليات أيامه فى اقليم يلائمه. ولا يجوز أن ـ يكون الانسان قد نشأ فى أى مكان كائنا ما كان.

أن الانسان يعيش اليوم فى كل مكان ولكن حياته الحالية مختلفة تماما عن نشأته الأولى وبالبحث عن الوطن الملائم لنشأة الانسان يمكن استبعاد بعض قارات لم نعثر فيها على أية حفريات للأنسان.

فقارة استراليا وكذلك الأمريكتان يمكن استبعادهما عن احتمال الوطن الأصلى للانسان.

بقيت ثلاث قارات، أما أوروبا فيمكن استبعادها لأنها شبه جزيرة ملحقة بآسيا ومن المعقول أن تنتهى اليها الهجرات وليس من المعقول أن تنبعث منها هذا الى أن العصر الرابع (البليستوسين) الذى ظهر فيه الانسان وتنوع يمتاز فى أوربا بالظاهرات الجليدية التى تكررت أربع مرات والتى كان يسود القارة الأوربية خلالها مناخ قطبى بارد وكانت سهولها الشمالية مقفرة لا تلائم الجنس البشرى فى نشأته ومعيشته كما أنه لم يعثر فيها الا على جماجم وبقايا بشرية تدل الطبقات التى وجدت فيها على أنها دخلت القارة فى فترات الدفء التى كانت تقع بين الادوار الجلدية[1]. وعندما دهمها الجليد اضطرت الى الالتجاء الى الكهوف.

أما جنوب غرب آسيا وشمال افريقية فيرى بعض آخر من العلماء أنه إقليم متوسط يسهل منه الهجرة والانتشار الى مختلف الجهات ثم أن جنوب غرب آسيا وشمال افريقية كان أكثر مطرا وأكثر عشبا وأعدل حرارة فى عصر البليستوسين عصر نشأة الانسان مما هو عليه الآن فهو اذا صالح لأن يكون مهدا للانسان الأول وبعض العلماء يضمون إليه شمال شرق إفريقية والصحراء الكبرى ويرجع هذا الرأى فى نظر هؤلاء أن آسيا

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ١٨.

وجدت بها بقايا لجميع السلالات ولم توجد فى قارة أخرى وأن آسيا تمس جميع القارات ولأن حركة الجماعات البشرية فى عصور التاريخ وما قبل التاريخ هى عادة من آسيا الى الجهات المجاورة. وهذا ما رجح فى نظر البعض أن يكون جنوب غرب آسيا وطنا أول للانسان[1]، وعلى وجه الخصوص [شبه جزيرة العرب].

وقد أنقضت مدة طويلة جدا من عمر الأرض كما تقدم حتى ظهر الانسان واكتشفت أقدم الحفريات الأدمية للذين عاشوا، في المليون سنة الأخيرة فقط من عمر الأرض، وكان ذلك فى رواسب العصر المعروف بعصر البليستوسين.[2].

■ **ـ ويعتبر هذا العصر من أهم العصور الجيولوجية لعدة أسباب منها:ـ**

ـ ظهور الانسان خلاله.

ـ اكتشاف الحضارات الأولى للبشرية فى رواسبه الصلصالية.

ـ ولأنه أقرب العصور الجيولوجية الى العصر الذى نعيش فيه..

وقد شهد ذلك العصر تقلبات وتطورات فى البيئة فى أجزاء كبيرة من العالم، فحدثت فترات جليدية فى العروض العليا، بينما شهد شمال افريقيا فترات مطيرة ذلك بالاضافة الى أن القارات أتخذت شكلها النهائى وتطور الجنس البشرى الى مدارج استخدام الأرض والموارد المتاحة، وكان التطور الحضارى يسير جنبا الى جنب مع انتشار الأجناس البشرية فى أصقاع الأرض حسب الارادة الالهية، فظهر انسان [جاوة] فى العصر الحجرى القديم الأسفل، ونياندرتال فى العصر الحجرى القديم الأوسط، وانسان [بكين] وانسان [هيدلبرج] وانسان شرق اقريقيا.. وقد مثل كل منهم نمطا حضارياً من أنماط عمارة الأرض والاستعداد لتبوأ مكانة الخلافة فيها حسب الارادة الالهية العليا.

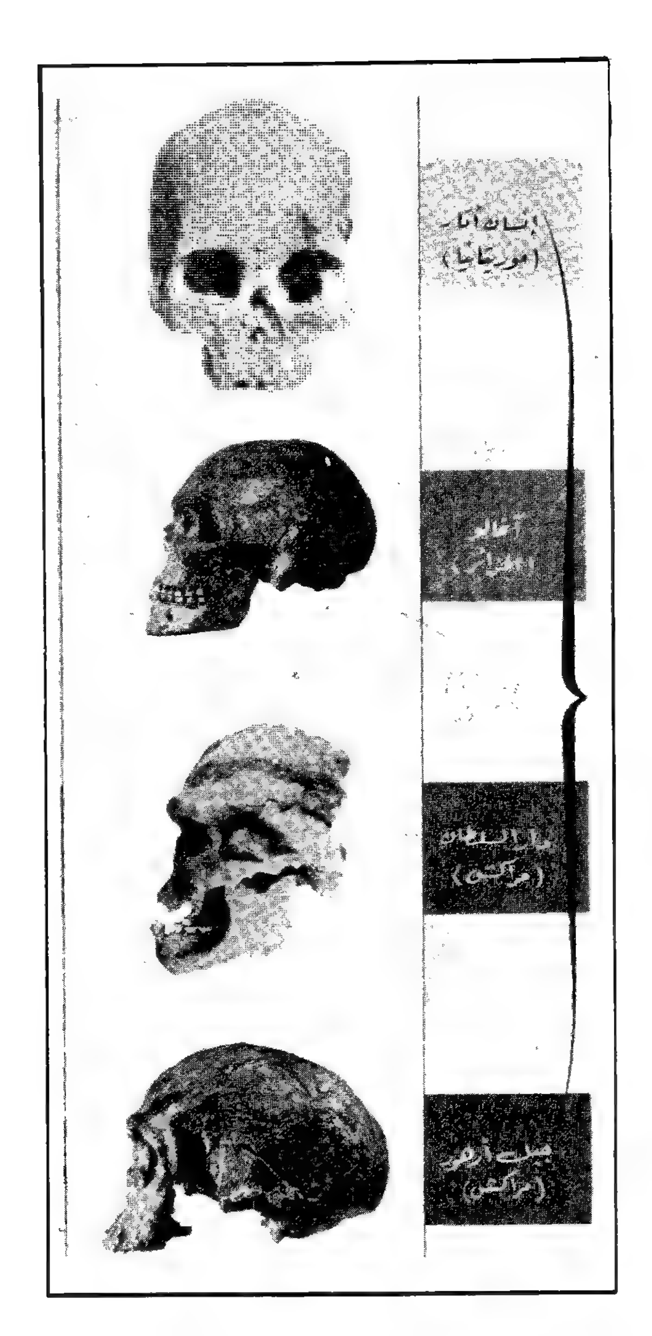
● ـ وفى أواخر هخذا العصر، استطاع الانسان أن يسيطر على قوة النار، فقد عثر العلماء على عظام حيوانية محترقة بجانب انسان «بكين الحفرى.. مما يدل على أنه سيطر على البيئة وتمكن من حماية نفسه من الحيوانات المفترسة التى تخشى النار[3].

---

(١) المرجع نفسـ ـ ص ١٩.

(٢) د. أنور عب العليم ـ قصة الانسان القديم وحضارته ـ المكتبة الثقافية/ ١٤٧. ص ١٧.

(٣)(د. يسرى الجوهرى ـ الانسان وسلالاته ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٢٣ : ص ٥٢.



جماجم للانسان القديم صاحب الحضارات فى المغرب العربى الكبير تهدم نظرية داروين وتثبت تشريحياً منذ الإثر من (٥٠٠٠٠ سنة ق.م) أن الانسان المتكامل الذى كرمه الله هو الذى صنع تلك الحضارات وليست القردة حسب تخريف [داروين]، وهل للقردة حضارة؟!!!

تلك القوة الرهيبة التى سخرها الله سبحانه وتعالى للانسان كى يتمكن من القيام بمهام الخلافة فى الأرض حسب ارادته سبحانه وتعالى.

الاجناس البشرية القديمة فى افريقية:

تشير الكشوف العلمية التى تمت حتى الأن الى إفريقية بوصفها أحد المراكز الرئيسية التى عاشت فيها الأجناس البشرية القديمة رغم أنه لا يمكن القطع نهائيا فى هذا الموضوع، ورغم أن تاريخ الجنس البشرى لم يكشف بعد عن جميع أسراره[1].

ويذكر كثير من العلماء أن الانسان (الكينى) قد ظهر فى افريقية منذ ١٢ مليون سنة، ويعتبره بعض العلماء أصل العائلة البشرية كلها... وأنه أول مخلوق بشرى مكتشف فى وسط افريقية وشرقها المغطاة بالحشائش[٢].. حيث ثبت أنه كان يسير على قدمين، وأن نموذج مخه يدل على نمو الفص الأمامى للمخ، والعظم الجدارى للجمجمة، مما يدل على نمو ملكات عقلية راقية لديه..

وقد اهتمت عدة بعثات علمية بالبحث عن أصول الانسان القديمة فى ربوع إفريقيا ولكن هذه القارة واسعة مترامية الأطراف، والتوفيق فى اختيار مكان الحفر والبحث عن حفريات الانسان الأول يعد نصف النجاح.

وقد تم ذلك بعد دراسات جيولوجية وبيئية دقيقة فى أنحاء متفرقة من القارة البيضاء.. ووجد العلماء أن منطقة جنوب افريقيا من مرتفعات الزمبيزى حتى منطقة رأس الرجاء الصالح من المناطق القليلة الهادئة نسبيا، والتى لم تتأثر كثيرا بالكوارث الجيولوجية العنيفة فى الأزمنة القديمة ومن ثم كانت تلك البقاع مرتعا خصبا للكشف عن الحياة القديمة للانسان.

وقد لوحظ أن الهياكل البشرية التى عثر عليها العلماء فى «أفالو» تشبه فى صفاتها الجنسية الى حد كبير سكان شمال إفريقية الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم،

---

(1) Sauer. C. Fareward to Historical Geograply, Ann Ass. Amer - Geog., 32; 2492 PP. 2 - 13.

(٢) د. عبد الفتاح محمد وهيبة ـ الجغرافية التاريخية ـ دار النهضة العربية ـ ص ٥٧.

اذ تمتاز معظم الحواجب البارزة والأنف الأكثر عرضا من جماجم (كرومانيون الأوروبية) . . بل يقال أن (بربر) شمال أفريقية القدامى ينتمون الى تلك السلالة . .

وعثر العلماء أيضا فى (كينيا) على جماجم مصاحبة لحضارات العصر الحجرى تشير الى وجود صفات قوقازية الى جانب تأثير زنجى هناك ، ومن المعروف أن التأثير الزنجى لم يظهر الا فى عصر متأخر حيث أن أول هيكل زنجى عثر عليه جاء من (أسيلار As-selar بالقرب من «تمبكتو» ويرجع تاريخه الى نهاية البلايستوسين[1] . . وأهم صفات هذا الهيكل الزنجى القامة الطويلة النحيفة والأذرع الطويلة ، والرأس الطويل ، والوجه العريض والأنف الطويل , , ومما هو جدير بالذكر أن انسان (اسيلار) لا يشبه تماما زنوج غرب افريقية ، اذ أن المتنوعات الجنسية داخل المجموعة الزنجية لم تظهر الا حديثاً نسبياً .

---

(١) حتى عام ١٩٢٥ لم يكن قد تم العثور على أى نوع من أجناس الانسان الاول فى ترسيبات العصر (البلايستوستنى) المبكر . . أى فى الفترة الجيولوجية التى تقع على وجه التقريب بين مليون ومليونى عام مضت . . ويقال أن الاكتشافات التى تمت فى بلتداون (Piltdown) فى مقاطعة سيسكس (Sussex) فى عامى ١٩١١ - ١٩١٢ تمثل أحد النماذج البلايستوسينية (المبكرة) . . نظرا لأن تجويفها المخى كان يشبه (الى حد كبير جدا) ما نجده عند الانسان (الحديث) . . ولكن فى الخمسينات برهن العلماء على ان اكتشافات بلتداون كانت مجرد عملية (تزييف) . . ويستند العلماء الى ذلك فى رفض وجود كائنات بشرية قبل (٤٠٠٠٠ سنة مضت) . .

التوزيع الجغرافى للأجناس البشرية فى افريقية القديمة

عثـر العلماء كذلـك على (انسـان الزنج) وأقرانه الذين يحملون اسم «الانسان البارع» وكذلك عثروا على هياكل وعظام انسان (المينيتا) فى كينيا، وانسان «كيديس» فى (اثيوبيا) والذى تعرف فيه كثير من الباحثين على صفات زنجية ظهرت فى الفترة «الأورينا سية» العليا[1].

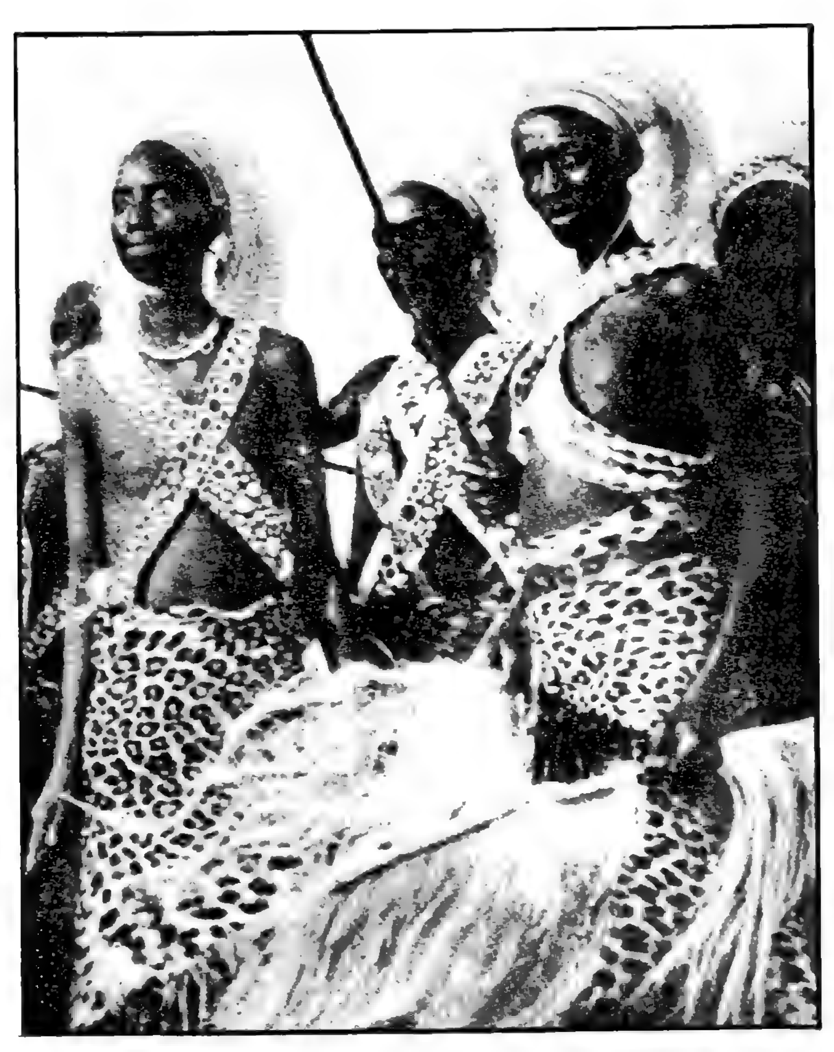
ويضع العلماء تعليلا لأعتبار افريقية من أهم مراكز الاستيطان البشرى القديمة نظرا لأنها هى وجنوب غرب آسيا (جزيرة العرب) قد نجتا من طغيان الجليد وقسوة المناخ الذى تعرضت له أوراسيا فأوروبا التى كانت أغطية الجليد تنتشر فوقها خلال ٢٠٠ر٠٠٠ سنة هى فترة (كاجيرا) المعروفة فى أوروبا بفترة (جينز) الجليدية لا تقدم أى أثر عن العصر الحجرى القديم المبكر، فى حين ظهرت فى هذه الفترة فى افريقية ثلاث مراحل حجرية قديمة متميزة، وقد نعمت المناطق المدارية خلال هذه الفترة بميزة المناخ المعتدل الذى كان نعمة بالنسبة للحياة الحيوانية، والحق أننا اذا أردنا أن نستعرض المؤثرات التى كانت مقدمة لظهور الأنسان، فانه يتحتم علينا أن نأخذ فى الاعتبار الظروف المناخية والايكولوجية (البيئية) ثم ندرس التكنولوجيا، وأخيرا التطور الاجتماعى للانسان[2].

---

(١) عثر العلماء سنة ١٩٢٥ على نموذج جديد لسلالات الانسان الأول من العصر البلايستوسينى المبكر وأطلق عليه عالم التشريح الشهير ريموند دارت .Raymond d اسم: «انسان جنوب افريقيا» حيث عثر على حفريات له فى تاونج Taung فى جنوب أفريقيا..

(٢) حاول العلماء أن يعيدوا تركيب المجتمعات الانسانية، وتصنيفها بقصد التعرف على تاريخ المجتمع الانسانى، وتحديد المراحل التى يمر بها حتى وصل الى ما صار عليه فى هذا القرن، ومن أهم العلماء الذين فعلوا ذلك العالم الاقتصادى الألمانى كارل بيشر Karl Bucher والعالم الامريكى المشهور لويس مورجان Leuis Morgan أما بيشر فكان يذهب الى ان الاقتصاد البشرى فى العصور القديمة قد مر بثلاث مراحل.. مرحلة الجمع والالتقاط والقنص والصيد، ثم مرحلة الرعى، وأخيرا وصل الى مرحلة الحياة المستقرة التى تعتمد على الزراعة وأما «لويس مورجان» فانه يذكر لنا فى كتـابـه عن «المجتمـع القـديم» Ancient Society أن العـالم مر بحقبتين كبيرتين هما حقبة «التوحش»، وحقبة «البربرية».. ثم قسم كلا من هاتين الحقبتين بعد ذلك الى ثلاث مراحل أخرى: دنيا ـ ووسطى ـ وعليا وبذلك يكون المجتمع البشرى قد مر بحسب تقسيمه فى المراحل التالية:ـ

ـ (أ) مرحلة التوحش الدنيا وتبدأ من طفولة البشرية.



مجموعة من الزنوج فى هضاب رواندا بورندى وكينيا (طوال القامه)

ولا شك أن المقـدرة على التكيف مع البيئة كانت أقوى العوامل التى أثرت فى التـطور الاجتـماعى للأنسان منذ نشأته، وقد تبلورت الصفات الفيزيقية للسكان الافريقيين أثناء فترة ما قبل التاريخ الحرجة . . فلون البشرة الأسود أو الاسمر، ووفرة الغـدد المفـرزة للعـرق، والأنف المتسـع، والشفة الغليظة التى يمتاز بها كثير من الافريقين والشعر المجعد المفلفل الخشن كل هذه صفات نشأت فى الظروف المدارية، فمادة (الميلانـين) والشعـر الخشن. يحميان الجسم من أشعة الشمس كما أن القامة المستقيمـة المنتصبـة وهى الصفة (الحاسمة)المميزة للانسان، كانت صفة ضرورية للعيش - فى رأى العلماء المتخصصين فى «ما قبل التاريخ» «فى بيئة الحشائش المرتفعة التى تغطى هضاب شرقى افريقية، ففى وسط هذه الحشائش لم يكن للانسان بد من الوقوف منتصبا حتى يشرف على ما حوله، ويستطيع أن يرى الحيوان المفترس المختبىء فيها . . وهذه الصفة هى الفطرة التى فطر الله الانسان عليها منذ البدء.

وبعثـور العلماء على آثار عظمية لانسان جنوب افريقيا القديم أضيفت صفحة جديدة فى أهمية افريقية من حيث احتوائها لرفات الأجناس البشرية القديمة، فإنسان جنوب إفريقية ولو أنه صغير الحجم، خفيف البنية، لا يتعدى طوله ٤ - ٦ أقدام، ولا يزيد حجم مخه فى المتوسط عن ٥٠٠ سم٣ - انسان كامل الأدمية له أسنان آدمية تماما، اذ كانت القواطع صغيرة ومرصوصة عموديا فى الفك، كما كانت الأنياب صغيرة وتشبه القواطع، فى حين كانت الأضراس كبيرة، ولكنها رغم ضخامتها كانت تشبه أضراس الأنسان التى نعرفها

= (ب) مرحلة التوحش الوسطى «وتبدأ بأستخدام النار، وكان الاقتصاد يعتمد فيها اساسا على صيد الاسماك.

- (ج) مرحلة التوحش العليا وتبدأ منذ أخترع الانسان القوس والسهم وبذلك كانت الحياة الاقتصادية تقوم على القنص.

- (د) مرحلة البربرية الدنيا وتبدأ بأختراع الأوانى الفخارية.

- (هـ) مرحلة البربرية الوسطى التى تتميز بحفظ واستئناس الحيوانات وزراعة الذرة والاعتماد على الرى.

- (و) مرحلة البربرية العليا وتبدأ بأكتشاف المعادن واستخدامها.

- (ز) مرحلة الحضارة ومعرفة الكتابة. - انظر فى ذلك : احمد ابو زيد - المجتمع القديم عند لويس مورجان - مجلة تراث الانسانية - ص ٢٦ . وكذلك.

Lowis R. 1937: History of Ethnological Theory, Harrap, N.Y. PP. 12 - 15.

ومن شكل الأسنان استنتج العلماء احتمال استخدام «الانسان القديم فى جنوب افريقيا» الأدوات كأسلحة للهجوم والدفاع، وكآلات للقطع والحفر للحصول على الطعام . . وقد ظهرت حاليا من الأدلة ما تثبت صحة ذلك . .

● ـ وتدل المعلومات «الأركيولوجية» على أن الانسان الزنجى الافريقى القديم كان قد عرف صنع واستخدام الآلات المصنوعة من الحجر والعظام .

■ ـ ولكن ماذا كان هدفه من ذلك . . ؟

ان عجز أسنانه الأمامية عن قتل الحيوانات أو صيدها أو تقطيعها يعطينا الجواب . . لقد كان هدفه من ذلك توفير الطعام الضرورى اليومى لنفسه . . فهل عثر العلماء على ما يؤيد ذلك؟ . .

● ـ نعم . . لقد قضى عالم التشريح الافريقى الجنوبى [ريموند دارت] Raymond Dart فترة طويلة فى معسكرات علمية بأتحاد جنوب افريقيا بحثا عن تلك الأدلة . . أين؟ . . فى الكهوف القديمة واستطاع أن يجمع العظام الحيوانية التى وجدت بالقرب من «هياكل الانسان الافريقى القديم» وأثبت أنها بقايا ومخلفات الحيوانات التى قام الانسان الافريقى القديم» بصيدها وقتلها وأكلها[1] .

وبالفعل لا يملك المرء الا تصديق مسألة استخدام ذلك الانسان للآلات فى الحصول على طعامه ذلك أنه (من الصعب) أن نتصور كيف كان يمكن لهذا الانسان (البدائى جدا) ذى الأسنان الأمامية غير الفتاكة أن يصيد ويقتل بمثل هذه الدرجة من المهارة دون أن يستعين على ذلك بالآلات المصنوعة من الحجر أو العظام . .

وتعتبر قصة العثور على بقايا (الانسان الافريقى الأول) فى جنوب افريقيا ضربا من ضروب الصدفة البحته شأنها فى ذلك شأن كثير من الكشوفات العلمية الهامة فى أى مجال . . ففى إحدى المحاجر القريبة من بلدة تونجز فى مقاطعة «بريتوريا»، عثر أحد العمال بطريق الصدفة على «جمجمة» صغيرة غريبة الشكل . . وكان ذلك سنة ١٩٢٥ . . وكانت تلك الجمجمة مفتاح السر فى الحفريات التى توالت على المنطقة المذكورة فيما بعد . .

---

(١) احمد أبو زيد ـ الأصول البشرية ـ عالم الفكر ـ المجلد الثالث العدد الرابع ـ ص ١٠٧٨ .

وحين أختبر الدكتور «دارت» Raymond Dart تلك الجمجمة عرف أنها للانسان [الزنجى الاول] وأطلق عليه «دارت» اسم Australopithecus Africanus ، وجاء الدكتور روبرت بروم Robert Broom الاسكتلندى الأصل، وأيد التقرير التشريحى «لدارت» عن (الانسان الزنجى) بجنوب افريقيا. بل إنه واصل أبحاثه عن الأصول البشرية للأنسان القديسم فى كهف ستركفونتين بالقرب من «جوهانزبرج» حيث عثر على جمجمة كاملة للانسان الافريقى القديم، وفكا بشريا لنفس السلالة، وتجمعت لديه فى النهاية ثلاث جماجم لذلك المخلوق البشرى القديم، حدد زمن كل منها فيما بين (٢ مليون سنة) ـ (٢ر١ مليون سنة) ـ (٨٠٠٠٠٠ سنة)(١).

ويضع العلماء (تصورا) عاما لما يحتمل أن يكون عليه شكل (الانسان الزنجى) فى جنوب افريقيا على ضوء جماجم (جوهانزبرج) ـ فرجحوا أن يكون قصير القامة ومخ ضئيل الحجم عما هو عليه الأن، وفك قوى له (كل) الصفات البشرية، وجمجمة (أقرب) فى تفاصيلها الى جماجم الانسان الحالى، وأسنان بشرية (على الرغم من كبر حجم الأضراس الأمامية والأضراس الخلفية). . وأهم من ذلك أن العلماء يؤكدون أن ـ أطراف الانسان الزنجى فى جنوب افريقيا كانت تمثل فى صفاتها صفات اطراف البشر المعاصرين. . ومن ثم فان الاستاذ: «لى جروكلارك» لا يشك فى أنه ينتمى الى السلالات البشرية القديمة Hominidae (٢).

ولم يكتف بروم R. Broom بذلك بل واصل البحث فى جنوب افريقيا حتى عثر على جمجمة أخرى لكائن بشرى قديم اطلق عليها جمجمة (السيدة بليس)، ثم عثر على عظمة تنتمى الى نفس ذلك الكائن. . وكانت عظمة الحوض. . ومن دراستها

---

(١) د. أنور عبد العليم ـ المرجع السابق ـ ص ٦٤.

(٢) البروفيسور لى جروكلارك Le Gros Chark تخصص فى علم الانسان، والتشريح المقارن بجامعة أكسفورد، جمع صورا ورسومات دقيقة لحوالى ٩٠ من الجماجم المتحجرة، ودرس بتفصيل كبير عظام الاطراف فى هذه المخلوقات البشرية القديمة، وتشريح الحوض وصندوق المخ. . ثم ترجم ذلك كله فى العبارة التالية «من المعقول أن تكون تلك السلالة أما ممثلة فى حد ذاتها لمجموعة من الكائنات شبه الأدمية القديمة Hominids التى احتلت مركزا تقسيميا قريبا من الاصول التى انحدر منها الانسان، أو أنها تمثل فرعا متحورا من هذه المجموعة». . . (انظر فى ذلك: د. أنور عبد العليم ـ المرجع السابق ـ ص ٦٦ . . ونحن نرفض بشدة ذلك الاتجاه الداروينى القمىء الذى يبرز أحيانا فى فكر البروفيسور لى جروكلارك.

رجح «بروم» أن تكون لمخلوق بشرى كان يمشى منتصبا على قدمين. .

ويقول البروفيسور «بوردى»[1]. «أن الاكتشافات فى أفريقيا تدل على أن العصر الحجرى القديم أو [العهد الباليوليشى] بدأ منذ أكثر من مليونى سنة مضت وأول من أستخدم الحجر هو الانسان الاوسترالوبيشى فى منتصف الطريق بيننا وبين [كبار القردة] (الغوريلا، والشمبانزي والاورانجوتانج) وأن هذا الانسان كان لا يزال عقله بدائيا وتضمنت ألاته بكل بساطة قطع الصخور النارية الصغيرة المشطورة بحيث تعطى حواف قاطعة، وصفائح غير مشذبة».

● ـ ونحن نرى فى قوله هذا انحطاطا فكرياً ومغالطة للحقائق العلمية والاسلامية عن نشأة الانسان وتكريمه.

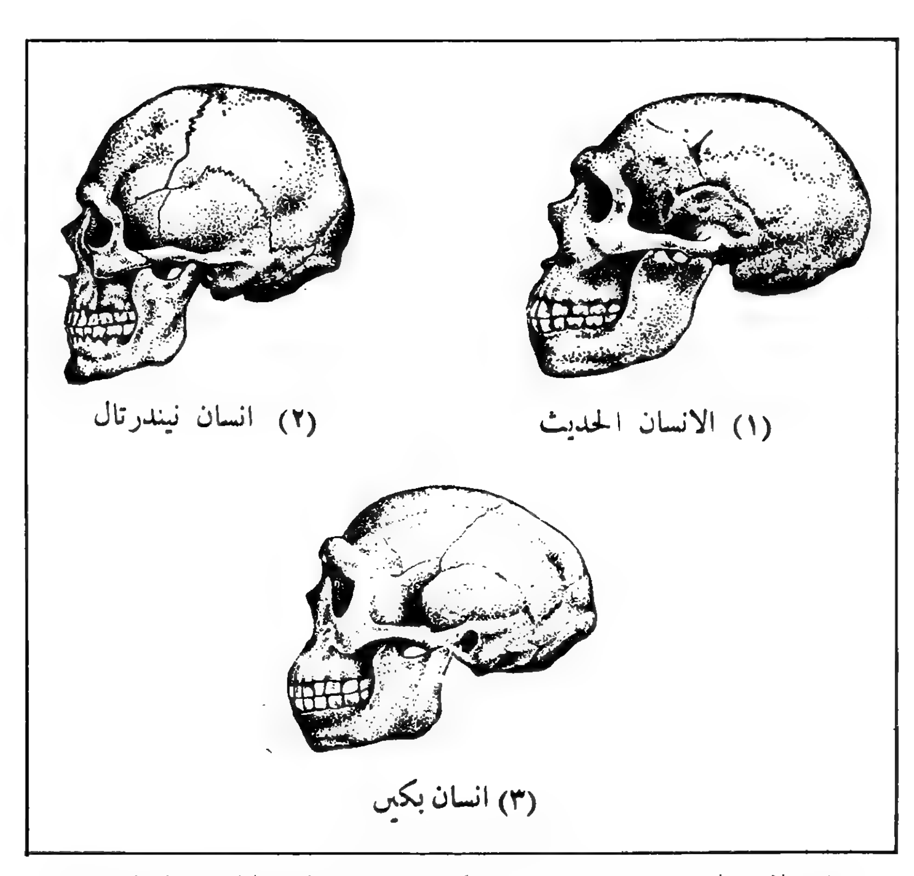
ولقد تطور الانسان في صناعاته عبر فترة طويلة من الزمان وعرف الانسان البيثكانى استخدام النار. وكان ذلك على الاقل فى الصين. وأنتج صناعات الايدفيليان والاشيليان المبكرة. وتوجد آثار منها فى بقاع الارض المختلفة. ونحن لا نعرف الا القليل من الانواع المختلفة للانسان الذى عاش خلال العصر الاشيليانى الاوسط والاعلى منذ مائة الف سنة مضت. . لكننا لم نجد أثراً لما يدعيه هذا المخرف [بوردى] من وجود الانسان الوسيط بين القردة الكبار وبين الانسان الحالى، ونحن لا ندرى ما الذى كسبه [بوردى] من فرضياته القميئة التى لم يعثر العلم على أثر لصدقها!!!. .

● ـ كانت هناك تفرقة بين انسان النياندرثال والانسان النياندرتالنس المفكر الذى صاحب الثقافة الموسيرية، والانسان الحديث (الهوموسابيان الذى ينتمى الى العصر الباليوليثى العلوى، على أساس النمط الحضارى الذى كان يميز النشاط البشرى لكل جماعة منها فى أقاليم الأرض الجغرافية المختلفة، ومدى استخدام الانسان للبيئة المحيطة به، واليوم يسود الاتجاه نحو الأخذ بفرعين من فروع الأجناس البشرية القديمة هما: انسان نياندرتالنس وانسان سابيان.

---

(١) فرانسوا بوردى: هو استاذ مادة ما قبل التاريخ، ومدير معهد جيولوجيا العصر الحديث، وما قبل التاريخ بجامعة بوردو ومدير متحف ما قبل التاريخ لاقليم اكويتين بفرنسا. وهو من بين العلماء العالميين المؤلفين فى موضوع أدوات العصر الحجرى القديم وفى مقدوره أن يصنع كل ما عثر عليه من أدوات العصر الحجرى القديم.

أنظر بحثه عن: حياة انسان العصر الحجرى ـ اليونسكو ـ ١٣٦ ـ ص ١٤.



جماجم الانسان فى عصور مختلفة تتفق تماما مع شكل وحجم جماجم البشر الحاليين، وهذا دليل عدم تطور الانسان بالمفهوم الساقط عند [داروين].

ومازالت العلاقة أو الروابط التى تربط بين هذين النوعيم المختلفين موضوع نقاش الى حد ما. ومن الجائز انه كانت هناك روابط مشتركة من وجهة نظر معينة بين الانسان الحديث والنياندرثال. ولابد أن ظهور الانسان الحديث كان قبل ظهور حضارات العالم القديم، وقد سايره على مر الزمن ويرجح العلماء تواجد أنماط حضارية تميز النوع البشرى الحالى ترجع الى العصر الموستيرى (كما تشير الى ذلك اعمال الحفر) والتنقيب فى جبل كافرى بفلسطين) وربما يرجع تواجدهم الى ما قبل ذلك العصر.

● - الذبذبات المناخية ومراحل التحضر البشرى

لقد عاش الانسان خلال المئة الف سنة الماضية فى بيئات مختلفة بسبب الاختلافات الجغرافية والمناخية. وكانت مثل تلك الاختلافات فى البيئة ظاهرة تماما فى العصر الجيولوجى الأخير (كوايترتارى) حيث زحفت الأنهار الثلجية الضخمة عدة مرات، لا على جرينلنده والمنطقة المتجمدة الشمالية فحسب (حيث يستطيع المرء رؤية آثارها الواسعة اليوم)، بل عم انتشارها كذلك فوق اسكنديناوة وأمريكا الشمالية وكل الجبال العالية حتى خط الاستواء. وعندما بلغت الثلاجات أوجها غطت أنهر اسكنديناوة الجليدية شمال المانيا ومعظم انجلترا وجزءا كبيرا من غرب الاتحاد السوفيتى. بينما هبطت ثلاجات الالب على فرنسا حتى قاربت «البو».

وعلى الرغم من الأبحاث العديدة التى أجريت عن الزمن الرابع، إلا أنه لم يتم الاتفاق بعد على صورة المناخ الذى كان سائدا فى فترات الجليد، أو فترات الدفء ونستطيع أن نتصور حالة المناخ أثناء فترة جليدية بما هو حادث فى الوقت الحاضر، فحيث توجد كتل الجليد الدائم فى المحيط المتجمد الشمالى، تجثم منطقة ضغط ثقيل ضد اعصارية، تهب منها الرياح الباردة.

أما فى أثناء الفترات غير الجليدية، فقد كانت الأحوال المناخية والنباتية لا تختلف كثيراً عما هو عليه الآن. وفى فترة الانتقال من نهاية البلايوسين إلى أوائل البلايستوسين كان المناخ آخذاً فى البرودة التدريجية فى جميع أنحاء النصف الشمالى من العالم وبذلك انتهت مرحلة الدفء السابقة فى [البلايوسين]، وفى هذه الأثناء كانت السيادة الثدييات التى تعيش حتى وقتنا الحاضر وظهرت بوادر تشير الى وجود الانسان. .

وكان الانسان صاحب حضارة حجرية قديمة وجدت آثارها فى شرق انجلترا فى منطقة [فوكسهول].

وفى هذه الفترة بدأت حيوانات [البلايوسين] فى الانقراض والهلاك، وحلت محلها أنواع جديدة - حسبما يقول العلماء - من الحيوانات مثل الفيلة والثور والبيسون.. وبذلك افتتح عصر جيولوجى جديد وهو عصر البلايوستوسين[1].

ويطلق هنتنجتون على الذبذبات المناخية اسم: [النبضات المناخية].. وهى تهم الجغرافى والمؤرخ والأنتروبولوجى، كما تهم عالم النبات والحيوان، والزراعى والاقتصادى والفلكى والمترولوجى والجيولوجى.. وقد سجل هنتجتون استنتاجاته عن ذبذبات المناخ على سجلات التاريخ، التى تسجل الفيضانات المرتفعه، وأعوام الجفاف، وأعوام الأعاصير والشتاء القارس، وحلقات أشجار [السيكويا] الضخمة وتوزع أشجار الغابات، والطرق التجارية القديمة، وموارد المياه..[2].

غير أن فريقا آخر من العلماء يرى أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى التى تغيرت بفعل العامل [البشرى] وتدخل الانسان الذى أراده الله فى الأرض خليفة.. وأن ذلك وحده كان كافيا لعمارة الكوكب الأرضى وتغيير ملامح البيئة.[3]

ونحن لسنا على درجة كبيرة من اليقين فيما يختص بالذبذبات المناخية وفق مفهوم هنتنجتون، فهذا ما لم يقم عليه الدليل بعد حتى الآن.

وعلى كل حال يمكن القول أن الخالق الأعظم سبحانه وتعالى قد سخر بعض العوامل الطبيعية لتهيئة الأرض لسكنى الانسان.. ومنها تواتر الدورات الجليدية على الكوكب الأرضى فى فترات متفاوتة.. ويمكن القول أن تلك العصور الجليدية تميزت بالتذبذب حينما انخفضت درجة حرارة الأرض، على الرغم من أن أقصى درجات البرد لم تكن بالضرورة تتفق مع النهايات العظمى للجليد وكان الزمهرير إما جافا أو رطبا تبعا للفترة والمكان اللذين ساد فيهما، وفى المناطق الواقعة فى جنوب الثلاجات نشأت أنواع مختلفة من النبات وتدرجت من التندرا الى الغابات وعلى أية حال، كانت

---

(١) د. محمد السيد غرب - الجغرافيا التاريخية، مكتبة الانجلو المصرية - ص ٦٦: ص ٩٥.

(٢) د. عبد الفتاح محمد وهيبه - الجغرافية التاريخية - دار النهضة العربية - بيروت - ص٤٣.

(٣) د. محمد السيد غلاب - المرجع نفسه - ص ٩٦.

الظاهرة السائدة فى أوروبا هى على وجه التقريب أرضا خضراء تكتنفها غابات كثيفة، وبطبيعة الحال أمتد انخفاض درجة الحرارة وراء ما نعده اليوم من مناطق حرارية، ولكن يبدو أن المناطق المدارية والاستوائية أنتابها تأثير بسيط، على الرغم من اننا عندما نأخذ كميات المطر فى الاعتبار نجد أنه كانت هناك فترات امتدت فيها الصحارى تارة وأنكمشت تارة أخرى الى ما يقارب العدم.

وكان تراكم المياه المحتبسة داخل الثلاجات العظمى يعنى هبوط مستوى سطح البحر بدرجة كبيرة، حيث وصل فى بعض الاحيان الى نحو ٣٠٠ قدم، وتبع ذلك حتما تغير جغرافى. فالجزر البريطانية كانت جزءا من القارة الأوربية. كما كانت اليابان متصلة بأسيا. وعلى هذا النحو عاش أجدادنا فى عالم متغير (حتى على الرغم من أن تلك التغيرات كانت تتم تدريجيا) وكثيرا ما كان ذلك العالم يختلف تماما عن عالمنا اليوم.

وفى اثناء ذلك العصر نشأت صناعة الألة، وكانت أولا من الحجارة التى اتخذت بمثابة الجهاز الاساسى المستخدم فى تشكيل الآلات الاخرى المصنوعة من الخشب أو العظام، أو الجلود والقرون. ولقد أختفت كل هذه الالات بأستثناء الآلات المصنوعة من العظام والقرون.

وكثيرا ما يتحدث أولئك الذين لا يعرفون شيئا عن هذا الموضوع ويذكرون الانسان الباليوليثى وآلاته البدائية المصنوعة من الصوان. وفى الحقيقة كان ذلك الانسان مجدا مثابرا استنفد كل ما لديه من طاقة واذا ما كانت وحدات عديدة من آلاته تبدو غير منتظمة، ولا مهذبة، فان سر ذلك يرجع الى حقيقة أن الصوان على الرغم من أنه يتشقق بسهولة فى يد الصانع الماهر. وان حوافه تكون حادة وقاطعة ولكنها سرعان ما تتآكل وتندثر أو تتشقق فان الصوان اكثر صلابة من الصلب، وانت تستطيع أن تتبين ذلك اذا ما حككت نصل سكينك بقطعة من الصوان. ولقد كانت آلاته وأسلحته الاخرى المصممة من أجل الاستعمال الطويل المدى، أو التى تطلبت استكمال الشكل لاسباب خاصة، تصنع على أكمل وجه.

ولم تكن كل الادوات من الصوان، ففى بعض المناطق لم يكن الصوان موجودا فأستعيض عنه بالزجاج البركانى (الذى تميز بحواف أكثر حدة الى جانب صلابته).

وحجر الكوارتز والحجر الرملى مع انهما أكثر سهولة من حيث التشكيل فقد نشأت عنها الطرق الفنية الصحيحة.

وفى بعض الامـاكن الأخرى استخدمت بعض الصخور النارية ذات الحبيبات الدقيقة مثل البازلت والديوليت. وكثيرا ما كانت الادوات عبارة عن مجموعة متباينة الدقة فى الصنعة. وكان أجودها من الصوان أو الزجاج البركانى، بينما كانت الأدوات الخشنة أو الاقل دقة فى الصناعة من البازلت والكوارتز أو الكوارتزيت. واعتمدت عملية اختيار المواد التى تصنع منها الأدوات على الغرض من استعمالها.

● - الانسان كعامل جغرافى

استخدم الانسان أول الأمر فى سبيل شق الحجارة قطعا أخرى من الحجارة الصغـيرة، ثم عرف بعـد ذلـك منـذ أواسط العصر الاشيلى وما بعده انه يستطيع الحصول على نتائج افضل بألة أقل صلابة أو بمطرقة اسطوانية الشكل من الخشب أو العظام أو القرون. وربما بدأ خلال العصر الموستيرى، وعلى الارجح فى البليوليثى العلوى، الطرق بطرق غير مباشرة فكان الصانع يضع ازميلا من الخشب أو العظم بين المطرقة وما يريد تشكيله من مواد. وكذلك استخدم الضغط فى التشكيل، الامر الذى سمح بتوفير نتائج أدق وأكثر انتظاما، رغم أن تلك النتائج كانت على نطاق أضيق من نتائج الطرق المباشر[١].

وفى خلال العصر السـولـتريانى، منـذ نحو ١٩ الف سنة قبل الميلاد اكتشف الانسان ان تسخين الصوان بشدة بحيث تتبعه عملية تبريد بطىء يغير من تركيب الحجر ويجعله أكثر سهولة فى التشكيل بالضغط[٢].

وفى العصر الباليوليثى العلوى هرع الانسان الى الحجر الجيرى ليصنع منه آنية وأدوات مشكلة (زهريات) وكان أحيانا يعمد الى زخرفتها الا أنها حسب معلوماتنا لم

---

(١) المرجع نفسه - ص ٤١.

(٢) المرجع نفسه - ص ٤٢.

تكن زهريات يمتد بها، على غرار تلك التى ظهرت بعد ذلك بمدة طويلة . وكثيرا ما توجد تفرقة بين العصر الباليوليثى (العصر الحجرى القديم) والعصر النيوليثى (العصر الحجرى الحديث الذى صقلت خلاله الاحجار) ولكن بصرف النظر عن حقيقة أن الانسان النيوليثى عمد الى شق الحجارة وتشكيلها اكثر من صقلها فأن فنون صقل الحجر لم تكن معروفة قط فى العصر الباليوليثى (فى أواسط أوروبا مثلا) . ورغم أنه وجدت أنواع من البلط المصقولة جزئيا فى شمال استراليا، صنعت قبل ظهورها فى أوروبا خلال العصر النيوليثى بنحو ١٥ الف سنة .

ولما كانت معظم المعلومات الخاصة بفنون تشكيل المواد لم تصل الينا، فأن أفكارنا عن الحياة اليومية لأجدادنا البعيدين جدا أنها تعتمد فى أساسها على اختبار بقايا العظام والصخور، ودراسة المترسبات مع عمل مقارنة مع البدائيين فى العصور الحديثة . وفى الجهات الباردة عاش أجدادنا على الصيد والقنص، وحيث كان الجو ملائما عاشوا على جمع الغلال والبذور والجذور. وفى المناطق الأكثر دفئا ربما كان من المحتمل أن جمع الفواكه شكل مصدرا رئيسيا للغذاء، كما هو الحال اليوم بالنسبة لقبائل البشمان فى صحارى كلهارى[١] .

● . أثر الانسان فى البيئة وتأثره بها

لم تكن أنماط العيش متشابهة خلال الباليوليثى الأوسط (صناعات الموستير وما على شاكلتها) التى اشاعها انسان النياندرتال مع أنماط العيش خلال العصر الباليوليثى العلوى الذى ظهر فى اثنائه الانسان الحديث ومهما يكن من شىء فقد كانت هناك عوامل ثابتة عديدة[٢] .

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٤٣ .

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٤٤ .

وبالنسبة لمناطق العيش كثيرا ما يتحدث الناس عن انسان الكهف كما لو كان الانسان البدائى قد عاش حياة خاملة تماما. وفى الحقيقة عاش ذلك الانسان أساسا فى مداخل الكهوف، أو تحت الحجارة الرملية المعلقة أو الحجارة الجيرية، أو البازلت الذى جوفته عوامل التعرية. الا أن هذه المساكون أمدته بمأوى لا حول له ولا قوة أمام زمهرير العصور الجليدية خصوصا اذا لم تكن مجهزة بخيام الجلد أو العشش. ومن حين لأخر نجد بعض أثار القوائم والأ[عمدة التى كانت ترتكز عليها الاسقف، أو دوائر أو مثلثات من الصخور تشير الى الأبنية(١).

وفى داخل تلك الخيام أو بالقرب منها توجد مواقد تدل عليها الصخور المحمرة والرمضاء وتنتشر هنا وهناك مواقد أكثر جودة ودوائر صغيرة من الحجارة، أو مواقد فى قاعها الحصى، ربما كانت تستعمل فى الطهى حيث تسخن النار الحصى الذى ينظف من الرماد ثم تشوى اللحوم فوق ذلك الحصى مباشرة.

وهناك مواقد مملؤة بالحصى الذى فجرته الحرارة، ويستطيع المرء هنا تصور طريقتين لاستعمالها. فأما أن الحجارة كانت توضع مباشرة فى النار لتجمع الحرارة وتختزنها ثم تشعها بعد أن تخبو النار وتنطفىء وأما انها عندما تكون ساخنة تؤخذ بماسك خشبى لترمى داخل حقيبة من الجلد تحتوى ماء ليغلى ويعطى وجبة من اللحم. ولا يزال [الأسكيمو] يستعملون هذه الطريقة الى يومنا هذا(٢).

وفى المناطق الدافئة ربما كانت الكهوف أو الاماكن التى يأوى اليها الانسان اكثر بساطة فى التجهيز. حيث كانت تقام مصدات الهواء بدلا من الأكواخ. وربما شابهت معسكرات الهواء الطلق مساكن البشمان وسكان استراليا الأصليين بما فيها من وحدات وأكواخ مصنوعة من فروع الشجر وفى المناطق الممطرة كانت الأسقف المصنوعة من ورق الشجر هى وسيلة الحماية الوحيدة المتاحة.

وعلى أية حال توجد فى المناطق الباردة معسكرات الهواء الطلق أما فى المناطق التى ليس فيها كهوف، وأما انها كانت تستعمل كمعسكرات انتقال خلال الصيف. وفى أواسط أوروبا والاتحاد السوفيتى يوجد العديد من هذه المعسكرات، وهى تتدرج من

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٤٥.

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٤٦.

الكوخ العائلى البسيط المستدير، الذى ينغمر جزئيا فى الارض، كما تقوى جدرانه بعظام الحيوانات الكبيرة، الى أكواخ مساكن المجتمعات الكبيرة فى منطقة [الدون] ومن المحتمل أنها تتفق مع «البيوت المستطيلة» للهنود الحمر فى شرق الولايات المتحدة.

ومثل هذه المعسكرات التى كانت تقام فى الهواء الطلق كانت توجد ايضا فى فرنسا فى عصور [الموستريان] والعصور الحجرية المتقدمة وبوجه عام فان الاشارات الوحيدة الدالة على وجود معسكرات [الموستريان] هى عبارة عن مواقع وجد بها الكثير من قطع الصوان المشطوفة والانقاض والحجارة المحروقة المشطوفة والانقاض والحجارة المتنسمة كانت على جانب كبير من النظام. وكثيرا ما وجد عدد من الحفر التى كانت تثبت بها الأعمدة التى ترفع العشش أو الخيام. وكانت هذه المعسكرات تقام على مكان مرتفع يشرف على واديين، وتفضل البقعة الرملية المسطحة أن وجدت. وليست الحكمة فى مثل هذا الاختيار سرا على من مارس الأقامة فى معسكرات.(١)

وكانت المساكن الكبيرة فى شرق أوروبا فى الغالب بيوتا للمعيشة الدائمة فى مقابل الكهوف التى لا توجد فى تلك البقعة، فى حين كانت المساكن الاكثر بساطة فى الغرب مجرد معسكرات صيد أو تصييف. ويستنتج من عدم وجود أى أختلاف أساسى بين الادوات التى وجدت فى تلك المعسكرات وبين الأدوات التى وجدت فى الكهوف أن النساء كن يشاركن الرجال فى رحلات الصيد وكن يقمن بتجهيز جلود الحيوانات وحفظ اللحوم.

ومن المحتمل أن انسان العصر الحجرى القديم عاش معيشة شبه مستقرة بمعنى أن المجموعة كانت تنقسم الى قسمين قسم يستقر فى الكهوف طوال السنة وقسم أخر يقيم فى معسكرات مؤقتة متنقلة اثناء رحلات الصيد وهكذا كانت المجموعة الواحدة موزعة بين معيشة الاستقرار فى الكهوف ومعيشة البداوة والرحيل فى معسكرات الصيد.

وهذا ينطبق على البوشمان فى العصر الحاضر، ففى بعض الاحيان تعيش القبيلة مجتمعة، وفى أوقات أخرى تتفرق الى مجموعات.(٢)

---

(١) د. محمد السيد غلاب ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢١.
(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ التراث الثقافى للأجناس البشرية فى افريقية ـ النادى الأدبى ـ جدة ص ٤٧.

أما بالنسبة للملابس فكثيرا ما نرى الان رسامى الصحف والمجلات يتخيلون رجل ما قبل التاريخ وقد لف فروة حيوان حول وسطه وترك بقية جسمه عاريا، وقد يصدق هذا التصور على رجل العصر الحجرى فى فترات الدفء، ووقت الصيف فى الأقاليم الحارة حيث تكفى المرء فروة لتغطية جسمه ولكن الحياة فى عصر الجليد وبخاصة فى الشتاء كانت تتطلب لباسا أشبه ما يكون بملابس الاسكيمو فقد كانت الحرارة تنخفض أحيانا الى ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر.

ولم تخترع الابرة المصنوعة من العظم الا فى العصر السولترى ـ المتقدم ـ حوالى ١٧٠٠٠ أو ١٦٠٠٠ قبل الميلاد ـ وكانت أحيانا يستبدل بها أدوات غيرها. فكان هناك خرامات مصنوعة من العظام والصوان تستعمل لثقب الجلود. وكانت هذه الجلود تربط بألياف نباتية أو بأوتار عضلات الحيوانات بالطريقة التى يستعمل بها سكان المناطق القطبية اليوم أوتار وعضلات الرنة.

ومما لا شك فيه أن رجل العصر الحجرى كان يلبس الاحذية التى قد تكون على شكل خف. ولو أن اثار اقدامه فى الكهوف كانت تدل على أنه حاف.

وتختلف الادوات المستعملة بين كل فترة وأخرى ومن صناعة لأخرى ومن شعب الى آخر، وقد حدث ايضا تطور زمنى فى الصناعة والبيئة.

وفى العصر الموستيرى حفظت معظم الادوات المصنوعة وأكثرها من رقائق الصوان، وتشمل تشكيلة من ادوات الكشط ورقائق ذات حد واحد أو حدين مسنونين، وكانت هذه تستعمل لكشط الجلود لتشكيل الخشب وتستعمل كذلك كسكاكين[١]. وفوق ذلك كان هناك قطع مسننة أو رقائق حوافيها مسننة مثل المنشار، ومكاشط وأزاميل أو ـ مثاقب وخرامات وسكاكين من الصوان لها حافة مسنونة وأخرى عريضة حتى يمكن الضغط عليها بالأصبع مثلما يحدث فى بعض المدى الحديثة.

وبين تشكيلة الادوات فى العصر الموستيرى نجد فؤوسا تمسك فى اليد وأدوات لها استعمالات شتى كما فى العصر الأشيلى السابق، أما الادوات المصنوعة من العظام

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ الاسلام والمسلمون فى افريقية الشمالية ـ سلسلة انتشار الاسلام فى العالم ـ عالم المعرفة ـ جدة ـ ص ٣٧، ص ٤١.

فكانت مجرد عظام بردت أطرافها وذلك لأستخدامها فى صناعة الثياب، وعظام أخرى يبدو من شكلها أنها كانت تستعمل فى شحذ حجر الصوان.

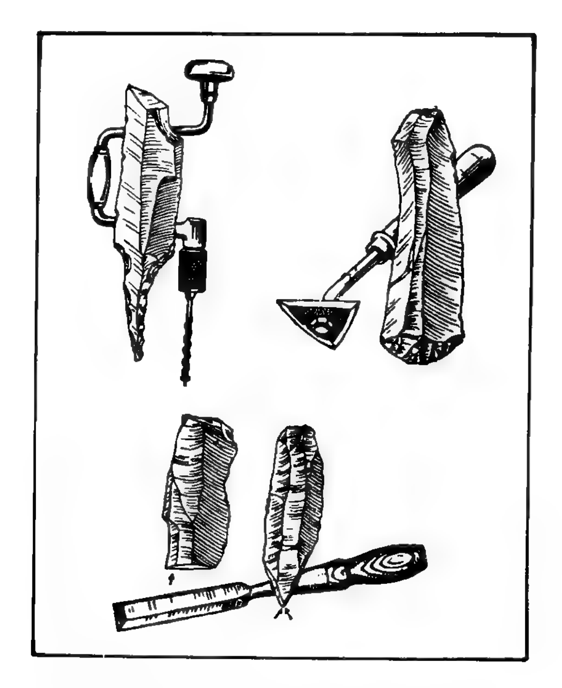
وفى العصر الحجرى القديم المتقدم صارت الادوات أكثر تشكيلا وتخصيصا وتطورت المكاشط، وزاد عدد المثاقب وأنواعها بدرجة كبيرة، وربما يرجع ذلك الى زيادة الأقبال على تشكيل العظام.

وتلعب المثاقب والشفرات ذات الحد الواحد والشفرات الصغيرة أيضا دورها ولكن الغرض من استعمالها ليس دائما واضحا. وتشمل الادوات العظمية البنط وأدوات الصقل لصقل الجلود وأخيرا الابر. وكانت الاسلحة تستعمل اساسا فى الصيد لأن الحرب - بالمعنى المفهوم الآن لم تكن معروفة فى العصر الحجرى القديم مع وجود بعض المناوشات بسبب النزاع على مناطق الصيد، وتنوعت الاسلحة أيضا حسب العصور وحسب المناطق المختلفة. وكان الناس فى العصر الموستيرى يستعملون الآلات - المدببة المصنوعة من الصوان ورؤوس الحراب أو الرماح المصنوعة من الصوان ورؤوس الحراب أو الرماح المصنوعة من الخشب وقليلا من الألات المدببة المصنوعة من العظام وربما الهراوات. أما أسلحة العصر الحجرى المتقدم فكانت اكثر تطورا، مثال ذلك تلك التشكيلة من رؤوس الحراب التى وصلت الى القمة فى رأس الحربة الذى كان على شكل ورقة الغار. وكذلك عدد كبير وتشكيلة كبيرة من العظام المدببة والسهام الهلبية وذلك خلال آخر فترة من ذلك العصر وهى الفترة المجدلية.[1]

وبينما كانت القذائف الموستيرية ترمى باليد شهد العصر الحجرى تطورا آخر عندما أخترعت الالة التى تقذف الرمح. وهذه الآلة مازالت مستعملة بين قبائل الاسكيمو وبين الوطنيين الأصليين فى استراليا ومزيتها انها تزيد مدى رمية الرمح وتقوى من نفاذه ويبدو أنه فى أخر العصر الحجرى اخترعت الأقواس، ولكن ليس هناك دليل قاطع على ذلك.

---

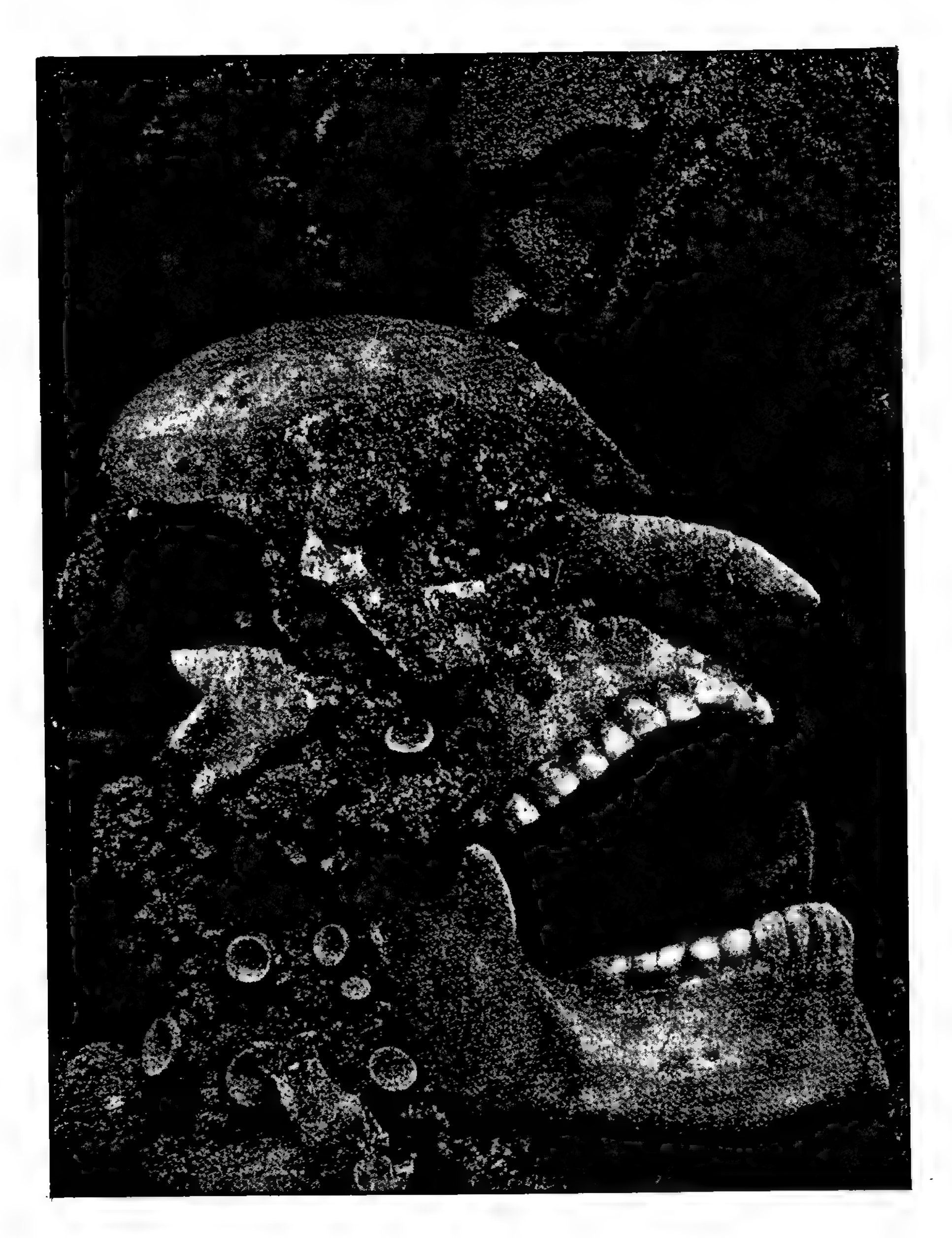
(١) المرجع نفسه - ص ٤٢.



أسلحة حجرية كالأزاميل والمكاشط وغيرها، وبجوارها مايناظرها في عالمنا المعاصر



أدوات حجرية ترجع إلى العصر الحجرى القديم



المصدر: National Geographic Society.

جمجمة لانسان - يقول علماء الأنثروبولوجى أنه - ينتمى إلى الحضارة البشرية [الموستيرية] فى «لاموستير» بجنوب فرنسا وأنه يرجع الى [٩٠٠٠٠ - ٣٥٠٠٠ سنه ق.م].

واتخذ العلماء منها دليلاً على انهدام نظرية داروين من أساسها!

• القنص والصيد عند الانسان القديم

لقد بدأ الصيد مع وجود الانسان على الأرض، ويبدو أنه كان عاملا من عوامل تطوره ودفعه دفعا الى مضاعفة قوته وسرعته وذكائه. فالانسان النياندرثالى والانسان الاشيلى وانسان العصر الحجرى وانسان العصر الحديث كل هؤلاء صيادون، ولم يغير من طبيعة الانسان ودأبه على صيد الحيوانات الضخمة مرور مئة ألف سنة أو حتى خمسمئة الف سنة.

وكانت هناك وسائل منوعة للصيد، وهى الصيد برماح ترمى باليد، وبعد ذلك بأداة رمى الرماح ثم الاقواس. أو بالانواع المختلفة من الفخاخ، أو بأستعمال النار والجاء الحيوانات الى الشرود والوقوع من صخرة عالية، أو بتتبع الفريسة وذلك بأن يتولى أحد الصيادين الجرى وراءها، يتبعه آخر ثم ثالث وهكذا حتى تفقد كل قدرة على الحركة، ويبدو أن هذه كانت الطريقة التى كانوا يصيدون بها الرنة والبيزون والخيل.

ويبدو أن الفخاخ كانت تختلف حسب حجم الحيوان، فالحيوانات الضخمة آكلة العشب كان يحفر لها حفر فى الارض وتغطى بفروع الشجر وورقه. أما آكلة اللحوم، فكانت الحيوانات عندما تحاول أن تأكل الطعم الموضوع على الارض كان يهبط عليها سقف مثقل بالحجارة أو يطعنها رمح يثبتها بالارض. أما بالنسبة للحيوانات الصغيرة مثل الأرانب فكانت الفخاخ من النوع الذى يستعمل فروع الاشجار المرنة.

أما صيد السمك فأختلفت أهميته على مر الأزمان، فلم توجد عظام السمك الا نادرا فى مخلفات العصر [الموستيرى] ولو ان البعض يرى أن هذا راجع الى ان الجهود التى بذلت للبحث عنها كانت قليلة، ويبدو أن أنسان العصر [الموستيرى] كان يصيد السمك بالرماح أو بالايدى لأننا لم نصادف أى أدوات لصيد السمك فى ذلك العصر[1].

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٤٣.

وفى أمـاكن العصر الحجـرى المتقدم وجدت عظام الأسماك والفقريات بكثرة، وهناك أدوات مصنوعة من العظام مدببة من الطرفين ربما كانت من نوع الخطاطيف المستقيمة التى مازالت بعض القبائل البدائية تصيد بها السمك للان، وسهام هلبية لصيد السمك أو الحيوان، وحراب متشعبة كانت تستعمل أيضا لصيد السمك، لان صيد السمك كان له دور مهم فى ذلك العصر(١).

ومن المحتمـل أيضـا أن الشباك كانت تستعمل. وقد عثر على أرضية مفروشة بالحصى ربـما كانت تستعمـل لتجفيف السمك. وأكثر الأسماك التى كانت تصاد كانت من نوع السالمون والتروت ولكن هناك أيضا بقايا من أنواع أخرى مثل الثعابين والكراكى.

ولدينا القليل من المعلومات عن النباتات ولكن التحليل اثبت أن شجرة البندق كانت مزدهرة فى أوروبا فى بعض العصور وأن بعض ثمار شجرة البلوط كان صالحا للأكل ووجد أيضا التوت والعليق والخوخ البرى والحسك المائى(٢). وكانت أبصال ودرنـات عدد من النبـاتـات فى ذلـك العصر صالحـة للأكل وكذلك الجزر البرى والحميض، وكان جمع هذه النباتات من عمل النساء والاطفال، أما فى افريقيا وجنوب شرق آسيا فيبدو أن النباتآت كانت اكثر تنوعا.

---

(1) Mankind in the Making. Doubleday. N.Y. 1959
The Distribution of Man. Freeman, San Francisco, 1960
Back of History, the Story of our Origins. American Museum of Natural History and Doubleday, N.Y., 1963
(2) L.S.B. Leakey
Olduvai Gorge. Cambridge Univ. Press, 1951
Adem,s Ancestors. Harper and Row, N.Y, 1960
Olduvai Gorge 1951 - 1961. Cambridge Univ. Press, 1965
Stone Age Africa. Ne gro Univ. Press, N.Y., 1970
Unveiling Man,s Origins (With V.M. Goodall) Schenkman Publishing Company, Cambridge, Mass., 1969; Methuen, London, 1970

■ . عوامل انتشار الأجناس البشرية فى الارض

ليس هناك شك فى أن الاجناس البشرية الحالية تنتمى كلها لآدم عليه السلام، وهو الأصل البشرى الأول لكل الناس. . قال تعالى:

«يا أيها الناس إنا خلقنكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم». . صدق الله العظيم. [الحجرات/ ١٣].

ولا جدال من وحدة النشأة ووحدة المكان الذى شهد النشأة، وهو الوطن الأول للانسان ومنه انتشر الى كل اجزاء الأرض.

ويمكن تقسيم العـوامل التى أثرت فى انتشار الأجناس البشرية فى الارض إلى مجمـوعتين الأولى منها تشمل العوامل الطبيعية التى لا مفر من تأثيرها على الانماط المختلفة لتوزيع الاجناس البشرية جغرافيا على قارات الدنيا. أما المجموعة الثانية فتشمل العوامل الاقتصادية التى أسهمت ـ مع العوامل الأولى ـ فى رسم مسارات انتشار الانسان فى الارض.

[أولا]:ـ العوامل الطبيعية:

١ ـ كان للتضاريس دور كبير فى انتشار الاجناس البشرية فى الأرض وتحديد محاور الأنتشـار وكانت السهول والأودية ـ على النقيض من المناطق الوعرة ـ من العوامل المساعدة على الأنتشار، فعلى سبيل المثال كان وادى النيل طريقا لانتشار الهجرات القـادمـة من جنوب غرب آسيا الى السودان وأواسط افريقية، كما كان حوض نهر الدانوب الطريق الطبيعى للهجرات التى وفدت من وسط آسيا الى القارة الاوروبية.

٢ ـ كان نقص المـاء ومدى توفره من اهم العوامل الطبيعية التى شكلت أنماط الأنتشار والاستيطان البشرى فى الارض، ومن ثم فقد وقفت الصحراء دائما عقبة فى سبيل انتشار الانسان، وعلى سبيل المثال، كانت الصحراء الكبرى حاجزاً طبيعاً هاماً فصل المجموعة القوقازية التى تعيش فى وسط وجنوب افريقية كما كانت صحراء سيناء مصفاة للشعوب الوافدة الى أرض مصر.

٣ ـ أغلب الـظن أن الجـماعـات الأولى خرجت من الجزيرة العربية من فجر

التاريخ البشرى وسارت فى طرق ومسالك مختلفة، وتأثرت فى أثناء سيرها بالجهات الجديدة التى هبطت اليها، ولعبت التربة والتكوين الجيولوجى للأقاليم المختلفة دوراً فعالاً فى اجتذاب الأجناس البشرية اليها فكانت التربات الفيضية كمغناطيس يجذب الانسان اليها.

[ثانيا]: **العوامل الاقتصادية:**

١ ـ كانت المناطق الصالحة للزراعة بمثابة اقاليم جذب للانسان.

٢ ـ كانت وسائل المواصلات الرخيصة (كالنقل البحرى) من العوامل المساعدة على انتشار الانسان.

٣ ـ فيما بعد كانت مناطق توفر المواد الخام اللازمة للصناعة هى التى تحدد مسارات هجرة الأجناس البشرية من مكان الى آخر.

اكتشاف النار

وكان استعمال النار معروفا للانسان من ايام الانسان الأول الذى عاش فى أسيا وأوروبا، لان استعمال النار فى افريقيا لم يأت الا فى وقت متأخر. وليس معنى هذا أن الانسان قبل ذلك لم يكن يعرف كيف يشعل النار ويبدو أنه كان يعرف كيف يبقيها مشتعلة بعد أن يأخذ قبسا من نار نشبت فى الأشجار بطريقة طبيعية مثل البرق أو نار المستنقعات ولكن فى العصر اتلموستيرى وفى العصر الحجرى المتقدم على اليقين وجد الانسان وسيلة لاشعال النار .

ويرى بعض العلماء أن أهتداء الانسان الى معرفة النار جاء عن طريق مراقبة سقوط الشهب أو بسبب ارتفاع درجة الحرارة التى تسبب الكثير من الحرائق فى الغابات ومناطق الحشائش، أو عن طريق المقذوفات البركانية [اللافا]، أو الغازات الملتهبة الخارجة من الأرض. ويبدو أنه قد مر وقت طويل قبل أن يعرف الانسان كيفية استخدامها واستمرار اشتعالها بمدها بالوقود وحمايتها من الرياح والأمطار، ويظهر أن

هذه المهمة أوكلت إلى المرأة التى كان استقرارها فى مناطق السكن سببا فى اشرافها على هذه المهمة الصعبة.

ولا تزال بعض الجماعات البدائية فى جزر المحيط الهادى المنعزلة لا تعرف شيئاً عن النار، كما أن هناك جماعات بدائية أخرى لم تتطور عن مرحلة المحافظة على النار، ولا تعلم شيئاً عن ايقادها.(١)

وما يهمنا هو أثر النار فى هذه المجتمعات البدائية، فقد أعطت النار للانسان البدائى نوعاً من الأمن بالليل عندما بددت له ظلمات الليل، وأبعدت عنه الحيوانات المتوحشة. وبالتالى أبعدت عنه الخوف، كما ارشدت الصيادين والرعاة إلى مناطق إقامتهم..

كما كانت النار ـ ولا تزال مركزاً لتجمع أفراد الجماعة، ومن ثم سببت شيئاً من الترابط بين أفرادها، وتطورت إلى أن أصبحت المواقد مركز تجمع القبائل والقرى والوحدات السكنية الكبيرة(٢).

كما ساعدت النار على صلاحية الأرض للزراعة، بعد أن ساعدت على حرق الحشائش والغابات التى كانت تعوق بذر الحبوب، كما ساعدت على زيادة خصوبتها بما تضيفه الى التربة بعد حرقها للنباتات من مواد عضوية نافعة للزراعة، كما ساعدت على طهو الطعام، وساعدت على حرق الطين، وصناعة الفخار الذى استخدم فى الطهو، وفى تخزين المياه والحبوب، وساعدت على حرق الطوب لبناء المساكن، وعلى تجويف الأخشاب لصناعة القوارب والأوانى الخشبية.(٣)

وقد ساعدت النار أيضا على استخلاص المعادن من خاماتها، وبذلك بدأت حرفة الحدادة وصناعة المعادن، التى تطورت إلى صناعة الآلات والصناعات الحديثة.

ومن هنا يمكن اعتبار اكتشاف النار ثورة اقتصادية عظمى فى حياة الانسان.

وهناك طريقتان اساسيتان لاشعال النار هما الدلك والطرق فربما اتخذت عصا مدببة لدلكها جيئة وذهابا فى مجرى مشكل فى الخشب أو تدار بسرعة باليد أو بقوس

---

(1) Ibid. (2) W. Page, 1939: From Hunter to Husband man, PP.35 - 39

(٣) د. فؤاد محمد الصفار ـ دراسات فى الجغرافية البشرية ـ وكالة المطبوعات الكويت ـ ص ١١٠.

أما الطرق فلم يكن بضرب قطعة من حجر - الصوان بأخرى كما يظن بعض الناس، لان الشرر المتكون من هذا الطرق شرر بارد لا يشعل نارا، ولكن الحجر الصوان يضرب به على كتلة من بيريت الحديد، وفى بعض المخلفات وجدت قطع من بيريت الحديد وعليها أثار الطرق، وفى بعض الأحيان يبدو عليها أنها استعملت كثيرا كولاعة.

ومن العسير تقدير كثافة السكان، ويبدو أن الناس كانوا مبعثرين هنا وهناك فى قلة من العدد مع وجود مئات من الناس مركزين فى بعض الاماكن هنا وهناك. ولم يكن متوسط أعمار الناس كبيرا فى ذلك الوقت فلم يكن يبلغ الخمسين من العمر الا القلة القليلة، ولا شك أن نسبة الوفاة بين الاطفال كانت كبيرة، وكذلك نسبة حالات ولادة الأجنة ميتة.

● . الطقوس الجنائزية

يرجح أن أول أثر للدفن لا شك فيه كان فى العصر [الموستيرى] ففى «كوريز فى شابيل أوسانت» وجدت جثة رجل فى حفرة جلس مقرفصا ووجدت عظام حيوان كبيرة وضعت لحماية رأسه، وكذلك وجدت عظام «البيزون» بجوار جثته وكأنها قرابين تصحبه فى رحلته الاخيرة، واثبت التحليل أن جثة رجل وجدت فى بقايا العصر [الموستيرى] فى «شانيدار» بالعراق كانت مدفونة وتحتها بساط من الأزهار.

وفى العصر الحجرى القديم صارت طقوس الجنائز أكثر تعقدا فكان الموتى يدفنون ومعهم اشياء لها قيمتها. مكونة من أدوات من الصوان - والعظام، وعقود جميلة مكونة من المحار المثقوب وملونة بالمغرة الحمراء واحيانا كانت توضع حجارة ضخمة على أيديهم وأقدامهم، ويبدو أن ذلك كان احتياطا حتى لا يقوم الموتى ويضايقوا الاحياء!!!

وكانت هناك أماكن كثيرة لدفن الاطفال ويقول العالم السوفيتى - «أوكلاد نيكوف» ان هذا يعود الى ان انسان العصر الحجرى كان يهمه أمر الموتى من الاطفال أكثر مما يهمه أمر الموتى من البالغين. ومما يلاحظ أيضا ذلك العدد الكبير من مقابر النساء التى لا تقل فى زينتها عن مقابر الرجال من الصيادين.

● ـ الفنون البدائية وأنماط التحضر البشرى فى العصور القديمة

يبدو أن الفن قد بدأ فى مرحلة متقدمة أكثر مما نتصور، ففى كثير من مواقع العصر [الموستيرى] نرى رسوما تستخدم فيها بعض المعادن مثل ثانى اكسيد المنجنيز الأسود والمغرة الصفراء والحمراء. ولكننا لا نعرف أى حفر أو نحت أو رسوم تصور الحيوانات الا بعد العصر الحجرى المتقدم ويبدو انسان العصر [الموستيرى] كان يستخدم الصبغة المعدنية فى الرسم على مواد قابلة للتلف أو على جلودهم كما يفعل الآن الوطنيون الأصليون فى استراليا.

وفى العصر الحجرى المتقدم تقدم الفن تقدما كبيرا خصوصا فى الحضارة المجدلية. فكانت الاعمال الفخمة فى الحفر والنحت والرسم التى يمكن مقارنتها بالاعمال الفنية فى العصر القديم الكلاسيكى، ومعظم أعمال الفن منصبة على تصوير الحيوانات، ولكن فى بعض الكهوف مثل «لامارش» فى فرنسا نرى عددا كبيرا من صور الانسان معظمها فى شكل كاريكاتير، وكان تصوير الانسان فى ذلك الوقت محرما.

● ـ المعتقدات القديمة والنظم الاجتماعية

أما بالنسبة للسحر والدين فقد اتخذت تفسيرات متنوعة لفن ما قبل التاريخ. فعندما اكتشفت اعمال هذا الفن أول الامر قيل أن هذه الاعمال مظهر من مظاهر حاسة جمالية متطورة تطورا كبيرا. ومن هذا استنتج أن فن ما قبل التاريخ كان هدفه اطلاق تعويذة أما لأنجاح الصيد أو لزيادة عدد الحيوانات.

ومن مدة قريبة فسرت مدرسة الاستاذ [لرواجورتان] هذا الفن بأنه تعبير عن الثنائية التى تشمل الذكر والانثى. فبعض الحيوانات تمثل الاساس الذكرى والأخرى تمثل الاساس الأنثوى. وقطعا ليس هناك أى اجابة قاطعة محددة، فان أى تفسير ينطبق على العنصر الاورينجاكى (٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) يلزم تطبيقه على العصر المجدلى «١٥٠٠٠ الى ٩٠٠٠ قبل الميلاد».

وكان الناس يعتقدون لمدة طويلة ان الرسوم كانت توجد فقط على جدران الكهوف

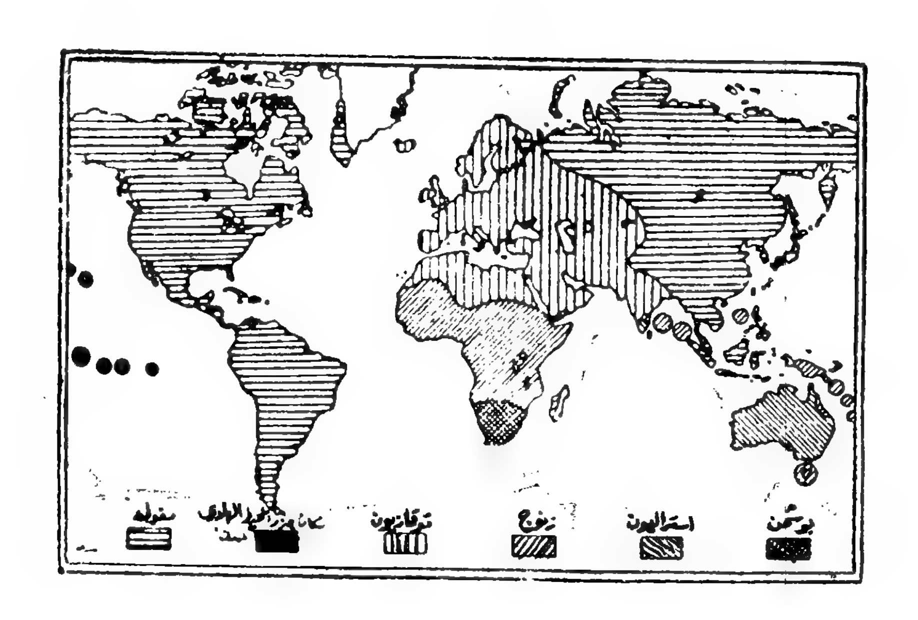
العميقة، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن جدران أكثر المساكن الحجرية كانت أيضا مزينة بالرسوم، وأكثر هذه الكهوف فى أوربا الغربية ولكن وجد بعض منها فى «الأورال»[1].

وجرى الكثير من الرجم بالغيب حول ديانة العصر الحجرى. ولكن الحقيقة لم تعرف تماما. وطقوس الجنازة تنبىء بأن هناك اعتقادا فى حياة أخرى، وقد أنكر الكثير نظرية عبادة الرب التى كانت موجودة عند الانسان الموستيرى. ولكن بعض الابحاث الحديثة أعادت الاعتبار الى هذه النظرية.

أما بالنسبة للتنظيم الاجتماعى فلا نعرف الا القليل لأننا لا نعرف فى أكثر الحالات حجم المجموعات الانسانية فى ذلك العصر، فمثلا لا نعرف هل الآلات التى نعثر عليها فى طبقة معينة تمثل ١٠ رجال لمدة مئة عام أو مئة رجل فى عشرة أعوام، ولكن الدراسات الحديثة بدأت تلقى ضوءا على هذا الموضوع. وتشابه الادوات والاعمال الفنية يرينا أنه كان هناك اتصال حتى بين المجموعات المنفصلة بمسافات كبيرة.

ومازال الكثير مجهولا عن الحياة اليومية فى العصر الحجرى ولكن ما نعرفه ينبىء بأنه بالرغم من أن الحياة كانت قاسية فان الانسان لم يكن بصفة عامة فى بؤس أو شقاء، فعند وفرة حيوانات الصيد كان لدى الانسان فراغ لاعمال النحت أو لسرد القصص ـ ومع أن بعض الاعمال الفنية قد صارت الينا وهى تمثل العصور المختلفة فان السرد القصصى الشفوى كله ويشمل القصص والاساطير والأغانى أختفى الى الأبد.

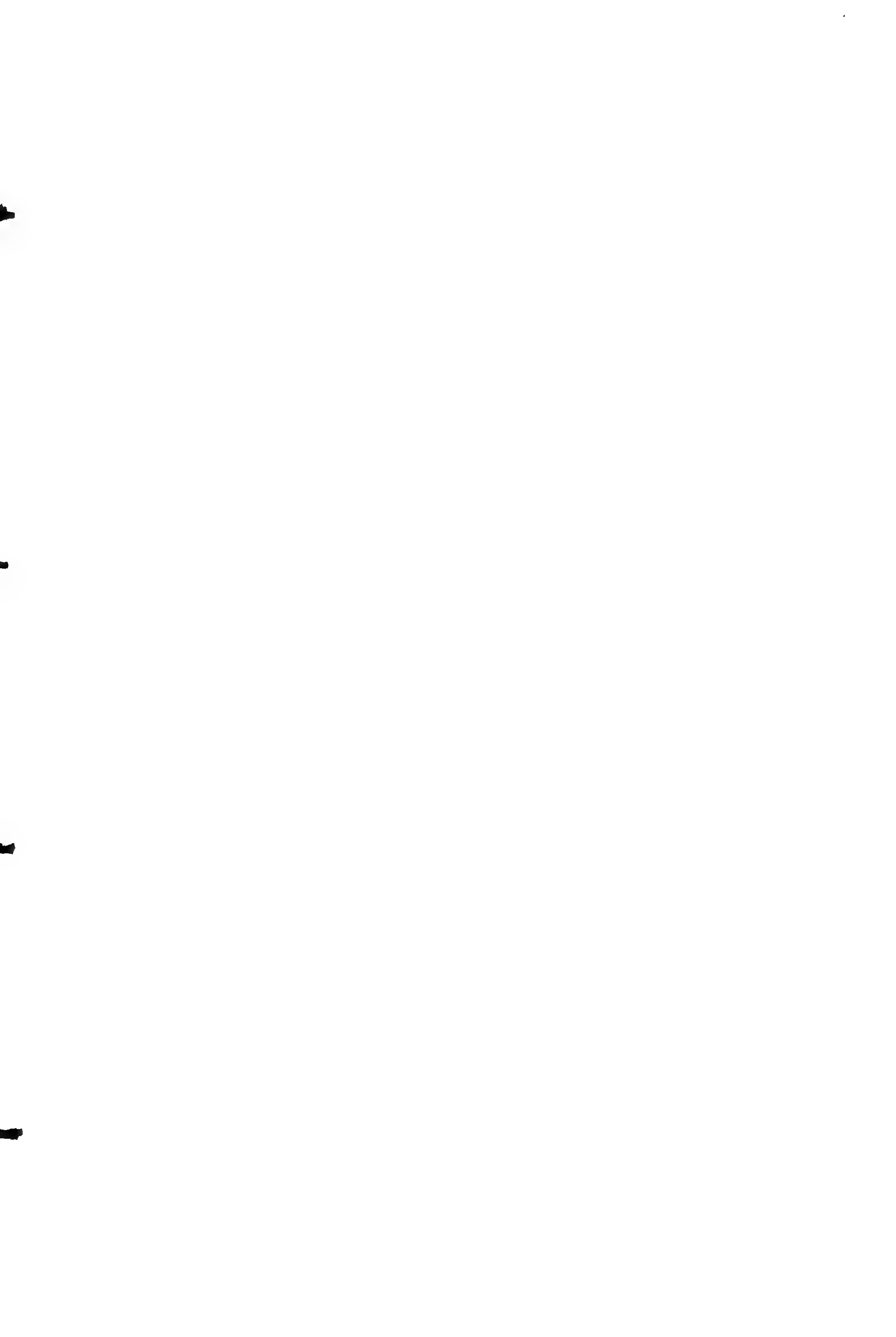
(1) Ibid.



[خريطة للعالم]

تبين مدى انتشار الانسان فى الأرض

فى القرن العشرين



الفصل الرابع
الانسان وهجراته فى عصور ما قبل التاريخ

- الدورات الجليدية وأثرها فى رسم مسار انتشار الأنسان فى الأرض.
- هجرة القوقازيين.
- تقسيم «دركن Dirken للهجرات القديمة.
- المحاور الجغرافية لانتشار الانسان.
- الهجرات البشرية الحديثة وتعمير العالم الجديد.
- دوافع الهجرات البشرية.
- التوزيع الجغرافى للمجموعات البشرية الكبرى.
- الانسان والحضارة فى المفهوم الاسلامى.

الفصل الرابع
الانسان وهجراته فى عصور ما قبل التاريخ

لابـد لمعرفة كيفية انتشار الانسان والطرق التى سلكها الانسان الأول فى عهد نشأته الأولى من معرفة الظروف الطبيعية من حيث توزيع اليابس والماء وحالة المناخ التى عاصرت ذلك الانسان فى العصر (البليستوسين) وهو العصر الذى نشأ فى أوائله الانسان ثم انتشر فى أواسطه ويقدر زمنه بحوالى مليون سنة فقد حدثت فيه تطورات هامة.

● - الدورات الجليدية وأثرها فى رسم مسار الانسان فى الأرض

يؤكد العلماء أنه قد انخفضت درجة الحرارة الى ما تحت الصفر فى شمال القارات المتاخمة للقطب الشمالى آسيا وأوربا وأمريكا الشمالية - فى البليستوسين - وغطيت مساحات كثيرة بالجليد حتى أواسط هذه القارات وكان زحف الجليد فى أدوار أربعة تتخللها فترات دفيئة كان ينجاب الجليد فيها عن هذه البقاع.

وفى الوقت الذى كان يسود الجليد هذه البقاع الشمالية وتصبح منطقة ضغط مرتفع ويتزحزح القطب الشمالى جنوبا حتى عرض ٤٥° - ٥٠° شمالا أصبحت مناطق متسعة من أفريقية الشمالية عرضة لهبوب الرياح العكسية - فسقطت الأمطار فيما يعرف الآن بالصحـراء الكـبرى وبـلاد العرب وحلت فيها الأشجار والحشائش وكانت مسرحا للحيوانات العشبية والضخمة آكلة اللحوم وانتشرت فيها الوديان ومن آثارها الوديان الجافة والتى يسميها البدو فى الوقت الحاضر وديان بلا ماء.

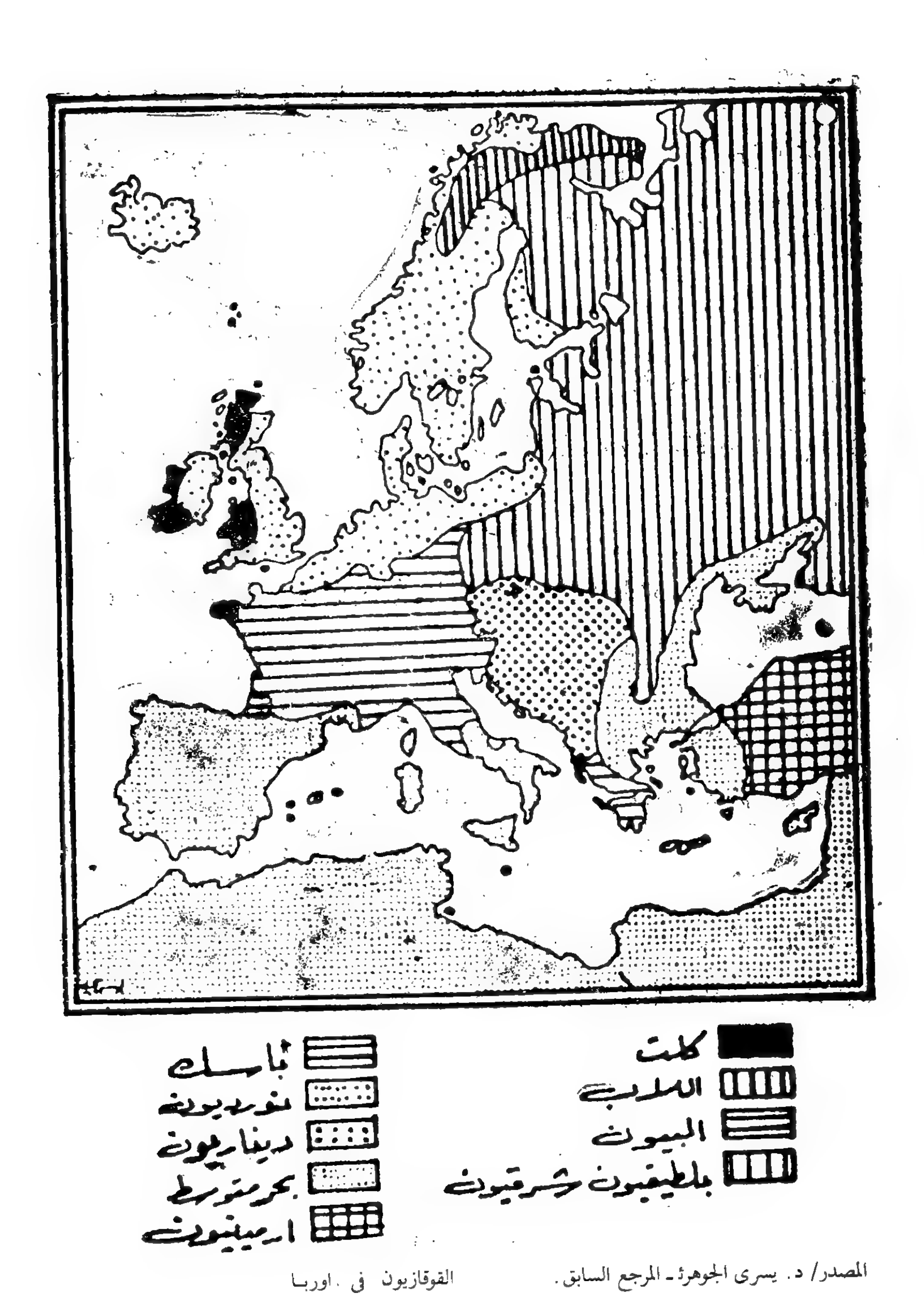
هذه الأدوار الجليدية سميت بالعصـور الجليدية وكانت أدوار الجليد فى الشمال يقابلها دائما أدوار مطر فى العروض الصحراوية حاليا وكانت فترات الدفء فى أوربا

يقابلها فترات جفاف فى الجنوب كالجفاف الحالى فى الصحراوات اليوم وقد أثر هذا على هجرات البشر فى عصر [البليستوسين] وكان زمن العصر الجليدى بأكمله فى النصف الثانى من [البليستوسين].

فى ذلك الوقت - فى [البليستوسين] بدأ الانسان ينتشر على سطح الأرض من الوطن الذى افترضه العلماء وهو جنوب غرب آسيا فى نظر البعض أو سهول «التركستان» فى نظر البعض الآخر وقد كانت سهول «التركستان» غنية فى العصور القديمة بدليل وجود محلات مقبورة وبقايا آثار وحفريات.

فمن أى من هذه الأوطان انتشر الانسان شرقا ربما من جنوب بحيرة بلكاش وخلال الممرات الجبلية فى فترات الدفء وعبر هضبة التبت وهى غير وعرة شرقا نحو الصين ومن شرق آسيا عبرت الجماعات البشرية عبر مضيق بهرنج وجزائر الوشيان الى أمريكا الشمالية فى دفعات متتالية وهذه الجماعات هى التى كونت الهنود الحمر ثم قبائل [الاسكيمو] وقد هاجر الأمريكيون من آسيا قبل أن تتضح الصفات المغولية تماما فى المغول وذلك على عكس [الاسكيمو] الذين كانوا أحدث عهدا بالهجرات من آسيا فحملوا صفات المغول بعد أن بدأت فى التكوين. وهناك انتشار للسلالات من القارة الآسيوية نحو الجنوب الشرقى اما عن طريق بحرى واما عن طريق برى فالطريق البحرى يلازم الساحل حتى جنوب شرق آسيا ويمكن الى امريكا عن طريق الجزر بجوار ساحل المحيط الهادى ولا تعرف هجرة من الشرق الى الغرب من اندونيسيا الى افريقية الا حديثا حيث ارتحلت عناصر من اندونيسيا الى جزيرة مدغشقر (منذ بضع مئات من السنين).

أما الهجرة الى الأوقيانوسية (استراليا والجزر المحيطة بها) فكانت سهلة على البحار (لتراكم الجليد فى الاقطار الشمالية) فكان ساحل البحر متفقا مع خط عمق ٦٠٠ قدم الحالى ومعنى هذا أن عددا من المضايق التى تفصل جزائر اندونيسيا وتفصل آستراليا عن غنيا الجديدة وعن تسمانيا فى الجنوب كانت كلها أرضا يابسة يسهل على الانسان الانتقال عليها أو بالقرب من سواحلها ثم هبطت الأرض أو أرتفع سطح المياه ونتج عن هذا انعزال الساكنين فى تلك الجزائر فلم يصل الاستراليون القدماء الى تسمانيا بعد وصول التسمانيين. فمن المتفق عليه بين علماء الأجناس أن سكان هذه الجزر



القوقازيون فى اوربا

المصدر/ د. يسرى الجوهرى- المرجع السابق.



المصدر/ د. يسرى الجوهرى ـ المرجع السابق

[دخلت الأجناس القوقازية إلى أوربا من غربى آسيا عبر عدة محاور جغرافية منها شمال بحر قزوين].

جميعا ارتحلوا اليها من جنوب شرق آسيا ومن اندونيسيا وأن سكان تسمانيا انقرضوا حاليا جاؤا من جنوب شرق آسيا والأستراليون القدماء جاءوا أيضا فى فترة ارتفعت فيها الأرض، واتصلت بغينيا الجديدة من اندونيسيا وجنوب آسيا ويستدل على هذا بوجود جماعات بشرية فى جنوب آسيا شبيهة بسكان استراليا القدماء ما هم الا بقايا جنس كان يؤلف عنصرا هاما فى سكان آسيا ثم تضاءل عدده أمام ظهور أجناس أحدث وأقوى.

ومنذ وصول الأستراليين القدماء الى أستراليا لم يصل لهذه القارة آية هجرات الا الهجرات الحديثة (الانجليز).

وفيما عدا سكان جزر ميلانيزيا بصفاتهم المميزة من شعر صوفى ولون بنى غامق وأحيانا أسود. والعناصر البدائية فى غنيا الجديدة، فيما عدا هؤلاء نجد سكان جزر بولينتزيا فى وسط المحيط الهادى بين جزر هاواى وجزر نيوزيلند وقد جاؤا من اندونيسيا وشعرهم مستقيم أو مموج وقد حدثت هذه الهجرات بعد أن عبرت جزر المحيط الهادى وبعد أن ـ مرت فى طريقها على ميلانيزيا.

أما سكان ميكرونيزيا (جزر تقع شمال شرق نيوغنيا) فقد ارتلحت من أندونيسيا وكانت هناك عناصر زنجية فى جنوب آسيا بقاياها منتشرة فى الجزائر الواقعة فى جنوب الملايو وفى بعض جزر الأوقيانوسية. وقد انتشرت هذه العناصر الزنجية غربا نحو افريقية على طول امتداد سواحل ايران وشبه الجزيرة العربية وعن طريق باب المندب ودخلت افـريقية حاليا عناصر أقدم من الزنوج وهم البوشمن والهوتنتون فى جنوب غرب إفريقية (صحراء كلهارى) ـ ومنهم الزنوج الذين أتوا بعدهم الى هذه المناطق النائية الجافة (مناطق عزلة والتجاء).

■ ـ **هجرة القوقازيين**: دخلت السلالات القوقازية من جنوب غرب آسيا (أو ربما من إيران أو سهول التركستان) إلى إفريقية فيما يعرف بالعناصر الحامية أو السلالة الاثيوبية (لا علاقة للتسمية بأثيوبيا الحالية).

وقـد دخلت هجـرات القـوقازيين الى أوربا من عدة طرق من آسيا شمال بحر قزوين، عن طريق سهـول أكـرانيا ومن هضاب الأناضول الى البلقان بعد انتهاء

الأدوار الجليدية واثناء الفترات الدفيئة وكذلك من شمال افريقية عن طريق معابر معينة هى تونس وصقلية وجزر بحر ايجه ومعبر جبل طارق الذى كان أقل اتساعا وضحلا وهؤلاء هم سلالة البحر المتوسط وقد خرج من حوض البحر المتوسط الشرقى عناصر سارت بحذاء شاطىء افريقية الشمالى الى المحيط الأطلنطى حتى ايبريا واستقرت شمالا فى فرنسا (بريتانى) والى اجزاء من سواحل الجزر البريطانية فأقدم عناصر السكان فى غرب أوربا ترجع الى سلالة البحر المتوسط السوداء الشعر الطويلة الرأس وقد اعتزلت فى اطراف القارة تحت ضغط عناصر أقوى منها ولا تزال صفة السواد فى العين موجودة فى اقليم بريتانى وويلز وغرب ايرلنده ويضرب هويت Hoyt [1] أمثلة على ذلك، فالجنس القوقازى وعلى الخصوص السلالة النوردية ببشرتها الفاتحة تتناسب مع المناخ السائد فى شمال غرب أوربا، بينما سلالة البحر المتوسط ببشرتها الأعمق تلاءمت أكثر مع المناخ الصافى الممثل فى حوض البخر المتوسط وجنوب غرب آسيا وشمال افريقية وكذلك الحال فى المجموعة الزنجية التى اكتسبت صفات جسمية معينة للحماية ضد الاشعاع الشمسى فى افريقية المدارية ببشرتها السوداء. وأما الجنس المغولى فهو يضم سلالات فرعية مختلفة واءمت صفاتها الجسمية الظروف المناخية المختلفة فمثلا عناصر التانجوس Tangus التى تسكن سيبيريا لاءمت بين نفسها وبين المعيشة فى المناخ القارس البرد ـ بالبنية الجسمية القصيرة الممتلئة والوجوه السمينة. بينما العناصر الملاوية فى جنوب القارة الآسيوية مالت الى اللون الأغمق.

■ ـ **ويقسم دركن Dirken [الهجرات القديمة] الى الفترات الآتية :ـ**

[أولا]: من مليون سنة ق. م الى ٥٠٠٠٠٠ ق.م:ـ وقد انتشر الانسان فى هذه المرحلة من موطنه الاصلى الى كل الاتجاهات تقريبا فى العالم القديم. والوطن الأول للانسان بالضبط قامت حوله اختلافات فى الرأى كما ذكرنا ولكن على اية حال فأن الانسان استطاع أن ينتشر فى أواخر تلك الفترة فى شرق وشمال افريقية وفى جنوب آسيا والهند والصين وجاوة[2]. ويرى البعض أن الانسان قد تقدم من الاقاليم

---

(1) J.S. Hoyt, 1963: Man and the Earth- U.S.A., PP5-18.
(2) S.N. Dirken & F.R. Pits, introduction to Human, Sreagroph, U.S.A. 1962.

الآسيوية الرطبة الى مواطنه فى الصحارى واستبس جنوب القارة الآسيوية وفى المناطق المعتدلة للصين وكان انتشاره بريا[1].

[ثانيا]: من ٥٠٠,٠٠٠ ق. م الى ٢٠,٠٠٠ ق. م.

قد شاهدت هذه الفترة تغييرات كبيرة فى خصائص الانسان الجسمية مثل عرض الرأس وفى هجرات ومناطق استيطانه خلال جنوب شرقى آسيا وافريقية. كما شهدت تلك الفترة أيضا هجرة الانسان الى استراليا وأمريكا الشمالية عن طريق مضيق برنج[2].

وحتى ٥٠٠,٠٠٠ سنة مضت كان الانسان يقتصر على توزيعه فقط على العروض الدنيا وربما قام بمحاولات للوصول الى الجهات الأبرد فى أوربا وأواسط آسيا خلال الفترات الدفيئة التى تخللت العصر الجليدى ولكن لم يستطع الانسان أن ينتشر فى هذه المناطق الشمالية الباردة الا بعد ان تقهقهر الجليد بعد انتهاء العصر الجليدى وكان حينئذ قد تمكن من عمل الرداء وأسلحة من العظام أو العاج أو الخشب أو الصوان[3].

[ثالثا]: من ٢٠,٠٠٠ ق. م الى ٥,٠٠٠ ق. م.

بعد انتهاء العصر الجليدى أصبحت مناطق العروض الوسطى تجتذب الانسان البدائى وأخذ ينتشر الى السهول الأوربية (التى تحتلها الأن فرنسا والأراضى المنخفضة وألمانيا) وقد وجد الانسان غذاء كافيا عن طريق صيد الحيوانات الضخمة التى كانت تنتشر فى هذه السهول مثل حيوان الماموت [أسلاف الفيلة الحالية] الذى كان الواحد يمد الانسان بغذائه لفترة طويلة وقد ساعد المناخ البارد بطبيعة الحال على حفظ لحمه كما ساعد صيد هذا الحيوان على التعاون وتضافر الجهود والى جانب حيوان الماموت كانت توجد أيضا الخيول الوحشية والدب وهذه كانت تمد الانسان بالغذاء.

وهناك احتمال قوى بأن الانسان قد وصل خلال هذه الفترة الى الجزء الشمالى من أوربا وتحرك منها نحو سيبيريا الى أواسط آسيا ومن ثم عمرت المناطق الشمالية البارزة والاجزاء القارية الداخلية من آسيا كما استمرت الهجرات ايضا خلال تلك الفترة عبر

---

(1) Ibid PP. 19- 33.

(2) J.H.G. Lebon op Cit P. 54.

(3) J.S. Hoyt, op. cit., 55- 60.



بقايا الهنود الحمر فى أمريكا اللاتينية

مضيق برنج[1].

● ومن المحتمل أن الانسان استطاع فى أواخر تلك الفترة أن يستخدم القوارب فى بعض الهجـرات القصيرة عبر البحر[2]، أو على طول شواطىء المحيطات ويذهب [الكولونيل جيمس شرشوارد Church iuard] فى كتابه «قارة مو المفقودة»، و «أبناء مو» . . إلى أن شعوبا تنتمى للجنس المغولى هاجرت بحراً إلى تلك القارة المنكوبة فى أعماق المحيط الهادى من آسيا وأمريكا عندما دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر ألف سنة، وفوقها قرابة ٦٠ مليون انسان.

ومن الأدلـة العلمية على حدوث ذلـك، ما عثر عليه المنقبون من نقوش ورتوم شوهدت فى جزر المحيط الهادى، وتؤيدها كتابات المصريين القدماء والاغريق الاقدمين.

ويبدو أن الانسان كان قد خطا خطواته الأولى فى سبيل التقدم والمعرفة قبل مائتى الف سنة، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال إلى شأو من الحضارة لم نصل إليه حتى الآن فى حضارتنا الراهنة . . لماذا؟ . .

لأن حضارتنا لا تدعى لها عمراً أطول من خمسة آلاف سنه وهى مرحلة قصيرة بالقياس إلى الشأو الذى يدركه الانسان القديم بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة . . ويرى العلماء أن حضارة مصر العظيمة وحضارات الشرق فى الصين والهند وبابل ما هى إلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغارقة.[3]

وقد تبين للكولونيل [جيمس شرشوارد] من دراسته العلمية لمخلفات تلك الحضارة ان بعض تلك الآثار توغل فى القدم إلى سبعين الف سنة، وبعضها آثار مصنوعة من البرونز لا يقل عمرها الزمنى عن عشرين الف سنة.

■ ـ ويهمنا فى هذه الاكتشافات المذهلة ما يلى :ـ

● ـ أنها تشـير إلى حضـارة [انسان] متدين يعرف الله فى تلك العصور الموغلة فى

---

(1) Ibid., PP. 71 - 73.

(2) S.N.Drcken, op. cit., PP. 41 - 45.

(٣) عباس محمود العقاد ـ القرآن والانسان ـ ص ٢٨٥ .

القدم، وهذا يهدم نظرية داروين التى تقول بان الانسان فى تلك الحقبة [منذ ٢٠٠٠٠٠ سنة] لم يكن سوى قرد لم يتطور بعد الى انسان!!!

● - تصف لنا تلك الحضارة الموغلة فى القدم الانسان آنذاك مخلوقا مميزا بين جميع المخلوقات، وتربط بين خاصية التدين وبين المزية الآدمية التى تفرده بين انواع الأحياء، على خلاف المفهوم من مذهب النشوء والارتقاء عند المخرف [داروين] الذى جعل الانسان نوعاً من الأنواع بغير مزية تفضله عنها سوى مزية الارتقاء.

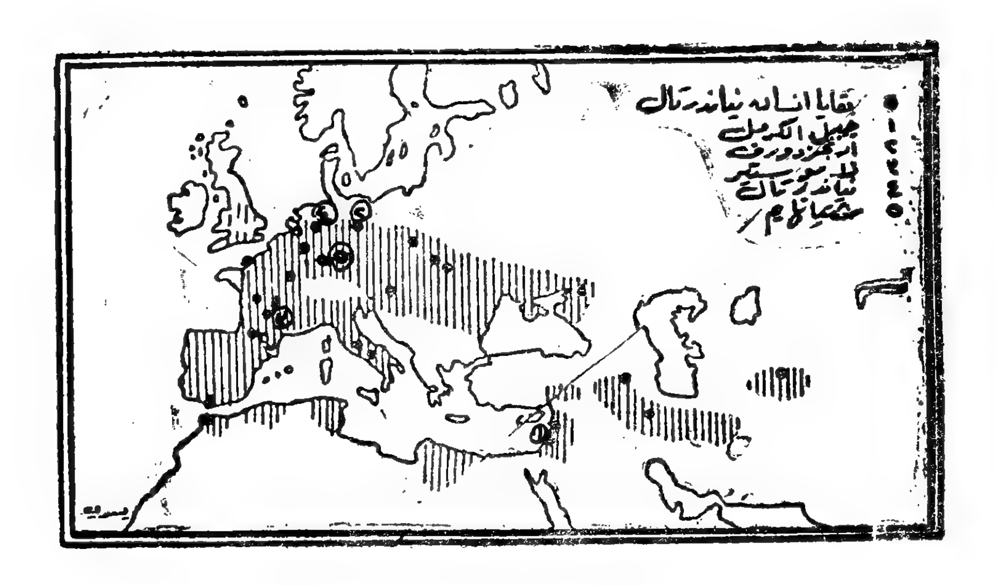
● - تثبت لنا صدق القرآن الكريم - [وان كان القرآن بالطبع ليس فى حاجة إلى براهين بشرية على صدقه] - فيما أورده عن سيرة الأمم الغابرة وأنماط التحضر البشرى القديمة وما حل بها من دمار وهلاك.

[رابعا]: من ٥,٠٠٠ ق. م الى ١٥٠٠م (أى حتى بداية الكشوف الجغرافية الحديثة).

وقد تعددت هجرات الانسان خلال تلك الفترة فى جميع القارات واتسع استخدام الانسان للبحر واستطاع أن يصل الى مناطق نائبة كنيوزيلند وجزر المحيط الهادى الا أنه يجدر بالذكر أن معرفة الانسان لحرفة الزراعة واستغلاله للأرض جعله يرتبط بها وهذا قد قلل بطبيعة الحال من تنقلات الناس من مكان الى آخر كما حدث فى وادى النيل فى مصر.

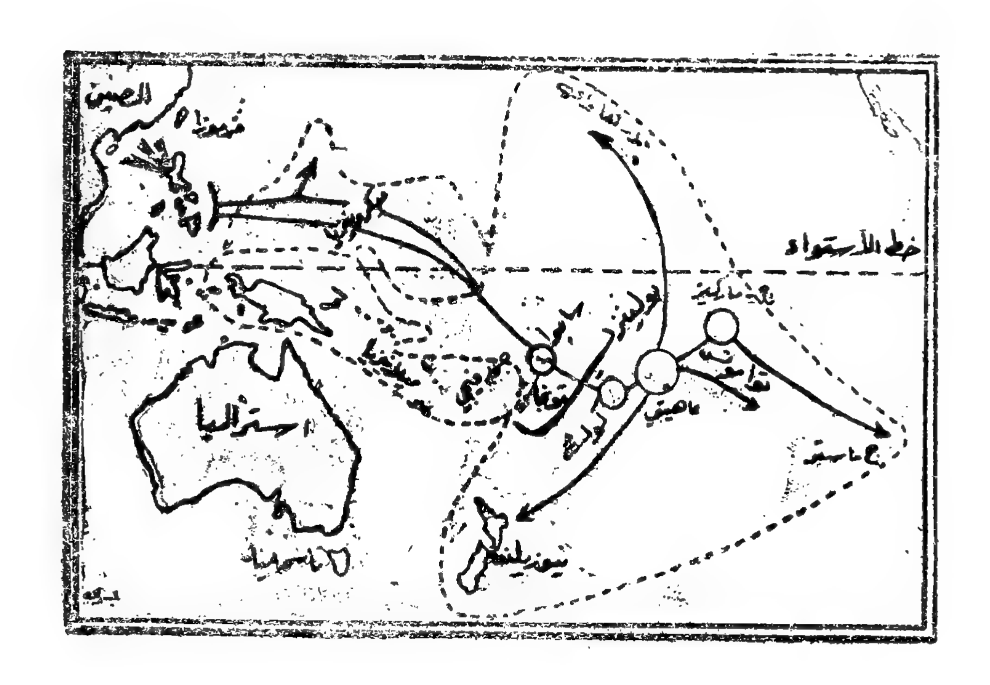
● - المحاور الجغرافية لانتشار الانسان

■ - يؤكد العلماء أن جماعات الأسكيمو جاءت عن طريق مضايق بيرينج وأن الاستراليون والبولينيزيون المالاويون جاءوا عن طريق المحيط الهادى. ولم يبين [ريفت] نتائجه على الاكتشافات الانثروبولوجية الفيزيقية بدراسة ما توفر من مادة عن خصائص المجموعات الهندية وسماتهم الفيزيقية من جنوب أمريكا الجنوبية والهنود المقيمين ببعض مناطق البرازيل وباجا وكاليفورنيا وأكوادور فحسب، وانما بناها أيضا على التشابهات القوية مع الجماعات التى تستوطن الجزر المحيطة.



المصدر/ د. يسرى الجوهر ـ المرجع السابق

التوزيع الجغرافى لحضارات العصور الحجرية الأولى



المعبر الأوقيانوسى
لانتشار الانسان فى استراليا وعالم المحيط الهادى

وقدم العالم البرتغالى [أ. منديس كورى] النظرية التى تقول بأن عنصر الانسان الاسترالى التسهامى قد استوطن أمريكا عن طريق برى عبر الانتراكتيكا لا عن طريق الابحار عبر المحيط الهادى، اذ كان المهاجرون من ذلك العنصر ينتقلون من جزيرة الى أخرى فى سلسلة الأرخبيل الواقع بين تاسمانيا وتييرا ديل فويجو عند الطرف الجنوبى لامريكا الجنوبية.

والحق أن [منديس كورى] قد أثبت أن القارة القطبية الجنوبية كانت خالية من الاغطية الجليدية فيما بين ١٥,٠٠٠ ، ٦,٠٠٠ سنة ق. م وانها كانت بالفعل ذات مناخ معتدل فى ذلك العهد. وواضح أنه لا ـ يوجد دليل أثرى يؤكد الفرض القائل بهجرة سكان القارة القطبية الجنوبية وسيكون من العسير جدا، ان لم يكن من المستحيل، أن تكتشف أى دليل مع وجود ذلك الغطاء الجليدى الدائم الذى يغطى القارة القطبية الجنوبية كلها الأن.

وطبقا لما يقول به العالم الأرجنتينى [جوزى امبلونى] فان الانسان لا يستطيع حقيقة أن يفهم التاريخ الحضارى والجنسى لأمريكا القديمة دون أن يضع فى اعتباره اسهام شعوب جنوب شرقى آسيا. «فامبلونى» يستنتج أن سبع جماعات من أنواع متميزة قد هاجرت الى أمريكا وهم: التسهانيون والاشتراليون والميلانيزيون وسكان اندونيسيا الاصليون والاندونيسيون والمغول والاسكيمو وهو فى مؤلفاته يصف ويحدد أحد عشر نمطا من هنود أمريكا.

ومنذ عهد قريب جدا (١٩٥١) قام العالم الامريكى [جوزيف بيردسيل] بتوجيه نقد حاد للاراء المعارضة المعنية بسكان الامريكتين التى وضعها عدد كبير من أنصار اتجاه «تعدد الاجناس» مثل [ج، تيلور ور «ب» ديكسون و هـ «س» جلادوين و أ «أ» هوتون و أ «وكاونت وف» فيدينرخت و ج» أ «أ ميلونى]» وقدم فرضه القائل أن امريكا قد استوطنت بجماعتين مختلطتين من الأجناس البشرية هم المغول والاموريون أو القوقازيون الاقدمون الذين أقبلوا كذلك الى العالم الجديد عن طريق شمال شرقى آسيا. ويدعى [بيردسيل] للتدليل على هذا الاصل الثنائى وجود سمات أمورية فى هنود أمريكا المعاصرين وفى سكان المنطقة الداخلية من المنطقة الدنيا من كاليفورنيا وهم [الجاهويلاس]، وكذلك فى [اليوكى] [واليومو] فى شمال ساحل كاليفورنيا.

ولكن اذا كان هنـود شمال أمـريكـا وجنوبها هم حقيقة خليط من اسلاف مغوليين وأموريين فقط. فلابد أن يوجد شبه هائل فى فصائل الدم. مثل فصيلتى (أ ـ ب ـ ٥)، «م ـ ن».

وقـد تعددت الجهود فى سبيل البرهنة على وجود الخصائص المتشابهة والعلاقات الممكنة الحقيقية بين الهنود الحمر من سكان ساحل الاطلنطى للولايات المتحدة وبين قوقازيى ما قبل التاريخ الكرمانى النمط الذى انتشر فى أوربا الغربية فى بداية العصر الباليوليثى الاعلى أو العصر الحجرى القديم.

■ ـ **ويلخص جوزيف بيردسيل أفكاره قائلا :ـ**

● ـ **نستطيع مما سبق أن نوجز نتائجنا الخاصة بالسكان الاوائل لامريكا فيما يلى:**

١ ـ لم يوجد سكان أصليون فى أمريكا على الاطلاق.

٢ ـ لم يوجد قط، ولا يوجد الان، أى نمط انسانى لهندى أمريكى من الناحية البيولوجية.

٣ ـ تتألف الهجرة الغالبة من السكان من المغول.

٤ ـ ما تزال هناك شكوك ومجادلات حول طرق أخرى للهجرة الى أمريكا وحول انماط بشرية أخرى. والفروض التى تم التسليم بها على أوسع نطاق هى الفرض الثانى [لبيردسيل] والرابع [لرايفت] والسابع [لامبلوتى] وبالطبع فان المدافعين عن كل فرض من هذه الفروض يفسرون الاختلافات الفيزيقية وغيرها من الاختلافات الاخرى بين الانماط المختلفة من هنود أمريكا بطرق شتى، وبالطبع فانه لا يمكن الوصول الى نتيجة محددة حتى يتم الحصول على قدر واسع من الحقائق والمعطيات. ومن ثم فان العدد الهائل من اعمال التنقيب الاثرية التى تمت فى السنوات الحديثة فى مناطق متعددة من الامريكتين قد كشفت عن مخازن غنية بالادوات الحجرية وغيرها، كما اكتشفت فى اضيق الحدود حفريات انسانية. وقد امكننا أن نعرف تاريخها بأدواتنا التكنيكية الحديثة. ومنها الكربون ١٤، الذى استطعنا ان نعرف عن طريقه، بيقين نسبى، متى ظهر الانسان فى أمريكا لاول مرة، كما أمكننا ان نضع قائمة زمنية عن

وجوده هناك .

وبـذلـك نعرف الان، على سبيل المثال، أن الانسان كان موجودا فى الولايات المتحـدة منـذ وقت مبكر يرجع الى ٣٨,٠٠٠ سنة ق. م فى منطقة «بلويس فيل» بتكساس كذلك وجدت بقايا الانسان فى مناطق أخرى فيما قبل التاريخ، منذ ٢٧٦٥ سنة ق. م. (فى سانتاكروز بكالفورنيا)، والى ١٩٥٠٠ ق. م (فى لاجولا بكاليفورنيا) والى ٨٥٠٥ سنة ق. م (بجيبسيون كيف بنيفادا). و٧٨٨٣ سنة ق. م - بمنطقة بلينفو بتكساس، والى ٦٢٧٤ سنة ق. م بمنطقة آلين بنبراسكا وعلينا أن نتجاوز فى كل حالة عن فئات قليلة من السنين زيادة أو نقصا كما هى العادة المتبعة فى قراءة بيانات الكربون ١٤. وقد كان الذين يعيشون فى تلك المنطقة فيما بين ٤٠,٠٠٠ و ٨,٠٠٠ سنة مضت يحيون جميعا على الصيد والجمع .

● - وقـد وجـد أن أقـدم استيطان للانسان فى المكسيك كان فى تلاباكويا فى دولة المكسيك حيث اكتشف مبرد قرصى الشكل يرجع تاريخه الى ٢٠,٢٠٠ سنة ق. م. أو ٢٦٠٠٠٠ سنة، وسكين من الزجاج البركانى ترجع الى ٢١,١٥٠ سنة ق. م. وبعد ذلك عرفت ايضا مناطق قبل تاريخية بالطبع يتضح أنها تنتمى كذلك الى جماعات الصيد والجمع .

● - وهنـا نجد أمثلة قليلة من التواريخ عن أمريكا الجنوبية «حذفت منها سنوات التجـاوز بالـزيادة أو النقص «أدوات حجـرية غير مصقـولة للصناعة فى فنزويلا» ١٤٣٧٥ ق. م و ١٢٢٧٥ ق. م، وبقايا ثقافة بلاغوس سانتا بالبرازيل «٨٠٢٤ ق. م»، وثقافة صناعات مجرية قبل خزفية فى لوريكوشابيرو «٧٥٦٦ ق. م» وايثوازى جردتو فى سان لويس بالارجنتين مع صناعة حجرية قبل خزفية «٦٠٦٨ ق. م» ومجمع حضارى مركبٌ فوق المصاطب العليا لنهر جاليجوس، باتا جونيا الجنوبية فيما بين ٦٠,٠٠٠ و ٧٠٠٠ ق. م، وكشوف أثرية فى شيلى «٩٣٨ ق. م» وفى مناطق أخرى من باتاجونيا الجنوبية «٨٧٦٠ - ٦٧٠٠ ق. م».

ومن الامثلة السابقة يمكن الخروج بملاحظة بالغة الأهمية. وهى أننا كلما سرنا جنوبا وجدنا أن تواريخ حضارة الصيد والجمع أحدث عهدا فهل يؤكد ذلك الفرض الـذى يقـول أن المستـوطنين فى أمريكا قد جاءوا على التحديد عن طريق مضايق

بيرنج[1] وان أمريكا الجنوبية قد عمرت بالناس بعد أمريكا الشمالية بآلاف عديدة من السنين؟ أعتقد أن الوقت ما يزال مبكرا جدا على مثل هذا القول وعلينا أن ننتظر مزيدا من البحث والتنقيب.[2].

من المسلم به حتى الان أن أقدم تاريخ لبدايات عصر الدفء. وأنتهاء العصر الجليدى فى أمريكا الشمالية «وهى الحقبة المعروفة بأسم ثلاجة وسكونسين»، انما يرجع الى فترة تتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ سنة خلت[3]، وفى تلك الفترة كان من الممكن العبور شرق سيبيريا الى ألاسكا ثم الوصول الى أكثر المناطق اعتدالا جنوب أمريكا الشمالية.[4]

الهجرات البشرية الحديثة وتعمير العالم الجديد

منذ سنة **١٤٩٢**م اندفع جموع المهاجرين الأوربين مصطحبين معهم زنوج افريقيا إلى الأمريكتين فى موجات متتابعة بعد نجاح الكشوف الجغرافية والعزم على تعمير العالم الجديد. واذا كان كشف الأمريكتين قد اقترن فى اذهان الكثيرين بكولمبس ورحلاته، ورحلات الذين جاءوا من بعده، فان الواقع يقول أن ثمة هجرات قديمة قد توجهت فى الأزمنة القديمة صوب الأمريكتين، منها هجرات قدماء المصريين فى سفن من نبات البردى إلى أمريكا حول الألف الثانى قبل الميلاد. حيث أسسوا حضارة شبيهة بحضارة مصر القديمة ما تزال آثارها باقية فى المكسيك والبرازيل حتى الآن.

---

(1) History of Mankind
Culrural and Scientific Development
Vol I. Prehistory and the Beginninge of Civilization,
By lacquette.
Hawkes and Sir Leonard Wooley
Sponsored by Unesco.
George Allen and Unwin, London, 1963.
(2) Ibid., PP. 114 - 118.
(3) Ibid., PP. 31 - 33.
(4) Ibid., PP. 51 - 55.

وقد احتلت أمريكا السكسونية مكانة هامة بين مناطق الهجرة فى العالم حيث تعد قارة المهاجرين بالدرجة الأولى، فقد جذبت الكثير من المهاجرين والمبعدين من شتى بقاع العالم منذ بداية القرن السادس عشر، وخاصة من أوربا التى كان لها نصيب الأسد، ويعبر عن هذه الظاهرة بأمريكا الكونية بأنها تعبر: The half brother of the World وكانت على حد تعبير زانجول [Zangwill] ، فى روايه The Melting Pot بأنها كانت بمثابة البوتقة التى انصهرت فيها الكثير من الهجرات العالمية لتشكل لنا فى النهاية مجتمعاً جديداً يتمتع بخصائص مميزة(١).

وكان الرواد الأوائل من المهاجرين الأوربين الى أمريكا الشمالية يتكونون من جماعة بسيطة لا يزيد عددها عى ١٠٠ شخص، استقرت بالقرب من خليج تشسابيك فى فرجينيا سنة ١٦٠٧م، ونيوانجلند سنة ١٦٢٠، والى هؤلاء يرجع الفضل فى بعض مظاهر الحياة الأمريكية وتقاليدها ومع مزيد من تدافع الهجرات الأوربية الى أمريكا تضاعف عدد السكان فى الولايات المتحدة اكثر من خمسين مرة فى مدى قرنين (١٨٠ سنة). . فقد كان عدد السكان سنة ١٧٩٠ من المهاجرين حوالى ٣٫٩ مليون نسمة وفى سنة ١٩٥٠ بلغ عددهم ١٥٠٫٧ مليون نسمة وفى سنة ١٩٨٤ حوالى ٢٣٠ مليون نسمة وفى كندا تضاعف عدد السكان عدة مرات بسبب تدفق الهجرات من أوربا وآسيا حتى بلغ عدد السكان سنة ١٩٨٤ حوالى ٢٥ مليون نسمة .(٢)

وقد بدأت تلك الهجرات تتجه نحو أستراليا وجزر نيوزيلنده منذ قرنين فقط وقد اقتصرت الهجرات الى العالم الجديد على الأوربين، ثم على من جلبهم الأوربيون من أيد عاملة رخيصة أورقيق، وامتازت بأنانية الأوربين فى الاستئثار بهذا المجال، بحيث حاربوا هجرة غير الأوربين وحددوها فى أضيق نطاق. وانتهت بأن مزجت الأجناس الأوربية مزجـاً كبيرا من ناحية، وأوجدت مشكلة الاختلاط بين العناصر الأوربية والعناصر غير الأوربية ولا سيما من جلبوهم من رقيق أسود، وسكان البلاد الأصليين من ناحية اخرى.

هذه الهجرات الأوربية، وغير الأوربية الحديثة هى المسئولة عن تكوين شعوب

---

(١) د. محمد السيد غلاب ـ تطور البشرى ـ الانجلو المصرية ـ ص ٣٧٢.

(٢) د. زين الدين عبد المقصود ـ نصف الكرة الغربى ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ـ ص ٧٤، ص ٢٣٨.

أمـريكـا الشـمالية. وشعوب أمريكا الجنوبية [اللاتينية] الحالية، وهى المسئولة عن تكـوين سكـان اسـتراليا ونيوزيلنـدة، كما أنها المسئولة عن مشاكل جنوب افريقية العنصرية الحديثة.

ومن ناحية المراحل الحضارية للأجناس البشرية القديمة فى امريكا فقد تطورت جماعـات الصيد والجمـع حتى استقرت بعد أن تعلمت زراعة النبـات واستئناس الحيوان. وكانت هذه العملية تتم ببطء وتدريجا. ولكن لدينا أدلة على وجود مناطق ترجـع الى ماقبل التاريخ وجدت بها قبائل تحيا على الصيد والجمع وكانت تشتغل بزراعة القرع والفول ثم الذرة فيما بعد.

وقد بدأ الأسبان والبرتغال يتدفقون على أمريكا الوسطى والجنوبية بعد الكشوف الجغرافية تدفق الجراد على واحة خضراء.. وذلك منذ سنة ١٥٤٠م وكانت موجات الهجرة المتدفقة تتخذ ثلاثة مظاهر. غزو عسكرى، وتبشير دينى، واستعمار اقتصادى.

وقـد اسهم فى الغزو العسكرى عدد من المغامرين الأسبان والبرتغال، وحطموا الحضـارات الأمـريكية الأصلية، وضمـوا البـلاد المفتـوحة للتاج الاسبانى والتاج الـبرتغالى، وأستأثرت جموع المهاجرين بأحسن المقاطعات لحسابهم الخاص.. وقد حاولـوا استعبـاد السكـان الأصليين من الهنود الحمر فى مزارعهم، ولكنهم أبوا.. ولذلك اتجه المستعمرون إلى جلب الرقيق الأسود من ساحل غانا وغرب إفريقية.(١)

.. وتدافقت جموع الأوربين الى أمريكا الجنوبية..

الجنود يحطمون الممالك القديمة وينشئون بدلاً منها مراكز استيطان أوربية الطابع هنـاك، والقسس يبشرون بالمسيحية [علـى المـذهب [الكـاثـوليكى].. والأرض يتقـاسمها الغزاة الفاتحون.. والتجار والقراصنة يجلبون العبيد من غرب إفريقية، والمناجم تستغل، والمواشى تستورد من أوربا لتربيتها وتصدير جلودها.

(١) د. محمد السيد غلاب ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧٣.

وهكـذا وضعت [الهجـرات] الأوروبية لأمـريكـا الجنوبية الأساس الاجتماعى والانثرولوجى . . طبقة عليا من الملاك الكبار ـ وهم سلالة الغزاة الفاتحين، وطبقة سفلى من الهنود الأمريكيين والزنوج والمولدين وليس بينهما طبقة وسطى .

وأغلب الأوربيين المهاجرين من أوربا الى أمريكا الجنوبية من سكان جنوب أوربا وأقدمهم هم الأسبان والبرتغال . ويتركزون فى الأرجنتين وباراجواى وشيلى وتكاد هذه الجمهـوريات أن تكـون خالية من الـزنـوج والهنـود الأمـريكيين . أما فى اورجواى وكوستاريكا فيختلط الجميع وان ظل العنصر الأوربي هو المتفوق فى العدد .[1]

أمـا الـزنـوج . فقـد رأينـا أنهم عنصر مستـورد لخدمـة الأرض، ولا سيما من الجمهوريات الاستوائية الحارة . . وهناك المولدون من الأوربيين والزنوج المختلطين ببعض وبـالهنود الامريكيين، ويرى علماء الاجناس البشرية أن النهاية ستؤدى الى وجود جنس بشرى جديد من أمريكا الجنوبية يتألف من خليط من الأوربيين والزنوج والسكان الأصليين لتصبح بذلك أمريكا اللاتينية المثل الرائع للتسامح العنصرى .

■ ـ دوافع الهجرات البشرية :ـ

بعد نشأة الانسان وتكاثره بدأ ينتشر كما رأينا . وقد وجدت عوامل أدت الى انتشاره وهجراته الكبرى عبر هذه المسافات البعيدة حتى أنه اجتاز قارات بأكملها .

لقد أصبح الانسان فى أواخر البليستوسين (فى الحجرى القديم الاعلى) وقد اتسع نطاق الجهات التى يسكنها مبعثرا فى جميع القارات فاذا أخذنا بوحدة النشأة أى أن الانسان نشأ فى مكان واحد ثم انتشر منه الى سائر الأرجاء فلابد أن تكون الدوافع التى أدت الى انتشاره قوية آيا كان هذا الموطن الأول .

■ ـ وأهم هذه العوامل ما يأتى :

١ ـ عامل الطرد .

٢ ـ عامل الجذب .

٣ ـ عامل التحكم .

---

(١) د . زين الدين عبد المقصود ـ المرجع السابق ـ ص ٧٥ : ص ٧٨، ص ٢٣٥ : ص ٢٣٧ .

١ ـ فأما عامل الطرد أو الدفع فينشأ من ظروف طبيعية تضطر الانسان الى الهجرة وهذه الظروف اما أن تكون تغير الحالة المناخية كأشتداد البرودة أو نقص الغذاء، واما ان تكون ظروفا بشرية كتكاثر السكان أو طرد عناصر أقوى.

ففى الجماعات التى تحترف الجمع والالتقاط وقد كان الانسان فى أول نشأته جامعا لقوته وملتقطا له من الأعشاب أو الأشجار وظل على ذلك أمدا طويلا ثم أخذ يطارد الحيوان ويصطاده ومن الجائز أن تكون البيئة الطبيعية قد عجزت عن أن تمد الانسان بغذائه الذى يجمعه أو يكون الحيوان الذى يصطاده قد نقص اما لكثرة ما يصطاده أو بسبب فتك وباء به وفى هذه الحالة لابد لهذه الجماعة أن تهاجر وتبحث عن مكان آخر تجمع منه غذائها أو تصطاده.

٢ ـ عامل الجذب وهذا العامل قليل الحدوث بالنسبة لعامل الطرد لأن الانسان لا يعلم عن الاماكن النائية أكانت ذات خيرات بحيث تجذبه أم لا، فضلا عن أن الانسان يعز عليه أن يفارق وطنه الا مضطرا وتحت ضغط ظروف شديدة الالحاح وليس أشدّ الحاحا من نقص الغذاء أى أن عامل الطرد أقوى من عامل الجذب.

والهجرة فى الواقع تتطلب أكثر من عامل وان كان العامل الأول أقوى (عامل الطرد) ومن أمثلة عامل الجذب هجرة العناصر التى تعيش فى مراع فقيرة أو هضاب مجدبة بالقرب من سهول غنية أو وديان خصيبة. والشعوب الزراعية تكره الحرب فى العادة ثم هى ضعيفة الاستعداد له وكلما ازداد غناها كلما ازدادت اغراقا فى المدنية والترف فتكون عامل الجذب ومثل هذه الجماعة معرضة فى كل وقت لاغارات جيرانها الذين يعودون فى بعض الحالات بعد الاغارة حاملين الغنائم وقد يظلون مع السكان الزراعيين فيختلطون بهم ويندمجون والسهول أعظم مواطن الاندماج بين السلالات فسكان السهول كانوا معرضين دائما لغزو سكان الصحراوات (المغول) أو سكان الجبال (البلقان والهند الصينية حيث تعرض سكان السهول فيهما لغزو سكان المرتفعات).

٣ ـ عامل التحكم الجغرافى فان حركة الناس يمكن أن نشبهها بحركة السوائل تتخذ دائما عن طريق الاقل مقاومة فالمكان المكشوف الخالى من الغابات هو أصلح الامكنة لسكن الانسان القديم الذى يتعذر عليه قطع الاخشاب فى الغابة بواسطة

الالات الحجرية التى ضنعها لنفسه فضلا عن أن الغابة مكان مجهول بالنسبة للانسان لا يدرى المخرج منه ولا أى الحيوان أو البشر يسكنه ولهذا السبب يمتاز المكان المكشوف بتعاقب الغزوات وكثرتها وقد امتازت وديان الانهار منذ القدم بكثرة سكانها.

التوزيع الجغرافى للمجموعات البشرية الكبرى

يقسم علماء الأجناس البشرية المجموعات البشرية الكبرى إلى ثلاث مجموعات جنسية هى :-

■ - مجموعة الأجناس القوقازية: وتتكون من أربعة اجناس فرعية هى: الجنس النوردى - الجنس الألبى - جنس البحر المتوسط - الجنس الهندوسى.. وتحتل الأجناس الثلاثة الأولى نطاقات أفقية تتوزع جغرافيا من الغرب إلى الشرق بالقارة الأوربية. اما الجنس الرابع فيكون أقصى الشعب الشرقية من مجموعة الأجناس القوقازية، ويقال انه دخل [الهند] من شمالها الغربى، وفى الهند صادف سكانها الأصليين الذين ربما كانوا شعبة من الزنوج او الاستراليين القدماء، أو خليطا هنديا استراليا، فاختلط الجنس الهندوسى مع السكان الأصليين.

■ - مجموعة الأجناس المغولية :- تعتبر قارة آسيا هى موطن نشأة المجموعة المغولية، إذ يرجح أنهم نشأوا فى شمال شرق آسيا من المجموعة البيضاء القديمة أو مجموعة ما قبل المغول Pre- Momgolid والتى يمثلها الآن جماعات [الاينو] وتتفرع مجموعة الأجناس المغولية حاليا إلى :-

- المغول الأصليون بشرق آسيا - مغول الملايو بجزر الهند الشرقية.

وتمتاز هذه المجموعة بلون البشرية المائل الى الصفرة، والشعر المستقيم، وعظام الخد البارزة، والعيون المائلة، والقامة مختلفة بين القصيرة والمتوسطة، والرأس والوجه العريض والجبهة المرتفعة والأنف الصغير غير المرتفع.

■ - مجموعة الأجناس الزنجية :- وهى تضم شعبتين رئيسيتين :-

- الزنوج فى افريقيا وبانوا (غانة الجديدة) وميلانيزيا.
- الاقزام.



زعماء الأشانتى فى غانا
وتبدو الملامح الزنجية واضحة

وتتـوزع تلك المجموعة جغرافيا فى افريقيا المدارية الاستوائية وخاصة فى غرب افريقيا ووسطها وجنوبها، كما تتوزع فى بعض مناطق جنوب وجنوب شرقى آسيا، وقد نقل جزء منهم إلى العالم الجديد عن طريق تجارة الرقيق. ويعتبر الاقزام اهم الجماعات التى تعيش فى منـاطق الغابات الاستوائية فى كل من افريقيا وجنوب شرق آسيا. ويقسم الأقزام إلى مجموعتين: اقزام إفريقية ـ وخاصة أقزام الكنغو ويطلق عليهم اسم بحر يللو، واقزام جنوب شرق آسيا ويطلق عليهم اسم نجريتوس، وينقسم هؤلاء الأخيرون إلى مجموعات: أهمها السيمانج فى شبه جزيرة الملايو، والاندماينون فى جزر اندمان، والأيتيا فى الفلبين، والتابيرو فى غينيا الجديدة، وفى امريكا الجنوبية تعيش جماعات الماكو والبوجسا فى غابات الأمزون، كما تعيش جماعات البوشمن والهوتنتوت فى صحراء كلهارى بجنوب غرب افريقيا.

● ـ كل هذه المجموعات البشرية الكبرى تنتمى لآدم عليه السلام وزوجه حواء.. وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :ـ

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله أتقاكم».. [صدق الله العظيم] ـ الحجرات/ ١٣.

■ ـ الانسان والحضـارة فى المفهوم الاسلامى

بدأ موقف القرآن ـ دستور الاسلام ـ من المسألة الحضارية فى جانبها الانسانى بخلق آدم عليه السـلام، وبالظروف والدلالات والرموز والارهاصات التى رافقته واعقبته كما حددها القرآن الكريم من قوله تعالى: **«واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة»**.. حتى قوله تعالى: **«قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»** [البقرة/ ٣٠ ـ ٣٩].

فى هذه الآيات الكريمة حدد القرآن الخطوط العريضة الواضحة. لمسألة الوجود البشرى فى العالم ـ وهى خطوط تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبـدو ازاءه كل محاولات التفسـير الوضعى لنشأة التاريخ البشرى وبدء الخليقة

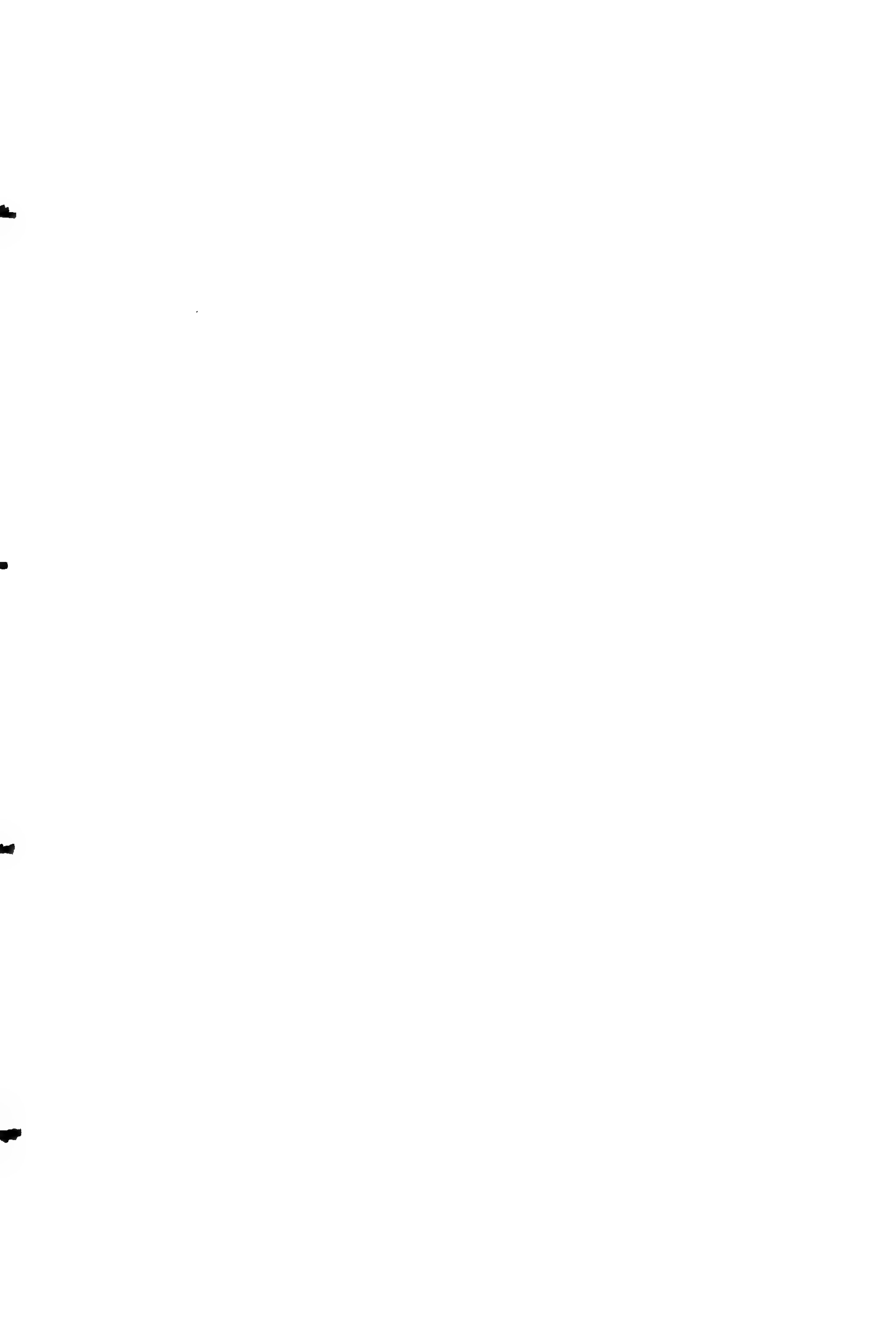
وأصول الحضارات، غامضة مفككة مضطربة.

لقد اراد الله أن يكون الانسان خليفة فى الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والابداع، والارادة (الحرة) لاختيار نمط التحضر البشرى الذى يتلاءم مع فكره، ودوافعه النفسيه والجسدية.. فاذا أضفنا الى ذلك أن العالم قد مهد تمهيداً للدور البشرى على أرضيته، أدركنا كم هى عميقة شاملة متكاملة تلك الأسس التى خططها الله سبحانه وتعالى ومنحها للبشرية لكى تعتمد عليها فى ممارسة خلافتها العمرانية أو الحضارية فى العالم.

وقد بلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشرى لتشييد الحضارة واعمار العالم أن ترد لفظة العمل فى اكثر من ثلاثمائة وخمسين موضعاً من القرآن.. وهى كلها تشير - سلبا وايجابا - إلى أن المحور الأساسى لوجود الانسان - فرداً وجماعة - على الأرض. هو العمل الذى يتخذ مقياساً عادلا لتحديد المصير والدرجة فى الدنيا والآخرة.. وهو [موقف] ينسجم تماماً مع مبدأ: [الخلافة] فى الأرض.

وهكذا يأتى المفهوم الاسلامى، لا لكى يمنح الحضارة البشرية بُعْدَها الحركى فحسب وانما نوعية هذه الحركة.. أيضاً، فيقرر أن مقياس التفوق الحضارى لا يكمن فى حجم الانتاج الكمى بقدر ما يكمن فى مدى [أخلاقية] الجماعة المتحضرة، وسعيها لخدمة الأهداف الانسانية الشاملة.. واننا بمجرد أن نلقى نظرة سريعة على حضارتنا الاسلامية فى عصور تألقها، ونقارن ذلك بمعطيات الحضارة المعاصرة سنلمس أنها (أى الأخيرة) قد هبطت كثيراً عن أخلاقيات الانسان ربما هو انسان - كما هو الحال فى العرقية عند هيجل، والطبقية عند ماركس ورفاقه..

وسيجد الانسان.. أن تحضره الحقيقى فى التمسك بالاسلام فهو الحضارة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة..



الفصل الخامس
أصل الانسان فى القرآن الكريم

- ـ خلق الانسان حسب المفهوم القرآنى .
- ـ المنهج القرآنى فى وصف الانسان وخصائص النشأة .
- ـ من اين جاءت الحياة؟ وكيف جاءت؟ .

الفصل الخامس

اصل الانسان فى القرآن الكريم

قبل اى تحليل علمى لاصل الانسان وبدء خلقه يجب ان يكون مفهوما ان نظرية [داروين] قد سقطت من الاساس ومنذ فترة طويلة لماذا؟ . . لان ابسط ما يقوض النظرية «الداروينية» من الاساس، قيامها بلا براهين لكثير من جوانبها . . منها على الخصوص ما يفسر التطور العضوى للانسان Organic Evolution of Man والتى تضمنت فكرة (الارتقاء) وفى ذلك يقول السير ارثركيت فى كتابه Islamic Thought . . ان نظرية النشـوء والارتقـاء غير ثابتة علميا، ولا سبيل الى اثباتها بالبرهان . . وبعون الله تعالى سنثبت خطأ [الداروينية] Darwinism (علميا) فى الفصول القادمة من كتابنا . . وسوف نلمس انه على الرغم من عدم كمال الانسان، فان تركيب جسمه شهادة حية على وجود الخالق الذى خلق هذه الكائنات الناطقة بوجوده.

واذا نظرنا الى مكانة الانسان فى القرآن الكريم رأينا أنه . . ذلك المخلوق المسئول، صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن الكريم عن الانسان، إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله . .

ولقد ذكر الانسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة . . فلا يعنى ذلك أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وانما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر، لأنه أهل للتكليف . . (١)

والانسان مسئول عن عمله ـ فرداً وجماعة ـ لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة: قال تعالى :ـ

---

(١) عباس محمود العقاد ـ القرآن والانسان ـ المجلد الرابع ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ ص ٢٢٦.

«كل امرىءٍ بما كسب رهين» [الطور/ ٢١].

ومكان الانسان فى القرآن الكريم، هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر، وفى ميزان الخليقة الذى به توزن طبائع الكائن بين عامة الكائنات..

هو الكائن المكلف..

وكلما تقدم العلم وازداد العلماء احاطة بآلية جسم الانسان ازدادوا تعجبا بهذه الآلية واعجابا بصنعها. وقال الدكتور «اكرس» وهو خبير فنى فى جامعة «رايس»، وقد تعاون مع جراحين فى صنع قلب مصطنع، ما يلى: ان جسمنا هو الكمال ذاته وهو غاية ما تصل اليه التقنية، ومهما يكن نوع الآلة التى يمكن ان تصنع، ومهما بلغت من التعقيد والكمال فاننا نجد فى تركيب جسمنا ما هو افضل منها، ونظرة واحدة نلقيها على تكون الطفل فى رحم امه تقنعنا باعجوبة المراحل التى يمر بها. كما تقنعنا بانه لابد لهذه الصنعة المركبة العجيبة من صانع ماهر وكلما تعمق الانسان فى تشريح جسم الانسان، وادرك دقائقه يزداد إيمانا بوجود الخالق. ان عملية الأكل والبلع، والهضم وتحويل الطعام الى دم وسكر واحماض، والاحتفاظ بالنافع منه وطرح الفضلات.. كل اولئك مما يدعو بلسان الواقع الى الاقرار بوجود الخالق سبحانه وتعالى وانفراده بالخلق.

واذا تركنا الانسان جانبا وأخذنا بعض الحيوانات، ورأيناها كيف تبنى اجحارها، وكيف تربى جراءها، وكيف تعنى بتغذيتها وحفظها واخذنا بعض الطيور، ورأينا كيف تبنى اعشاشها، وكيف تسعى فى رزقها وكيف تطعم فراخها. ثم لو اخذنا الحشرات كالنحل والنمل ورأينا كيف تبنى بيوتها وكيف تنظم حياتها الاجتماعية، وكيف يصنع النحل العسل.. لا يسعنا مهما كابرنا الا ان نقول «سبحان الخلاق العظيم».

ثم لو نظرنا الى رحلات بعض الطيور التى تقطع صيفا وشتاء الاف الكيلومترات فى رحلات معينة وطرق مرسومة لا تحيد عنها، واوقات لا تتقدم فيها ولا تتأخر. واذا ما نزلنا الى البحار نرى فيها اسماكا تهاجر سنويا هجرات بعيدة، وتسلك طرقا معينة لا تضل عنها، ولذلك فأن بعض العلماء الذين قالوا بالتطور كانوا يؤمنون بوجود

[الخالق] هو الذى خلق الخلية الاولى فى الحياة وكأن الذى يخلق الخلية، التى هى نواة الحياة يصعب عليه ان يخلق الانسان او الحيوان مباشرة على كثرة ما فيهما من خلايا. ولكن عذر هؤلاء هو انهم يقيسون قدرة [الخالق] بقدرة الفرد او قدرة المخلوق. ولو فكروا قليلا لادركوا ان خلق الخلية الاولى ثم تطويرها حتى تكون انسانا كاملا لا يقل عن خلق الانسان كاملا.

ولعل من اعجب ما فى تفكير القائلين بالتطور انهم كلهم من الذين يؤمنون بالمسيحية دينا، وبالتالى بان عيسى الها او ابن اله.. فمن العجب ان يجمعوا بين هذين التفكيرين، ولكن قد ثبت الآن ان لا علاقة للتفكير السليم بالدين، فقد يكون المرء متدينا ولكنه يؤمن بالخرافات، او يكون متدينا بالاسم منكرا بالفعل ولله فى خلقه شؤون!

ـ خلق الانسان حسب المفهوم القرآنى:

■ يضع القرآن الكريم (الانسان) فى احسن تقويم واشرف صورة واسمى مكانة له بين الكائنات الحية جميعا.. فهو ـ اى الانسان ـ فى القرآن الكريم ذلك الكائن العاقل، المفكر، المدبر، المكلف، البصير، والمتبصر بالامور، المسئول، ذو الروح السامية والجسد المتكامل القوى المسخر لخدمته فى دنياه لطريق الخير ان اراد، ولطريق الشر والهلاك ان شاء(١).

يقول سبحانه وتعالى.. ﴿لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم﴾.. (الزيتون: ٤).

ويقول سبحانه وتعالى.. ﴿**الذى احسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه، ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون**﴾.. (السجدة ٧: ٩).

وهكذا يسمو الانسان ـ فى القرآن ـ على مجرد الوجود البيولوجى بما نفخ فيه الله من روحه، ووهبه من طاقات وقوى، ويشير القرآن الى كيان الانسان «البيولوجى» وتطور

---

(١) على احمد الشحات ـ المرجع السابق ـ ص ٨.

خلقه ونموه، ويقرن ذلك أحيانا بذكر النبات والحيوان، اذ يجمع الجميع الحياة البيولوجية، وان كان الانسان اعقد تركيبا وأكمل اعضاء، وارقى صورة ووظائف وطاقات[1].

ويذكر القرآن الكريم (حقيقة تطور الانسان) . . فيشير الى انه مخلوق من مادة هذه الارض . . من ترابها اولا . . ثم ان هذا التراب مر فى (اطوار) . . . فكان التراب طينا، ثم كان الطين حما مسنونا، ثم كان الحما المسنون صلصالا . . ثم كانت نفخة الخالق سبحانه وتعالى فى هذا الكائن المصور (على صورة الانسان) بعد أن صار صلصالا . . ويقول القرآن الكريم فى (مراحل التطور) التى مر بها «الانسان» حتى أصبح بشرا سويا:

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه، خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ . . (المؤمنون ١٢ : ١٤).

■ **وفى تفسيره للآيات الكريمة يضع «الامام الرازى» (استدلالا) يتلخص فى الآتى :-**

١ - (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) . . والسلالة : «الخلاصة» . . لانها تسل من بين الكدر . قال ابن عباس وعكرمة وقتادة، ومقاتل المراد منه (آدم عليه السلام) . . فآدم (سل) من الطين . . وخلقت ذريته من ماء مهين، ثم جعلنا الكناية راجعة الى الانسان الذى هو ولد (ادم) . . والانسان شامل لآدم عليه السلام ولولده . . وقال آخرون : الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام، والسلالة : هى الاجزاء الطينية المثبوتة فى اعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى (اوعية المنى) صارت (منيا) . ويقول [الرازى] وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى «وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين» . . وهناك رأى آخر، وهو ان الانسان انما يتولد من النطفة، وهى انما تتولد من فضل الهضم

---

(١) د. محمد فتحى عثمان - الارض فى القرآن الكريم - بحث للمؤتمر الجغرافى الاسلامى الاول - الرياض - ١٣٩٩هـ - ص ٣١.

الرابع وذلك انها يتولد من الاغذية، وهى اما حيوانية، واما نباتية، والحيوانية تنتهى الى النباتية، والنبات انما يتولد من (صفو الارض والماء) . .

● ـ فالانسان بالحقيقة ـ والكلام مازال [للرازى] ـ يكون متولدا من سلاله من طين، ثم ان تلك (السلالة) بعد ان تواردت على (اطوار الخلقة)، وادوار الفطرة صارت (منيا) وهذا التاويل مطابق للفظ، ولا يحتاج فيه الى التكلفات.

٢ ـ **(ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين)**: . . يقول الرازى ـ ومعنى جعل الانسان نطفة، أنه خلق جوهر الانسان أولا «طينا» . . ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى اصلاب الاباء، فقذفه الصلب بالجماع الى رحم المرأة، فصار الرحم (قرارا مكينا) لهذه النطفة، والمراد بالقرار، موضع القرار، وهو المستقر، فسماه «بالمصدر» ثم وصف «الرحم» بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها.

٣ ـ **(ثم خلقنا النطفة علقة)** . . اى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهى (الدم الجامد).

٤ ـ قوله تعالى: **(فخلقنا العلقة مضغة)**: أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ، كالغرفة . . وهى مقدار ما يغرف « . . وسمى التحويل (خلقا) . . لانه سبحانه يفنى بعض اعراضها، ويخلق اعراضا غيرها.

٥ ـ **(فخلقنا المضغة عظاما)** . . اى صيرناها كذلك، وأقر ابن عامر عظما.

٦ ـ قوله تعالى: **(فكسونا العظام لحما)** . . وذلك لان اللحم يستر العظم، فجعله كالكسوة لها.

٧ ـ قوله تعالى: **(ثم أنشأناه خلقا اخر)** اى خلقا مباينا للخلق الاول ومختلفا عنه، حيث جعله حيوانا، وكان جمادا، وناطقا وكان أبكم، وسميعا وكان اصم، وبصيرا وكان اكمه . . وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من اعضائه، وكل جزء من اجزائه عجائب فطره، وغرائب حكمه، ولا يحيط بها وصف الواصفين، ولا شرح الشارحين.

■ **ويمكننا ـ بفضل الله سبحانه وتعالى ـ أن نتوصل الى المفاهيم الآتية من (استدلال الرازى وشرحه)**:

* أن آدم ـ أول انسان على الأرض ـ مخلوق من ترابها، وهذا الخلق هو الذى يجعل

الخلافة له عليها، حيث ان طبيعته تكون من طبيعة هذه الارض، وما عليها من مخلوقات، فيحسن بهذا التعامل معها والاقتدار على سياستها، وضبطها، لان الجنس الف، ولو كان آدم (وافدا غريبا) على هذه الارض، لم يطب له مقام فيها، ولم يحسن التجاوب مع مخلوقاتها.

* ان آدم ـ أول انسان على الارض ـ قد (تطور) فى خلقه من مرحلة.. من التراب الى الطين، الى الصلصال، الى الحما المسنون، الى الفخار، كما ينتقل الجنين فى بطن أمه من درجة الى درجة.. كما يشير الى ذلك قوله تعالى.. «**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين**».. (الآيات **١٢ ـ ١٤** من سورة المؤمنون).

* فى قوله تعالى: «**ثم أنشأناه خلقا آخر**».. اشارة الى نفخة الحياة من الخالق سبحانه وتعالى، فى هذا الجنين، بعد ان بلغ غايته من التكوين الجسدى، وهذا يقابل نفخة الحق سبحانه وتعالى فى آدم، بعد ان تم هيكله الجسدى، عندما اصبح صلصالا كالفخار..

* ثم ان هناك اشارة اخرى الى (اصل خلق الانسان)..، وأنه نبته من نبات الارضا.. وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى.. «**والله أنبتكم من الارض نباتا**»[1].

* وهناك اشارة أخرى فى القرآن الكريم الى (تطور) الانسان وتنقل خلقه من التراب الى البشر.. اذ يقول سبحانه وتعالى: «**ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم اطوارا**»[2].. ولكن اين التراب واين الانسان؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك المخلوق المركب الفاعل المستجيب، المؤثر المتأثر، الذى يضع قدميه على الارض، ويرف بقلبه الى السماء، ويحلق بفكره فيما وراء المادة كلها، ومنها ذلك التراب[3].

أنها (طفرة) ضخمة بعيدة الاغوار والآماد.. تشهد بالقدرة التى لا يعجزها (البحث) وهى التى انشأت ذلك (المخلوق) من تراب[4]..

---

(١) سورة نوح: ١٧.

(٢) سورة نوح: ١٣ ـ ١٤.

(٣) سيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ دار الشروق ـ ص ٢٤٠٩.

(٤) من ذلك نلمس كيف تحدث القرآن الكريم عن (الانسان) حديثا مستفيضا يتناول خلقه، ومنشاة، وطبيعته، وخصائصه، ومكانته بين الكائنات الاخرى، ومركزه فى هذا الكون، وعبوديته كما يتحدث عن صفات الانسان=

* ان المسافة (التطورية) بين عناصر التراب الاولية الساذجة، والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية (الحية).. مسافة هائلة.. تضمر فى طياتها السر الاعظم.. سر الحياة.. السر الذى لم يعرف البشر عنه شيئا يذكر بعد ملايين الملايين من السنين.. والذى لا سبيل الى اكثر من (ملاحظته وتسجيله فقط).. دون التطلع الى خلقه وإنشائه، مهما طمح الانسان وتعلق بأهداب المحال..

* أن ما رفع (الانسان) عن مجرد الوجود البيولوجى انما هى (روح الله) التى نفخ سبحانه وتعالى فى الانسان منها.. ﴿**فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾[1]..

ومن ادلة (رقى) الانسان عن المملكة الحيوانية والنباتية ان الله سبحانه وتعالى وهب الانسان (طاقة) تتجاوز الادراك الحسى المباشر للعمليات الفكرية العليا بما فيه من ربط واستنتاج وتخيل وطاقة على التعبير بالكلام واللغة التى تعكس فكره (الراقى).. قال تعالى: ﴿**وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنباهم باسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾[3].

* ان (تطور الانسان) من تراب الى بشر سوى آية من آيات الله الدالة على عظمته ووحدانيته وانفراده بالخلق.. يقول سبحانه وتعالى.. «**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون**»[4]..

* انها (بعض) آيات الله سبحانه وتعالى الناطقة بوحدانيته، الشاهدة بربوبيته، وأنه لا اله الا هو، وأنه لا يستحق العبادة والتقديس سواه، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة (بدء خلق الانسان ـ وعمارته للارض، وبقائه فيها.. بدءا بآدم

= واختلافه عن باقى الحيوانات والكائنات الحية الاخرى.. قال تعالى.. «**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**».. (الاسراء: ٧٠).

(١) سورة الحجر: ٢٩.

(٢) الاسراء: ٨٥.

(٣) البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

(٤) الروم: ٢٠.

من تراب ثم خلق أبنائه من ماء مهين.

● ـ ولنا ان نتوسع ونقول.. نحن جميعا مخلوقون من (تراب).. اما أبونا ادم فظاهر فيه ذلك بنص القرآن الكريم، وأما ذريته فهم من ماء مهين، وهذا الماء من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء يرجع فى جملته الى النبات.. والنبات من الارض.. فتكون النتيجة انا خلقنا من تراب.. فاذا عبر القرآن بخلق البشر من التراب فهذا هو الاصل والاساس، وان عبر بأنه خلقنا من ماء مهين فهذا هو الظاهر فى ذرية آدم[1].. ثم يبقى بعد ذلك (سر) تحول النطفة الى علقة وتحول العلقة الى مضغة وتحول المضغة الى انسان.. انها (مراحل).. ومسافات هائلة لا يعبرها الفكر الواعى الا وقد وقف خاشعا امام آثار قدرة الله مرات ومرات[2].

فهذه الرحلة الطويلة مع الانسان فى مسيرة تطوره من البداية الى النهاية ان هى الا آية من آيات الله فى خلقه، تتجلى فيها حكمة الله تعالى، وكمال قدرته، فى خلق هذا (المخلوق) من تراب الأرض، ثم جعل منه بشرا سويا، يقوم على خلافة الله تعالى فى هذه الارض ليعمرها بما أمره الله تعالى به من (قوى عاقلة مدركة مدبرة).. وعيون الخلق كلها ناظرة اليه، وهو يقوم بأمر هذه الخلافة، وبما حمل من أمانة لتشهد له أو عليه، ولتراه أيظل (دابة) من دواب الارض. يدب عليها كما تدب سائر الحيوانات أم أنه سيرفع هامته عن تراب هذه الارض، ليرتفع الى الملاء الاعلى وينزل منازل الملائكة المقربين؟..

● ـ والانسان جاهز للأمرين معا.. يقول سبحانه وتعالى.. ﴿**لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم** أجر غير ممنون﴾[3]..

■ المنهج القرآنى فى وصف الانسان وخصائص النشأة:

ذكر القرآن الكريم حقيقة علمية عظيمة، هى ان (الانسان وحيد النشأة).. فقال سبحانه وتعالى.. «**هو الذى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها**»[4]..

---

(١) د. محمد محمود حجازى ـ التفسير الواضح ـ مطبعه الاستقلال الكبرى ص ٢١، ص ٢٢.

(٢) سيد قطب ـ المرجع السابق ص ٢٤١٠.

(٣) سورة التين: ٤ ـ ٨.

(٤) الاعراف: ١٨٩.

وفى ذلك يروى عن «ابن عباس» أنه قال . . هى نفس آدم . . وخلق من آدم عليه السلام حواء . .

وقال سبحانه وتعالى . . «**خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية ازواج يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث، ذلكم ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون**»[1] . .

وقد تعرضت الآية لذكر الانسان وخلقه من نفس واحدة هى آدم . . ثم جعل منها زوجها ـ ثم هنا للترتيب فى الزمن مع التراخى ـ وذكرت الآية حالة عامة تشمل الانسان والحيوان فقال: (**يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد** خلق) . .

الناس كلهم ناس من ناحية قاعدة التكوين: رأس وجسم واطراف . . لحم ودم وعظام وأعصاب، عينان واذنان وفم ولسان . . خلايا حية من نوع الخلايا الحية . . تركيب متشابه فى الشكل والمادة . . ولكن . . الا يوجد فارق ما بين انسان وانسان ـ رغم هذا التشابه ـ يبلغ احيانا ابعد مما بين الأرض والسماء؟ . . وهكذا يبدو التنوع فى صنعة البارىء هائلا يدير الرؤوس :ـ

● ـ التنوع فى الانواع والاجناس، والتنوع فى الاشكال والسمات، والتنوع فى المزايا والصفات . . وكله . . كله مرده الى (الخلية الواحدة المتشابهة التكوين والتركيب) . .

فمن ذا الذى لا يعبد الله وحده . . وهذه آيات قدرته؟ . . وهذه مشيئته . . المشيئة العليا تريد ان تسلم لهذا الكائن الجديد فى الوجود زمام هذه الارض، وتطلق فيها يده، وتكل اليه ابراز مشيئة الخالق فى الابداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحرير والتبديل، وكشف الخفية ما يحقق المشيئة الالهية[2] . .

● ـ اذن فهى منزلة عظيمة . . منزلة هذا الانسان فى نظام الوجود على هذه الارض الفسيحة، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم .

■ ـ أبعد ذلك يكون هذا الانسان المكرم من نسل القرود والضفادع، والاسماك؟ . .

لقد كان القرآن صريحا فى اشارته الى وحدة الاصل والنشأة للانسان . . فقال

---

(١) الزمــر: ٦.

(٢) سيد قطب ـ المرجع السابق ـ جـ ١ ص ٥٦.

سبحانه وتعالى . .

«يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير»[1] . . . فالاصل واحد . . والخالق واحد . . خلقكم جميعا من ادم وحواء . . وجعلكم شعوبا وقبائل ، وميزكم اشكالا وأجناسا ليكون ذلك ادعى الى التعارف . . ان اختلاف الالسنة والالوان واختلاف الطباع والاخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، تنوع يقتضى التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله . . انما هناك ميزان واحد تتحدد له القيم ويعرف به فضل الناس . . **«ان اكرمكم عند الله اتقاكم»** . .

وهكذا تسقط جميع الفوارق . . فالكل لادم . . وادم من تراب . . قال صلى الله عليه وسلم : «كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»[2] . .

لقد شاءت ارادة الله ان يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب ، وسواء كان قد جعله مباشرة من التراب ، أو جعل السلالة الاولى التى انتهت اليه من تراب ، فان هذا لا يقدم ولا يؤخر فى طبيعة (السر) الذى لا يعلمه الا الله . . (سر) الحياة التى لابست اول (مخلوق) حى ، أو لابست آدم ان كان خلقه مباشرة من التراب الميت ، وهذه كتلك فى صنع الله ، وليست واحدة منها بأولى من الأخرى فى الوجود والكينونة . .

■ ـ من اين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟

انها قطعا شىء اخر غير التراب . . وغير سائر المواد الميتة فى هذه الارض . . شىء زائد . . شىء مغاير . . شىء ينشىء اثارا وظواهر لا توجد ابدا فى التراب ولا فى (مادة) ميتة على الاطلاق . .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٢) سيد قطب ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣٤٨ . . «رواه ابو بكر الرازى فى مسنده من حديث حذيفه» . .

هذا السر من اين جاء؟ . .

انه لا يكفى اننا لا نعلم لكى ننكر او نهذر كما يفعل الماديون فى لجاجة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلا عن عالم . .

● - نحن لا نعلم . . وقد رأينا انه قد ذهبت سدى جميع المحاولات التى بذلناها - نحن البشر - بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها . . نحن لا نعلم ، ولكن الله الذى وهب الحياة يعلم ، وهو يقول لنا انها نفخة من روحه ، وأن الأمر قد تم بكلمة منه «كن فيكون»[1] . .

والله سبحان وتعالى يقول ان النفخة من (روحه) فى (آدم) . . هى التى جعلت له هذا (الامتياز) عن باقى الحيوانات واستقلاله منذ اللحظة الاولى عنها . . حتى على الملائكة .

■ - نستنتج من ذلك أن (النفخة) لابد أن تكون شيئا آخر غير مجرد الحياة الموهوبة (للديدان) . . (والميكروب) . .

* وهذا هو الذى يقودنا الى اعتبار الانسان (مخلوقاً) (نشأ نشأة ذاتية) وأن له اعتبارا خاصا فى نظام الكون، ليس لسائر الاخياء . .

وقد شاء الله بعد نشأة (آدم) نشأة ذاتية مباشرة ان يجعل لاعادة النشأة الانسانية (طـريقـا معينـا) . . طريق التقـاء ذكر وانثى ، واجتماع بويضة وخلية تذكير، فيتم الاخصاب . . ويتم الانسال، والبويضة حية غير ميتة، والخلية حية كذلك متحركة . .

* ومضى الوف الناس على هذه القاعدة . . حتى شاء الله ان (يخرق) هذه القاعدة المختارة، فى (فرد) من بنى الانسان فينشئه نشأة قريبة وشبيهه بالنشأة الاولى (وان تكن مثلها تماما) . . انثى فقط، تتلقى النفخة التى تنشىء الحياة (ابتداء) . . فتنشأ فيها الحياة . .

أهذه النفخة هى الكلمة؟ . .

الكلمة التى توجه الارادة . . الكلمة «كن» . . التى قد تكون حقيقة وقد تكون

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩٧.

كناية عن توجه الارادة . . والكلمة هى (عيسى) او هى التى منها كينونته . .

■ ـ كل هذه بحوث لا طائل لها . . ولا طائل وراءها الا الشبهات . . وخلاصتها هى تلك :ـ

*** ان الله شاء ان ينشىء حياة على غير مثال . . فانشأها وفق ارادته الطليقة التى تنشىء الحياة بنفخة من روح الله، ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها، ويجب أن نجهلها . . لماذا؟ . .**

لانها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة فى الارض، مادام انشاء الحياة ليس داخلا فى تكليف الاستخلاف[1].

* للبحث العلمى ان يمضى فى طريقه بوسائله الميسرة له، فيصل الى ما يصل اليه من فروض ونظريات، (غير متعارض) فى اية نتيجة يحققها مع الحقيقة الاولية التى تضمنها القرآن وهى ابتداء خلق الانسان من (سلالة) من عناصر الطين ودخول الماء فى تركيبها على وجه اليقين[2] . .

ان القرآن الكريم يضع الانسان فى موضعه اللائق به . . ولن تسعد الانسان عقيدة أخرى أصح وأصلح من عقيدة القرآن . . فالقرآن يهدف إلى بناء الأسرة الانسانية، ويستنكر الأباطيل . . ومنها أباطيل النشوء والارتقاء وتشويه أصل الانسان . . وأباطيل العصبية ومفاخر العنصرية . .

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩٨.

* يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب ـ جـ ١٣ : جـ ١٨ ص ٢٣٣ التفسير القرآنى للقرآن ـ دار الفكر العربى . . ان ادم لم يخلق خلقا مباشرا من التراب ـ وانما كان خلقة (حلقة) فى سلسلة (التطور) و أنه اذا كان الطين مبدأ الخلق، فانه قد تنقل فى هذا الطين من عالم الى عالم، ومن خلق الى خلق الى (خلق)، حتى كان الانسان اخر حلقة فى سلسلة هذا التطور . . فظهر فيها الكائن العاقل وهو ادم . . او الانسان . . ويقول . . وفى قوله تعالى . . (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) اشارة الى ان ادم لم يظهر من الطين ظهورا مباشرا، وانما ظل دهورا طويلة فى (بوتقة) الزمن، حتى استوى ونضج، (فالفاء) فى قوله تعالى (فاذا سويته) تفيد التعقيب، ولكنه تعقيب يأخذ من عمر الزمن ملايين السنين . . «وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» . .

(٢) ويقول الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٣٧ . . ان اصل الانسان واصل الحياة كلها من «طين» هذه الارض ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها فى تركيب الانسان الجسدى وتركيب الاحياء اجمعين، وأن هناك أطوارا بين الطين والانسان تشير اليها كلمة «سلالة» فى قوله تعالى . . «**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين**» وقوله : «**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من ماء مهين**» . . والى هنا وتنتهى دلالة النص.

والقـرآن الكـريم يعترف بفضل واحد متفق عليه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية. . وهو فضل التقوى والاحسان فى العمل واجتناب الاساءة. . والقرآن الكريم هو الذى يرسم للانسان الطريق للنهوض بالمسئولية وبأمانة التكليف والاحتكام إلى العقل فى كل ما يسعه العقل، ثم اطمئنان الضمير إلى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول، ولابد فى كل الأمور ـ والحالة هذه ـ أن يؤمن الانسان بالله الذى خلقه فى أحسن تقويم واكرمه، وخصه بالعقل والعلم والادراك. . فتبارك الله أحسن الخالقين.

الفصل السادس

داروين.. ونظريته [الساقطة] عن اصل الانسان

- ـ داروين ورحلة الضياع .
- ـ المؤثرات ابيئية والبشرية فى فكر داروين .
- ـ الرحلة ومقدمات النظرية المشئومة .
- ـ المؤشرات الفكرية لنظرية داروين ومؤثراتها فى أوربا .
- ـ أين تخمرت فكرة [التطور] عند داروين؟
- ـ الملامح الجغرافية لجزر «الجلاباجو» .
- ـ مناخ طيب لنظرية فاسدة .
- ـ داروين وفرضية الانتخاب الطبيعى .
- ـ الرد الاسلامى على فرضية الانتخاب الطبيعى .
- ـ أهم ملامح نظرية التطور البشرى عند داروين .
- ـ أين يكمن الخطر فى نظرية داروين؟

من النظريات التى حاولت أن تضفى على نفسها صفة [العلم] وهى أبعد ما تكون عن العلم، وذاع صيتها فى القرن الهجرى الماضى . . وأثارت ضجة كبرى فى الأوساط العلمية والفكرية والثقافية . . واستعملت كسلاح للتشكيك فى قيم الدين وتعاليم السماء . . نظرية [داروين] المشهورة بنظرية النشوء والارتقاء للباحث [تشارلز داروين] الانجليزى اليهودى الأصل . .

وكان لنظرية النشوء والارتقاء الفاسدة، بالغ الأثر فى تفكير [راتزل] الجغرافى، فقد لمسنا تطبيقاتها وسمومها واضحة فى كل أعماله، فالانسان فى رأيه كالنبات والحيوان من نتاج [البيئة]!!! . . بل لقد بلغ الشطط براتزل وتأثره بسموم [داروين] أن قال أن الانسان فى نشاطاته وتطوره وآماله محكوم بحتمية البيئة لا يستطيع منها فكاكا!!! . .

ومن المؤلم حقا أن تنتشر سموم الداروينية ـ عبر أفكار [راتزل] ـ فى أفكار تلميذته [مس سمبل] فإذا بها تخرف وتقول :ـ

«الانسان من نتاج سطح الأرض، ولا يعنى هذا أنه مجرد ابن الأرض، وتراب من ترابها، ولكن يعنى أن الأرض رعته، وغذته، وهيأت له أعمالاً، ووجهت أفكاره وجابهته بصعاب قوّت من جسمه، وشحذت تفكيره، و[خلقت] له مشاكل الملاحة والرى، ولكن فى نفس الوقت همست له بحلول لها».

وكيف نستغرب ذلك التخريف من [مس سمبل]؟ . . ألم تشرب من ينابيع [الداروينية] الملوثة عن طريق أستاذها [راتزل]؟ . .

لقد كانت الداروينية الخبيثة وراء قول [راتزل] بأن الانسان مغلوب على أمره، تقيده قوانين وضوابط بيئية تتحكم فى نشاطه وتوزيعاته على سطح الأرض، ونظمه فى المكان والزمان معاً، وأن حياة الدولة أيضا رهينة لصنع عناصر الطبيعة . .

. . . ومن أبشع صور الالحاد قولة راتزل الشهيرة . .

«ان عناصر الطبيعة وخاصة التربة هى التى تتحكم فى أقدار الشعوب بقسوة عمياء» . .

. . . ومن أبشع صور الالحاد والتخريف قولة تلميذته الأمريكية [مس سمبل] :ـ

«البيئة هى صنعت عظام الانسان ولحمه . . وتخللت روحه وعقله» . . (١)

---

(1) E. Semple, The influence of geographic Environment, PP. 1-2.

● ـ فمن هو [داروين] الذى أفسد الكثير من المفاهيم الانسانية وأثار تلك الضجة فى أوربا خاصة . . والعالم بصفة عامة؟

■ ـ إنه تشارلز «أو تشارلى» بن روبرت بن أراسموسى داروين الذى فشل فى دراسة الطب وفضل دراسة اللاهوت فى جامعة كمبردج سنة ١٨٢٧م .

لم يبلغ تشارلز السابعة والعشرين من العمر حتى بات فى حوزته، اى فى مذكراته وفى ذاكرته، كل المعلومات عن النبات والحيوان التى اتخذها فيها بعد اساسا لوضع نظرية [التطور] وصياغة ارائه عن اصل الانواع، تلك النظرية وهذه الاراء التى أفسدت وجه العالم فعرف كل من عاش من بعده ان الكون مكان يختلف كثيرا عما تصوره من هنا اضطربت القيم، واهتزت المفاهيم الايمانية فى أوربا وأمريكا .

وتعد حياة داروين مثلا سيئًا لحالة اناس تترتب على اعمالهم آثار اجتماعية واخلاقية لم يكن من الممكن توقعها نظرا لان انشطتهم تبدو لا تبشر بخير بل ولا تثير اى اهتمام . فداروين الفتى لم يكن ينبىء بقدوم رجل ذى خطر، وما كانت اهتماماته بالتى تنم عن احتمال انجاز علمى ما على الاطلاق .

وفى سنة ١٨٧٦ ، عندما بلغ السابعة والستين، كتب مقالا انهزامياً لأبنائه دون ان يخطر ببـالـه انه سينشر ذات يوم . وكـان عنـوانـه «ذكـريات عن تطور فكـرى وشخصيتى»، وقد ذكر فيه انه كتلميذ صغير فى اول مدرسة التحق بها، كان أبطأ تحصيلا من أخته «كارترين» التى كانت تصغره سنا، بل وكان، فى اعتقاده، ولدا مشاكسا من نواح كثيرة، أبرزها احتقار المفاهيم الايمانية فى الكنيسة .

وفى الوقت نفسه، كان لديه دائما شغف بجميع الاشياء . فقد كان يجمع، حتى فى تلك السن المبكرة، كل اصناف الاشياء فلم يقتصر على النباتات وبيض الطيور والقواقع والمعادن بل تجاوزها الى قطع العملات والسدادات كما كان يبذل جهداً كبيراً فى تعلم اسماء النباتات . وسواء اعتبر حبه لصيد الاسماك جزءا من هوايته للجمع أم لم يعتبر فلا شك انه حدا به الى قضاء الساعات الطوال على ضفاف نهر أو بحيرة يرقب «فلينة» صنارته ومن ثم شغل الوقت بالتأمل الهادىء .

ولم يكن يخطر ببال أحد اثناء تلك الفترة من حياة [داروين] أنه سوف يصبح عالما . وفى عام ١٨١٨ ، عندما كان فى التاسعة، ارسل الى «مدرسة دكتور بتلر العظيمة فى

شروزبرى» حيث قضى سبع سنوات حتى صيف سنة ١٨٢٥ . ولم يتعلم من هذه المدرسة شيئا افاده فيما استقبل من حياته . فقد اقتصر التعليم فيها على اللغتين اللاتينية واليونانية وبعض الجغرافيا والتاريخ القديم .

وعندما ترك المدرسة لم يكن اعلى او ادنى كثيرا من زملائه وكان يعتبر عموما فتى عاديا جدا . وعلى الرغم من ان أباه كان يكن له حبا شديدا ، فقد قال له ذات مرة «أنت لا تعبأ بشيء سوى الصيد والكلاب واصطياد الجرذان وستجلب العار على نفسك وعلى اسرتك» ، وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد .

وربما كان هذا حكما بالغ التكريم . ذلك لأنه عندما تعلم الهندسة الاقليدية على يد معلم خاص ، كان يحس بسعادة بالغة ازاء البراهين العقلانية الواضحة . واحس بنفس الغبطة عندما شرح له عمه - وكان على خلاف ابيه ، يقدر امكاناته حق قدرها - فكرة وزنية البارومتر[1] . على ان حماسه الاساسى فى السادسة عشرة ، وهو حماس لازمه اعواما عديدة ، كان منصبا على الرماية .

واستمر طوال سنوات دراسته فى جمع المعادن . غير انه كان يجمعها دون منهج علمى وكل ما كان يشغله هو أن يجد عينة من معدن لم يضفه الى مجموعته بعد . كما استرعى انتباهه ما رآه من خنافس رائعة الالوان اثناء عطلة قضاها فى ويلز وهو فى العاشرة مما كاد يجعله يوطد العزم على البدء فى جمع الحشرات . ومن المدهش حقاً أن يكون داروين لم يلمس جوانب العظمة الالهية وقدرته على الخلق والابداع ، من خلال مراقبة اعضاء هذا العالم المثير . عالم الحشرات . .

وربما كان ما خامر نفسه من مشاعر حب الاستطلاع العلمى هو الذى حدا به الى التطوع للعمل كمساعد لاخيه الذى كان يدرس الكيمياء فاقام فى مخزن الالات بحديقة منزل الاسرة شيئا قريب الشبه بالمختبر. وكثيرا ما قضى الصبيان الوقت فى العمل الى منتصف الليل غارقين فى تجاربهما . وعندما سمع الدكتور بتلر «الرهيب» استاذ [تشارلز] بما يفعل عنَّفه علانية واتهمه بأنه «يضيع وقته سدى فيما لا ينفع من الامور» . وكان الأستاذ على صواب بالفعل .

وفى أكتوبر/ تشرين الاول ١٨٢٥ ، عمد ابوه ، وقد رأى ان لا فائدة ترجى منه فى

(1) The origin of species, Published by the new American Library, Amenetor Book, PP. 25-31

هذه المدرسة، الى ارساله الى جامعة ادنبره، على أمل ان يصبح طبيبا. ولم تُقْتَرح فكرة اتخاذه الطب مهنة له على اساس انها وسيلة لتنمية ميل علمى قد يكون لديه او لحفز ابداعه الفكرى بل بالاحرى لان الطب كان يعتبر مهنة مفيدة ونبيلة وجديرة بالاحترام.

غير انه على الرغم من ان [تشارلز داروين] لم يكد يحقق فائدة تذكر من البرامج الرسمية لتعليم الطب فقد شحذت اهتمامه بالعلم صحبته لنفر من الشبان اللامعين المولعين بالعلوم الطبيعية. وقد برز احدهم فيما بعد كجيولوجى وكان اسمه اينسويرث. وغدا الثانى، دكتور كولد ستريم، عالما فى الحيوان. أما الثالث فكان فى سبيله الى ان يصبح عالما فى النبات لولا ان ادركته المنية وهو فى الهند.

وكانت صداقة [داروين] لشخص يكبره بعدة سنوات يدعى الدكتور [جرانت] اصبح فيما بعد استاذا لعلم الحيوان بالكلية الجامعية فى ادنبره، دليلا على ولعه النامى بالعلوم البيولوجية. وكانت صحبته لهؤلاء الرجال حافزا له الى الاشتراك فى نزهات لجمع الحيوانات على شاطىء البحر من البحيرات التى تخلفها حركة المد. ولم تكن هذه الانشطة تتصل من قريب او بعيد بدراسته الطبية ولكنها تشكل معلما هاما اساسيا من معالم تطور فكر شاب قيض له ان يؤثر فى المفاهيم التى كانت سائدة فى عصره بالتدمير والتحريف، فى القرن التاسع عشر، حتى بات الاستعمار العالمى والتفرقة العنصرية، والانحلال، والمذاهب الهدامة.. كل ذلك بات مديناً للفكر الداروينى بالفضل والانتماء.

والجدير بالذكر ان «تشارلز داروين» نشر فى سنة ١٨٢٦، ولم يمض الا عام واحد على التحاقه بجامعة ادنبره، بحثين قصيرين عما استخلصه من مشاهداته حينما كان يجمع الكائنات البحرية من بحيرات المد بالقرب من [نيوهافن] ومن هنا يمكن أن نرى ان أفكار داروين قد بدأت وهو لم يزل بعد طالبا. وعلى الرغم من تثبيط معلمه فى المدرسة والملل الذى كان يسببه له تدريس اساتذته الرسميين بالجامعة فان خلايا عقله كان تتهيأ لاستيعاب أسس مذهبه الهدام فى النشوء والارتقاء.

وبعد ان قضى تشارلز داروين عامين دراسيين بجامعة ادنبره، اقتنع والده من ملاحظاته الخاصة تارة ومن أقوال اخوات تشارلز تارة اخرى، بأن تشارلز لا يجب ان

يصبح طبيبا، واذ كان أخوف ما يخافه هو ان يتحول ابنه الى رجل عاطل مغامر، فقد اقترح عليه أن ينخرط فى سلك رجال الدين، ولم يكن الأب يدرى ان ابنه لا يصلح لأى شىء مفيد، وأن الأيام تعده ليكون [معول] هدم للمبادىء والأديان.

ودرس الشاب اقتراح والده بعناية فائقة فاستهوته فكرة أن يغدو قسا فى الريف. وكان عندئذ يؤمن يصدق كل كلمة جاءت فى الكتاب المقدس. . وأنى له الا يؤمن ولم يخطر بباله قط ان يفعل غير ذلك. وبعد ان قرأ كتابا أو كتابين فى اللاهوت لم يجد صعوبة فى أن يتقبل مذهب كنيسة انجلترا وبالتالى فى الموافقة على عرض ابيه. وبالنظر الى بعض الاستنتاجات التى اسفرت عنها فيما بعد نظريته فى [أصل الانواع]، فان استعداده فى سن التاسعة عشرة للانخراط فى سلك رجال الكهنوت يبدو من المفارقات الغريبة.

■ - داروين ورحلة الضياع

فى عام ١٧٢٨ كان يشترط لكى يصبح المرء قسا انجليكانيا الحصول على درجة من احـدى جامعتى اكسفورد او كيمبردج. وعلى ذلك نرى [تشارلز داروين] وقد التحق مرة أخرى بجامعةيدرس فيها موضوعا لا يثير اهتمامه بأية حال. ومن ناحية أخرى يحضر داروين بالصدفة محاضرة عامة [لجون هنسلو] فى مادة «علم النبات»، فاذا به يفتن بجلائها ورسومها.

والاكثر من ذلك انه كان يستمتع بالرحلات الميدانية التى كان ينظمها [هنسلو] على الاقدام او بالمركبات او فى قارب نهرى. ولم يكن بكيمبردج شىء يمكن أن يتابعه بنفسه المتعة التى يحسها فى جمع الخنافس.

■ - المؤثرات البيئية والبشرية فى فكر داروين

واضح أن شيئا من ذلك لم يكن يمت بصلة الى مستقبله كأحد رجال الكهنوت. ومن ناحية اخرى، كان فى ابتكاره لطريقتين جديدتين لجمع الخنافس (باستخدام

عامل لكشط الطحالب من على جذوع الاشجار المسنة أثناء الشتاء، وعن طريق جمع النقابة من قيعان القوارب المستخدمة في نقل اعشاب السمار) ما ينبيء بما كان لابد ان يحدث. وعلى غرار ما جرى وهو طالب في أدنبرة، ظهر اسمه وهو طالب بجامعة كبمبردج في المنشورات العلمية التى يذكر منها مجلة استفين المصورة للحشرات البريطانية Illustrations of British insects Stephen,s ، وكان مصحوبا هذه المرة بالعبارات الآتية: - «عثر عليها وأمسك بها تشارلز داروين». !!!

ولا مراء في أن ذلك الطالب الكسول الذى يدرس اللاهوت كان لديه شيء يجذب اليه انتباه اناس مثل الاستاذ [هنسلو] ويميزه عن سائر الطلبة العاديين. وكان من عادة الاستاذ [هنسلو] ان يفتح بيته مرة كل أسبوع لاستقبال اعضاء الجامعة القدامى المهتمين بفرع أو بآخر من فروع العلم. وكان ان دعا الى احد هذه الاجتماعات الشاب [داروين] وسرعان ما شغف بحديثه. ولم يمض وقت طويل حتى اعتادا ان يتنزها معا لفترات تمتد وتدور بينهما اثناءها مناقشات حول علوم النبات والحشرات والكيمياء والمعادن والجيولوجيا وكذلك لم لا؟ الدين أيضا من منظور نقدى هدام . .

وكان داروين يقدر في [هنسلو] معارفه الواسعة ودأبه على المشاهدة لفترات طويلة متواصلة تقضى به الى استخلاص نتائجه. ومن الطريف ان نذكر ان داروين تحدث عن [هنلسو] في وقت لاحق فوصفه بأنه رجل «حصيف الاحكام وذو فكر متزن، ولكننى لا أخال أحداً يقول انه ذو عبقرية فذة». ومن جهة أخرى تقرر [دائرة المعارف البريطانية]، بعد ان سجلت انه كان مسؤولا بالاشتراك مع «سدجويك»، عن تأسيس «جمعية كبمبردج الفلسفية»، أن ماله من شهرة يعود الى «ان داروين مدين له كثيراً بولعه بالتاريخ الطبيعى وبأنه قدمه الى الكابتن «فتزورى» قبطان [البيجل] سفينة «جلالة الملك».

وكتب [داروين] فيما بعد عن السنوات الثلاث التى قضاها في «كبمبردج» فوصفها بانها من أسعد فترات حياته. فقد استمتع بالرماية والقنص، وانضم الى ثلة من المغامرين الذين كانوا يأكلون ويشربون ويلعبون الورق معا، وصاحب ايضا جوقة من الموسيقيين المنحلين الشبان. وكان يخصص عطلته الصيفية لاشباع هوايته في جمع الخنافس، وفي الخريف كان يكرس وقته لممارسة الرماية.

وكم كان من السهل على [داروين] أن يمارس حياة رجل تقليدى محترم من أبناء الطبقة الوسطى . . وكم كان من السهل عليه ان يتحول الى رجل من رجال الدين فى احدى القرى يشبع شغفه بدراسة الحشرات كهواية جانبية! غير انه ابان اقامته فى كبمبردج وقع حادثان قلبا صورة مستقبلة رأسا على عقب، وقد حدث كلاهما عام ١٨٣١ عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره.

فنظرا لعدم درايته باللغات والآداب القديمة، لم يستطع ان يبدأ دراساته فى كيمبردج فى التاريخ المحدد. ومن ثم قررت السلطات الجامعية ان يبقى فى كليته فصلين دراسيين اضافيين. ولكى يستطيع شغل وقت فراغه على نحو مفيد اتخذ الاستاذ [هنسلو] ما يلزم من ترتيبات لكى يرافق [داروين] الاستاذ [سدجويك] فى بعثه جيولوجية كان على وشك القيام بها فى شمال «ويلز». واغتنم [داروين] الفرصة وكانت هذه الرحلة ومشاركته فى جمع العينات الجيولوجية هى التى اتاحت له أن يدرك أن مجموعة عينات كهذه ليست لها أهمية علمية فى حد ذاتها فحسب بل ان قيمتها تكمن بالأحرى فى اسهامها فى صياغة نظريته الساقطة.

الرحلة ومقدمات النظرية المشئومة

وجاء الحادث الثانى فى اعقاب الاول مباشرة، فما ان عاد [داروين] الى داره بعد جولته الجيولوجية مع «سدّجويك»، حتى وجد فى انتظاره رسالة من [هنسلو] يذكر فيها أن قبطانا يدعى [فتزورى] كلفته الحكومة الانجليزية باجراء مسح حول العالم فخطرت له فكرة اصطحاب باحث فى التاريخ الطبيعى لدراسة النباتات والحيوانات التى ستصادفه اثناء الرحلة، وأن العمل الذى سيؤديه الباحث لن يكون مدفوع الاجر بيد أنه سيكون شيقا ولا ريب بالنسبة لشخص يهمه ذلك الامر. واستحوذت الفكرة على لب [داروين] وسرعان ما قبل الدعوة. وبعد ان حصل على اذن والده توجه الى [كيمبردج] لرؤية [هنسلو] وتلقى ارشاداته، ثم سافر الى لندن ليجرى مقابلة مع الكابتن [فتزورى] قائد البعثة وقبطان السفينة. وتمت الرحلة المشئومة بالفعل.

وعاد [تشارلز داروين] الى الوطن من رحلته فى اكتوبر/ تشرين الاول ١٨٣٦.

ومن هذا التاريخ وحتى سبتمبر/ ايلول ١٨٤٢، اى فترة ست سنوات، عاش فى كيمبردج اولا ثم فى لندن. وكرس هذه السنوات لتصنيف وتنظيم الكم الهائل من المعلومات التى جمعها. وفى عام ١٨٣٩ نشر سردا لرحلات المسح التى قامت بها البيجل حول العالم. وفى عام ١٨٤٠ نشر قسمين من بحث عن «ظواهر علم الحيوان التى اكتشفتها رحلة البيجل».

ثم نشرت اقسام اخرى من هذا البحث فى السنوات ١٨٤١، ١٨٤٢، ١٨٤٣ ويقال أنه عكف على الكتابة والنشر معظم ما تبقى من عمره.

ولم يتضح الا فى منتصف القرن التاسع عشر أن طول الفترة الزمنية اللازمة لتكوين مختلف الصخور التى تتألف منها الارض، والحيوانات المستحجرة فيها اكبر كثيرا مما ادخلته فى حسابها الكتب المقدسة. وخلاصة القول انه على الرغم من ان الامر كان يقتضى رجالا موهوبين ليدركوا مغزى الادلة، فقد كانت الظروف مهيأة لحدوث هذا الادراك، وهكذا اشرق الادراك على «اثنين» من البيولوجيين: على [داروين] ذلك الجالس المتأمل فى عيناته فى منزله الريفى بانجلترا، وعلى [والاس] الذى يستكشف فى جزر الملاى.

وقد قرىء بحث «والاس» مع ملخص لنتائج [داروين] فى اجتماع للجمعية اللينية The Linnean Society بلندن سنة ١٨٥٨ وطبعا معا فى السنة التالية.

وأصيب «داروين» بصدمة. غير انه شرع فى العمل بناء على نصح اصدقائه من العلميين ومدفوعا بطموحه الشخصى الى ان انتهى بعد ثلاثة عشر شهرا على الرغم من نوبات المرض التى ظلت تعاوده، من العمل الذى كرس له جل حياته وهو تأليف كتابه «أصل الانواع». وقد طبع فى نوفمبر/ تشرين الثانى ١٨٥٩. وبيعت جميع نسخ الطبعة الاولى يوم صدورها.

وعزا «داروين» نفسه نجاحها الفورى المستمر، لحد ما، الى انه على الرغم من مضى ثلاث وعشرين سنة منذ عودته الى الوطن مزودا بالبيانات التى بنى عليها نظريته والى ان نشرت نتائجه أخيرا فى نص متماسك، فان هذه الفترة لا يمكن ان تكون قد ذهبت سدى، اذ الواقع انها اعطت افراد المجتمع فى مجموعه ومجتمع العلميين بوجه خاص، فرصة ليألفوا مفهوم [التطور] ويعتادوا عليه.

■ - المؤشرات الفكرية لنظرية التطور ومؤثراتها فى أوربا

وهنا نأتى الى الوقت الذى بدأت فيه الاصداء الاجتماعية لهذا الاكتشاف الجديد - أى هذا النهج الحديث فى تناول البيولوجيا وأصل الانواع - فى ذلك الحين وقد اعلن على الملاء، تتردد فى جنبات المجتمع . لقد كان وقعه شديدا . ونحن اذا رجعنا بأذهاننا الى الوراء، بعد مرور ما يزيد على قرن من الزمان، سهل علينا ان نفهم الطبيعة الاساسية للاضطراب الذى أحدثته نظرية [داروين - والاس] فى الافكار التى كانت قد استقرت فى عقول الناس عن العالم والكائنات التى تعيش فيه. ذلك أن النظرية تبدو اليوم فى أعيننا خرافة لا تستند إلى أى برهان. فالمبدأ الأول فى نظرية [التطور]، كما حدده والاس فى بحثه هو «أن حياة الحيوانات البرية هى صراع من أجل البقاء». والمبدأ الثانى هو ان الانحرافات التى تحدث فى الشكل النمطى لنوع ما (ولم يحدد داروين ولا والاس أسباب حدوث هذه الانحرافات) سيكون لها أثر، إيجابى أو سلبى ، على قدرة ذلك النوع على البقاء. ويصاغ هذا المبدأ بايجاز فى العبارة «البقاء للاصلح». وبهذه الوسيلة تنشأ الانواع، وتتغير عن طريق عملية [تطور] مزعومة أشار اليها المخرف والاس إذ يقول فى هذا الصدد: «إن الزرافة لم «تكتسب» عنقها الطويل نتيجة لرغبتها فى الوصول الى اوراق الاشجار التى لا تستطيع بلوغها ولمدها عنقها باستمرار لهذا الغرض، ولكن لان ايا من الانحرافات التى حدثت بين أجناسها المناقضة زودتها باعناق اطول من المعتاد قد ضمنت لها فى الحال نطاقا اوسع من المراعى على نفس الارض التى ترعى فيها رفيقاتها ذوات الاعناق القصار ومكنتها بالتالى من أن تبقى بعد فناء رفيقاتها عند حدوث اول نقص فى الغذاء».

● - وقد مارست هذه النظرية أثرها الاجتماعى القوى فى أوربا لاسباب رئيسية ثلاثة: -

[اولها] أنها ناقضت نصوص الكتب المقدسة التى امن بها الناس دون مناقشة والتى تصف الحيوانات والنباتات المختلفة على انها خلقت هكذا. [والثانى] انها بعثت فى النفوس قلقا عميقا بما تضمنته من ايحاء بأن الانسان من جنس ادنى ، شأنه شأن أى

نوع من الحيوان أو النبات ينحدر من سلف له أقل نجاحا. فالانسان، الذى هو جوهــرة عالم الحيوان، على حد تعبــيـر «شكسبـير» ينتمى الى هذا العـالم فى نهاية المـطاف!!!. [والثـالث] أنها خطت خطوة أبعـد على طريق اعتبار عقلانية العلم المتحررة من القيم، [وليس تمجيد الوحى والالهام]، هى وحدها الوسيلة التى ينبغى ان يرى بها الانسان بيئته وهذا مالم يكن سائداً آنذاك.

وطبـع كتـاب أصل الانواع فى عام ١٨٥٩. وفى العام التالى، عقدت الرابطة البريطانية لتقدم العلوم اجتماعها السنوى فى «اكسفورد». وتكلم فى ذلك الاجتماع عن المتضمنات التى ينطوى عليها كتاب [داروين] الاستاذ «توماس هنرى هكسلى»، احد مشاهير المحاضرين فى عصره، والاستاذ بكلية الجراحين الملكية، الذى شغل فيما بعد كرسيا فى المؤسسة الملكية Royal Institution Royal وغدا رئيسا للجمعية الملكية Royal Society وأثناء المناقشة التى اعقبت المحاضرة، شن «صمويل ويلبرفورس» أسقف أكسفورد هجوما عنيفا على نظرية [داروين] بأكملها، واستدار بعنف بالغ الى «هكسلى» يسأله إن كان قد انحدر من قرد «جليل» من ناحية جده أو من ناحية جدته! وأحـدثت هذه المواجهة أثرا عميقا فى القاعة فقد أجاب «هكسلى» فى ثبات موجها كلامـه إلى الاسقف انـه اذ خير فى نسبه بين إنسان عظيم الشأن فى أمور الكنيسة والدولة، همه ان يسخر من باحث دؤوب وراء الحقيقة وبين «قرد» يدب ويثرثر فى قفصه ولكنه مع ذلك يمثل سر الطبيعة وسحرها، فسوف يلقى صعوبة فى اتخاذ قرار الاختيار بينهما!!!

● - وفى كتاب أصل الاجناس Origin of Species تناول «داروين»[1].. نظرية

(١) ولد تشارلس داروين فى شروبشير Shropshire بريطانيا فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ عن اب تخصص فى الطب هو «روبرب داروين» وجد تخصص فى مجال الطبيعة والنبات هو الدكتور «اراسموس داروين».. نشأ «تشارلس» بذلك فى بيئة علمية، درس الطب فى جامعة (ادنبرة) وتركه دون أن يكمل السيرة، وقرر دراسة اللاهوت فى جامعة كمبردج سنة ١٨٢٧ عن غير رغبة وهواية، وانما للحصول على درجة علمية، ولكنه شغف بالرحلات العلمية وراء البحار وكانت رحلة «البيجل» احدى هذه الرحلات والتى استمرت خمس سنوات مبتدئة من ميناء (ديفون بورت) سنة ١٨٣١م منتهية سنة ١٨٣٦. لتبدأ رحلة هذا (الـرجل الغريب) مع عالم الاحياء والجيولوجيا التى استمرت ربع قرن من البحث والتحليل واسفـرت عن توصله الى ما يسمى بنظرية (التطور) التى قدمها الى احدى الجمعيات العلمية، وصدرت الطبعة الاولى من كتاب (أصل الانواع) فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨١٩م، والتى هزت الدنيا (بتطرف) افكارها وغرابة ما ورد بها من معقول قليل وغير معقول كثير. وتوفى «داروين فى ١٨٩ ابريل سنة ١٨٥٩م، بعد أن حلف وراءه نظرية مضللة مازالت المناقشات حولها للآن.

النشوء والارتقاء وقال فيها ان جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائى واحد، وانها ارتقت الى ما هى عليه خلال مراحل تطورية (متطاولة) . . وبناء على هذا التفسير الذى قام بوضعه «داروين» فان الزراف (مثلا) الموجود حاليا، كان فى بدء الامر ـ على حد قوله طبعا ـ من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف، ولكن هذا الحيوان من خلال العمليات الطويلة التى اعقبت التوالد والتناسل والتغييرات والفوارق الصغيرة التى طرأت على الجنس الحيوانى، استطاع ان يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادى الذى نشهده اليوم . . ويقول [داروين] موضحا نظريته فى الباب التاسع من كتابه(١) . . «ومن الأمور الحتمية عندى أنه إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيوانا مثل الزراف».

■ - أين تخمرت فكرة التطور عند داروين؟

كانت جزر «الجلابا جو» مهداً لنظرية (التطور الداروينية) الساقطة. فعندما أبحر داروين عام ١٨٣١ على ظهر السفينة «بيجل» ليكون إخصائى التاريخ الطبيعى طوال رحلتها لم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من العمر ولم يكن لديه إيمان راسخ بالدين، رغم أنه فى سن التاسعة عشرة كان قد التحق بكلية اللاهوت بجامعة كيمبردج على أمل الانخراط فى سلك الكهنوت. وقد كتب فيها بعد فى سيرة حياته عن هذه الفترة يقول: «لم يكن يخامرنى حينئذ ادنى شك فى الصدق المطلق لكل كلمة من كلمات الكتاب المقدس»!!! ومن ثم فهو لم يكن متأكداً على الاطلاق فى أن العالم قد خلق، على ما هو عليه الان، فى ستة ايام (فى سنة ٤٠٠٤ قبل ميلاد المسيح، بناء على حساب الاسقف جيمس اشر،) واكتمل خلق العالم، على وجه الدقة، فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ١٢ اكتوبر/ تشرين الاول من تلك السنة، وفى ذلك منتهى التخريف والضلال.

---

(١) أصل الاجناس ص ١٦٩.

- The Origin of Species, P. 169.

واجتاحته الشكوك لأول مرة اثناء رحلته فى امريكا الجنوبية عندما اكتشف بعض الأحافير «الجديدة»، واختلاف انواع الغطاء النباتى على جانبى سلسلة جبال الانديز بالرغم من تشابه المناخ والتربة والركام الهائل من المرجان أو مقذوفات البراكين اللاحق على تكوين سلاسل الجبال. ولاحظ ان جزر «الجلاباجو» التى تكونت على اثر انفجارات متعاقبة لبراكين تحت البحر، احدث من الوجهة الجيولوجية من امريكا ومن ثم فهى لاحقة لعملية الخلق. وفضلا عن ذلك فقد وجدها مستقلة بذاتها بمعنى انه يجد سلسلة من الجبال تحت البحر يمكن ان ينظر اليها على انها كانت ذات يوم حلقة الوصل بينها وبين الرصيف القارى. لذلك اطلق عليها [داروين] اسم «توابع القارة».

الملامح الجغرافية لجزر الجلاباجو

وكتب فى يومياته: «كان أول انطباع عنها منفرا الى أقصى الحدود.. ارضا قاحلة من الحمم البازلتى، تتلاطم حولها الامواج العارمة من كل جانب وتظهر على طولها وعرضها الصدوع العميقة. وقد نحتت الرياح والمياه من الصخور المنبثقة من اعمال البحر كتلا ملساء كأنها اسوار قلاع طبيعية، واجرافا مسامية أشبه بالاسفنج، وسطوحها متعرجة كأنها شعر متحجر لعملاق رهيب. ويتناثر فى الجزر او فيما بينها عدد لا حصر له من الصخور كأنها اسنان متكسرة او انياب تختفى فى ثناياها بحيرة من الحمم. وقد نصفه اليوم بأنه منظر على سطح القمر. وقد علق [داروين] قائلا «اننى لا اتردد فى التأكيد بانه يوجد على الاقل الفان من فوهات البراكين فى شتى ارجاء الارخبيل. وبعض هذه البراكين نشطة هذه الايام وقد سجلت انفجارات فى تاريخ قريب. واذا شوهدت من الجو أكبر هذه الجزر، وتسمى جزيرة ايزابيلا، ظهر بجلاء انها مكونة من مقذوفات خمسة او ستة براكين كانت ثائرة من قبل وكان يفصلها بعض المضايق. وعلى الحواف البازلتية الخشنة توجد الاغوانات البحرية العتيقة البشعة، والاغوانات البرية «الغبية المظهر» ذات الحركات الخرقاء، والسلاحف البرية العملاقة (ال galapagos الاسبانية) التى تتحرك فى بطء كما لو كانت تنوء تحت وطأة اوزانها.

وقد كتب القبطان [روبرت فتزورى] فى سجل السفينة «بيجل» يوم وصولها فى ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٨٣٥ : «انه شاطىء اهل لان يكون عاصمة الجحيم»!!!.

ويرجع تاريخ الجزر الى ما يزيد قليلا على مليون سنة. ولابد ان تكون الرياح التى تهب من القارة الامريكية والامواج التى ترتطم بالشواطىء وترتد الى صخور البحر هى التى جلبت اولى جسيمات التربة وأولى بذور الاشنة والسرخس التى نبتت على صخور البازلت فكانت اول مستعمريها. ثم كانت الطيور التى حملت البذور فى ريشها او على بطونها او بارجلها. اما تيار همبولت، فلابد أنه نقل بدوره الى تلك الجزر الممتدة من خط عرض ١ شمالا الى خط عرض ٢ جنوبا، انواعا اخرى من الحيوانات مثل طيور البطريق متعلقة بكتل الخشب التى يجرفها كما لو كانت ارماثا طبيعية. وهكذا بدأ العمران فى الارخبيل الذى يقع على بعد ينقص قليلا عن ١٠٠٠ كيلو متر من سواحل الاكوادور وتبلغ مساحته فى مجملها نحو ٧٨٠٠ كيلو متر مربع. وتحتل أكبر جزره اكثر من نصف هذه المساحة اذ تبلغ ٤٥٨٨ كيلو مترا مربعا تقريباً بينما لا تزيد مساحة أصغر الجزر عن خمسة كيلو مترات مربعة.

على ان بقايا من الخزف واثار الحملة الاستكشافية التى قام بها [ثور هيردال Thor Heyerdhal] قد ادت بالبعض الى الاعتقاد بان سكان امريكا الجنوبية فيما قبل «كولومبس»، ولا سيما قبائل «الانكا»، قد وصلوا الى جزر [الجلاباجو]. غير ان اكتشاف الارخبيل، من وجهة النظر التاريخية، قد تم على ايدى اسقف اسبانى من بنما يدعى «توماس دى برلانجا» وكان الامبراطور «شارل» الخامس قد اوفده الى [بيرو] ليسعى الى فض الخلاف بين القائدين الفاتحين «فرانشيسكو بيسارو»، و«ديجو دى الماجرا» اللذين كانا قد اكتشفا الارخبيل فى عام ١٥٣٥. ومن المحتمل ان يكون قد حاد عن الطريق او ان تيار همبولت القوى قد قذف بسفينته عن الجزر. ومن الثابت ان «برلانجا» ورجاله هم اول من اطلق اسم الجلاباجوس على الجزر (والكلمة بالاسبانية تعنى «السلاحف») كما اسموها الجزر المسحورة بسبب الضباب الذى يغلفها فتصبح وكأنها القلاع التى تحكى عنها القصص الخرافية.

ولم تكن الجزر تمثل أية اهمية بالنسبة للقارة أو للقادة الفاتحين غير انها كانت وكرا ممتازا يحتمى فيه القراصنة: فقد اتخذها قراصنة البحار الجنوبية قاعدة لعملياتهم ضد

السفن الاسبانية فى طريق عودتها الى بلادها محملة بالنفائس والكنوز. كما كان يتردد عليها مغامرون مثل نايت ومورجان وديفيس واميروز كولى الذين رسموا اول الخرائط الملاحية التى تظهر فيها الجزر.

وقرب عام ١٨٠٠ اقترح القبطان «كولنت» من البحرية الملكية البريطانية صيد الحيتان التى كانت تزخر بها المياه المحيطة بالارخبيل نظرا لان حيتان المحيط الاطلسى كانت فى طريقهـا الى الانقـراض. حينئـذ انـبرى صيادو الحيتـان من الانجليز والامـريكيين الشماليين يبيدون لا الحيتان فحسب بل والسلاحف ايضا سعيا وراء لحمهـا وما يستخرج منها من زيت. وقد جاء فى سجلات البحرية الامريكية ابان القرن التاسع عشر ان سفينة واحدة قد حملت نحو ١٤ طنا من السلاحف فى اربعة ايام وان اسطول الحيتان فى البحرية الامريكية قد اصطاد فى ٢٧ عاما اكثر من ١٣ الفا من هذه الحيوانات التى لو تركت وشأنها لعمرت الى ما يربو على قرنين من الزمان. كما استقبلت الجزر ايضا، فى عام ١٨٤١، صائد حيتان اصبح فيها بعد كاتبا ذائع الصيت هو «هيرمان ملفيل» الذى الف كتابا رائعا بعنوان The Encantadas (الجزر المسحورة). على أن من الاهم ان نذكر ان صائد الحيتان الامريكى «اسكس» قد هاجمه حوت فى بداية القرن التاسع عشر وأغرقه غرب الجلاباجوس بثلاثين درجة. وكـانت هذه الحادثة مصدر الهام القصة الشهيرة لموبى ديك Moby Dick [الحوت الابيض]، رمز الشر فى البر والبحر، والمطاردة الانتقامية الدامية التى قام بها الكابتن «أشاب» ذو الساق الخشبية، ومنيت بالفشل الذريع.

وقد وجد [داروين] فى جزيرة تشارلز (وتسمى اليوم جزيرة سانتا ماريا) مستوطنة يقـطنهـا ما يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ نسمـة معظمهم من «الملونين الذين طردوا من جمهورية الاكوادور لجرائم سياسية».

وكانت الاكوادور قد استولت على الجزر فى ١٢ فبراير / شباط ١٨٣٢ واسمتها ارخبيل كولون (كولومبس) واطلقت عليها اسماء مسيحية مستوحاة من تاريخ حياة كولومبس. والأرخبيل يمثل متحفاً طبيعياً للتاريخ الطبيعى، حيث يضم مستعمرات هائلة من كائنات بحرية غريبة ولا سيما الاغوانة البحرية (Amblyrynchus crist-atus) وهى تظل فى مجموعات متراصة طلبا للدفء على الصخور غير بعيدة عن الماء.

ويبدو ان هذا الحيوان البشع فى منظره ان لم يكن فى حجمه ايضا، ذا الظهر المسنن والمخالب القوية كما لو كان ذلك لتمكينه من التشبث بالارض لابد ان يكون قد عاش اصلا فيما يبدو معيشة الاغوانة الارضية.

(Conolophus pallidus, Conolophus subscristatus)

غير انه ابتغاء الهروب من هذا الجنس الاخير، وهو أقوى منه، قد اضطره الى اكتساب مهارات مائية، وان كان [داروين] نفسه يقول انه يتجنب المياه بمجرد زوال الخطر. وكان عليه لذلك ان يغير غذاءه. وتكونت له غدد هائلة تمكنه من ان يتخلص عن طريق الانف من الملح الزائد الذى يمتصه مع الاعشاب البحرية التى يتغذى بها وبذلك يكمل وظيفة الكلى. وكانت التغيرات الفجائية فى درجة الحرارة التى تطرأ على هذه الحيوانات عندما تقفز من الصخور الملتهبة الى المياه الباردة ثم تعود الى الصخور مرة أخرى، سببا فى تعديل نبضات القلب لديها. وقد بينت التجارب المعملية ان اجسامها تفقد الحرارة فى نصف الوقت الذى تحتاجه لاستعادتها وذلك عندما تخفض او ترفع درجة الحرارة المحيطة. وعندما زار [داروين] جزيرة سان سلفادور كانت حيوانات الاغوانة الارضية من الكثرة بحيث ظل بعض الوقت دون أن يجد فى الجزيرة كلها، مساحة بلا جحور لينصب فيها خيمته.

ويعد [بطريق] «الجلاباجو» الوحيد من نوعه الذى غامر بالبقاء على هذا القرب من خط الاعتدال. وهو ايضا اصغر بطاريق العالم، شأنه شأن طفل ضئيل الجسم أو قزم إذا قورن بأسلافه أو معاصريه الفارعين فى المنطقة القطبية الجنوبية. ولكنه فى ارخبيل [الجلاباجو] - وهو يبدو اذ يفعل ذلك كما لو كانت توجهه ذاكرة جماعية تنحدر من أسلافه - يفتش عن المياه الباردة العميقة بين جزيرتى «فرناندينا» و «ايزابيلا»، ويبحث على الارض عن الرطوبة المنعشة فى الفجوات التى حفرتها الأمواج فى مقذوفات البراكين.

وثمة ثلاثة عشر من الأنواع المعروفة للقطرس (albatros) والنوع الذى يعيش على جزيرة اسبانيولا (Diomedea irrorata) هو النوع الوحيد فى العالم الذى يعيش فى المنطقة الاستوائية. وبالمثل فان طائر المجنون المقنع (Sula Dactylatra) فى [الجلاباجو] هو الوحيد من نوعه الذى له دورة تكاثر سنوية وان كانت تتغير من جزيرة

لأخـرى. ففى جزيرة جينوفيسا تحدث من شهر اغسطس/ اب الى شهر نوفمبر/ تشرين الثانى، وفى جزيرة اسبانيولا من نوفمبر/ تشرين الثانى الى فبراير/ شباط. كما يضع بيضه على الارض العارية، شأنه شأن الطائر المجنون ذى القدمين الزرقاوين، كما لو كانت ندرة الاشجار وغيبة الحيوانات او الطيور المفترسة على الشواطىء التى يعيش عليها قد افقدته عادة بناء الاعشاش. وهو لا يرى سوى فرخ واحد من فرخى البيضتين اللتين يضعهما أما الأخر فيأتى الى الوجود ضعيف الحيلة محكوما عليه بالموت جوعا فى غضون بضعة ايام.

ويعطى بلشون الحمم او الواق الاخضر (Buteridis Sundevalli) وغراب البحر (Nannopterum harrisi) مثـالين غريبين على التكيف مع البيئة. فالطائر الاول، الذى لا يوجد الا فى هذه الجزر، هو الذى ينفرد دون كل اعضاء جنسه بالحط على الشجيرات قبل ان ينقض غائصا فى الماء لاقتناص الاسماك. أما غراب البحر، الذى وصل اسلافه الى الجزر بعد طيران ما يقرب من الف كيلو متر، فقد فقد ريش جناحيه تقريبا. ذلك ان صيد السمك كان من السهولة بالنسبة اليه لدرجة انه نسى كيف يطير وتعلم العوم بدلا من ذلك. والواقع ان كونه هو الطائر الوحيد من طيور الارخبيل غير القادر على الطيران يعتبر دليلا اضافيا على صغر عمر جزر [الجلاباجو]. فحتى وقتنا الراهن، لم يتسع الوقت الا لنوع واحد لفقدان القدرة على استخدام اجنحته بخـلاف نيوزيلنـدا مثلا حيث تكثر الانواع التى ضمر فيها عضو او عدة اعضاء وفقدت وظائفها.

واصبحت حالـة البرقش حالة نموذجية منذ ان استند اليها [داروين] فى سوق احدى الحجج [الواهية] لتأييد نظريته الساقطة عن الانتخاب الطبيعى. فبعد ان لاحظ الفروق فى حجم المنقار فى مختلف الانواع بالجزر، استنبط انّ هذه الطيور كان عليها، على امتداد عدد كبير من الاجيال ان تكيف مناقيرها حسب حجم الحبوب البذور والحشرات بل والاوراق التى تتغذى بها. وقد صنفت ثلاثة عشر نوعا منها وكلها من عائلة الـ Greospizinae واروعها هو نوع الحسون (Camarhynchus pallidus الذى يلتقط الحشرات ويرقاتها من الشقوق فى قشرة شجرة [عود الأنبياء] التى سميت بالحشرة المقدسة نظراً Bursera gaovoelens للرائحة العطرة التى تفوح

عند قطعها أو من الاغصان العارية فى الأشجار الميتة. ولكن نظرا لان منقاره ليس طويلا بدرجة كافيه فانه يستخدم شوكة من شوك الصبار فى البحث داخل شقوق الاشجار. ولعله هو المثال الوحيد فى عالم الطير الذى يستعمل أداة فى التفتيش عن غذائه. فهل هى الغريزة ام الذكاء؟ إنها فطرة الله سبحانه وتعالى التى فطر المخلوقات عليها..

والغالبية العظمى من الزواحف ونصف الطيور غير المهاجرة، وثلث النباتات، وعدد كبير من الحشرات الموجودة فى جزر [الجلاباجو] - لا توجد فى اى جزء اخر من العالم. ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا اعتبر [داروين] رحلته الى امريكا الجنوبية وبصفة خاصة الى جزر [الجلاباجو] اهم حدث فى حياته على الاطلاق، ورأى فيها منبع «كل آرائه». وقد كتب فى يومياته بأن على جزر [الجلاباجو] «يبدو أننا دنونا، فى الزمان والمكان، من تلك الحقيقة العظيمة.. سر الاسرار.. ظهور كائنات جديدة لاول مرة على هذه الارض.!!!

والواقع ان الخطر الذى تمثله الحيوانات المستأنسة التى أحضرها الانسان معه الى الارخبيل بالنسبة لبقاء المجتمعات الحيوانية المحلية لاشد من الخطر الذى يمثله الانسان نفسه. ويصدق القول ايضا على الانواع النباتية، فالكلاب البرية تلتهم السلاحف والاغوزانات، والماعز تتلف النباتات، وبيض الطيور وفراخها هى الطعام المفضل لدى الخنازير البرية. ويذكر تقرير اعدته محطة بحوث «تشارلز داروين» عام **١٩٦٣** عن جزيرة [اسبانيولا] ما يلى: «لم نلق سوى سلحفاة واحدة.. بعد بحث قام به ثلاثة رجال لمدة يومين وقد الحقت الماعز بالغطاء النباتى للجزيرة تلفا بالغا».

■. مناخ طيب لنظرية فاسدة

دامت عملية التأمل والتفكير والنظر واعادة النظر فى الادلة المستمدة من مشاهداته الخاصة ومن مشاهدات الاخرين فترة عشرين عاما حتى اوائل **١٨٥٦** حين اشار عليه [اى داروين] بنشر أفكاره السير [تشارلز ليبيل]، اعظم علماء الجيولوجيا فى ذلك العهد.

وشرع [داروين] على التوفى اعداد عرض مستفيض. ومع ذلك، فلم يكن قد انهى نصف العمل عندما حل صيف ١٨٥٨. وذات يوم وصلته رسالة بالبريد من شخص يدعى [الفريد والاس]، وكان هذا الرجل مساحا ومهندسا معماريا يستهويه التاريخ الطبيعى. وكان يستكشف فى جزر الملاى. وقد ارفق برسالته بحثا عنوانه «نزوع السلالات إلى أن تحيد نهائيا عن النمط الاصلى». وقد ذهل [داروين] عندما وجد ان بحث والاس يعرض نفس النظرية التى توصل إليها هو فى أصل الانواع، وكيف لا؟ ألم يتجرعا سموم نظريتهما من مستنقع واحد؟..

■ . داروين وفرضية الانتخاب الطبيعى

● ـ تناولت النظرية الداروينية (Darwinism) عجز الكوكب الارضى عن تحمل (التوالد) المستمر لجميع الانواع المتزايدة طبقا لمتوالية هندسية [اذا لم يتدخل (عامل) فى إحداث (التوازن)..

(Struggle for exictence) بين افراد النوع الواحد] تخلف فى النهاية العناصر القوية القادرة على حمل الصفات الجيدة للاجيال القادمة ومنها القدرة على التكيف مع ظروف بيئية جديدة قد يضطر اليها النوع باسره امام جبروت الأنواع الاخرى.. أو بفعل عوامل الطرد الطبيعية إلى بيئات أقل إغراء بامكانياتها، عندئذ لن يبقى إلا (الأصلح) حسب قانون (داروين) الذى اسماه:

[الاختيار الطبيعى او الانتخاب الطبيعى]:ـ

(The survival for the Fittest Natural selection)

.. «ويقصد بذلك أن (الطبيعة) « Nature ستفضل الحيوان ذا الفراء السميك فى مناطق «التندرا» على غيره غير المؤهل لظروف هذه البيئة».. وهى التى ستفضل الحيوان السريع الجرى بين أشجار الغابات الاستوائية المتشابكة على غيره (غير المؤهل لظروف هذه البيئة) من الحيوانات الضخمة البطيئة الحركة السهلة الوقوع فريسة للعدو.. ويرى ان الحصان الاكثر سرعة هو (المرشح) الوحيد للبقاء بعد يأس الذئاب

من اللحاق به . . وهو القادر على توريث احسن الصفات الى الاجيال التالية، كما ان الزراف الطويل العنق فقط هو الذى يستطيع البقاء حسب انتخاب الطبيعة له لقدرته على تناول اوراق الاشجار العالية، أما غيره فمصيره الفناء والانقراض . .

● ـ الرد الاسلامى على فرضية الانتخاب الطبيعى

سأسوق هنا رأى عالم جليل هو [الشيخ حسين الجسر] . . إذ يرد على [تخريف] الداروينية الفاسدة بقوله :ـ

. . . أريد أن أبين لكم ـ [أى الداروينيين] ـ أن معتمد أدلتكم على النشوء، وتوجهكم له لم يتجاوز الظن والتخمين وبذلك كفاية لما هو غرضنا . . فأقول أن معظم ما استندتم عليه فى الاستدلال على نشوء [الأنواع] من أصل واحد أنكم شاهدتم الأعضاء الأثرية فى [بعض] الحيوانات لا فى [كلها]، ولا فى [غالبها] . . وهى أثار أعضاء توجد فى الحيوان كأثار أرجل مثلاً غير كاملة .

واعلمـوا أن الدليل متى طرأ عليه [الاحتمال]، ولو كان احتمالاً بعيداً سقط به الاستدلال، اعنى الاستدلال على اليقين، وهذا حكم لا ينكر عند كل العقلاء، ولا أخال أنكم تنكرونه إذا تقرر ذلك . . فاعلموا أن استدلالكم بالأعضاء الأثرية على النشوء بأنها تدل على تغير [الأنواع] فتوافق مذهب [النشوء] ولا توافق مذهب [الخلق] هو استدلال لا نتيجة له إلا الظن، وليس من اليقين فى شىء . .

. . . فأنتم لم تحيطوا علما بفائدة كل كائن حتى تجزموا بأن تلك الأعضاء لا فائدة لها البتة . . سلمنا أنها لا فائدة لها، وأنها تدل على تغير [النوع] الذى هى فيه . . لكن نقول انها لم توجد الا فى بعض الأنواع وهى التى وجدت فيها تلك الأعضاء، فقد خلقت [مستقلة] ولم يطرأ عليها ذلك التغير، فلم يثبت مذهب النشوء الذى قلتم بعمومه فى كل الأنواع .

■ **وقد أسس داروين نظرية [الاختيار الطبيعى** أو الانتخاب الطبيعى] :

The survival for the fittest Natural selection.

على بعض الافتراضات والظواهر والاستنتاجات[1] نلخصها فى النقاط التالية:

● ـ سخاء الطبيعة فى عملية التكاثر لضمان بقاء العدد المطلوب لاستمرار النوع وميل Tendency جميع الكائنات الحية (على حد قوله) للازدياد فى العدد بنسبة هائلة للغاية ويرى ان سبب ذلك هو أن الاطوار المبكرة من الذرية تكون دائما اكثر بكثير من ابائها سواء اكان التكاثر جنسيا Sexual ام غير جنسى Asexual [1].

---

(١) من ذلك مثلا اننا عندما نسلم بان الانتخاب الطبيعى يتوقف على الانحرافات الفطرية، يظل علينا ان نتساءل كيف يضمن انتقال هذه الانحرافات؟ ولنفترض ان توليفة لونية معينة مفيدة للتمويه وتعطى الحيوان الذى يولد بها فرصة اكبر للبقاء. ولكن هب ان هذا الحيوان تزاوج مع حيوان اخر ذى توليفه لونية اخرى وجاء صغارهما بالوان وسيطة فان ذلك سوف يترتب عليه فقدان تلك الميزه.

وفى الستينات من القرن التاسع عشر، اجرى جريجور مندل، وهو عالم نبات نمسوى، تجاربه على نباتات البازلاء التى كانت لها بعض الصفات المتباينة، فهجن بعضها ورصد الصفات فى النباتات اثناء تقدمها فى النمو. فاتضح ان الصفات لم تمتزج لتعطى اشكالا بين بين. ومن ثم اذا هجنت نباتات طويلة بنباتات قصيرة، اعطى بعض النباتات نباتات طويلة واعطى بعضها الاخر نباتات قصيرة، ولم يأت اى منها بنباتات متوسطة.

ونشر [مندل] نتائجه ولكن بحثه اهمل وظل فى زوايا النسيان الى عام ١٩٠٠ حين عثر عليه علماء نبات اخرون كانوا قد توصلوا الى نتائج مماثلة وطفقوا ينقبون فى المجلات العلمية عما سبق نشره من بحوث. وكان [مندل] قد وافته المنية عام ١٨٤٤ دون ان يدرى انه قد اسس علما جديدا هو «علم الوراثة المندلى».

وكان مندل قد افترض وجود اشياء معينة فى الكائنات هى التى تتحكم فى الصفات البدنية التى تنفرد بها تلك الكائنات، وان هذه الاشياء تنتقل من الاباء الى الابناء وفى عام ١٨٧٩، اكتشف فالترفلمنج وهو عالم المانى، الصبغيات الدقيقة داخل نوى الخلايا. وما ان اعيد اكتشاف النتائج التى توصل اليها مندل فى علم الوراثة حتى تبين العلماء ان الصبغيات تنتقل من الاباء الى الابناء وان ذلك الانتقال يتم على نحو يفسر الكيفية التى تورث بها الصفات. واعتبر ان الصبغى يتكون من خيط من الورثات او الجينات التى يحكم كل منها صفة معينة.

وتتكون هذه الورثات من جزيئات إبيرة من «حامض نووى» تنتج نسخا من نفسها عند كل انقسام خلوى. ومن ثم تتصف كل خلية جديدة بصفات الخلايا التى نشأت منها.

بيد ان النسخة لا تكون مطابقة للاصل تماما ومن الممكن حدوث تغيرات طارئة طفيفة فى جزئي وتعرف هذه التغيرات «بالطفرات» او التغايرات الاحيائية، وهى السبب فى وجود الفروق بين فرد، واخر، وهى المسئولة عن الانحرافات الفطرية التى تحدث لدى الصغار فتجعل الانتخاب الطبيعى امرا ممكنا. ويتيح الانتخاب الطبيعى لبعض الطفرات ان تزدهر بينما يفضى ببعضها الاخر الى الانقراض.

ويترتب على بقاء طفرات مختلفة هنا وهناك نشوء انواع جديدة.

(١) مثال ذلك ان السمكة الواحدة من السالمون Salamon تضع قرابة ٢٨ مليون بيضة كل موسم.. وبالطبع كون كل هذه الاعداد الضخمة من البيض تفقس وتكون افرادا تبقى على قيد الحياة حتى تتكاثر بنفس الاعداد شىء لا يمكن تصوره اطلاقا.. فمثلا حسب العالم الامريكى دودسون Dodson نتائج نجوم البحر Stars Fish الموجودة فى جزء صغير من الشاطىء الباسفيكى شمال سان فرانسسكو على افتراض ان نسبة بقاء (الذرية) منها على قيد الحياة هى ١٠٠٪ فوجد ان عددها بعد حوالى ١٥ جيلا فقط (اى بعد حوالى ٣٠ سنة) سيزيد على عدد الاليكترونات Electrons

● ـ بقـاء (عدد) كل نوع من الحيوانات ثابتا تقريبا رغم سخاء الطبيعة فى عملية التكاثر، ويرى [داروين] ان السبب فى ذلك يرجع الى أن (عددا) كبيرا من الافراد تهلك بواسطة الاعداء او الامراض او التنافس او المناخ(١).

ومن الجلى ان [داروين] قد اعتبر ان تكون الانواع، الذى قصد به بروز انواع جديدة عن طريق عملية الارتقاء من اشكال سابقة، يشكل مفتاح التطور، وانه لا يمكن فهم كافة الظواهر الاخرى المتصلة بالتطور الا بعد كشف النقاب عن اسرار هذه العملية. بيد أنه اخفق فى التمييز بين نشوء انواع جديدة وارتقاء سلسلة متزايدة التعقيد من الاجناس والعائلات والرتب والفئات والفصائل او الشعب. ومع ذلك يجمل بنا ان نذكر ان الوراثة كعلم لم تكن قد وجدت بعد فى زمن [داروين] وأنه لم يكن يدرى شيئا عن أعمال معاصرة لمندل(٢).

وليس من شك فى ان تفكـير داروين قد قاده الى نوع من الشطط والتخبط فى فرضيات لا أساس لها حول الحدود الفاصلة بين نشوء الانواع وبين ارتقاء مجموعات اكثـر تعقيدا، والتى تميز عنـدهـا مثـلا بين نشوء الكلب الاليف وبين نشوء عائلة الكلبيات كلهـا. وليس من قبيل الصدفة انه كرس فصلا كاملا من اصل الانواع لموضوع التهجين داخل النوع الواحد وفيما بين الانواع المختلفة، لأن أخطر ما استحوذ على انتباهه هو ما يعبر عنه فى اللغة العلمية العصرية بانه توقف تبادل الورثات (Gen-es) فى الوقت الذى يتكون فيه أحد الانواع(٣).

وتـدعى جماعة من الداروينية أنها تستطيع أن تميز بين عمليات التطور المحدود المدى micro- evolution وعمليات التطور الواسع المدى macro-evolution على

= الموجودة بالكون (٧٩١٠)مرة.

انظر فى ذلك: علم الدين كمال ـ المرجع السابق ص ٩٨٢.

(١) يجب الا نفهم ان ذلك سليم.. لماذا؟.. لان عدد كثير من انواع الحيوانات البرية يختلف من سنة الى اخرى حسب عوامل بيئية كثيرة.

(2) S.A. Semenov.

Prehistoric Technology. Coty, Adams and Mackay, London, 1964.

(3) J.S. Weiner

The Piltdown Forgery Oxford Univ. Press, 1955.

افتراض أن التطور المحدود المدى هو جماع الظواهر التى تحدث داخل النوع، على مساحة حغرافية محدودة نسبيا، وفى أثناء فترة زمنية قصيرة نسبيا أيضا (تقاس ببضع مئات او ببضعة الاف من الاجيال)، وتبلغ ذروتها آخر المطاف حين يتكون نوع جديد او ينقسم النوع الاصلى الى نوعين فرعيين.

وتتخبط جماعة داروينية أخرى فى القول بان [ميكانيزم] تكون الانواع مفهوم الى حد كبير، زاعمة أن مجتمعات النبات والحيوان على السواء تعرض اجيال متعاقبة على مدى فترات طويلة من الـزمن لضغوط بيئية تسفر فى نهاية الامر عن انتخاب اقدر التغيرات الموروثة على التصدى لتلك الضغوط. ولكن ما هى العوامل التى تسمح بحـدوث عملية الانتخـاب هذه؟ وتجيب الداروينية أنها تكمن اولا فيما تسفر عنه الطفرة، أى التغييرات الوراثية المتراكمة التى نتجت اساسا من تعديلات فى الحامض النووى الصبغى DNA : Deoxyribonucleic acid داخل البنية الورثية للخلايا[1].

ويكمن المصـدر الثانى ـ حسب زعم الداروينية ـ للتغيرات التى تتيح حدوث الانتخـاب فى العملية التى تتكاثر بها الكائنات المزدوجة الجنس، على افتراض أن التكاثر الجنسى يسمح بتوافق الورثات (الجينات) المنحدرة من كل من الذكر والانثى وأن عدد التوافقات الممكنة يزداد مع كل جيل جديد.

● ـ المنافسة فى سبيل البقاء بين الانواع المختلفة بهدف الحصول على الطعام والمأوى واماكن التكاثر. من جانب وبين افراد النوع الواحد من اجانب اخر، وذلك مع افـتراض داروين (ثبـات) موارد الـطعام واماكن الاستيطان، على معدلات واحدة ومساحات ثابتة.

● ـ اختلاف Variation افراد كل نوع من الحيوانات والنباتات عن بعضها بصورة واضحـة، ويعتـبر (داروين) هذا الاختلاف بانه صفة متأصلة للبروتوبلازم (المادة الحية) لانه وجدها فى جميع مجموعات الكائنات الحية. ولم يستطع داروين ـ فى هذا الصدد ـ ان يفرق بين الاختلافات المتوارثة Heritable وهى المهمة فى عملية التطور،

(1) Gerhard Wichler

Charles Darwin, the Founder of the Theory of Evolution and Natural selection, Pergamon Press, N.Y. 1961.

وغير المتوارثه والتى تتكون نتيجة لاختلاف الطعام او درجة الحرارة او العوامل البيئية الاخرى. . ويرى ان الاختلاف Variation بين افراد النوع الواحد وراء حدوث (التطور). . وبدونه لن يحدث ابدا. . ويقول داروين أنه فى ظل الظروف العادية فان التغيرات الورثية التى تحدث على هذا النحو وتعزل بالتدريج مجتمعا ما عن غيره من المجتمعات المنحدرة من نفس النوع الى ان يصبح نوعا قائما بذاته، تجعل التزاوج امرا مستحيلا.

ويستشهد [داروين بمثال مجتمع للارانب نقل من اوروبا الى جزيرة «ماديرا»: فبعد ثلاثمائة سنة تغيرت ارانب «ماديرا» فى مظهرها الخارجى وتقلص حجمها حتى غدت فى حجم الجرذان ولم تعد قادرة على التزاوج مع الارانب الاوروبية.

* ان نظرية الطفرة البعيدة المدى تثير اسئلة تفوق الحصر وتتعذر الاجابة عنها. فمما يصعب تخيله مثلا ان «الفلتة المبشرة بالخير» التى تظهر كفرد وحيد فى مجتمع معين ستكون قادرة على العثور على قرين لضمان انجاب النسل.

وفضلا عن ذلك، تناقض المشاهدات الباليتنولوجية هذه النظرية المتطرفة خصوصا فى ادعائها ان الافراد المؤسسين لمجموعات جديدة لا يختلفون الا قليلا عن سائر افراد المجتمعات التى انبثقوا منها، وأن الطائر البدائى Archaeqpterix لم يكن سوى حيوان زاحف يغطيه الريش، وكذلك فى ادعائها الرخيص أن لسلفنا المسمى [قرد الجنوب Australopinhecus] شبها الى حد بعيد بالقرود باستثناء وقفته المنتصبة (١).

ويزعم الداروينيون ان جميع أمثلة الطفرة البعيدة المدى من الطراز الذى ادى الى نشوء ثان من الاجنحة فى ذبابة الفاكهة Drosophila تتضمن عودة ظهور صفات قديمة اكثر مما تتمثل فى انبثاق صفات اخرى جديدة، وأنها تعكس ظاهرة التناسل

---

(١) ويرى «داروين» انه لما كان اكثر الافراد ملاءمة هى تلك التى سوف تبقى على قيد الحياة، فقد استعمل تعبير البقاء للاصلح (Survival of the fittest) وبذلك يكون للتنازع على البقاء تأثير انتقائى فى ازالة الافراد غير الملائمين والاحتفاظ بالافراد المناسبين. . ولما كان جزء كبير من الاختلاف ينتقل الى الاجيال القادمة بواسطة الوراثة فان تأثير البقاء التفاوتى (Differential) سيراكم من جيل الى جيل، اى أن الانتقاء الطبيعى يعمل باستمرار على المحافظة على (ضبط) الكائنات الحية لبيئتها الخارجية وطريقة حياتها.

كما تشاهد فى وجود بقايا ذنب لدى بعض افراد البشر. وما من جنس أو رتبة او فئة بقادرة على النشوء والارتقاء إلا كمجموع لكافة الانواع التى تضمنها. فليست الرتب او الطوائف او غيرها من الفئات الاخرى الاكثر تعقيدا هى التى تتطور بل هى الانواع التى تتألف منها تلك الرتب او الفئات[1].

وقد طرحت تفسيرات اخرى للتطور الواسع المدى. وكلها تفضى فى نهاية الامر الى الافتراض بأنه عملية تحدث بشكل منقطع غير منتظم او الى افتراض قوانين جديدة تحكم ظهور فئات اكثر تعقيدا. وترى أيضا أن محاولات الفصل بين التطور المحدود المدى والتطور الواسع المدى قد تجددت على نحو من الانتظام يدفع المرء الى التساؤل عما اذا لم يكن هناك سبب موضوعى لذلك وأنه يبدو كما لو كان هناك شىء ما فى صميم طبيعة معارفنا عن التطور التاريخى للكائنات الحية هو الذى يقود العلماء الى دروب لا تضيئها الحقائق او المنطق!!! ثم تأتى تفسيرات[داروينية قميئة]أخرى ترى أنه ربما يكمن السبب الاساسى فى عدم قدرتنا فى الوقت الراهن على ملاحظة عملية [التطور] الا فيما يتعلق بكوكب الارض. وتدعونا أن نتصور ماذا يحدث لو أن زائراً من الفضاء الخارجى جاء وأصدر حكما بصدد حياة البشر بأسرها استنادا الى تاريخ حياة شخص واحد من سكان الارض، وتفترض تلك التفسيرات أن بعض استنتاجاته سوف تكون صحيحة ولكنه ايضا قد ينزع الى تحويل احداث الصدفة فى حياة ذلك الشخص الى قوانين يعتبرها قابلة التطبيق على النوع الانسانى فى مجموعه. ثم نجد تفسيرات [داروينية ساقطة] أخرى تزعم بمنتهى التبجح أن نفس القول على [التطور الواسع المدى]، على أساس أن انقراض بعض مجموعات الكائنات الحية وتقدم وازدهار بعضها الاخر، يتوقف الى حد بعيد وفى التحليل الاخير على ملابسات عرضية محضة، وأنه ربما لن يغدو قادرين على التمييز بين ما يجرى وفق نسق معين وبين ما يحدث اتفاقا داخل عملية التطور الا عندما يكتشفون أشكالا للحياة على اكثر من عشر من الكواكب الاخرى فى الكون، فعندئذ فقط تصبح العينة ممثلة على حد

---

(1) A. Leroi-Gourhan
The Art of prehistoric Man in Western Europe. Thames and Hudson,London, 1967. Prehistoric Man. Philosophixal Library, N.Y. 1967 Treasures of Prehistoric Art. H.N.Abrams, N.Y.

قول الاحصائيين[1] يقول ملفانى :-

«وقد ذكرت انفا ان التجريب مستحيل فيما يتعلق بالتطور المزعوم المسمى الواسع المدى. واذا كان هذا مستحيلا وغير مقبول على الاطلاق، فمن المستحيل أن تجرى التجارب اذا ترجمنا عملية التطور الى لغة الحاسب الالكترونى. وقد اتيح لى منذ ثمانى سنوات خلت ان أشاهد سلسلة من التجارب قام بها [ف. ف. مينشوتكين] - وهو اخصائى فى بناء النماذج الرياضية للعمليات البيولوجية - وكانت تتصل بالحيوانات من شعبة المفصليات Arthropoda وشعبة الحبليات Chordata ووجدنا استحالة حدوث التطور وفق النمط الذى ذكره [داروين]».

● - حيث انه يوجد (صراع) من اجل البقاء بين الافراد ولما كانت هذه الافراد غير متشابهة تماما فستكون بعض الاختلافات مفيدة فى الصراع بعضها غير ملائمة الامر الذى يترتب عليه ان تبقى نسبة اعلى من الافراد - على قيد الحياة - التى توجد بها اختلافات ملائمة، بينما تموت او تنقرض نسبة اعلى من الافراد التى بها اختلافات غير ملائمة[2]. .

■ - **وعلى ضوء الاسس السابقة يمكن التوصل الى أن «داروين» أراد أن يقول :**

● - ان جميع افراد نوع (ما) من أنواع الحيوانات لا تتشابه تشابها تاما - فيما عدا التوائم المتشابهة - وانما لابد من وجود بعض الاختلافات الفردية. . والانسان (مثلا) لا تتشابه افراده تشابها تاما، اذ يوجد فيه الذكى والغبى والقبيح والوسيم والطويل والقصير وأبيض البشرة وأسمرها وأصغرها، ويرى «داروين» ان هذه الاختلافات البسيطة بين افراد (النوع) الواحد هى سبب عملية التطور فى الطبيعة، وتفترض نظرية التطور ان جميع الكائنات الحية التى كانت تعيش على الارض قد نشأت من اصل واحد او بضعة اصول، وان الثغرات المختلفة التى حدثت لها قد جعلتها تتحول

---

(1) D.J. Mulvaney
The Prehistory of Australia. Thames and Hudson, London, 1969.
(2) J. Napier
A Handbook of living primates. London Academic Press, 1967. The Origins of Man. MacGraw Hill, N.Y. 1969.
The Roots of Mankind. Smithsonian Institution Press, 1970.

من كائنـات بسيطة الـتركيب الى كائنات اخرى اكثر تعقيدا وقد قال بذلك [مايبه ولامارك واتيين جوفرسان].

■ ـ **وقد بدت منذ اللحظة الاولى اعتراضات [ثلاثة] على هذه الفرضية :ـ**

[اولا] :ـ عدم مشاهدة اى ارتقاء من اى نوع كان فى الاحياء الارضية منذ عهد الوف عديدة من السنين.

[ثانيا] :ـ عدم وجود الصور المتوسطة بين الانواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وادنى من الانسان رتبة واحدة[1].

[ثالثا] :ـ طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الاحياء.

■ ـ ولم تلبث النظرية ان اهتزت حتى ان البعض اعلن موتها ويرجع ذلك الى سببين هامين :ـ

١ ـ ان الداروينية كانت نظرية بحتة تتخذ الانتخاب الطبيعى لتفسير اى ظاهرة تطورية من غير حاجة الى دليل.

٢ ـ ان علم الوراثة كان قد اكتشف حينذاك ان التغير الفجائى او الطفرة حقيقة وان التغيير الوراثى يسير بقفزات واحيانا بقفزات واسعة وانه ـ اى التغير ـ ليس تدريجيا كما يقول دارون[2].

● ـ ان جميع الحيوانات والنباتات قادرة على التكاثر السريع فحيوان (البرامسيوم) مثـلا ـ وهـو حيوان اولى دقيق الحجم، مكون من خلية واحدة ـ يمكنه ان يتكاثر بالانقسام نحو ٦٠٠ مرة فى العام، ولو ظلت جميع الافراد الناتجة عن هذا الانقسام على قيد الحياة واستمرت فى عملية التكاثر بالانقسام، فانها بعد بضعة أشهر قد يصبح حجم تلك الكتلة الهـائلة من الافـراد اكـبر من حجم الكرة الارضية[3].. ومثال اخر. تضع انثى ذبابة الفاكهة حوالى ٢٠٠ بيضة مع أن دورة حياتها لا تزيد على (١٠ ـ ١٤ يوما).. وبناء على ذلك فانه ـ لو توفرت كل مقومات الحياة للبيض ـ فانه

---

(١) انور الجندى ـ سقوط نظرية داروين ـ دار الاعتصام ـ ص ١٤.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥.

(٣) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ـ ص ٤١.

خلال (٤٠ ـ ٥٠ يوما)، من الممكن أن يبلغ عدد الذباب ٢٠٠ مليون فرد. وفى عام واحد يمكن أن تغطى اسرابه قرص الشمس(١).

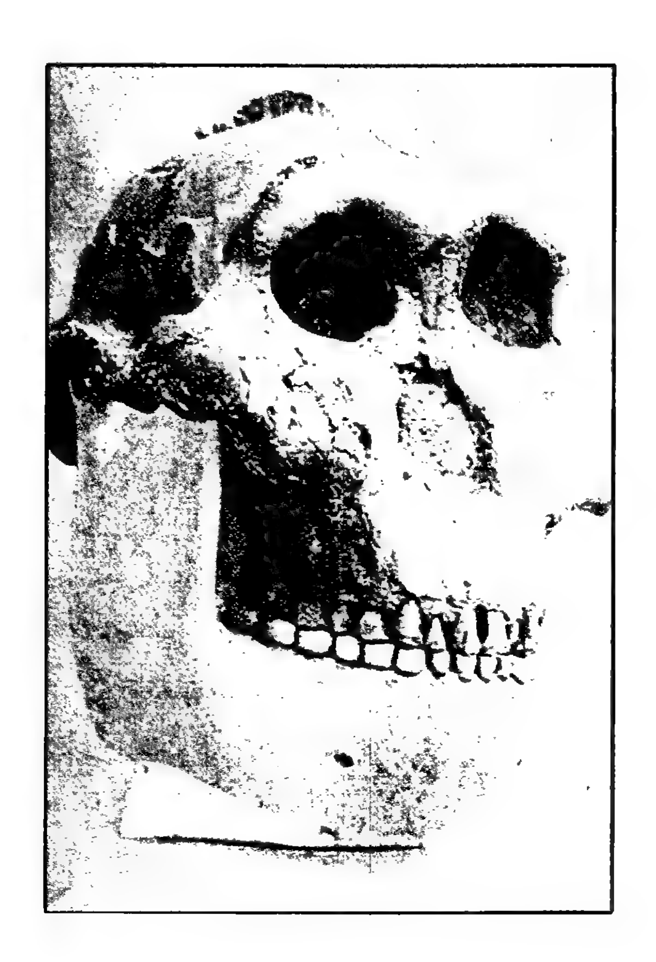
● ـ ان هذا العدد الهائل لا يتحقق بالطبع، ولا يظل مستمرا الى مالانهاية.. لماذا؟ لان فى (الطبيعة) خاصية الابقاء على (التوازن) بين جموع المخلوقات على الارض ويتحقق ذلك التوازن باندلاع الصراع من اجل البقاء(٢).

● ـ وهكذا نجد أن «داروين» قد بنى نظريته على أساس أن الافراد فى (النوع) الواحد تختلف فيما بينها بعض الاختلافات(٣)، وأن (الافراد) التى تتمتع باختلافات فى صالح النوع هى التى تكتسب لها البقاء فى اثناء عملية الصراع من اجل الحياة وهذه تنجب ذرية تتمتع بنفس صفاتها، ولقد سمى سبنسر [Spencer] هذه العملية بعملية بقاء الاصلح [Survival of the Fittest] وأن الانواع الضعيفة التى تفتقر الى الصفات الملائمة للحياة، تتعرض للانقراض. وببقاء (عناصر) ممتازة من المخلوقات على الارض قادرة على التكيف مع البيئة، تستمر عجلة (التطور) نحو الاحسن، وأن ذلك يساعد على (بقاء) حيوانات تتمتع بالقدرة على اكتساب تغيرات (تتلاءم) باستمرار مع اى ظروف طارئة تحدث للبيئة(٤).. وهكذا نجد ان كتاب «داروين» (اصل الانواع) قد اشتمل على مظم عناصر «النظرية التطورية» لكن ما تضمنه من امور تتعلق (بالانسان) كانت السبب وراء (الضجة) التى أحدثتها اراءه بخصوص «نشأة الانسان»..

■ ـ والواقع أن كتابات «داروين» لم تؤثر فى العلوم الطبيعية بنفس القوة ونفس العمق اللذين أثرت بهما فى التفكير الدينى والاجتماعى، ففى مجال الدين اعتبرت (النظرية) نوعا من التحدى السافر الصارخ للافكار والمعتقدات الدينية الراسخة المتوارثة بما آثارته من معارضة لفكرة الخلق التى تقوم عليها الاديان السماوية.. ففى سنة ١٨٧٤

---

(1) K.P. Oakley
Man the Tool-Maker. British Museum, London 1956.
(2) D.Pilbeam
The Evolution of Man. Thames and Hudson, London 1970. (3) J.E. Pfeiffer.
The Emergence of Man. Harper and Row, N.Y. 1969. (4) Greene, J.C. 1963: Darwin and the modern world view, Mentor, New York, PP. 17 - 43.



جمجمة انسان جاوة الذى عمرً جنوب شرقى آسيا منذ مليون سنة

[المصدر/ الفيصل ـ العدد (١١٤) ـ ص ٨٢.

أصدر «داروين» كتابا آخر بعنوان (أصل الانسان) خصصه بالذات لموضوع (التطور البشرى)[1].

■ . أهم ملامح نظرية التطور البشرى عند داروين

● ـ وضح فى هذا الكتاب [أصل الانسان] (ادعاء) «داروين» وجود صلة «قوية» بين الاسلاف المبكرين للانسان (والقردة العليا)[2]. . وقد رجح ان يكون هؤلاء (الاسلاف) من البشر الاوائل قد نشأوا فى افريقيا. . وقال بأن أوجه الشبه بين (الادميات) و(القرديات) اقوى وأشد منها بينهما وبين اى عائلة اخرى من (العائلات الرئيسية)[3].

ويقول [جين روستند] عضو الاكاديمية الفرنسية للعلوم وعميد علماء البيولوجيا الفرنسية بعد ان اطلع على مجموعة ابحاث ومراجع العلماء البيولوجيا البارزين، ان «نظرية التطور» التقليدية بمعناها الحرفى قد غدت الان شيئا ماضيا، وانه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة، كاصطفاء الطبيعة للجنس الاصلح لمجرد ان علماء البيولوجيا قد اخفقوا حتى الوقت الحاضر فى اثبات ما اذا كان بالمستطاع التأثير على تغير الاجناس او التحكم به او خلقه عن طريق العملية نفسها.

● ـ أوضح [داروين] عندما نشر افكاره عن تسلسل الانسان والتطور البشرى سنة ١٨٧٤ ان الغرض من تلك الافكار ينحصر فى النظر:

ـ فيما اذا كان (الانسان) كبقية الانواع الحية قد تسلسل من صورة كانت موجودة من قبل ثم انقرضت.

---

(1) Tax, Sol (ed), 1960: Evolution after Darwin Vol8 2. Chicago, P. 38.

(2) D.R. Belbeen, 1968: Human Origins, Advancement of Soience, PP. 368 - 378.

(٣) يقسم علماء الحيوان الثدييات الى عدد من (العائلات الرئيسية). . تعرف باسم الرتب Orders وتعرف الرتبة التى قال «داروين» بان الانسان ينتمى اليها باسم: الرئيسيات Primates وقال بان اقرب الانواع الاخرى اليه وهى القردة العليا والنسانيس والقردة شبه البشرية واسلافهم تنتمى الى هذه الرئيسيات، ويقسم العلماء الغربيون هذه العائلات (الرتب) الى ثمانية اقسام فرعية وقد اطلق بعضهم عليها اسم Hominids و Pogids وهما مصطلحان مرافقان الى حد كبير لكلمتى «قرد» و «انسان».

- فى الطريق التى سار فيها الانسان عبر مراحل (النشؤ والارتقاء والتحول) . .
- فى قيمة الفروق الحقيقية بين السلالات البشرية[1] .

● - ترك «داروين» مسألة [أصل الانسان] معلقة حين نشر كتابه (الأول) : «أصل الأنواع» . . ولكنه فى كتابه «اصل الانسان» عاد وقرر أنه لا داعى لاستثناء (الانسان) من تطبيق المذهب التطورى عليه، واعلن انه لا فرق بين الانسان والحيوان الا بالكم أو الدرجه فقط، وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من ادنى الفقاريات والقوى الفكرية لقرد من (القردة العليا، أكبر من المسافة بين القوى الفكرية فى القرد وبينها فى الانسان)[2] . .

■ - أين يكمن الخطر فى نظرية داروين؟

● - انتقلت فكـرة حيوانية الانسان من [داروين] إلى ماركس، وفرويد . . وهكذا انفصلت النهضـة الصنـاعية - بسبب افكـاره الهـدامة - وكذلك الكشف العلمى والحضـارة والاستعـار عن الـدين واتجهت الحضارة الى الاستهلاك . . وقامت على صناعة أدوات الزينة والترف والانحلال الخلقى والاباحية والفساد والربا . . ومزيد من الأرباح المحرمة تدخل أمبراطورية اليهود الخفية التى أضحت تحرك السياسة العالمية لمصلحتها الخاصة . .

● - رغم أن العلم قد شجب كثيراً من الفروض الداروينية وعارضها، وكشف عن فساد رأى الداروينية بحيوانية الانسان، وأعلن عن تفرد الانسان فى نوعه، وفى كيانه البيولوجى البحت، فضلاً عن كيانه النفسى والعقلى والروحى .

إلا أن الداروينيون المحدثون بتشجيع من يهود العالم استمروا يحملون معول الهدم لتدمير الأديان عامة والاسلام بصفة خاصة .

● - استفحال الخطر «الداروينى» حين قال داروين الفاسد الملحد :-

---

(١) اسماعيل مظهر - ملتقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء - المطبعة العصرية - بالفجالة سنة ١٩٢٤ ص ٢٨٦ .

(٢) يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - دار المعارف بمصر - سنة ١٩٦٢ - ٣٥٣ .

«الطبيعة تخلق كل شىء.. ولا حد لقدرتها»..

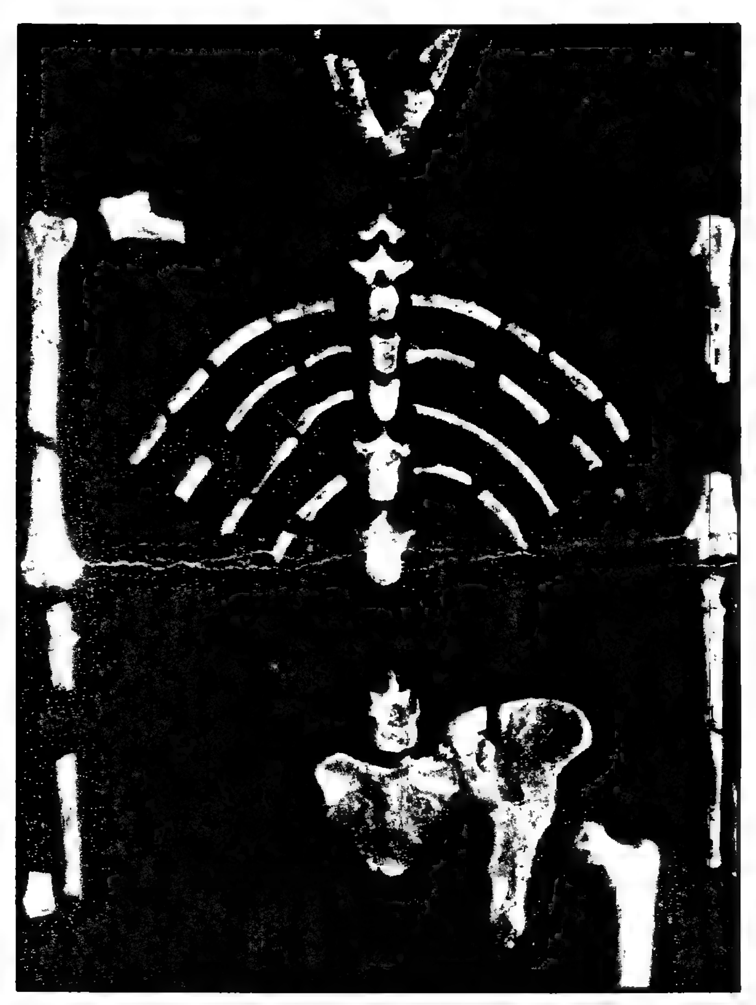
ونحن ننبه المسلمين فى كل مكان إلى أن «الفكر الداروينى» يمثل حلقة رهيبة تربط بين النشوء والارتقاء، وبين الفلسفة المادية التى يقوم بها رجال من الصهيونية التلمودية.

● ـ سقوط القناع عن مخطط بروتوكولات صهيون الرهيب... بعد أن عرفنا ما ورد بها، ونصه كالآتى :ـ

«لقد عرفنا كيف ننشر آراء [داروين] على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين، لقد رتبنا نجاح [داروين] وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم»..!!!

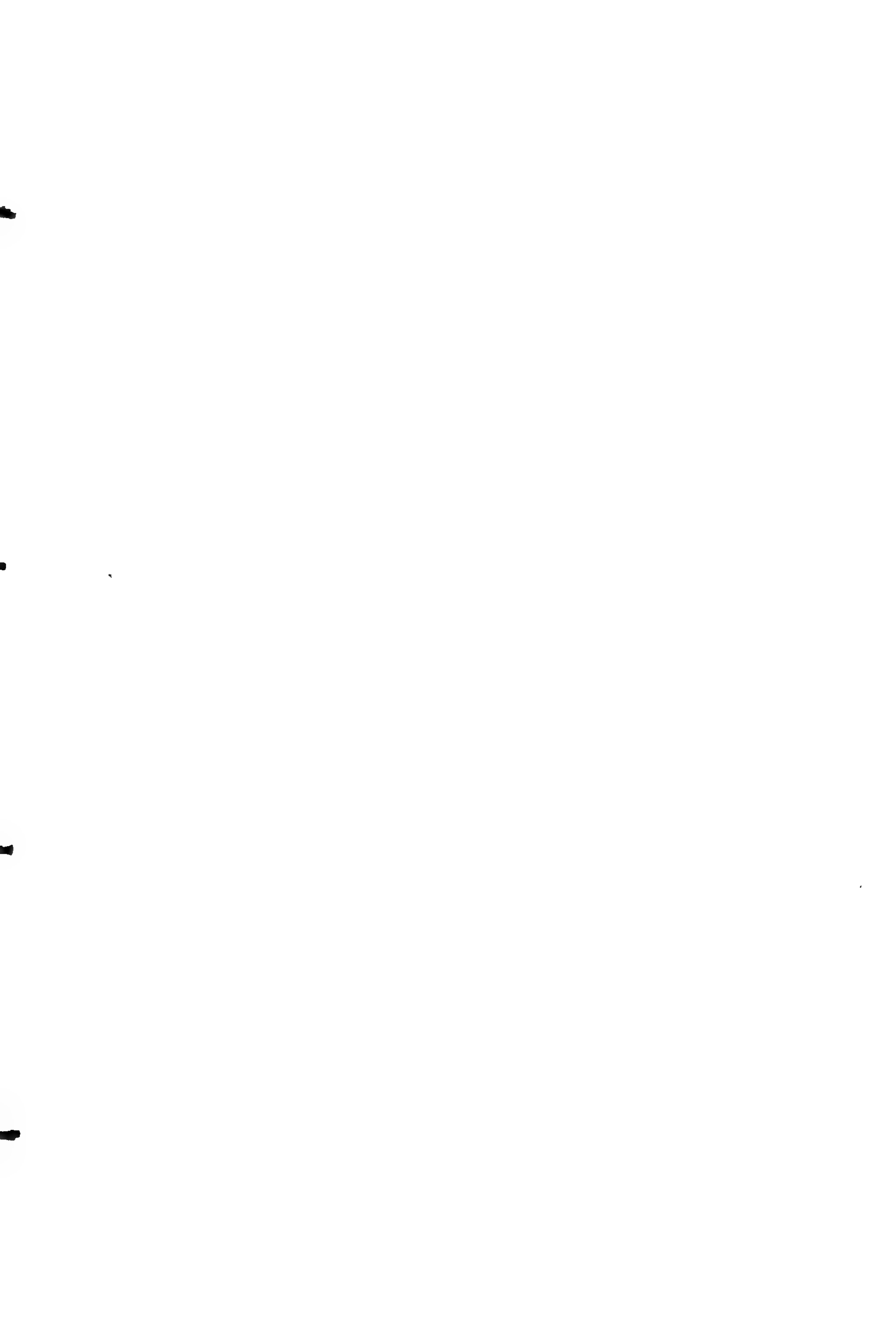
● ـ عدم اكتفاء الطاقم التلمودى بالترويج للأفكار الداروينية، . بل تخطى ذلك إلى اتخاذ العلم سبلاً وأهواء رهيبة لهدم مقررات الدين، وانكار الأسرة وتحطيمها، ووصف الأخلاق.. بأنها نسبية وأنها انعكاس للوضع الاقتصادى، وأن الزواج والدين ليسا من الفطرة.. وأن للمرأة أن تحقق كيانها تحقيقاً جنسياً خالصاً من أى قيد..

■ ـ وهكذا دخلت المفاهيم الداروينية الصهيونية المشتركة حياة الشعوب وأصبح شعارها : الشسهوات أولاً وأخيراً.. وكان تطور حركة السينما والقصة والعرى والأزياء فى الاتجاه الانحلالى الاباحى الهدام نتيجة طبيعية لتغلغل تلك المفاهيم الداروينية الهدامة فى نخاع الشعوب.



جزء من هيكل عظمى لفتاة من زنوج اتحاد جنوب افريقيا

عمره الزمنى ـ كما يقول العلماء فى متحف الانسان بباريس ـ ٣ مليون سنة ـ يشهد بالاختلاف التام بين عظام البشر وعظام القردة. ويؤكد على استقلال النشأة لكل منهما. وتلك أدلة أخرى على سقوط فرضية «داروين» المشئومة.



الفصل السابع
الداروينيون المحدثون والرد الاسلامى على افتراءاتهم

- ● ـ روبرت ليرمان ونظريته الفاسدة عن الانسان القرد .
- ● ـ ليرمان وحفريات النسانيس .
- ● ـ هويلز ونظرية التطور .
- ● ـ إنسان نياندرتال .
- ● ـ نظرية [أصل السلالات] عند كارلتوزن كون .
- ● ـ أصل الانسان فى نظرية ليكى .
- ● ـ الملامح البشرية لانسان جاوزة والصين عند ليكى .
- ● ـ أصل الاجناس البشرية حسب المفهوم الحضارى للانسان فى علم الجغرافية التاريخية .
- ● ـ دور الجغرافية التاريخية فى الكشف عن أنماط التحضر البشرى فى العصور البائدة .
- ● ـ إنسان ما قبل الطوفان وأنماط التحضر القديمة .
- ● ـ علم ما قبل التاريخ يهدم نظرية داروين .
- ● ـ نظرية التوازى وأصل الأجناس البشرية عند جون نابير.
- ● ـ جون نابير والانسان الحاذق .
- ● ـ ياكيموف وتطور الانسان .
- ● ـ نظرية التطور وتفسيرها لظاهرة [إنسان بكين] .
- ● ـ إنسان سيفا نثروبيس .
- ● ـ نشأة اللغات عند الإنسان حسب المفهوم الداروينى .
- ● ـ المهارات الفنية عند الأجناس البشرية القديمة .
- ● ـ وقفة لابد منها .
- ● ـ الذين مهدوا الطريق لداروين .
- ● ـ الخلفية التاريخية للنسيج التطورى ومخاطره على سلامة البشرية .

- ● واندهمت نظرية [لامارك] التطورية .
- ● أصل الأجناس البشرية حسب مفهوم النظرية التركيبية عند «بولك» .
- ● الرد العلمى على تخريف [آرثركيت] .
- ● هكسلى وكتابه «معرفة الظواهر الحية» .
- ● ملامح الفكر الداروينى عند جورج كوفييه .
- ● المؤشرات النهائية لآراء الداروينيين الملحدين .

الفصل السابع

الداروينيون المحدثون
والرد الاسلامى على افتراءاتهم

■ - روبرت ليرمان ونظريته الفاسدة عن الانسان القرد

[من تخريفات الداروينية ما قاله «روبرت ليرمان» :-

منذ ان عرفت اسلافنا من الرئيسيات كان الشغل الشاغل لعلماء الجنس البشرى محاولة التوصل الى معرفة «متى و أين» اصبح الانسان القرد انسانا حديثا][1]. وقوله أيضا :-

● - «والافتراض الذى كان شائعا هو أن جماعة صغيرة من [الاناس - القردة] قامت بالتغير الاساسى فى مكان ما وفى زمن ما، بان انشأت دماغا اكبر فاصبح لها الامكانات اللازمة لان تسير فى طريق الحضارة قدما، غير انه مع تقدمنا فى فهم الطرق المتبعة فى نشأة الانواع الجديدة فى الطبيعة، اتضح لنا، الى حد كبير، ان التطور لا يحدث بمثل هذه الطريقة، وان البحث عن سلف واحد هو بحث لا معنى له ولا جدوى منه». وقوله :-

[وتقدم لنا نظرية «الاختيار الطبيعى»[2] كثيرا من الايضاحات، فهى تفسر لنا كيف يمكن ان يؤدى الاختلاف الفردى داخل «النوع» الواحد مع مرور الزمن والى التغير فى النوع بأكمله. فقد رأينا أن قسوة البيئة وصعوبة الحياة فيها مدعاة الى نقص تكاثر الافراد التى تقل عن غيرها ملاءمة لظروف الحياة الخارجية، فى حين ان تكاثر

---

(١) Human Origins - المرجع السابق - ترجمة فاروق مصطفى اسماعيل - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع ص ١٠٧٠. - وكذلك: اصل الانواع - شارليس داروين - ترجمة اسماعيل مظهر جزءا - دار العصور للطباعة - سنة ١٩٢٨ص ٣: ١٧. وكذلك.

(٢) روبرت ل. ليرمان - المرجع السابق ص ١٩٥.

الافراد الذين يتميزون بملاءمتهم للبيئة يؤدى الى تقدم مستمر فى ملاءمة «النوع» بأكمله لهذه البيئة. وعلى هذا الاساس يمكننا أن نفسر الكثير من الحقائق فى موضوعى الملاءمة والفناء. ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد. فلو أن الاختيار الطبيعى كان العامل الاوحد فى الميدان لكانت الحياة على ظهر الارض قد اندثرت منذ زمن بعيد][1].

ولعلنا نذكر كيف حاول «داروين» فى كتابه الثانى (اصل الانسان) أو (سلالة الانسان) ان يطبق مبدأ الانتخاب الطبيعى «ومبدأ الانتخاب الجنسى Sexual Sele-ction على التطور البيولوجى.. ومع ان «داروين» كان يدرك اهمية قوى الانسان وملكاته العقلية والاجتماعية بالنسبة لتطوره وارتقائه، فانه كان يرى فى الوقت نفسه أنه مس الخطأ ان نغفل او نتجاهل او حتى نقلل من اهمية بنائه الجسمى فى تحقيق ذلك التطور والارتقاء، بل انه يعزو كثيرا مما اصابه الانسان من نجاح خلال تاريخ تطوره الطويل الى بعض الخصائص الجسمية التى ينفرد بها الانسان عن غيره من الكائنات، بما فى ذلك القردة العليا مثل حرية استخدام الاذرع والايدى، التى ساعد عليها ما تميز به الانسان من القدرة على الوقوف منتصب القامة على ساقين اثنتين، وكان يعتقد بان اى اختلاف فى مجال القدرات الذهنية والانفعالية بل والجماعية بين الانسان والكائنات الحية الاخرى، هو اختلاف فى الدرجة وليس اختلافا فى (النوع).

■ **ومن صور الشطط والتخريف «الداروينى» ما قاله روبرت ليرمان:**

«وعندما هبطت القردة العليا من الاشجار فى العصر الاوليجوسينى كان الطريق أمامها متشعبا الى شعبتين، فسارت فى الشعبة المؤدية الى الانسان واجهها من اعداء أقوياء وطعام شحيح، وذلك بالاستعاضة بالتعاون الفكرى عن القوة الوحشية وكانت حياة أسلافها التى تعتمد التنقل فوق الاشجار فى مجموعات صغيرة قد قوت عيونها وأيديها وعقولها الى درجة كافية مهدت للتقدم نحو هذا النوع الجديد من الحياة ومن الصعب تصور احتفاظ مثل هذا المخلوق الضعيف بحياته مالم يكن قد توصل فعلا الى مصدر جديد للقوة، وهذا المصدر لا يمكن أن يكون سوى قوة الجماعة، فيساعد الأفراد بعضهم فى الصيد ثم يشتركون فى اقتسام الفريسة».

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ١٩٦.

● ـ ثم يكشف ليرمان عن وجهه الداروينى القبيح صراحة فيقول :ـ

. . «والقردة العليا جميعا، وكذلك كثير من المخلوقات الاخرى تعيش فى جماعات ، ولكن نوعا واحدا من المخلوقات دون غيره هو الذى توصل الى بلوغ الدرجة الانسانية . وقد سار التطور فى العادات التى رفعت الانسان الى الدرجة الانسانية جنبا الى جنب مع تطور جسم الانسان فالقرد ـ الانسان الافريقى ، والاسترالويثيكاس لم يُنْشِئَا القوام المعتدل والفك الصغير فحسب، بل لقد قاما ايضا بالخطوة الاولى فى طريق الوصول الى الرقى البشرى، الا وهى استعمال الأدوات . وكانت هذه المخلوقات تصنع من فرع شجرة مكسور أو صخرة كبيرة أو اجزاء صغيرة مما تلتقطه من حولها أدوات تيسر لها القيام بأنواع كثيرة من النشاط تعجز عنها اليد وحدها» . (١)

■ ـ **ويكفى أن نلمس شطط «ليرمان» وبعده عن الخط العلمى حين نجده يقول عن الانسان،** [انه مخلوق ما يزال هو نفسه شديد الشبه بالنسناس . ومع ذلك فقد كانت ذريته تتطور باستمرار فى اتجاه مغاير «ونحن متأكدون تماما من ان لدينا الفكوك الحفرية لهذا المخلوق واسمه «رامابيتيكس» (وهو اسم رومانتيكى لاله الهند «راما»). الذى ـ عاش منذ نحو اربعة عشر مليون سنة . وقصة معرفتنا اياه قصة ممتعة .

لقد تحققنا يوما أن الانسان، قد نشأ بهذه الطريقة، من الحيوانات الى النسانيس فى ناحية، والينا نحن فى الناحية الاخرى . وبعد ظهور كتاب داروين «أصل الانواع» كان من المتعين قبول التطور (بما فى ذلك تطور الانسان) . وقد بين «توماس هكسلى» فى الحال كيف أننا نشبه النسانيس العظام فى كل شىء . وقد قال فى الحقيقة أنها أى النسانيس ـ أقرب الينا من القردة] .

وقال أيضا :ـ

[وقد أدى ذلك إلى كثير من النكات الشعبية، وعدم الارتياح أو الفزع عند الخاصة، وقد ووجهت هذه الفكرة بمعارضة، سواء من العلماء أو من غيرهم ولكن الان وبعد مئة سنة فان كل الدراسات التشريحية مثل دراسة التركيب الجزئى للبروتينات ـ التى نمت فى وقت حديث جدا ـ قد دلت فى الايجابية اكثر على ان «هكسلى» كان على صواب . وفى الحق اننا نستطيع ان نذهب خطوة أبعد من

(١) المرجع نفسه ـ ص ١٩٦ .

«هكسلى»، ونقول أن نسانيس أفريقيا والغوريلا والشمبانزى اكثر قرابة للانسان من قرابة أى من الثلاثة الى «اورانج تان اندونيسيا».

وقد اشار بعض علماء التشريح بعد «هكساى» الى ان النسانيس مهيأة جميعا للتعلق بالاذرعة أو التأرجح بها. وهذه طريقة حسية ومأمونة، يتحرك بوساطتها حيوان كبير بين الاشجار. وقد أشاروا كذلك الى اكتافنا العريضة، وصدورنا المستوية العريضة، والى تفاصيل مفاصل المعصم، والكوع، وترتيب العضلات ويقولون أن اسلافنا كانوا كذلك مهيأين لدرجة كبيرة من التفرع وحياة التنقل بين الاشجار، وتلك كانت حجة أخرى للتدليل على قرابتنا للنسانيس[1].

وهنا أيضا عارض «علماء تشريح» آخرون هذه الفكرة قائلين» أن أوجه الشبه ليست واضحة تماما، ولعلها نشأت موائمة للنسانيس، وقد فضل هؤلاء العلماء أن يفكروا فى خط سلفى تطورى، ومنفصل عن النسانيس أو حتى عن القرود، وأن يكون ذلك منذ زمن بعيد ويبدو أنه كان هناك دائما فى خلفية التفكير رفض لا شعورى لقرابتنا من الشمبانزى من أناس - ينظرون اليها على أنها حيوانات دون أن يلاحظوا كبر أدمغتها وذكاءها]..

● - **ومما يدل على تطرف [ليرمان] وفساد عقله، قوله :-**

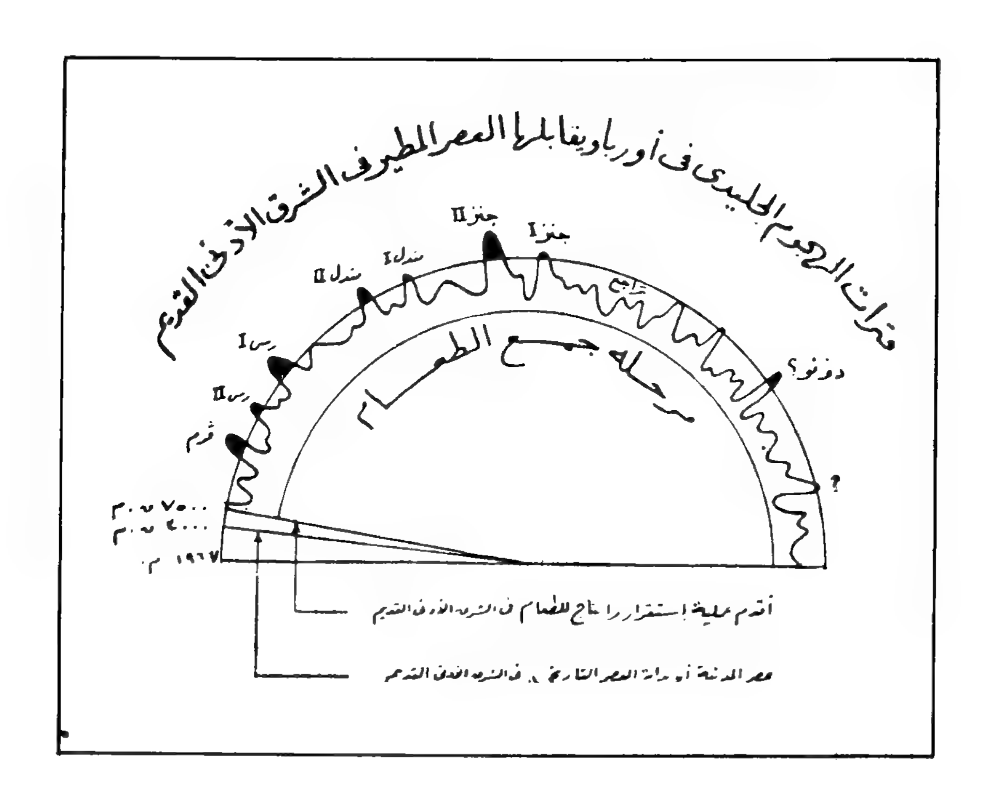
[ومن حججهم اننا حقيقة نقف منتصبين، وأن اقدامنا مختلفة جدا عن اقدام النسانيس. وان فكوكنا مختلفة وخاصة بالنسبة لما يسمى بأنياب العين فى الفك الاعلى، وكيف انها لا تبرز فوق الاسنان الاخرى بوضوح كما فى النسانيس وهل من الجائز أن تكون هذه الاسنان الكبيرة قد تطورت الى اسنان صغيرة وهل يمكن أن تكون القدم شبيهة اليد فى النسناس، قد تطورت الى قدم بشرية فى الانسان؟..

على أن هذه الصعوبات ليست كبيرة كما يبدو أحيانا. فان مثل هذه التغيرات إنما هى اشياء عادية فى تطور الحيوانات، حيث تتضاءل الاسنان أو تنعدم، حيث تتحور

---

(١) المرجع السابق - ص ١٩٧ نقلا عن :-

The Origin of Homo Sapiens Proceedings of the Unesco Paris Symposium, Sept. 1969 Edited by F. Bordes, Unesco, Paris, 1972



رسم يوضح زحف وتراجع الجليد والمطر، وعصور جمع وانتاج الطعام وبداية العصر التاريخي

الاطراف بطرق عنيفة . وفضلا عن ذلك لا ينبغى لنا أن نحاول تصوير سلفنا المشترك كما لو كان من «الشمبانزى» أو «الغوريلا» ، فان هذه الحيوانات كانت تتطور، وبتقدم الدراسات وتوافر الحقائق صار معظم علماء الانثرويولوجيا مقتنعين بأن أسلافنا قد تنقلوا بين الاشجار كالنسانيس الافريقية التى تعيش فعلا على ارض الغابة أكثر من تنقلها بين الاشجار.

وأخيرا لفتت حفريات الفكوك لسلف النسناس «دريوبثيكس» الانظار الى التشابه العجيب بين الاضراس عندنا وعند النسانيس، ومع أن العينة الاولى قد وجدت فى فرنسا سنة ١٨٥٦ ، فقد تبين فى اوائل هذا القرن أن مثل هذه الشظايا قد كشفت فى اعداد كبيرة فى حفريات من عصر الميوسين وعصر البليوسين، وفى حدود زمن مضى يقدر بما بين عشرين مليونا وثمانية ملايين من الأعوام]!!!

ليرمان وحفريات النسانيس

يقول ليرمان : «ثم وجدت حفريات فى جهات أخرى من أوربا ومن الهند. وأخيرا من شرق افـريقيا وجورجيا بالاتحاد السوفيتى والصين. وبهذا كله أصبحت الأدلة حول تبيان صلتنا بالنسانيس أوثق وأحكم . لقد كان واضحا أن «دريويثيكس» سلف النسانيس الكبيرة، وأن بقاياه منتشرة انتشارا كبيرا حتى اننا لا نكاد نتوقع أن تؤدى مجموعة حفريات جديدة فى المستقبل الى تأكيد سرعة تطورنا عنها[(١)] . »

● - **ويقول أيضـا** :-

* [وهناك حفرية هامة لنسناس ايطاليا وشرق أفريقيا هو «أوريويثيكس» الذى عاش فى العصر الـذى عرف منـذ سنـوات قلائل، ولكن بينما يبدو شكل جسمه شبيها بالشمبانزى، ويبدى تكيفا مماثلا للمعيشة بين الاشجار فأن أسنانه مختلفة عن أسنان الشمبانزى، ويبدى تكيفا مماثلا للمعيشة بين الاشجار فأن أسنانه مختلفة عن أسنان الشمبانزى وعن اسناننا كذلك، وهى حقيقة تزيد فى أرتباطنا بتسلسلنا من نسانيس أفريقيا][(٢)].

---

(1) Valcamonica International Symposium on Prehistoric Art, 1968.
Published by the Centro Camuno di Studi Preisitorici in cooperation With Unesco, 1970
(Papers in English, French, Italian, Spanish or German)
(2) Ibid., PP. 123 - 137

■ ـ ويواصل [روبرت ـ ل ـ ليبرمان] تخريفه قائلا :ـ

«فـالتـطور ينتـج ، كما رأينـا ، عن توازن بين انتـاج طفـرات جديدة مما يزيد الاختلافات بين الأفراد ، وبين ضغط الاختيار الطبيعى الذى ينقصها الى درجة ينشأ عنها ازدياد الملاءمة . ويتوقف اثر هذين العاملين فى احداث التغيرات الى حد كبير على حجم تعداد السكان وعلى تقسيمهم إلى أقسام أقل تعداداً .

● ثم يقول :ـ

ولنناقش أثر كل من هذين العاملين على نوعنا .

● ـ «ان الحقائق المتميزة فى حياة البشر هى تحكم الانسان فى البيئة وقدرته على استغـلال التراث الثقافى المتراكم على مر الاجيال فى الابقاء على حياته ونجاحه فى المعيشة فى ظروف وأحوال مختلفة أوسع درجات الاختلاف . وهذا يعنى أن الاختيار الـطبيعى ضعيف الأثر فى نغيير الانسان . وترجع جدارة البشر أساسا إلى التعاون الفكرى، لا الى هذا العضو أو ذاك . وعليه فان تغير المناخ أو الطعام لا يسبب إبادة ـ الأفراد بلا هوادة ولا رحمة كما يحدث لسائر الحيوانات . وقد تكون بعض الاختلافات بين السـلالات ذات قيمة بالنسبة للملاءمة البيئية، كما هى الحال فى أسوداد لون البشرة فى سكان المناطق الاستوائية، ولكن هذه الاختلافات لا تحول بين الفرد وبين المعيشة الناجحة حيثما أراد وزيادة على ذلك فان تراثنا الثقافى والحضارى الذى يسير قدما بخطى حثيثة يشمل العناية الطبية التى تتقدم تقدما سريعا، والتى أدت بدورها إلى إنقاص أثر الاختيار الطبيعى . بل إنها، على النقيض من ذلك الاختيار وأثره، تشجيع بقـاء الكثـيرين ممن لا يصلحـون للبقـاء فى بيئة أو مجتمع ينقصه الاطباء والمستشفيات . وهكذا أصبحت قاعدة «بقاء الاصلح» قليلة الأثر فى تحديد مستقبل الجنس البشرى . ويستنتج مما ذكـرناه أنه مهما كان من أمر التطور الذى ستمر به سلالاتنا، فان الزيادة فى الملاءمة للبيئة لن تكون جزءا منه .

أمـا أثر الطفرات فى مستقبل البشر فأمر صعب التقدير وذلك لقلة ما لدينا من معلومات عنها . فالطفرات تظهر وكأنها حوادث عشوائية وليدة مصادفات محضة ، أو قل كأنها حركات قرود لا معنى لها» . !!!

هويلز ونظرية التطور

■ **ومن أنصار الداروينية البرفيسور «وليم هويلز» الذى كتب كثيرا عن أصل الانسان ومن أبرز أبحاثه بحث عن الانسان المنتصب القامة ومراحل (تطوره) ومما قاله فى هذا البحث:ـ**

[أما الاسباب التى من اجلها أصبحنا من ذوى القدمين فهى بعيدة عن الوضوح، وأن كان كثير منها كان متوقعا. ونحن حتى الان لا نستطيع أن نجرى بسرعة، على حين أن «الغورلا» يستطيع أن يجرى بسرعة مستعينا برسغ يديه. ومع ذلك فنحن نستطيع أن نقطع مسافات ـ طويلة فى الصيد، ولكن هل كانت ثنائيات الأقدام تستطيع ذلك ولعل حمل الطعام بين الاذرع الى مكان آمين لتناوله قد شجع على انتصاب القامة. ولعلنا فى حياتنا الشجرية ـ تحولنا نحو القامة المستقيمة المنتصبة كما فعلت «النسانيس»، ولكن ليس كما فى «النسانيس»، فان الجذع الثقيل والأذرع الطويلة شجعت على دفع بعض ثقلنا على أذرعنا، وربما بفعل عدد من مثل هذه العوامل مجتمعة ـ لا نستطيع أن نجزم ـ فكنا على قدمين منذ نحو خمسة ملايين عام، مع تغيرات هامة ماتزال تجرى فى العظم الحرقفى والقدمين، لجعل مثل هذا النوع من المشى أكثر فاعلية فالاسترالويشس أو الانسان استراليا، هو بلا شك سلفنا فى ذلك الوقت وليس هناك احتمال لاى جد أعلى آخر، ومرة اخرى يثور الجدل حول طريق التطور. ويعتقد البعض أنه كان هناك نوع واحد متغير من استرالوبيشس، لا خطان متمايزان وكان يفترض فيما مضى أن هناك حد مخيفا، أنه مخ سحرى كبير يصل حجمه الى نحو ٧٥٠ سم٣، دونه لا يمكن للسلف أن يتطور الى انسان.

ولكن الأدوات الحجرية البسيطة، التى يزيد عمرها على أكثر من مليونين من السنين. قد وجدت قرب بحيرة «رودلف» فى شرق افريقيا ويرجح أن صانعها هو إنسان استراليا القديم، حيث لم يعرف أن انسانا أكثر تقدما كان قد وجد بعد. وكان مخ هذا الانسان ليس أكبر من مخ الشمبانزى. فهذه الادوات الحجرية لم تنتظر الانسان ليصنعها، ومن المعتقد أن هذه الادوات قد ساعدت انسان استراليا ليكون إنسانا بالعمل على ضبط الميزات التطورية للأيدى الماهرة والادمغة الكبيرة.

وعلى أى حال كانت الخطوة الثانية الكبرى هى نشأة الانسان المنتصب «هومواركش» ولعل مظهره ـ منذ نحو مليون سنة قبل الميلاد تجعل الفرق بينه وبين إنسان استراليا (استرالوبثيكس) اكثر وضوحا وان جنس «هومو» ليوضح الفروق ومميزات المجموعة الجديدة. وكثيرا ما نتكلم عن الانسان المنتصب، على أنه أول إنسان حقيقى، ولكنه ليس واضحا، ان كان هذا التعبير قد تحقق مفهومه، اذ أن كثيرا من آثاره كانت موجودة فعلا لدى انسان استراليا، الذى كان يضع أدوات فى عصر سابق.

هؤلاء الاناس، يجب أن يكون لهم مظهر أكثر شبها بنا فى حجم الجسم وفى السمات العامة للهيكل، لقد كانوا مثلنا تماما، كذلك بدت الرأس بشرية اكثر، بوجه اصغر، وفكوك يعلوها صندوق الدماغ وكان هذا الصندوق غليظا، وغدا حجم الدماغ فى منتصف الطريق بين استرالوبيكس وبين الانسان الحديث[1]].

■ ـ **وكان مما قاله أيضا:**

[أول انسان منتصب القامة هو انسان «يافا» الشهير (وقد سمى أصلا ببثيكا ثرويس) فى سنة ١٨٩١. لقد احدث كشفه انفجارا علميا، لقد كان أول إنسان بدائى حقيقى، يقع فى دائرة الضوء. وحتى مكتشفه ظن انه نسناس أشجار كبير (وقد كشف أخيرا خمسة نماذج من جمجمته) حتى كشف انسان بكين فى شمال الصين. ولكن الانسان المنتصب القامة يعد الان من شرق وشمال افريقيا وهنغاريا (فيرتزولوس) والمانيا (فك هيدلبرج).

وأن معلوماتنا لقليلة عن الانتقال الى الانسان المنتصب القامة وأين كان؟ هل كانت إفريقيا وآسيا هى الوطن الأول للأنسان ولكن هذا قد لا يهم، وربما وصل رامابثيكس إلى الهند من افريقيا منذ عشرة ملايين سنة على الاقل، وبعد ذلك لابد أنه كان من أشباه الانسان فى كلتا القارتين فى طور استرالوبثيكس وقد حدث أن بقاياه قد وجد أغلبها فى افريقيا فى مواضع ملائمة مثل «أولوفاى جورج».

(1) Catalogue of Reproductions of Paintings prior to 1860, 9th ed. (pages 354 to 361 on prahistoric art) Unesco 1972.

ولـديـنـا بعض اقـتراحات قليلة لتفسير ما يمكن أن يكون قد حدث، يبدو أن البارانثرويس الكبير الفك لم يتغير مطلقا خلال ثلاثة ملايين سنة أو أكثر وقد استخرج منـه قطعتين أو ثلاث من الفـك، تنتمى الى العصر الـذى أعتقـد فيه «بروم» و «روبنس» منذ عشرين عاما أنه يختلف عن بارانثرويس وانه اكثر تقدما فى الشكل. وقـد عمـدوه بأسم «تيلانثروبس» ولو أن روبنس قرر أخيرا أن الاجزاء تنتمى الى الانسـان المنتصب القـامة وعلى أى حال كان يوجد اثنان من اشباه الانسان معا، احـدهمـا «بـرانثـرويس» والاخر نوع أكثر تقدما. وهكذا توجد حجة قوية للوجود الحقيقى لشكلين فى الوقت نفسه[1]].

■ ـ ومما قالـه أيضـا:

[ومنذ سنوات قليلة وبضربة حظ سحرية، كان ثلاثة رجال يفحصون هذا الشدف وغيرها من المجموعات فى بريتوريا، عندما لاحظوا الحواف المكسورة التى يمكن أن تتكامل بعضها مع بعض لتكون قطعا أكبر مما لو لم يكن قد لوحظ قبلا.

وكان فى استطاعتهم أن يصلوا الفك العلوى للنيلانثروبس لاكثر ما يمكن من الوجه كمنطقة الاذن وجزء من الجبهة (وأقول أن علم الحفريات ليس مجرد النظر الى شواطىء الانهار) وقـد كون ذلك أغلب الوجه، ومقدمة الجمجمة، فيكون الفك السفلى لتيلانثروبس ملائما ومكملا تماما، وكان كل ذلك مما ايده بقوة أنه «هومو» ربما كان أقوى من ذى قبل، وأن بدا صغيرا فى الحجم جدا.

وفى ذلك الوقت تقريبا وجدت مسز «ليكى» جمجمة صغيرة متهشمة فى المستويات الدنيا من «أولد فاى جورج» تحت زنجانتروبس المشهور (نوع من بارانثروبس)، وأرخ بأقـل من مليونـين من السنـين وكـان ذلك آخر وأحدث مثل لهذه المكتشفات من «أولدفاى» وكلها سميت «هومو هابليس» (سماها «ليكى» وزملاؤه) ولو أنها مهشمة ولكن كان واضحا أنها ليست بارانثروبس، فجماجمها أعلى، وفكوكها أصغر، واقترح الكثيرون أن يكون الشكل أو الصورة من إفريقيا الجنوبية «لاسترالوبيثيكس» وبعد جهود مضنية ركبت أجزاء الجمجمة الجديدة بعضها مع بعض].

(1) F. Bordes.
The Old Stone Age. Weidenfeld and Nivholdon, London 1968. Mac Graw Hill, N.Y., 1968.

● ـ **أما رأى البروفيسور [وليم هويلز] فيما يسمى انسان نياندرتال فيتلخص فيما يقوله فى بحثه عن: «بيولوجيا الانسان». ومما قاله :ـ**

«أن جمجمة انسان نياندرتال استثنائية فعلا، انها طويلة جدا ومنخفضة، بعظمة حاجب متصلة وبارزة عبر مقدم الرأس، تحتوى على أكياس هوائية كبيرة ولكن مناسيب الجمجمة ليست مثل تلك التى «لهومو أركتس» والدماغ فى حجم دماغنا على الاقل.

وكذلك كان وجه انسان نياندرتال متميزا، فهو طويل، بارز بروزا حادا الى الامام فى خط الوسط من قمة الانف فنازلا. ولو لم يكن أنفه عريضا لقلنا أنه ذو وجه نحيل طويل، ولكن الانسان الحديث ذا الوجه النحيل الطويل موطنه شمال أوربا، أما إنسان نياندرتال أوربا فانه قصير وسمين».

ـ وأعتقد أن الشطط الداروينى الحقير واضح فى كل حرف قاله «وليم هويلز» ولن نعلق على تخريفه فى هذا الموضع من الكتاب، وسيأتى تعليق كامل على كل آراء الداروينين المحدثين فى الفصل الثامن.

■ ـ **ومما قاله أيضا:**

[أن الجدل بين البدائية والاثرية لم يستمر طويلا فنحن نعرف اليوم أن انسان نياندرتال قد سكن أوربا فى العصر الجليدى الثالث الوسيط ومعظم العصر الجليدى الرابع (ربما فيما بين ١٥٠,٠٠٠، ٣٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد)، وأنه صانع الأدوات الحجرية التى كانت متقدمة جدا من الناحية التقنية. وقد حجبت هذه الادوات ما صنعه انسان عصر الباليلوليثى العلوى حيث صنعت من رقائق شبيهة بالصفائح وأستعملها انسان «كروماجنون» مع غيرها من أدوات.

والان، ومنذ مئة عام، تتوالى اكتشافات هياكل انسان نياندرتال الاوربى التى أعطت فكرة عن شخصه الكلاسيكى، ويقال أنه انقرض فجأة فيما يبدو منذ نحو ٣٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وظهر الانسان الحديث وان كان غليظا، وهو فى الحقيقة يشبه الأوربين المحدثين.]

● . انسـان نياندرتـال

يقول «هويلز» :ـ

[قد بينت صفات الانسان النياندرتالى بوضوح وبساطة لكى أبدأ المقارنة . لقد كان فى شمال افريقيا انسان آخر شبه نياندرتالى ، اكثر حداثة وان فقد بروز وجه الأوربيين ثم تبعـه انسـان حديث، قوى البنية، يظهـر انه جاء من الشرق فى الوقت نفسه (٣٥,٠٠٠ سنة ق . م) وربما قبل ذلك أما الشرق الادنى فأنه ادعى لجدل اكثر فثمة اناس لهم وجوه كوجوه انسان نياندرتال وخصائصه وُجِدوا فى بواكير العصر الجليدى الـرابـع مزودين بأدوات موستـيرية . ولكن جماجمهم ليست كلاسيكية كالاوربيين ، وبعضهم كانوا فائقى الطول مثل انسان «عمود» لبنى اسرائيل الذى وجده المكتشفون اليابانيون] .

ـ ثم يقول :ـ

[. . أما الاسكتلنديون والاسكيمو فهم الذين يمكن أن يقرنوا الى هذا النياندرتالى فى الحجم . .

وقد انتهى الجدل ، سواء كان النياندرتال قد وجد فى أوربا أو فى أى جهة أخرى . فقد حل محل غزاة لهم طرق بالبيولوثية جديدة فى صنع الادوات فى وقت قصير (آلاف قليلة من السنين) وقد تطور النياندرتالى الى انسان حديث فى المواقع المذكورة ، سواء فيى اشغاله الحجرية ، أو فى وسائله التقنية الجديدة] .

ومما قالـه أيضـا :

«أنها حجة معقدة بنيت فى بعض اجزائها على فروض واعتقد أنها متأثرة فى بعضها البعض الأخر بتحركات الافكار العلمية ، شأنها شأن الحجج القديمة . . وبالرغم من كل ما هو معروف فان طرق اقناع الخصوم لم تكن ميسرة . فبعض الأركيولوجيين يؤكد تطور صناعة الادوات وبعضهم الاخر يؤمنون بأنه كان يوجد موستيريون أحياء ، لديهم الحضارة البيريجوردية للعصر الباليوليثى الاعلى فى فرنسا ، ولكنهم يرون فجوة

بينها وبين الحضارة الاوريجانيسية، ولها تقنية مغايرة فى صناعة الادوات، وثراء فى أدوات التزين، لم تكن معروفة قبلا، ويقولون أن هذا شىء جديد تماما ودخيل، ولا يتخيلون انه تطور حضارى بسيط». ثم قال:-

. . «وكذلك لا يستطيع بعض علماء الانثروبولوجيا أن يتخيلوا تطورا بيولوجيا سريعا، يوجد وجها وجمجمة حديثة من انسان نياندرتال فى بضعة الآف سنة. وآخرون يداخلهم الشك فى قصر المدة ويؤكدون التدرج بين نياندرتال والانسان الحديث، وخاصة فى الشرق».

ثم يقول:-

. . «هؤلاء العلماء يصنعون صورة بسيطة للتاريخ البشرى، ويزعمون أنه كان هناك طور نياندرتال فى كل مكان، وأن تطور الانسان بدأ فى العصر الجليدى، هذه النظرة الرحيبة تفترض انه كان هناك انسان نياندرتال فى كل مكان فى الدنيا القديمة، كما كان مؤكدا وجوده فى أوربا وعلى حدودها». .

● . نظرية أصل السلالات عند كارلتون كون

■ - للاستاذ «كارلتون كون» كتاب مشهور عن اصل السلاسلات، عرض فيه نظرية أخرى أبعد من أن تكون كهذه التى ذكرناها لهويلز، وهى أن السلالات الحديثة ظهرت فى اجزاء مختلفة من الدنيا القديمة، وليس من طور نياندرتال مُفرد أو من سكان نياندرتاليين، ولكن من سلالات مختلفة من انسان منتصب القامة، كان موجودا فعلا فى هذه البقاع.

وهنا تنشأ صعوبات، لان النظرية لم تضف شيئا هاما أهمله العلماء الاخرون بوجود انواع اخرى من انسان العصر الجليدى، مثل انسان «سولو» من يافا. ثم ان اصطلاح [سلالات] مرفوض رفضاً قاطعاً لأن البشر جميعاً ينتمون لسلالة واحدة لآدم خلقها الله سبحانه وتعالى من طين.

وأنسان «بروكن هل» (انسان روديسيا) من جنوب افريقيا به بعض سمات قامة انسان نياندرتالى، ولكنه فى الحقيقة مختلف تماما وهو أقل شهرة. انها مكتشفات أو

حقائق ما يزال من الصعب تقبلها أو تعليلها، فأنسان «سولو» وان يكن زامن انسان نياندرتال، فأن جمجمته أغلظ وهو بالطبع انسان منتصب القامة، فى أحسن صورة.

وهناك فصل ختامى لكل ما تقدم، ما الذى نعرفه عن الانسان الحديث نفسه، ان الأجناس المعاصرة مختلفة جدا، بعضها له جلد أسود جدا، وبعضها له شعر أشقر. والبعض الآخر ضيق العينين، أما عن هيئة الجمجمة (وهذه نستطيع مقارنتها بالانسان القديم) فأوجه الشبه بينهما كبيرة، مع وجه أصغر، وصندوق الدماغ أعلى وأضيق، وهذا استنتاجى الخاص بعد أن فحصت جماجم من جميع انحاء الأرض، وأعتقد كما يعتقد كثير من الزملاء انها جميعا يجب ان يكون لها أصل مشترك ولكن اين ومتى؟. لا نعرف.. ولكن ما نعرفه جيداً أنها تنتمى لآدم أبى البشر أجمعين.

ويرى كارلتون.. وهو أقل الداروينيين المحدثيين تطرفاً ـ أنه خارج أوربا يلاحظ اختفاء انسان نياندرتال، لأن الاثار الباقية قليلة نادرة، ومع ذلك فهناك مكتشفات عجيبة تدل على ان الانسان المفكر من نوعنا قد عاش فى كل مكان فى آسيا وأفريقيا فى العصر الذى عاش فيه انسان نياندرتال الأوربى. ويقول:ـ

«وأنهم ليختلفون عن هؤلاء النياندرتاليين [المتطورين] الذين تحدثت عنهم، فثمة عدد من الهياكل من جبل قفرة فى فلسطين ليس لها تاريخ بالكربون المشع، ولكنها استخرجت من كهوف حيث الادوات والتربة تدل على انها عاشت فى العصر الجليدى الأخير، ربما منذ ٤٠,٠٠٠ عام».

**** وجدير بالذكر هنا أن نؤكد فساد آراء البروفيسور وليم هويلز وعدم صحتها فى مسألة ارتباط الانسان بأسلاف من القردة القدامى، وسنضع الأدلة العلمية على ذلك فى فصل قادم. وكذلك فساد آراء كارلتون فى تعدد السلالات التى ينتمى اليها البشر.**

أصل الانسان فى نظرية «ليكى»

■ **ومن أنصار «الداروينية» البروفيسور لويس س. ب. ليكى[1]».**

الذى قضى وزوجته قرابة ثلاثين عاما ينقبان عن بقايا الانسان القديم فى قيعان بحيرات ما قبل التاريخ فى شرق أفريقيا.

وقد كان اعتقاد هذا العالم أن انسان بكين لا يمثل أقدم سلالة من سلالات البشر بل يمثل انسانا متحضرا عاش فى الكهوف واستخدم النار وصنع لنفسه أسلحة بدائية، **ومما قاله عن رحلاته فى [أفريقيا]**:-

«تبرز أفريقيا اليوم فى قصة تطور أجداد الانسان المباشرين، وكذا أقرب ابناء عمومته اليه - أى القردة العليا - وعلى الرغم من أن هذا المقال لا يهتم اساسا الا بالشطر الأخير من القصة، الذى يبدأ منذ حوالى ثلاثة ملايين سنة، الا أنه لابد أن يناقش فى البداية وبأيجاز مكتشفات العصر الميوسينى الذى استهل منذ حوالى عشرين أو خمس وعشرين مليون سنة مضت.

وقد أجترأ [دارون] منذ اكثر من مئة سنة على ان يتنبأ بأنه سوف يتضح ذات يوم أن الانسان قد نشأ أصلا فى أفريقيا، فلم يصدقه الا القليل ولم تظهر الدلالات الاولى على أن أفريقيا تضم أقدم الحفريات الخاصة بالكائنات الرئيسية الا فى عام **١٩٢٤**.

● وتبدأ القصة بأكتشاف وقع عليه الدكتور هـ. ل. جوردون الذى كان يقطن كورو بكينيا ويزاول الزراعة الى جانب بعض فروع مهنة الطب. ولما كان منذ نشأته مهتما بعلم الحيوان فقد بدأ يلاحظ أنه بعد الفراغ من حرث الارض فى مزرعته وهطول الأمطار التى تغسل التربة، تتبدى للأنظار أجزاء من عظام وأسنان متحجرة، ومن

---

(١) لويس س. ب. ليكى: من بريطانيا، طبقت شهرته الأفاق بسبب اكتشافاته الحفرية فى شرق أفريقيا، حيث استهل أول أبحاثه فى عام **١٩٢٦** عندما كان فى الثالثة والعشرين، - وكرس لهذا العمل حياته كلها. وقد وقع على أعظم اكتشافاته فى أخدود أولدوفاى بتنزانيا. ويشغل الان منصب المدير الفخرى للمتحف القومى المركزى للأحافير لما قبل التاريخ بنيروبى (كينيا) ويعمل استاذا «غير متفرغ» للتشريح بجامعة نيروبى. وقد أصدر عدة كتب ودراسات ضمنها ابحاثه وتنقيباته فى ماضى الانسان بأفريقيا وأسهم الدكتور ليكى فى حلقة الدراسات الدولية التى تنظمها اليونسكو عام **١٩٦٩** فى باريس فى موضوع أصل الانسان العاقل (هومو سابينز).

أنظر بحثه: أجدادنا الافريقيون - اليونسكو - العدد ١٣٦ - ص ٢٤.

ثم شرع يجمع هذه الحفريات وعهد بها الى السيد أ. ج. ويلاند مدير التخطيط الجيولوجي فى أوغندا. والى شخص فى نيروبى عام ١٩٢٦ وأدرك الجميع أن الدكتور جوردون قد وقع على اكتشاف شديد الأهمية. وهكذا بدأت سلسلة طويلة من الاكتشافات بفضل تلك الصدفة التى أتت بطبيب يمارس الزراعة فى تلك الرقعة الحساسة .

● ومنذ ذلك الحين، كشف شرق افريقيا عن مجموعة هائلة من الحفريات التى تنتمى الى عصرى الميوسين الاعلى والأدنى، من بينها أكثر من خمسمائة حفرية تمثل القردة العليا، وكذا نماذج من الانسان الأول.

وجرى أكتشاف هام أخر فى عام ١٩٢٤ نفسه فى «تونج» بجنوب افريقيا، اذ أحضر طالب عينة من حفرية سلمها لاستاذه فى التشريح بمدرسة الطب بجوهانسبرج، وادعى ان هذه الحفرية هى أول اكتشاف لشبيه الانسان الاسترالوبيثيسين (الرجل القرد الجنوبى) وعلى ذلك كان عام ١٩٢٤ فترة هامة بالنسبة الى القارة الافريقية وتعاقبت الاكتشافات سريعة ووفيرة. ولكن البروفيسور [ليكى] استغلها أبشع استغلال لتأكيد الآراء الداروينية الساقطة، وما يؤكد ذلك المنهج الهدام فى اكتشافات [ليكى] قوله :-

«وفى أوائل العصر الميوسينى كان شرق افريقيا يسكنه عدد من أنماط الرئيسيات العليا، ومن بينها مخلوقات شبيهة بالقردة الحقيقية، كالنوع المسمى «بروكنسل أفريكانس» - وكان يعتبر فى وقت من الأوقات من أجداد الانسان المباشرين - وكذا أنماط من اسلاف الغوريلا والشمبانزى والجيبون، قد تكون من اسلاف الأورانج أوتان .

وعاش مع هذه القردة التى انقرضت فى شرق افريقيا، فى تلك الحقبة السحيقة، نوع من القردة اطلق عليه اسم كينيا بيثيكوس أفريكانس (قرد كينيا الأفريقى)، اعتبرتُه كما اعتَبَره الكثير من زملائى من الاسلاف المباشرين للانسان وشبيه الانسان .

هذا الرأى لا يلقى تأييدا من الكافة، ولكن حجته قوية. وعلى أية حال فأن قرد كينيا الأفريقى أشد شبها بأسلاف الانسان من سائر الرئيسيات التى كانت معاصرة له والتى ذكرناها آنفا[1]». . !!

---

(١) المرجع نفسه - ص ٢٥ .

● ـ ثم يقول ليكى :ـ

«وفى عصر الميوسين الأعلى، منذ حوالى اثنى عشر مليونا من السنين، ظهرت حجة قاطعـة فى شرق أفـريقيا. ففى فورت تيرنـان، فى كينيا وجدنا حفريات لنمط من الانسان الأول المسمى «كينيا بيثيكوس ويكرى» تشبه بقاياه القرد الهندى «راما بيثكوس»!!!.

■ ـ وليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألوف من السنين، ولكن المحقق أن إيغالها الى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن، أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء.

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه بقاياه، كان يستخدم الآلات الحجرية، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآله ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للارادة فى حالات المشى والوقوف، ولولا ذلك لما استطاع الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لاصابة الحيوانات الضارية من بعيد.

لأنه الانسان الذى كرمه الله وخلقه فى أحسن صورة، وأكمل تكوين..

ونحن نستنكر ما تبجح به [ليكى] من مغالطات علمية عن أصل الانسان..

وشد ما أدهشنى أنه يحجم عن تأكيد انتماء الانسان للقردة العليا أحياناً ثم يعود مرة أخرى ليهدم آراءه المعتدلة من أساسها..

■ **فقد وصف البروفيسور «ليكى» الانسان القرد قائلا:**

[أن الثابت فى الوقت الحاضر أن عينات الكينيا بيثيكوس ويكيرى تمثل مخلوقا من المخلوقات العليا الرئيسية يملك عددا كبيرا من الصفات البشرية ويقر الجميع أنه مخلوق بشرى أو شبه بشرى. وليس من فصيلة القردة الكبيرة (أو الاورانج أوتان)[1].

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٢٤.

ولا يملك الكينيا بيثيكوس ويكبرى فقط صفات بدنية كالأنياب الصغيرة والقواطع الشبيهة بالجاروف والفك المستدير؛ ، والوجه القصير، وكلها من صفات البشر، ولكنه كان فوق ذلك يستخدم الحجارة ليهشم بها جماجم الظباء وعظام الاطراف ويستخرج منها المخ والنخاع . ونجد البرهان على ذلك فى عظام وجماجم بها كسور غائرة وحجر واحد يثبت أنه استخدم لتهشيم العظام . وبعبارة أخرى فان سلفا واحدا فى كينيا ينتمى الى عصر الميوسين الأعلى، منذ حوالى ١٢ مليون سنة، كان وقتئذ يمد نطاق غذائه الى أبعد من دائرة الثمار النباتية، ليشمل البروتينات الحيوانية[١] .

ومن الراجح أن هذا التوسع فى دائرة الموارد الغذائية هو الذى ساعد نسل الكينيا بيثيكوس على الاتصال الدائم بأسباب الحياة الدنيا، فى حين انقرض فى هذه الحقبة البروكنسل والكثير من الرئيسيات . ومع أنه ليس فى الامكان الجزم بأن كينيا بيثيكوس ويكبرى هو سلف الانسان العاقل (هومو سابينز)، الا أنه يبدو من الراجح أنه يمثل الأرومة التى تفرغ منها كل اجناس الانسان أو شبيه الانسان[٢] .

وفى غضون بعثتى الأثرية الثالثة فى شرق أفريقيا، عام **١٩٣١** ، حصلنا على بقايا عظم فك متحجر بدرجة شديدة فى كانام وست على شواطىء خليج كافيروندو ببحيرة فيكتـوريا بكينيا، وكانت العينة متعدنة بدرجة كبيرة ومستخرجة من رواسب عصر البليستوسين الأدنى ، كما برهن على ذلك مجموعة حيوانات البيئة، وقد أصابها تلف شديد قبـل أن تطمـر فى الـرواسب التى وجـدت فيهـا . , وكانت حافتها السفلى منفصلة، . وقد أطلقت عليه اسم «هوموكانامنسيز» (أى انسان كانام)، وأوضحت فيما بعد أن بها أوجه شبه كثيرة بالانسان العاقل «هومو سابينز» ورفض زملائى ، فيما عدا القليل، أن يسلموا بأن هذه العينة تنتمى الى عصر البليستوسين الادنى ، ولكنى لم أتراجع فى رأيى لأنى كنت مؤمنا بأنه صحيح ومعقول[٣] .

وخـلال هذه البعثة الأثرية الثالثة فى شرق أفريقيا، عام **١٩٣١**، أكتشفت أنا وزملائى آثاراً مهمة لثقافة العصر الحجرى المبكر] . (٤)

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٢٥ .
(٢) المرجع نفسه ـ ص ٢٦ .
(٣) المرجع نفسه ـ ص ٢٧ .
(٤) المرجع نفسه ـ ص ٢٨ .

■ **وقد بالغ «ليكى» فى [شططه وتخريفه] حين أدعى بوجود أدلة على انتهاء انسان تجانيقا الى القردة، فقد قال فى ذلك:**

وعلى ذلك فهناك برهان ساطع من كينيا على وجود شكل من جنس الانسان (هومو) ينتمى الى عصر البايستوسين الادنى، ومعاصر لأنواع قردة الجنوب التى كانت تعيش فى تلك الحقبة.

وتؤدى بنا هذه الحقائق بصورة حتمية الى مناقشة موضوع قردة الجنوب بصورة عامة موجزة، فما زالت معظم الكتب الدراسية الموجودة تضع جنس الاسترالوبيثيكوس و (بما فيه انسان الزنج، وشبيه الانسان) وغيرهما من الانماط المقارنة لهما) على خط الوراثة المباشر لجنس الانسان العاقل ولكن هذا الرأى لم يعد يلقى سندا.

وليس من شك بطبيعة الحال فى أن قرد الجنوب والانسان ينحدران من جد مشترك فى موضع ما من الدرج (الزمنى) الممتد من عصر البليستوسين الادنى، ولكن هذا الجد المشترك لم يظهر بعد. ومع ذلك فان فكرة وجود نوع قوى من قردة الجنوب يتمتع بسمات شديدة فى عصر البايستوسيين الأدنى منذ حوالى مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين من السنوات معاصرا للانسان، تهدم تماما النظرية التى تقول بأن قرد الجنوب هو جدنا المباشر. فلو اكتشف أصل مشترك قد تفرغ منه هذان النمطان من الجنس البشرى لوجدنا به على الأرجح بعض صفات النمطين ولكنه لابد أن يكون متميزا عن كل منهما.

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أنه يوجد رواسب بشرقى بحيرة رودلف تنتمى الى عصر البليستوسين الأدنى كشفت عن العديد من أنماط الجنس البشرى أدوات حجرية شديدة الشبه بالأدوات الثلاثة التى وجدت فى الوضع نفسه عند «كانام وست» مع فك كانام. وقد نوهت بهذه الأمور فى كتابى الذى صدر بعنوان «أجناس العصر الحجرى فى كينيا» وتدل المعلومات الأولى التى نشرت عن الادوات التى وجدت فى شرق بحيرة رودلف دلالة واضحة على أن الجنس البشرى كان يضع نماذج مختلفة من الأدوات الحجرية خلال عصر البليستوسين الأدنى فى تلك المنطقة.

وعثرنا فى أخدود أولد وفاى على دليل أقوى - يرجع الى عهد يقل بقليل عن مليونى سنة مضت - من أصل الجنس البشرى، وبالتالى أصل الانسان العاقل ففى سنة

١٩٥٩ اكتشفنا فى الحوض رقم ١ جمجمة فى حالة جيدة من الحفظ، لقرد جنوبى سميناه «انسان الزنج بويزى»، (ونج انثريوس بويزى). وفى الوقت الذى تم فيه هذا الاكتشاف لم يكن بالحوض رقم ١ هذا أية مخلفات لكائنات شبه آدمية معروفة، فى حين اننا كنا نملك فى هذه الرواسب دلالات كثيرة على ثقافة العصر الحجرى المعروفة بأسم «اولدوان»]. **ثم قال**:ـ

[وهكذا فأنه على الرغم من التسليم بأن «انسان الزنج» هو من انواع القردة الجنوبية من حيث هيئته البدنية، الا أنه يمكن وصفه بأنه «انسان» حسب التعريف الشائع فى ذلك الحين عن الانسان بأنه «صانع الأدوات» وبعد أشهر قليلة أكتشفت أولى الحفريات الجزئية لما يعرف الان بأسم «هومو هابيليس» (الانسان الحاذق) فى رواسب تنتمى الى الحقبة التى ينتمى اليها انسان الزنج، ويشترك النوعان فى ثقافة واحدة، ثقافة أولدوان. ومن ذلك الحين وجدت نماذج أخرى من هذا النمط من الكائن الشبيه بالانسان فى أولدوفاى كتب عنها فى مجلة «الطبيعة» وغيرها من المجلات، اذ كان واضحا أنها تخص الجنس البشرى الذى كان يعيش فى عصر البيليستوسين الأدنى]. . !!!

الملامح البشرية لانسان جاوة والصين عند «ليكى»

يرى ليكى أنه ليس ثمة شك فى أن الهيئة العامة للأنسان «الحاذق» أقرب شبها للانسان «العاقل» من حيث التجويف المخى على الاقل من سائر البقايا المتحجرة للانسان المنتصب القامة «هومو آريكتس» وهو النوع المنقرض من المخلوقات الشبية بالانسان التى وجدت أولا فى جاوة والصين ثم فى أفريقيا فى رواسب عصر البليستوسين الأوسط[1].

● **ـ يقول ليكى فى ذلك**:ـ

. . «ويبدو أنه لا ريب فى وجود الانسان «الحاذق» على الخط الذى يؤدى مباشرة الى الانسان «العاقل» والارجح أن الفرع الذى انتهى بالانسان المنتصب القامة قد

---

١) المرجع نفسه ـ ص ٢٦.

تشعب من الانسان «الحاذق» منذ عصر البليستوسين الأدنى على الأقل، بالنظر الى وجوده بالشرق الأقصى كنوع متميز تماما فى عصر البليستوسين الأوسط.

وثمة اكتشاف عرضى آخر عظيم الأهمية جرى فى عام ١٩٦١. فقد تم العثور على بقايا النوع الانسانى الذى كان فى جاوة والصين، ولكنه أقدم بضعفين من الزمان فى أفريقيا منه فى الشرق الأقصى. وتمثلت الصدفة هذه المرة فى خطأ وقع فيه أحد أتباعى. فذات يوم عاد الجيولوجى الذى كان يعمل معى الى المخيم ومعه مسودة خريطة لرقعة معينة فى الاخدود، ونظرت الى الخريطة وقلت له: «ولكنك أسقطت أخدودا جانبيا ضيقا» فأجاب: كلا لم أفعل «فقلت»، أسف، بل أنت فعلت، تعالى معى فى صباح الغد وسوف أريك. وعندما وصلنا الى الأخدود الطويل الملىء بعض الشىء بالحشائش والأيكات، وأضطر الى التسليم بخطئه، نظرت خلفى الى الموضع المقام عليه مخيمنا، فأبصرت فجأة على الجانب البعيد من الاخدود ساحة صغيرة للغاية تضم حفريات مكشوفة، كانت هذه الساحة على الجانب الشمالى من اللسان الأرضى الذى يفصل الأخدود الرئيسى عن الأخاديد الجانبية][1].. ثم يقول:-

[وعلى الرغم من أنى قد جبت أولدوفاى سيرا على الأقدام منذ عام ١٩٣١، فأنى أدركت للتو واللحظة انى لم أطأ هذه البقعة الصغيرة المكشوفة من قبل. ولو لم يقع من جانب تلميذى هذا الخطأ الذى ألزمى العودة الى هذه البقعة لما كنت قد أبصرت هذه الحفريات التى لا تراها العين الا من هذه الناحية فقط، وما أن عدنا الى المخيم حتى انطلقت ثانية راجعا إلى الأخدود حيث الموضع الذى يضم الحفريات المنعزلة وبينما كنت شاخصا اليها كدت أطأ بقدمى جمجمة بشرية متحجرة، نصفها عار فى الهواء. وكانت هذه أول جمجمة للانسان المنتصب القامة من أولادفاى].

■ - ويبدو الاتجاه الداروينى المضلل مرة أخرى فى آراء [ليكى] حول أصل الأجناس البشرية إذ نجده هنا يستنكر الرأى القائل بانتهاء الانسان إلى أصول بشرية منتصبة القامة متكاملة الخلقة ويظهر ذلك فى قوله: [ويقودنا هذا الامر حتما الى جدل حول الرأى المكتوب فى الكتب الدراسية يقول ان الانسان «المنتصب القامة» هو الجد

---

(١) المرجع نفسه - ص ٢٨.

المباشر للانسان العاقل. هذا الرأى أيضا لم يعد فى الامكان الأخذ به بصورة جدية للاسباب الأتية :ـ

● ـ شكل تجويف المخ فى كل انواع الانسان «المنتصب القامة» يختلف تماما عن نظيره لدى الانسان العاقل، حين أن تجويف المخ لدى الانسان «الحاذق» ـ وهو أقدم بكثير من الانسان المنتصب القامة ـ كثير الشبه بنظيره لدى الانسان العاقل، كما ذكرنا من قبل.

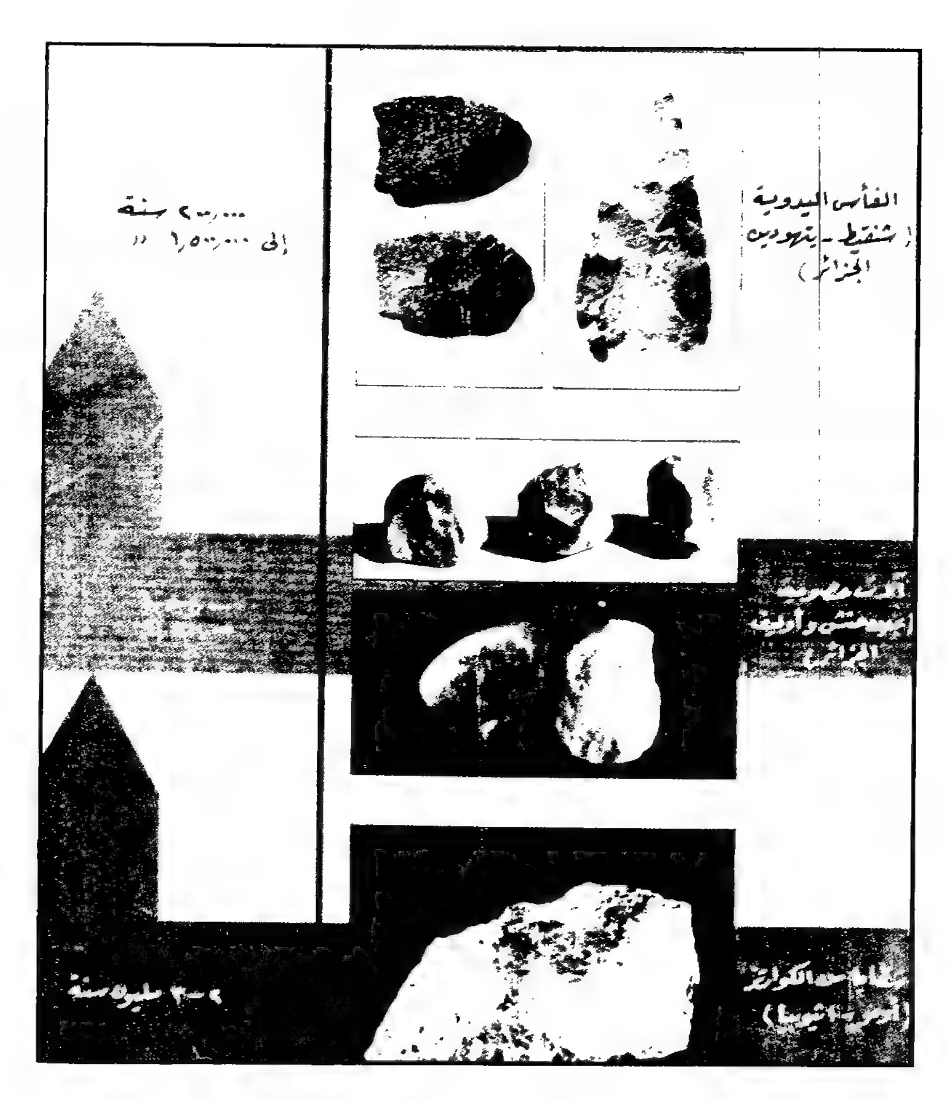
● ـ ويتصف الانسان المنتصب القامة بعدد كبير من الصفات الشديدة التميز الموجودة فى الانواع التى كانت تعيش فى أفريقيا والشرق الاقصى فى حين يملك الانسان «الحاذق» قدرا أكبر من السمات العامة التى يتصف بها الانسان «العاقل».

● ـ أما عظم الحوض لدى الانسان المنتصب القامة، التى وجدت فى أخدود أولدوفاى واذيع نبأها أخيرا، وكذا عظم الفخذ المتصل به فإنهما على وجه اليقين من نمط مخالف لنظيريهما لدى الانسان «العاقل» وهناك شك يحوم حول عظمة ساق «ترينيل» وحقيقة أنتمائها الى الانسان المنتصب القامة].

■ ـ ثم يعود «ليكى» إلى تعقله واعتداله فى فرضياته حول الأصول البشرية للانسان القديم، فيقول :ـ

● ـ وليس هناك اليوم مجال للشك فى وجود الانسان «العاقل» فى عصر البليستوسين الأوسط فى كل من أوربا وأفريقيا. وهذه حقيقة سلم بها المؤتمر الذى انعقد عام ١٩٦٩ فى باريس تحت رعاية اليونسكو. وبحث فى أصل الانسان العاقل، إذ أقر الجميع بأن بعض العينات كالجماجم المستخرجة من كانجيرا، وسوانز كومب، وعينات كبيش الجديدة من جنوب أثيوبيا تمثل الانسان «العاقل» فى صورة بدائية، ولكنها تختص به بصورة واضحة والواقع أن هذا النوع البشرى كان موجودا فى عصر البليستوسين الأوسط فى بقاع تمتد حتى سوانز كومب فى انجلترا وكانجيرا فى كينيا ـ ومن الواضح أذن أن هناك نمطا قديما للانسان «العاقل» كان موجودا بالتأكيد فى رواسب أقدم عهدا.

وفى عام ١٩٣٢ عندما تم العثور على أجزاء من جماجم كانجيرا فى رواسب تنتمى الى عصر البليستوسين الأوسط، ومعها بلطات يدوية نبذت هذه الاشياء، مثلما نبذ



أدوات من العصر الحجرى القديم الأعلى

وما قبل البليسوسين تدل على وجود

الانسان مستقلاً وعدم انحداره من القردة العليا كما زعم المخرفون

من الداروينيين المحدثين.

فك كانام الأقدم منها، ووضعت كلها فيما سمى «بالكشف المعلق». وعندما وصفت جمجمة سوانز كومب هى أيضا فى عام ١٩٣٦ بأنها تخص الانسان «العاقل» رفضت لأنها كانت تبدو موغلة فى القدم بالنسبة الى هذا النوع من الجنس البشرى. غير أنه عندما تم فى عام ١٩٦٧ اكتشاف جماجم كبيش بجنوب أثيوبيا، بدأ مفهوم جديد فى التاريخ القديم للانسان العاقل يتبلور ويصبح مقبولا لدى الجميع.]

أصل الأجناس البشرية

حسب المفهوم الحضارى للانسان فى علم الجغرافية التاريخية

■ - عصر ما قبل التاريخ ومخلفات الانسان القديم.

عصر ما قبل التاريخ فرع جديد نسبيا من فروع العلم وأن تاريخ اهتمام الانسان بحل الالغاز المحيطة بنشأته ليرجع الى فجر التاريخ(١). وقد اعتمد الانسان فى بحثه القديم عن الحقيقة على ثروة خيالية، ولذلك تزخر الخرافات والأساطير عند كثير من الشعوب بقصص غريبة اخترعها الناس لتفسير بدء الخليقة.(٢)

ومما لا شك فيه أن ظهور الانسان، وبه كل المكونات والخصائص البيولوجية التى أهلته أن يكون سيد المخلوقات على الأرض، كان انقلابا حضاريا ومؤشراً جديداً لعصر جديد على سطح الأرض. واليوم يحاول الانسان بالعلم فرض أرادته على عوامل البيئة الطبيعية، بعد أن كان يتعامل معها بحذر وداخل حدود ضيقة قبل العصور الحجرية الاولى.

ولا يخفى ان الله سبحانه وتعالى هو الذى منح الانسان تلك القدرات العقلية المذهلة [ومنها قدراته على التذكر والتفكير فى غير المحسوسات] وكذلك قدرته على

---

(1) I. Comas
Racial Myths, Unesco, 1968.
Manual of Physical Anthropology. Charles C.Thomas, Springfield. Mass.
(2) Ibid., PP. 181-193.

النطق بكلمات تنقل شفاهة [ومن بعد كتابة] . . وهى ضمن مظاهر التكريم الالهى للانسان .

ولما كان من دأب الانسان ان يسعى الى الأفضل محاولاً فى سبيل ذلك التغلب على كل صعب، فإن تراث الانسانية أخذ ينمو ويثرى على مر الزمن. ان الانسان هو المخلوق الوحيد الذى استطاع ان يرث ويورث الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان .

ونظراً لقلة ما نعثر عليه تحت سطح الأرض من آثار وأنماط التحضر البشرى فى العصور القديمة ، مقارنا بما نجده فوق السطح ، فان الأثار الفوقية تنفع فى الاستدلال إذا ما طبقنا عليها طرق الاثبات العلمى ، وهى طرق تحتاج منا إلى صبر وأناة ودقة متناهية ، فهى الدليل الذى فى أيدينا على تكريم الله سبحانه وتعالى للانسان وتفضيله على خلق كثير من خلق الله .

وقد ترك الانسان القديم من آلاف آلاف السنين ما يدل على ذلك التكريم ، وهى أدلة مادية تبرهن على الانسانية الصانعة الفنانة التى كانت تستوطن جهات مختلفة من العالم القديم .

وقد رتب العلماء حضارات الانسان القديم حسب أعمارها التى أمكن الاستدلال عليها بالطرق الجيولوجية الطباقية المعروفة ، كما رتبت حسب طريقة تشكيلها والنمط الذى يصور طريقة استخدام الانسان لموارد البيئة آنذاك .

وقد اتفق علماء [ما قبل التاريخ] على تقسيم هذه الحضارات الى حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل، وتشمل حضارة الشل وألاشل (بمراتبها المختلفة)، وحضارة العصر الحجرى القديم الأوسط وتسمى الحضارة الليفالوازية والحضارة الموستيرية، وحضارة العصر الحجرى القديم الأعلى وتشمل الحضارة الاورينياسية والحضارة السولترية والحضارة المجدلينية .

ولولا تكريم الله للانسان لما استطاع أن يترك لنا بصماته الحضارية من آلاف الآلاف من السنين، ففى الحديث القدسي :-

«ابن آدم خلقتك لنفسى وخلقت كل شىء لك» . . وكرمه سبحانه وتعالى بان أنزل إليه وعليه كتبه وارسل اليه رسله وخاطبه وكلمه . .

● ـ حقا ان للانسان شأن آخر ليس لسائر المخلوقات . . .
فلماذا لا يكون الانسان لربه ساجداً شكورا؟ . .

وقد ظل الانسان ـ على مر الزمن ـ يبحث عن تفسير عقلى لأصوله الحضارية ونشأته، ومظاهر تكريمه، وأنماط معيشته. وهذا أفضى فى النهاية الى نشوب صراع مرير بين الكنيسة ورواد علم [ما قبل التاريخ] الذى بدأ فى القرن الثامن عشر، وبلغ الذروة فى ١٨٥٩ عندما نشر داروين كتابه المشئوم المعروف باسم «أصل الانواع»(١).

وكانت الأدوات وقطع الحجارة التى صنعها أسلافنا القدامى الدليل القوى على تميزهم عما حولهم من خلق وهى بالفعل المصادر التى تستقى منها معلوماتنا عن حضارتهم. على أن الادوات التى صنعت من الصوان والرخام وغير ذلك من انواع الحجارة ظلت مبعثرة على وجه الارض، وكان الناس يعتبرونها «تحفا طبيعية» وكان بعض فلاسفة الاغريق يعتقدون أن «زيوس» القاها على الارض ويسمونها «صواعق» الغضب السماوى. كما كانت الخرافات المحلية فى كثير من الاقطار تنسب اليها قوى سحرية.

وظل الحال كذلك الى أخريات القرن السادس عشر اذ أدرك ميكائيل ميركانى، طبيب البابا كليمنت الثامن، المعنى الحقيقى لهذه الصواعق المزعومة فكتب يقول: «ان معظم الناس يعتقدون أن الصواعق (سيروينا) تنشأ عن البرق. والذين يدرسون التاريخ يرون أنها قطعت صوان شديد الصلابة بضربة قوية قبل أن يستخدم الحديد فى حماقات الحرب».

وفى نهاية القرن السابع عشر اكتشف [جون كونيارز]، وهو صيدلى من أهل لندن «جسم فيل» وعلى مقربة منه حجر على شكل كمثرى. وكان هذا الصيدلى كما يصفه صديقه [جون باجفورد] ـ يدأب على جمع الاثار القديمة التى يعثر عليها فى لندن أو حولها ويبدو أن هذين الصديقين قد تناولا هذا الحجر بالفحص والدراسة(٢).

وفى رأى [باجفورد] ـ ولعل هذا الرأى قد قوبل بكثير من الشك ان هذا الحجر

---

(1) C.S Coon
The Origin of Races. Alfred A. Knopf, N.Y., 1963
(2) F. Clark Howell
Early Man (Life Nature Library). Time- Life Books, N.Y., 1970.

يمثل «سلاحا بريطانيا اتخذ من حربة من حراب الصوان على شكل رأس رمح» كان البريتون يستخدمونه قبل أن يعرفوا النحاس أو الحديد. ولذلك قال [باجفورد] ان الفيل كان واحدا من فيلة كثيرة استجلبها الرومان اثناء احتلالهم بريطانيا العظمى، وربما ذبح هذا الفيل بهذا السلاح الحجرى الذى اكتشفه صديقه [كونيارز](١).

وبعد قرابة قرن من الزمان اكتشف [جون فرير] بعض «الادوات الحجرية» من صنع الانسان وفسرها تفسيرا صحيحا فوصفها بأنها رؤوس رماح». وقد اكتشفها بين اطلال واد قديم ببلدة [هوكسن] بمقاطعة «سوفوك مختلطة» بعظام حيوانات بائدة.

وقد نبذ [فرير] الافكار السائدة فى عصره وأعلن فى شجاعة رأيه فى المعنى الحقيقى لاكتشافه، فقرر أن الادوات التى اكتشفها هى من صنع الانسان وانها ترجع الى حقبة جيولوجية عريقة فى القدم، وهذا رأى لا يتعارض مع الاعتقاد الراسخ الشائع بحدوث طوفان عام فى زمن نوح عليه السلام.

على أن بعض الداروينيين الحاقدين تجاهل هذا الدليل المادى على تحضر الانسان من عصر النشأة، الى أن قام الجيولوجى [سيرجون ايفانز وسير جوزيف برستوتش] بزيارة اطلال هوكسن وتحققا من صحة تفسير [فرير]، وبذلك تبوأ فرير مكانة الخالدين بين رواد عصر ما قبل التاريخ.

■ - دور الجغرافية التاريخية فى الكشف عن أنماط التحضر البشرى فى العصور البائدة: -

لم يمض زمن طويل حتى اتخذت خطوة هامة نحو كشف النقاب عن أصل الانسان اذ عرفت حقيقة الحفريات (التى حيرت ألباب الرجال على مر الاجيال) بصفة نهائية، فقد أصبح الآن من المعروف أن هذه الحفريات هى بقايا النباتات والاصداف والعظام التى بقيت بالوسائل الطبيعية فى القشرة الأرضية ثم تغير تكوينها بفعل المؤثرات التى تعرضت لها(٢).

وقد اتسم الشطر الاول من القرن التاسع عشر بالاهتمام الشديد الذى أبداه علماء أوربا وانجلترا وأمريكا فى اعمال التنقيب بالكهوف. وذاعت فى **١٨٢٢** اشاعات بأنه

---

(1) W.W. Howells
Man in the Beginning. Bell, London, 1956
(2) Ibid., PP. 151 - 153.

تم العثور فى كهوف جنوب المانيا على بقايا كثير من الحيوانات البائدة من بينها بقايا الفيل، والكـركدن، والضبع والدب. ودفعت انباء هذه الكشوف قسيسا انجليزيا اسمه [دين وليم بكلاند]وكان يقوم اذ ذاك بتدريس الجيولوجيا فى جامعة اكسفورد ـ الى التنقيب فى كهف بافيلاند على ساحل ويلز. ولم يمض زمن طويل حتى توصل بكلاند الى كشف من أهم الكشوف فى البلاد(١).

ويوجد كهف [بافيلاند] فى حائط صخرى من الحجر الجيرى، وقد عثر فيه على ذخائر من عصر ما قبل التاريخ، كأدوات من الصوان وزخارف وأدوات من العظام والعاج. بالاضافة الى انواع من الحيوانات التى وجدت فى كهوف المانيا ذات الطبقات المختلفـة. واكتشف بكلاند مع هذه الاشياء جمجمة بشرية ملطخة بصبغة حمراء أشتهرت بأسم «سيدة بافيلاند الحمراء»... وقد تبين فيما بعد انها جمجمة شاب صغير.

وقد وضعت مشكلة تفسير هذا الكهف [بكلاند] فى مأزق حرج فقد كان يرى بوصفه جيولوجيا أنه قد اكتشف بقايا «رجل ما قبل الطوفان» ولكن عقيدته الدينية بوصفه [قسيسا مسيحيا] كانت تمنعه من التسليم بذلك ويظهر أنه اضطر فى النهاية الى الاذعان لحكم عقيدته، ففسر كشفه بأن قال انه على الرغم من أن مياه الطوفان ربما تكون قد جرفت بقايا الحيوان فى الكهف. فانه يبدو ان الجسم البشرى قد دفن فى تاريخ متأخر جدا عندما استوطن الانسان انجلترا بعد «الطوفان» بزمن طويل.

وبعد سنوات قلائل شرع [جون ماكنرى] من «الروم الكاثوليك» ـ فى التنقيب فى كهف من الحجر الجيرى على ساحل [ديفون] بأنجلترا يعرف باسم كهف [كنت]، فعثر فيه على أدوات حجرية من صنع الانسان مع الانواع نفسها من الحيوانات البائدة التى عثـر عليها [دين بكلاند] فى كهف بافيلاند ولكنه ـ خلافا لبكلاند ـ لم يدع عقيدته الدينية تؤثر فى رأيه العلمى.(٢)

---

(1) C.w. ceram (Kurt W. Marek)
The First American. Harcourt Brace Jovanovich, N.Y., 1971.
(2) J.M. Coles and E.S. Higgs
The Archaeology of Early Man. Praeger, N.Y., 1969

● ـ ونستدل من ذلك على مقدار ما أسهم به علم الجغرافية التاريخية فى التأكيد على تحضر الأجناس البشرية القديمة واستقلال نشأتها. ولقد تم كشف أخر فى جبل طارق فى اثناء تلك الفترة، ولكن الناس تجاهلوه تماما، وهو عبارة عن جمجمة محفوظة جيدا. ثم نقلت فى سنة ١٨٦٢ الى انجلترا، ولكن العلماء لم يعترفوا بمكانة هذا الكشف الفريد فى تاريخ التحضر البشرى الا فى بداية القرن العشرين وكانت هذه الجمجمة تمثل كما سيتضح فيما بعد أول بقايا انسان [نياندرتال] الذى يقوم تاريخه بدور هام فى تاريخ نشأة الانسان وتحضره.

● ـ إنسان ما قبل الطوفان وأنماط التحضر البشرى القديمة

يرجع إلى العالم الفرنسى [م. بوشيه دى برنس] يرجع الفضل الأكبر فى تحول الرأى العلمى الى جانب الذين يعتقدون بوجود «إنسان ما قبل الطوفان».

وكان [بوشيه دى برنس] شغوفاً بالاثار القديمة كما كان عالما عظيما ففى ١٩٢٥ تعين مأمورا للجمرك فى [أبيفيل] الواقعة على نهر السوم وكان عمره أربعين عاما. وكان الناس يستغلون طبقات الحصى فى وادى ـ السوم لأغراض تجارية، وكانت أعمال التنقيب قد تمت فى هذه الطبقات التى تبين أنها تحتوى على حفريات بعض الحيوانات البائدة.

وكان من الطبيعى أن تجذب طبقات الحصى هذه اهتمام [بوشيه دى برنس] فلم يلبث أن لاحظ أن العمال يستخرجون أحجارا ذات أشكال عجيبة من بين الحصى. وعلى الرغم من أن طبقات الحصى قد نسبت الى العصر الجيولوجى المسمى بعصر [ما قبل الطوفان] فان [بوشيه دى برنس] اعتقد ان الحجارة التى أخذ يجمعها من العمال كانت فى حقيقة أمرها «أدوات حجرية» من صنع الانسان، وأيقن أنه عثر على دليل قطعى يثبت وجود الانسان فى أوربا قبل «الطوفان»، وأنه بلغ شأواً عظيما من الحضارة فى ذلك الحين.

وأكد [بوشيه] أن التربة خارج مدينة ابيفيل تحتوى على حجارة من صنع «انسان ما قبل الطوفان» بالاضافة الى حفريات حيوانات كبيرة كان يستخدمها فى حياته

وكانت تنتمى الى الانواع البائدة. وأخذ العلماء «الداروينيون» ينظرون الى [بوشيه دى برنس] على أنه رجل يهيم فى بيداء الاحلام والأوهام، ودمغته [الكنيسة] بالمروق من الدين (الهرطقة) ولم يلق [بوشيه] تأييداً من أى عالم من الداروينيين الا فى سنة ١٨٥٤ عندما زاره [د. ريجولو]، وهو طبيب من بلدة أمبين أشتهر بارتيابه فى عصر وصحة «الادوات الحجرية» التى اكتشفت فى «أبيفيل»(١).

وبعد أن فحص [ريجولو] أدوات أبيفيل الحجرية عاد الى «أمبين» وأكتشف وجود حجارة مماثلة فى طبقات مماثلة فى بلدة [سنت أشيل] بالقرب من «أمبين»، فعدل [ريجولو] عن رأيه تماما وانضم بحماسة إلى صفوف المؤيدين للنظرية الطوفانية. ويجدر بنا أن نشير الى أن عمل هذين الرائدين من رواد عصر ما قبل التاريخ يقترن بحضارتين قديمتين من [حضارات العصر الحجرى] تعرفان باسم الحضارة الشيلية (أو الأبيلفية كما تسمى الان) والحضارة الأشيلية(٢)، ويعتقد العلماء أنها حضارات قديمة ازدهرت قبل طوفان نوح عليه السلام.

وقد سبق أن ذكرنا أن العلماء لم يعترفوا بأهمية الجمجمة البشرية المتحفرة التى عثر عليها فى أحد المحاجر بجبل طارق عام ١٨٤٨ ولكن بعد تسع سنوات توصل بعض العمال الذين كانوا يقتلعون الاحجار من حائط صخرى لأخدود عميق بالقرب من [دوسلدورف] بالمانيا الى كشف عجيب مماثل. وحينئذ انفتح كهف نياندرتال المشهور (وقد تهدم منذ ذلك الوقت) فى منتصف الجانب الشديد الانحدار من الحائط الصخرى. وفى سنة ١٨٥٧ تم العثور على بقايا انسان قديم مدفونة تحت أرضية الكهف(٣).

ولحسن الحظ استولى طبيب كان يهتم بالحفريات على بقايا هذه الجمجمة من العمال وأرسلها الى أحد علماء التشريح لفحصها وقد أثار الطابع الآدمى لهذه الجمجمة ضجة علمية هائلة زاد من صخبها أنه لم يتم العثور على بقايا حيوان آخر

---

(١) لويس س. ب ليكى، فان موريس جودال ـ الحفريات القديمة ونظريات ما قبل الطوفان ـ اليونسكو ـ المرجع السابق ص ٦١.

(٢) الشيلية نسبة الى مكان أثرى أسمه شيلى، والأبفيلية نسبة الى ابيفيل، والاشيلية نسبة الى سنت أشيل.

(٣) لويس س. ب ليكى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥.

بالقـرب منهـا. والواقع أنه لم يوجد دليل يهدى العلماء الى تقدير عمر هذه العظام البشرية. وقد أثار هذا الكشف اهتماما كبيرا فى الدوائر العلمية(١)، نظراً لأنه يدل على وجود الانسان قبل طوفان نوح عليه السلام فى شكل آدمى متكامل، بل ولديه أنماط حضارية رائعة تدل على استحقاقه الخلافة فى الأرض.

وكان البروفيسور [وليم كنج] الاستاذ بكلية الملكة بأيرلندا أول عالم قرر أن غطاء الجمجمة المكتشفة فى كهف [نياندرتال] ينتمى إلى إنسان من جنس بشرى موغل فى القـدم وفى تحضره البشرى. ومـع أن قبـة الجمجمـة كانت هى الجزء الوحيد من الحفريات الذى بقى على حاله فان كنج اعتبرها دليلاً قاطعا على وجود جنس متحضر من الانسان اطلق عليه اسم «انسان نياندرتال».

ولم يكن العلماء فى ذلك العهد على استعداد للاعتقاد بأن أنواعا مختلفة من البشر كانت تسكن فى عالم [مـا قبل التاريخ]. ولذلك ظل الكثير منهم يعتبرون جمجمة [نياندرتال] عينة باثولوجية (مرضية) وقد انقضى أكثر من نصف قرن قبل أن يؤيد [العلم] رأى «كينج» ويسلم بأن الجمجمةالشهيرةالمكتشفة فى كهف [نياندرتال] تمثل جنسا قديما من البشر اصطلح على تسميته «انسان نياندرتال»(٢).

وبعد أن مضى النصف الأول من هذا القرن تهيأ المسرح لاستقبال أكثر اللحظات إثارة فى تاريخ العلم. ذلك أن «ليل» وغيره من الجيولوجيين لذلك العهد مدوا فى حبال قصة الأرض الى الوراء من حيث الزمن وقدموا للبشرية نظرية جديدة ومثيرة عن الكون الذى قالوا ان عمره قديم الى درجة تفوق الخيال(٣).

وهداهم البحث الى ان مساحات كبيرة من الأرض ـ هى الآن ـ مغمورة بالماء ـ كانت فيما مضى تربط أسيا بأمريكا، وأوربا بأفريقيا وبريطانيا العظمى ببقية أوربا، ولـذلـك كان النـاس والحيوان فى عصر ما قبل التاريخ يتجولون عبر هذه الجسور الأرضية من قارة الى أخرى. وأهتدوا أيضا الى شواهد تدل على أن أجزاء كبيرة من العالم كانت فيما مضى متجمدة فى ظل العصر الجليدى العظيم(٤).

---

(١) المرجـع نفسـه ـ ص ٢٦.

(٢) المرجـع نفسـه ـ ص ٢٧.

(٣) المرجـع نفسـه ـ ص ٢٨.

(٤) المرجـع نفسـه ـ ص ٢٩.

وفى سويسرا عثر الجيولوجيون بين الرواسب الثلجية على طَبقة من النباتات المتحفرة التى لا يمكن أن تنمو الا فى جو معتدل. وهذا بالاضافة الى مجموعة من المعلومات الاضافية ـ حملهم على الاعتقاد بأنه لابد من وجود مراحل جليدية ومراحل بين الجليد فى العصر الجليدى العظيم.

وفى ضوء الحقائق الجيولوجية الجديدة التى توصل العلماء إليها نجد كثيراً من العلماء قد أخذوا يتسألون: هل كان «الطوفان» المشار إليه فى القرآن الكريم وفى الكتاب المقدس «طوفان عالميا» أم كان مجرد طوفان محلى محصور فى المنطقة الواقعة فى وادى الفرات وما حوله حيث عاش آدم وذريته بما فيهم نوح فى أشهر الأقوال.

وقد كان عدد ومجموعة الانواع التى حشدها نوح فى سفينته موضع حدس العلماء على مر العصور. ففى القرن السادس عشر ذهب [سيروالتر دالى] الملاح المشهور الى أن نوحا جمع «٨٩ نوعا متميزا من الدواب» وتضاعف هذا الرقم فى نهاية القرن الثامن عشر، وازداد تقدير أبعاد سفينة نوح تبعا لذلك.

وبتقدم البحث العلمى زادت الشواهد التى تكشفت فى مناطق شاسعة كأفريقيا وأسيا وأمريكا وأوربا، والتى دلت على أن كل قارة لها حيواناتها الخاصة. فقد وجدت أسلاف لهذه الحيوانات وكذلك للأجناس البشَرية فى الرواسب الجيولوجية التى تكونت قبل حدوث «طوفان نوح»، ولذلك كان من الاعجاز جمع أفراد فى سفينة نوح من جميع الأنواع الحية فى العالم قبل «الطوفان» ثم إعادة توزيعها بعد ذلك.

ولذلك هدأت حدة النزاع الدائر حول وجود الانسان فى أوربا قبل الطوفان وعنى العلماء بالبحث عن زمن الانسان الجليدى وآثاره ـ الحضارية. وبعد أن أدرك العلماء المعنى الحقيقى للأدوات الحجرية أخذت ثروة طائلة من المعلومات تتجمع حول الحياة الاجتماعية لأسلافنا القدامى والصناعات التى مارسوها، وثبت وجود سلسلة من الحضارات عرفت بأسماء: العصر الحجرى، والعصر البرونزى. والعصر الحديدى.

■ ـ علم ما قبل التاريخ يهدم نظرية داروين:

وانطلقت نحو النور نظريات وأفكار ظلت مكبوتة بفعل التعصب الدينى فى أوربا

وتجلت فى المنهج العقلى الجديد الذى سلكه العلماء فى البحث عن [أصل الانسان]، وانهارت العقائد التطورية التى بالغ الداروينيون فى تصويرها والتنظيم من شأنها.

وظفر العلماء بذخيرة كبيرة من المعلومات حيثما حملتهم غريزة حب الاستطلاع على فحص عجائب العالم الطبيعى. ولم يبق الا أن يتقدم أحد الاشخاص بوضع نظرية تهدم نظرية داروين وشططه وتخريفه عن أصل الانسان.

ولم تكن نظرية تطور الحياة الا نظرية فاسدة: ذلك أن هذه النظرية كانت تتسم بالتعصب الأعمى للفكرة القائلة بأن جميع الأنواع تطورت تماما عما كانت عليه عندما خلقت أول مرة. وقد تقدمت قلة من المفكرين فى أواخر القرن الثامن عشر بأفكار فاسدة تتعارض مع نظرية [عدم تطور] الانواع منهم كارل لينبوس العالم الطبيعى السويدى الشهير. وايرازمس داروين الانجليزى، ولا مارك الفرنسى. ولكن شارل روبرت داروين هو الذى قدم للعالم نظرية ساقطة عن المملكة الحيوانية، سرعان ما أثبت علم ما قبل التاريخ خطأها كما رأينا وقد أصبحت اليوم نظرية [داروين] فى التطور معروفة بفسادها بحيث يتعذر علينا أن نتصور ما أحدثته من رد فعل سيء واسع النطاق عندما نشرت فى ١٨٥٩م.

وقد رأت الكنيسة فى هذه النظرية تهديداً للأسس التى تقوم عليها عقيدة عدم تطور الخليقة والايمان الحرفى بالاحداث التاريخية التى وردت فى الكتاب المقدس.

ولذلك وجهت الكنيسة سهام النقد الى [داروين] بكل شدة حتى أن كثيرا من العلماء عارضوا فكرة تطور الانواع لاسباب دينية على الرغم من أعترافهم بأن نظرية التطور تتفق مع المنطق.

وقد تأثر داروين نفسه بالنزاع الذى أثارته نظريته فأكد دائما انه لم يكن مدفوعا بميول معارضة للدين عندما ألف كتابه «أصل الأنواع» أما الذين سلموا بنظرية [داروين] فقد أخذوا ينظرون الى الانسان على أنه هو خاتمة عملية من التطور المستمر. وقد رأينا كيف هدمت الدلائل كلها هذا الزعم الساقط المرفوض.

نظرية التوازى وأصل الاجناس البشرية عند «جون نابيير»

■ ـ من أنصار الداروينية المتعصبين جدا البروفيسور «جون نابيير»[١]. وقد خرج بنظرية جديدة عن «التطور» تسمى (نظرية التوازى) وتتلخص أهم ملامحها فى الآتى :ـ

● ـ أحسن الأمثلة فى التوازى فى نظرية تطور الحيوانات العليا هو قردة العصر الحديث وقردة العصور القديمة حيث تنبع جميعها من أصل واحد وجد منذ أربعين مليون سنة أو أكثر. حيث تشترك جميعا فى صفات طبيعية.[٢]

● ـ للانسان بيئته المزدوجة حيث عاش أجداده الأوائل على الاشجار وتكيف للحركة والأكل والنوم على قمم الروابى العالية فى الغابات الاستوائية وأصبح بعد ذلك يقضى وقته فى الغابات والأراضى المغطاة بالحشائش ويسابق الجمع الغفير من الحيوانات الثديية الكبيرة آكلة اللحوم التى وجدت على الارض فى ذلك الوقت!!!.

● ـ وصفات الانسان فى طوريه يكمل بعضها البعض، ولولا صفاته التى ورثها عن الغابة لما نجح فى بقائه على وجه الارض. إنه لا يمتلك سرعة الظباء ولا يتصف بالقوة القاتلة للنمور والفهود والأسود، ولكنه ـ باستعداده وقدرته وذكائه حارب الطبيعة واستقر فى الوجود[٣].

● ـ استطاع الانسان ان يتسلق الاشجار ويجرى على الأرض ويهرب من الاخطار بطريقة فنية وذكية. كما استطاع كذلك أن يستخدم السهام والالات الحادة ليحمى نفسه ولكى يحصل على طعامه. ولا شك أن يدى الانسان أكثر كفاءة من المخالب الموجودة فى منافسيه. ولا شك فى أن نجاح الانسان فى بقائه كواحد من الحيوانات العليا التى استقرت فى الارض إنما يرجع إلى صفاته الموروثة من أسلافه فى الغابة.

---

(١) جون نابيير: مدير بكلية الملكة اليزابيث بقسم بيولوجية الحيوانات العليا بجامعة لندن. وهو من الاخصائيين فى علم التشريح الخاص بالحيوانات العليا غير البشرية، وكان الموجه لبرامج بيولوجية الحيوانات العليا فى معهد هيئة التلفزيون البريطانية وذلك لما يعرض من برامج علمية وقد انتهى اخيرا من نشر كتاب عن «رجل الثلوج البشع» الذى سيظهر قريبا بواسطة دار نشر جواناثان كاب ـ لندن.

(٢) جون نابيير ـ الرحلة الطويلة للحيوانات العليا ـ اليونسكو العدد ١٣٦ ـ ص ٤٠.

(٣) المرجــع نفســه ـ ص ٤١.

● كان بين الأجداد الأوائل للحيوانات العليا الثدييات التي ظهرت في ذلك الوقت، حيث تواجدت منذ ٧٠مليون سنة تقريبا حيوانات ذات أنوف طويلة تتجول بين الحشائش في الغابات وتأكل الحشرات وكانت تتميز بصفات خاصة بالأسنان والجمجمة تختلف عن الحيوانات الأخرى ذات الأنوف الطويلة آكلة الحشرات.

● من الممكن التعرف على هذه الحيوانات العليا التي لم تتميز بالصفات الخاصة بتلك الفئة. ولكن بالنسبة لهؤلاء المهتمين بالحيوانات العليا التي تعيش الآن ومن بينها الانسان فإن هذه العائلة الحيوانية إنما وجدت حينما بدأت الرئيسيات حياتها وانتشارها. وتعتبر البلسيادابس من الحيوانات العليا التي لا تتصف بذلك ويفتقد صفة التأقلم للاشرار، أما السميلودكتس والنوثاركنس فقد ظهرا بعد ذلك بملايين السنين وكانا من متسلقي الأشجار.

ويمكن تلخيص الصفات الشجرية للإنسان حسب إدعاء [نابيير] كما يلي:

حركة الأيدي والاقدام وخصوصا الأبهام والإصبع الكبير الذي ينفصل تماما عن بقية الأصابع، ويمكن مقابلته في بعض الحيوانات العليا.

إحلال المخالب الحادة بالأظافر المفرطحة المصحوبة بالوسادة الحسية الموجودة في نهاية كل اصبع.

قصر الفم «البوز» المصحوب باختصار في جهاز وظيفة الشم.

تحول العينين إلى مقدمة الوجه مما يساعد على رؤية الأجسام بأبعادها الثلاثة.

استدارة المخ وكبره بالنسبة لحجم الجسم.

قامة منتصبة قد تمثل الجزء العلوي للجسم وقد تكون في الجسم كله في البعض الأخر.

● ويرى [نابيير] أن الحيوانات الشبيهة بالليمور ـ كانت في العصر الأيوسيني لها معظم هذه الخواص المتحورة في الحيوانات العليا وهي الأظافر بدلا من المخالب والوسادة الحسية وتحول العينين، وقصر البوز وكبر حجم المخ النسبي وجهاز الحركة والقامة المنتصبة لنصف الجسم الأعلى حيث تكون حركة الأفخاذ والركب مرنة في النصف السفلى من الجسم(١).

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٢.

توجد الحلقة المفقودة لتلك الحيوانات الأولية بين عصر الأوليجوسين والأيوسين. ومعظم ما نعرفه عن الحيوانات العليا في عصر الأوليجوسين يأتي من دراسة منطقة الفيوم الموجودة في مصر، وهي عبارة عن صحراء وكانت فيما مضى مغطاة بغابات استوائية كثيفة.

كانت الفيوم منذ **٢٥** أو **٣٥** مليون سنة مرتعا خصبا بطريقة غير عادية لمخلوقات شبيهة بالقرود والنسانيس، فالبعض مثل بارابيثيكاس. انها استقرت لتكون النسانيس الحقيقية فيما بعد. أما البعض الآخر الشبيهة بالإنسان فهي من ذوات الأربع ـ ولا يوجد أي دليل على أنها من ذوات الرجلين، والأيدي تشبه يدى الانسان نسبيا. ولكننا نفتقر إلى دليل على كونها ذات قبضة قوية.

والمخ ذو تركيب بدائي لكنه كبير نسبيا بالنسبة إلى الجمجمة والأسنان أقرب شبها بأسنان القردة منها بأسنان الانسان. وهذا يتنافى مع فكرة تحور مثل هذه الحيوانات مستقبلا إلى انسان.

كانت ثورة البراكين. في العصر الميوسيني وتكوين الجبال والأودية نتيجة لذلك، على أشدها، وكانت إحدى العوامل المتسببة في ذلك التبريد المفاجىء للكرة الأرضية التي ما لبثت أن استقرت خلال الحقبة الرابعة حيث انتشرت الحشائش وذلك على حساب نقص الغابات في تطور كثير من الثدييات بما في ذلك انتشار الحيوانات العليا في تلك المناطق التي قلت فيها الغابات واندثرت.

وقد استطاع عدد قليل من الحيوانات العليا التي شملت اسلاف الانسان والبابون الحديث أن تتفاعل وتكيف نفسها للظروف البيئية التي تغيرت. وبذلك تواجدت آفاق جديدة أمام الأسلاف السحيقة للانسان حيث نشأت وتطورت المميزات الخاصة بالانسانية.

كانت الأسلاف القدامى للإنسان، كما تراها الآن ـ نوعا من الأحياء يسمى رامابينكس كان يقطن في الشمال الغربي للهند وشرق أفريقيا. والقرائن التي يستدل بها على الصفات الانسانية المؤقتة لذلك الحيوان قليلة وتشمل فقط الأسنان والفكين، وهي قريبة الشبه بالانسان.

■ ـ والحقيقة أن [داروين] نفسه لم يكن في مثل هذا الانحطاط الفكري، ولم يتجن

على الأصل الكريم للإنسان بمثل تلك الفظاعة والتشويه اللذين لطخ بهما [نابيير] صورة الانسان، لقد ناقض الحسم الإلهي لهذا الأمر، وغالط واقع الأمور ونفى كل الدلائل العلمية على تحضر الإنسان منذ النشأة الأولى. وعاند وكابر في استحقاق الإنسان للخلافة في الأرض..

وإذا لم يكن [داروين] قد تحامل على الأصل الكريم للإنسان بنفس الحدة التي تبجح بها [نابيير]... فاننا لا نعفي [داروين] من الذنب ولا ننفي عنه دوره في هدم الأديان، ومحاربة الفضيلة، ونشر سموم الغزو الفكري في أنحاء المعمورة.

وعن [التوازي] في الصفات التشريحية بين القردة والانسان يقول «جون نابيير» :

[طريقة سير الإنسان عملية في غاية التعقد. وهذا ليس مكانا للتوسع في سرد التفاصيل الفنية الخاصة بذلك ولكن الذي ينبغي معرفته هو تلك الحقيقة الثابتة رغم بساطتها وهي أن الانسان الحديث انما يمشي أو يسير بطريقة موحدة قد تسمى طريقة «الخطوة» وهي مدهشة بل طريقة مثلى بالنسبة له. والخطوة هي حصيلة عمل عضلات ومفاصل العمود الفقري والحوض والرجل والقدم وتتم بطريقة معقدة ومحكمة للغاية، ومعنى آخر للخطى هو السير على طريق الكعب والاصبع.

نحن الآن، إذن في وضع نستطيع فيه أن نضع الدمغة الأولى المميزة للانسان : «ان الانسان يقف معتدلا وعندما يمشي انما يستخدم طريقة الخطوة».

والصفة الثانية المميزة اللافتة للنظر والتي تثير الدهشة هي القدرة القوية الجبارة ليد الانسان، قدرة قوية قد تؤدي إلى كسر قالب من الطوب الأحمر بضربة واحدة، أو تمزيق دليل تليفون مدينة ما إلى نصفين متوافقين.

المكون الأساسي لكف الإنسان أو يده هو إبهامها المتقابل الذي بواسطته يمكن إحكام القبضة قوية كانت أو رقيقة ـ لذا فإن الابهام المتقابل يمكن أن يكون بمثابة دمغة واضحة، أو ميزة ثابتة. ولكن هذه الصفة لسوء الحظ موجودة أيضا في كل حيوانات العالم القديم من القردة والنسانيس.

ولنعد مرة أخرى لدراسة الصفة التشريحية لكف الإنسان حتى نسير في الطريق القديم. ولا شك أن قبضة الانسان القوية أكثر تطوراً من مثيلتها للقردة. حينما يضع

إنسان أصابعه الأمامية مع الإبهام في هيئة قبضة قوية، فأنه يستخدم لذلك منطقتين من الجسم في غاية الحساسية. والاحساس الناتج من هاتين المنطقتين أنما يعطي الحساسية العصبية الأساسية التي تترجم إلى مهارة الجراح مثلا أو صانع الساعات أو الذي يعمل في تجميع الأجهزة الكهربائية الدقيقة.

استنتج العلماء منذ عهد بعيد، مقياس نسبي بسيط لتقويةَ قبضة الحيوانات العليا. وهو «معامل المقاومة» وهو الطول النسبي لأصبع السبابة إلى الإبهام ـ وقد جد أنه في الانسان يساوي ٦٥ وفي الشمبانزي ٤٣ والبابون ٥٧ وهو يشابه ويقترب من الانسان إلى حد كبير وبناء على ذلك فأننا الآن في وضع يسمح لنا بتوضيح العلامة المميزة للانسان وهي نسبة طول أصبع الابهام التي تصل إلى ٦٥٪ من طول أصبع السبابة. (١)

الصفة التي تثير دهشتنا في الانسان تنصب على أن المخ كبير ومستدير. وبما أن المخ طبيعيا غير قابل للاستحجار فان دراسته تلزمنا دائما بدراسة المحتوى الذي يحيط بالمخ، ومن سوء الحظ ليس هناك من وسيلة أخرى غير فحص شكل وطبيعة الجماجم المتحجرة.

وحجم المخ نفسه يعتبر عاملا مضللا لأن الحجم يختلف باختلاف النوع، فمثلا يتراوح حجم مخ الانسان بين ٩٥٠، ٢٠٠٠سم^3 ومتوسط حجمه يعادل ١٤٠٠سم^3. ويتناسب حجم المخ عادة مع حجم الجسم، فالحيوانات الضخمة لها مخ كبير. ولاتستطيع، بأي طريقة أن نستنتج مدى ذكائه. (٢)

ومع ذلك فإن لحجم المخ أهمية بالغة لعلماء الحفريات الذين يحاولون تتبع التغيرات التي طرأت على الانسان على مدى الأزمنة. لوحظ ازدياد حجم المخ منذ عصر ما قبل الإنسان حتى ازدهار العائلة الانسانية ممثلة [بالهومو سابينز]. تلك الصفة قد تكون هي الصفة المميزة التي يمكن اعتبارها قد طرأت على الانسان خلال تطوره، حتى صار الحجم النسبي للمخ المستدير بالنسبة إلى حجم الإنسان الكلي قد يزيد على

(١) المرجع نفسه ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٤١.

١٤٠٠سم٣.

نلاحظ أخيرا أيضا، أن للإنسان أسنانا صغيرة مرتبة في شكل منظم منسجم في الفك العلوي والسفلي.

وتتكون أسنان الانسان، مثل جميع أسنان الحيوانات العليا من أربعة أنواع هي القواطع والأنياب وماقبل الضروس والضروس، ومجموع هذه الأسنان يعادل **٣٢** في الفكين. وهذا العدد هو الذي كان يميز كل الحيوانات العليا في العالم القديم للقردة والنسانيس.]

■ ـ **ملحوظة هامة على هذه الفقرة من تحريف «نابيير»:**

نسى نابيير أن الانسان يختلف عن القردة في أن الأسنان في الانسان صغيرة مستوية الارتفاع تقريباً. في حين أن الأنياب طويلة في القردة حيث تكون الأسنان بارزة أيضا. وضروس الانسان تحتوى على سطح مستدير غير حاد بعكس القردة والنسانيس.

كما نجد أيضا أن الضرس الثالث في الفكين، في الانسان، صغير وقد لا يوجد، بعكس القردة حيث يكون الضرس الثالث أكبرها وأبرزها.

أن أسنان الرامابيثكس ليست قريبة الشبه بأسنان الانسان وبعيدة كل البعد عن أسنان القردة الموجودة في الاجبتوبيتكس والبروكنسول الأفريقي. حيث أن وضع الأسنان مستدير والأنياب صغيرة ولا تزداد ـ الضروس في الحجم من الأمام إلى الخلف كما في القردة. وقد عاش ـ الرامابيثكس منذ حوالي **١٢** أو **١٤** مليون سنة ماضية. وبالطبع فإن أسلافه نشأت قبل هذا الزمن بملايين السنين(١). ونعود إلى تحريف نابيير فنجده يقول:

«بدأت الخطوة التالية للسلالة البشرية ظاهريا منذ ٤ أو ٥ ملايين سنة على الأقل. وتشير بعض أدلة قليلة على وجود مخلوقات قبل الانسان تتبع جنس اوسترابيثكس الموجود في منطقتين في شرق أفريقيا تعرفان باسم كاتابوى ولوثاجام. ثم نجد هذه الأجناس [القريبة من الانسان] بعد ذلك بمليونين من السنين في مناطق بحيرة

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٣.

«رودلف» في جنوب افريقيا وفي تنزانيا في «أولدوفالى جورج»، تلك الأجناس الأخيرة تعطي الكثير من المعلومات الخاصة بأصل الانسان حيث هناك تشابه في الصفات المميزة كقبضة اليد وحجم المخ والاسنان كما سبق ذكره ـ أما جنس الأوسترالوبيثين «لوثاجام والكانابول» فلا يقربنا كثيرا من أصل الانسان»!!

وسنؤجل الرد على تحريف [نابيير] وشططه، حتى نستعرض باقي مظاهر تحريفه وشططه.

جون نابيير والانسان الحاذق

● **يرى جون نابيير:**

ان جنس الأوسترالوبيثين، بوجه عام. أقرب ما يكون للانسان. كما يوضحه فنيا علم وصف الأنسان، أي يمكن أن نتقبل الحقيقة التي تقول أن الانسان ظهر منذ ١,٧٥٠,٠٠٠ سنة. وكان طريقه للحياة بسيطا جدا حيث كان يقوم بأعمال في غاية البساطة كالقنص وصنع الأدوات البسيطة.

ان جنس الهوموهابليز «الانسان الحاذق» كما يطلق على هذا الانسان القديم كان يمشي على رجلين ويمشي بطريق الخطوة، والمخ صغير ولكنه أكبر من مخ أسلافه الأولين. وأسنانه متطورة قليلا عن جنس الاسترالوبيثين. وتشبه الأيدي إلى حد كبير أيدي الانسان الحديث إلا أنها تفتقر إلى القبضة القوية.

أن الإنسان الحاذق قد أعقب في السجل الحفري الهرمواركتس «الانسان المنتصب» الذي وجد في جنوب شرق آسيا «جاوا» وفي آسيا «الصين» وفي أوروبا «غرب ألمانيا» ـ وكذلك في شمال وشرق أفريقيا، وأنه قد وجد أن مخ الهومواركتس الأول أكبر من مخ الهوموهابيلز «حيث كان **٩٣٥**سم^{٣} إذا قورن بالهوموهابيلز **٦٥٦**سم^{٣}. وأنه قد وجد أن حجم مخ هذا الكائن الموجود في بكين يعادل **١٢٢٥**سم^{٣}»[1].

أنه بالرغم من كبر حجم المخ فأن للهومواركتس جمجمة من النوع البدائي ذات

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٤.

شكل سهل التمييز. وهو يمشي على رجلين في هيئة خطوة. وشكل الأيدي غير معروف. والمرشد الوحيد لذلك هو الأدوات التي كان يصنعها وكانت هذه الأدوات من صنف الأحجار التي صنعت لأغراض بدائية مثل قتل وقنص الحيوانات وقطع الأخشاب وطحن وحصد المحاصيل الزراعية وقد ثبت بالتجربة أن هذه الأدوات صنعت واستخدمت بدون الأيدي ذات القبضة القوية.

● **وأخيراً يقول [جون نابيير]:**

«ربما كانت زيادة حجم المخ هي التي أثرت بدورها على تطور وتحسن استعمال الأيدي أو ربما كان الأمر بالعكس. ويبدو على أية حال أن التركيب المعقد وأحكام قدرة الأيدي وتطور الآلات المستعملة كانت كلها وثيقة الصلة بعضها ببعض.

ولم يعرف. على وجه الدقة، أين ومتى وجد [الهومواركتس] في عجلة الإنسانية حتى تطور إلى [الهوموسابينز]. ربما حدث ذلك في أماكن مختلفة من العالم في أوقات مختلفة وبطرق متباينة لم يعرف بعد أي مجتمع جغرافي بدأ بها.

وتنتهي بذلك رحلتنا الطويلة الشاقة بتطور [الهوموسابينز] الذي وجد منذ ٢٥٠,٠٠٠ أو ٤٠٠,٠٠٠ سنة مضت. وقد مررنا بذلك في حقب متباعدة ورأينا علامات كثيرة وأمورا متباينة ومعقدة إلى حد كبير. وهنا تنتهي رحلة بعينها بعد أن أدى كل من أسهم فيها واجبه. وينبغي أن تبدأ رحلة أخرى يتحمل مسئوليتها اخصائيون من نوع خاص يتولون بحث مايصادفونه من أمور معقدة».

■ **- وهكذا نلمس مقدار انحراف «نابيير» بنظريته وآرائه عن الصواب. والصواب هو القرآن الكريم الذي حدد نشأة الانسان وجاهر بالخلق السوي والنشأة المستقلة للإنسان من الطين وأن - الانسان قد خلق في أحسن صورة وأكمل تقويم.**

ياكيموف وتطور الانسان:

ومن الدارونيين الذين كان لهم رأي واضح ومحدد في مسألة أصل الانسان: البروفيسور فسيفولوب. ياكيموف[1]. وهو يرى أن علماء الإنسان يميزون من بين

(١) فسيولو ياكيموف: عالم سوفيتي ذو شهرة عالمية اكتسبها بمؤلفاته عن انسان ما قبل التاريخ وقد كتب مايربو على مئة دراسة عن الرئيسيات وتطور الإنسان. وهو مدير معهد البحوث الانتروبولوجية ومتحف د. ن. أنوخين للانتروبولوجية بجامعة موسكو وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد الدولي للانتروبولوجيا وعلم الأجناس البشرية.

النوع البشري الهائل العدد جماعات من البشر ذات أصل واحد مشترك. يعيشون، أو عاشوا، في بعض المناطق المختلفة. مختلفين في ملامحهم ووجوههم ولون بشرتهم ونمط شعورهم ولونها.

ويسمى العلماء تلك الجماعات من البشر بالأجناس، ولكن علينا أن نتذكر أنه لاتوجد حدوداً فاصلة قاطعة للتمييز بين الأنواع: فكل هذه الجماعات يختلط بعضها ببعض بطريقة غير ملموسة فتتولد عنها أنماط وسطى ذات خصائص فيزيقية عديدة مشتركة.

ويمكن ادراك أن الاختلاف بين هذه الجماعات كل على حدة لا يؤثر في الخصائص الاساسية التي يشترك فيها الناس عامة. قامة منتصبة، أيد وأقدام متطورة تماما، مخ معقد البناء داخل جمجمة كبيرة ذات جبهة عالية مستقيمة، يخلو حاجبا العينين فيها من نتوء عظمي أسفلها، مع وجود ذقن بارز. وبناء مشترك لأعضاء وظائف الكلام كذلك يشترك البشر جميعا في عدد الكروموزومات (٤٦) في نواة الخلية، على حين أن للحيوانات المعروفة بالرئيسيات ٤٨، وللقردة الدنياكروموزومات تتراوح بين ٥٤، ٧٨.

● **ويرى «ياكيموف»**:

أن الإنسان الحديث موحد بيولوجيا في الخصائص الاساسية ومتعدد فيما يتعلق بكثير من السمات الثانوية. ويرجع العلماء كل الكائنات البشرية إلى نوع واحد، هو الانسان العاقل. والاختلافات التي توجد في الجماعات التي تيعش في مناطق جغرافية مختلفة لا تعكس إلا التغيير داخل النوع الواحد طبقا لمجموعة من العوامل البيولوجية والاجتماعية وغيرها.

وأنه قد سبقت ظهور الانسان العاقل مرحلة ظهور الانسان الأقدم ثم مرحلة ظهور الانسان القديم. ومن الأمور الهامة أن نلاحظ أن الانسان القديم قد ظهر في وقت واحد مع الانسان العاقل المبكر في مناطق متجاورة.

والعلاقة الوراثية بين هاتين الجماعتين المختلفتين من الانسان القديم والانسان العاقل مسألة خلافية هامة. والمسألة التي انقسم أزاءها علماء الانتروبولوجيا هي. هل

يمكن اعتبار كل الجماعات الانسانية القديمة اسلافا للانسان العاقل. وهل نشاهد الانسان العاقل في منطقة واحدة أم في مناطق متعددة؟

● ويرى «ياكيموف» أن :

هناك مدرستان في علم الإنسان المعاصر لكل منهما فكرها عن أصل الانسان والأنواع الرئيسية، هما مدرسة المراكز المتعددة ومدرسة المركز الواحد.

ويفترض العالم الأمريكي [فيلدنرينش] مؤسس نظرية المراكز المتعددة أن الانسان العاقل قد نشأ في مراكز متعددة، مستقلة بعضها عن البعض الآخر استقلالا نسبيا، وان الناس قد تطورت في مستويات مختلفة وتنادي نظريته بأن الانسان العاقل قد وجد من الانسان الأقدم والانسان القديم كل في منطقة وان هذا قد مكن من تشكيل الأنواع الرئيسية وهي. الأوربيون والزنوج والاستراليون والمغول، الخ.

وعلماء الانسان من أصحاب هذه المدرسة مثل العالمين السوفيتيين ج. وف. اليكسيف، والعالمين كارليتون كون. وس. لورينج بريس من الولايالت المتحدة، يعلنون أن انحطاط الأنواع البشرية الحديثة ماتزال لها سمات نمطية من الحفريات التي وجدت في المناطق التي كانت تعيش فيها تلك الأنواع القديمة.

ومن جهة أخرى، فإن اتباع مدرسة المركز الواحد، ومنهم العالمان الفرنسيان [هنري فيكتور فاليوس]. و[ج أوليفييه]، والعالم [فرنسيس هاول] من الولايات المتحدة، والعالم الانجليزي كينيث أوكلي، والعلماء السوفيت [فيكتور بوناك. و. م.. نستورخ]، و[ى روجينسكي]، وجميع هؤلاء يرون أن الانسان العاقل قد نشأ في منطقة واحدة. ويعتقد الأستاذ [روجينسكي] أن الانسان العاقل قد ظهر في منطقة واسعة نسبيا تغطي غرب آسيا وأجزاء من وسطها وجنوبها وتغطى شمال شرقي أفريقيا. في تلك المنطقة اختلطت جماعات مختلفة من الانسان القديم، مما أغنى الأصل الوراثي، وعمل على تطور الانسان العاقل.

ويرى ياكيموف أن الانسان العاقل الذي نشأ هناك كان لا يملك سمات واضحة مميزة من أي مما تتمتع به الأنواع الحديثة. فقد كان ذا خصائص جنسية غير محددة. وقد وجدت فيه خصائص الأجناس الحديثة متشابكة تشابكا بينا[1].

---

(١) انظر : الانسان الأول ونشأة الأجناس ـ اليونسكو ـ المرجع السابق ـ ص٥٠.

كما يرى أن الأنماط الجنسية لم تنشأ إلا عندما انتشرت الجماعات البشرية جغرافيا واستقرت في مناطق محددة وهذا هو السر في أن أجناس الانسان العاقل تشبه بعضها بعضا شبها قويا. وهذا الشبه هو علامة اصلهم المشترك، وعلامة نشأتهم في منطقة واحدة.

.. ويقول ياكيموف....

.... «ومع ذلك فإن أصحاب فكرة المركز الواحد، الذين يعتقدون أن الجنس البشري الذي مر في تطوره خلال المرحلة الانسانية القديمة لا يعتقدون مع ذلك أن كل جماعة محلية بين الجماعات القديمة تشكل جزءا من أسلاف الانسان العاقل. ولأسباب تاريخية وطبيعية لم تسهم بعض الجماعات في تكوين الانسان العاقل، ولم تسهم في تلك العملية خلال الاختلاط اللاحق بالانسان العاقل الآن. ويعتقد بعض الباحثين، وأنا منهم أن انسان نياندرثال. ويدعي بانسان نياندرتال «الكلاسيكي» الذي كان يعيش في العصر الجليدي المعروف بالعصر الفيرمي القديم منذ فترة تتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ سنة خلت، واحد من ثلاث جماعات بشرية قديمة».

ويقول ياكيموف أنه باستخدام الكربون المشع أمكن معرفة وتحديد عصر حفريات الانسان العاقل في أوربا بفترة ترجع إلى ٣٥٠٠٠ أو ٢٨,٠٠٠ سنة .ق. م. وأن أقدم حفريات الانسان الحديث، هي جمجمة اكتشفت في جزيرة كاليمانتان بأندونيسيا، وأنها تكشف عن السمات الكاملة التي تشكلت للانسان العاقل، وأنها ترجع إلى حوالي ٣٩,٠٠٠سنة خلت[١].

ويرى أن كثيراً من النظريات الأصلية المعنية بالعوامل المسئولة عن تطور الانسان العاقل قد تقدمت كثيراً إلى الأمام. ففي بداية هذا القرن قام عالما الآثار الفرنسيان جبرييل وادريان دي مورتيل بدراسة التغيرات المناخية (من المناخ الرطب إلى المناخ دون الاستوائي إلى المناخ الجاف) والتغير الناجم من الانتقال من الحياة فوق الأشجار (وهما يعتقدان أن انسان نياندرتال هو الذي يحياها) إلى الحياة فوق الأرض (وهما السببان الرئيسيان للتحول إلى الانسان الحديث). وبعد ذلك قرر العالمان هـ. فينيرت من المانيا الاتحادية، وف. جرورموف. من الاتحاد السوفيتي وغيرها من العلماء

(١) المرجع السابق: ص٥٠.

أن المناخ الشديد البرودة الذي أدى إلى زحف الغطاء الجليدي، كان هو العامل الرئيسي في التطور المتقدم لاسلاف الانسان العاقل.

ومع ذلك فإن علماء داروينيين آخرين مايزالون يعتقدون أن تطور انسان نياندرتال إلى الانسان العاقل مرده إلى حد كبير، إلى التغير من الاختلاط بجماعات صغيرة مبعثرة من الانسان القديم إلى الاختلاط بجماعات مختلفة، مما وضع نهاية للنتائج السلبية الناجمة عن الاختلاط بالمحارم وبالطبع فأن كل واحد من هذه العوامل كان هاماً، ولكن مما يبعث على الشك أن تكون قادرة بمفردها، على تحويل انسان نياندرتال إلى الانسان العاقل.

ولم يخجل ياكيموف وهو يغالط واقع الأمور، ويدعي تطور الإنسان من مخلوقات سبقت مايسميه بالانسان العاقل... بل نجده يقول:

«وفي عام ١٩٤٩ عن لي راى (وصل إليه كذلك العالم فرنسيس هارل من علماء الولايات المتحدة بطريقة مستقلة عام ١٩٥١) ومؤداه أن الانتخاب الطبيعي في الظروف المناخية القاسية في فترة ماقبل العصر الجليدي عاق تطور انسان نياندرثال إلى الانسان العاقل أكثر مما ساعد على هذا التطور. ان المناخ الشديد البرودة لم يرق بالتطور المتقدم للنوع الانساني، بل أن الظروف الطبيعية القاسية قد جعلت التكوين الفيزيقي لانسان نياندرثال أكثر غلظة وقسوة.

ويشير أصحاب نظرية تعدد المراكز، وهم يدحضون النظرية السالفة الذكر، إلى أن انسان [نياندرثال] «الكلاسيكي» قد وجد في مناطق بعيدة عن الجليد، خاصة في العراق (كهف شانيدار) وفي فلسطين (منطقة وادي العمود)، ولكنهم يتجاهلون أن انسان [نياندرتال] في هاتين المنطقتين لم يكن نياندرتاليا كلاسيكيا نقيا اذ كانت له بعض الملامح الفكرية في بناء وعاء المخ وفي شكل تجويف الجمجمة كما اتضح من البقايا المتجمدة التي كشفت عن خصائص السطح الداخلي للجمجمة.

ولقد تقدم تشكل الملامح الفكرية فوق المناطق الخالية من الجليد بفاعلية أكبر. ونحن عندما ندرس تلك الملامح فان الاهتمام الذي نوجهه إلى الملامح المورفولوجية أقل من ذلك الذي نوجهه إلى الملامح الخاصة بالانسان العاقل، عندما نفرق بينه تفريقا جوهريا وبين الانسان القديم جده المباشر.

وقد ذهل الباحثون دائما أمام التطور الرفيع نسبيا للانسان العاقل، إذا ما قورن بحضارة انسان [نياندرتال]. وبما لديه من أدوات الزينة وبما يتمتع به من حاسة تمييز لم يكن لأجداده نصيب منها، وبما لديه من أشكال عديدة من فن تصويري (من نحت وحفر على الصخور والعظام، ومن صور حائطية متعددة الألوان، الخ. [(١)].

ويشهد هذا بصحة ماطرأ من تغير نوعي في العلاقات القائمة بين الناس، ومن ثم على صحة ما طرأ على التطور المتقدم للنظام الاجتماعي وأشكال الجماعات وظهور اللغة».

ويقول ياكيمــوف :

... «ان الدراسات المقارنة للمحتويات المتجمدة داخل وعاء المخ في حفريات الانسان القديم والانسان العاقل تثبت ان مناطق المخ لدى الأخير ترتبط بعمل هادف، أي بنشاط فيزيقي، في الكلام وتنظيم السلوك الاجتماعي للفرد، وأنها قد قطعت مرحلة هامة من مراحل التغير. لذلك نستطيع أن نفترض أن ظهور الانسان العاقل قد تطلب خصائص هامة للانسان ككائن اجتماعي. وسرعان ماوجدت جماعات من الانسان القديم، تتميز بمثل هذه الخصائص. أنها في وضع أفضل من جماعات الانسان القديم التي كانت أقل تطورا في نظامها الاجتماعي.

وقد كان الأستاذ السوفيتي [روجينسكي] أحد الأوائل الذين قدموا هذا الفرض كذلك لفت الأنظار إلى الثبات النسبي للسمات التي يكشف عنها النوع الانساني منذ ظهوره حتى وقتنا الحاضر، عبر ذلك التقديم السريع المذهل للتطور الاجتماعي وللاساليب التكنيكية.

وفي الوقت نفسه فإن استبدال الحضارة الموستيرية المرتبطة بانسان نياندرتال بحضارة العصر الحجري القديم المتأخر، المرتبطة عامة بالانسان العاقل، قد دفع إلى السير قدما ضد جذور التغيرات الهائلة في النمط الفيزيقي للانسان. وكان شديد الاهتمام في التكيف مع البيئة. وخلال الانتقال من الانسان القديم إلى الانسان ببنائه الجسماني الحالي حدث تطور للجنس البشري بتحول نمط من الانماط الانسانية إلى

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٥١.

آخر. ويمكن أن نفترض أن الانتخاب الطبيعي الذي وجه عملية التطور للقدماء، في المجتمع البدائي، هو الذي حرك تطورهم إلى الانسان العاقل.

وبمجرد ظهور الانسان العاقل، عملت الميول الاجتماعية على أضعاف وشل فعل الميكانيزمات الانتقائية المشكلة للانواع، ومن هنا اكتسبت تلك العوامل أهمية بالغة. وبدأ الانسان الحديث في حل المشكلات التي تواجهه لا عن طريق التكيف مع ظروف البيئة الجديدة التي نجمت عن التغيرات في أسلافه وأنها بدأ يحل تلك المشكلات بالاعتماد على جنى ثمار العمل الجماعي[1].

ولهذا السبب لم يتعرض الشكل الفيزيقي للانسان العاقل لتغييرات كبيرة خلال الالاف العديدة من السنين، بينما تطورت ضروب نشاطه تطورا هائلا من حيث مداها وتعقدها. وبرغم التغيرات المورفورلوجية التي طرأت على الانسان العاقل خلال تكوين الأجناس الرئيسية، والتي كانت تقوم على التكيف، فانها لم تغير من خصائص الانسان كنوع. وطبقا لوجهة النظر هذه فان الانسان العاقل مرحلة عليا لتطور الانسان بالمعنى الكيفي المحدد، أي مرحلة تتسم بمستوى عال من التنظيم الاجتماعي وقد لعب الكلام دورا رئيسيا في عملية تطور الانسان هذه من حيث هو كائن اجتماعي، وذلك لنقل التجربة والحكمة الهائلة وتراكمها على مدى أجيال كثيرة، وجعل تكاملها أمرا ممكنا جنبا إلى جنب مع التجربة الفردية، في قدر هائل من المعرفة».

تلك هي خلاصة آراء [ياكيموف] ولا يخفى على القارىء مقدار تعصب ياكيموف للفكر الداروينى المشبوه، والذي سنثبت في هذا الكتاب مقدار شططه وتحريفه وبعده عن الصواب.

[نظرية التطور] وتفسيرها لظاهرة «انسان بكين»:

من العلماء الذين «صاغوا» الصفات التشريحية لانسان بكين في قالب «دارويني» البروفيسور «بيير ليروى»[2] ومن أهم ما قاله في ظاهرة (انسان بكين):

---

(١) المرجع السابق ـ ص٥٢

(٢) الأب بيير ليروى: بالجمعية اليسوعية للمركز القومي الفرنسي للبحوث العلمية، في باريس. وكان قبل ذلك مديرا لمتحف التاريخ الطبيعي في «تنتسين» والمعهد الجيولوجي في بكين. كما كان صديقا ومعاونا للأب «تيلهارد دي شاردن»=

أن الاكتشــاف الذي وقع بالقرب من «بكين» في ديسمبر عام ١٩٢٨. الخاص بالبقايا المتحجرة والمبكرة جدا للانسان «السينا نثروبيسي أو «الانسان البكيني» كما يطلق عليه، يعتبر حادثا له أهميته في تاريخ أصل الانسان.

وقبل ذلك في عام ١٩١٤ كان أحد القساوسة الجزويت ـ وهو مؤرخ للطبيعيات ايضا، هو الأب اميل ليسينت ـ قد بدأ اكتشافات في حوض النهر الأصفر في شمال الصـين. وهناك عثر على بعض التراكيب الهامة لحيوانات ثديية متحجرة، يدعوها الصينيون باسم «انســان التنين» ولم يكن «الأب أميل» نفسه عالماً في البليونتولوجيا (علم الحفريات) ولذلك أرسل عينة من هذه المتحجرات إلى مارسلين بول مدير معهد «البليونتولوجيا الانسانية» في باريس وعهد الأخير بمهمة فحصها وفهرستها إلى أحد تلاميذه وهـو الأب تيلهارد دي شاردن. وأخيرا، في عام ١٩٢٣، تقرر أن يذهب تيلهارد بنفسه إلى الصين ليتفحص هذه «التراكيب المتحجرة» على الطبيعة.

وعـلى ذلـك تم اعـداد بعثـة «بليونتولوجية» فرنسية، اكتشف خلالها ليسينت وتيلهارد منطقة عند حافة [السور العظيم] بها تراكيب هامة لبعض المتحجرات الثديية والأحجار الرقيقة التي ثبت من فحصها انها موغلة في القدم. وقد انتهوا إلى أن إنسان ما قبل التاريخ عاش في هذه المنطقة يوما ما. غير أن أحدا لم يعثر على أية بقايا آدمية يمكن أن تفيد في التحقق من شخصية أصحاب الحرف الذين صنعوا هذه الأدوات الحجرية.

ومن الذين اهتموا بظاهرة «إنسان بكين» البروفيسور السويدي «اندرسون» فقد وجـد فوق الرواسب الطباشيرية طبقات أخرى من الطفل الأحمر تكونت في عصر أحدث عهدا من عصر الطباشير. وفي هذا الطفل وجد حفريات لعظام بشرية قديمة مختلطة مع عظام حيوانية وبقايا نباتات وآثار لموقد قديم للنار ـ وقد كان ذلك في السنة الرابعة لبعثة أندرسون أي في عام ١٩١٨. وفي عام ١٩٢١ اصطحب أندرسون معه عالمـين آخـرين من علماء الحفـريات إلى موقـع تلك الحفـريات وهمـا الأستـاذ

(*) ومن مؤلفاته «اقتفاء آثار السينانثروبيس بالفرنسية. فيارد ـ باريس (١٩٧١). وفيه قدم رسالة لم تنشر بين تيلهارد دي شاردن وجيه جونار اندرسون، الذي كان أول من نقب في منطقة «شوكوتين» بالصين حيث تم اكتشاف بقايا الانسان البكيني.

[أوتوزدانسكي] Otto Zdansky من السويد والدكتور [ولتر جرانجر] Walrer Granger من متحف التـاريخ الـطبيعي بنيويورك. وفي أثناء التنقيب في العظمة المذكورة عثر زدانسكي على ضرسين هامين لانسان عادى قديم في التراب، يرجح أن لهما أهمية خاصة في حفريات الانسان القديم. . وأعلن [زدانسكي] هذا الكشف بمناسبة زيارة ولي عهد السويد في ذلك الوقت لمركز الحفائر في بكين يوم ٢٢ أكتوبر سنـة ١٩٢٦ (هو الملك الحالي جوستاف أودلف ملك السويد وهو شغوف بدراسة الآثار وقد رأس لجنة اليونسكو عام ١٩٦٠ لانقاذ آثار النوبة[١].

ثم وقع الاختيار في عام ١٩٣٥ على الدكتور [فرانز فيد نرايخ] وكان يشغل في ذلك الوقت وظيفة أستاذ التشريح بجامعة شيكاغو ـ ليخلف بلاك في مهمته في الصين[٢].

وامتاز [فيد نرايخ] بأبحاثه المستفيضة عن الهيكل العظمي للانسان والقردة، واثبت أن الانسان لم ينحدر مباشرة من القردة المعروفة. وإلى هذا العالم يرجع الفضل أيضا في وصف الخصـائص التشريحية الـدقيقـة لانسـان الصين، فأيد بذلك وجهة نظر الدكتور [دافيد سون بلاك][٣].

ويمكن تلخيص تلك الفـروق الأسـاسيـة في المـراحل الانتقالية من القرد إلى الانسان حسب وجهة نظر [فيد نرايخ] في الآتي:

«أما عن الجمجمة فالغوريلا ليس لها جبهة بالمعنى المعروف وعظام الوجه بارزة إلى الأمام والفك سميك مربع الشكل تقريبا تترتب فيه الأسنان في صفين متوازيين، والأنياب بارزة وليس للقرد بروز ذقني. وتبدأ جبهة انسان بكين في الاستدارة ويأخذ الفك في الصغر فيقل بروز الوجه إلى الأمام، ثم تصبح الجمجمة أكثر استدارة والوجه أقل بروزا في الانسان الحديث[٤].

ويلاحظ أن الأسنان تترتب على شكل قوس في الانسان العادى، وهذا القوس أقل استدارة في انسان بكين الذي يمثل حلقة متوسطة بين الانسان الحديث والغوريلا».

---

(١) د. أنور عبد العليم ـ المرجع السابق ـ ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ـ ص ٤٥.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٤) المرجع نفسه ص ٤٧.

ويرى [فيدنرايخ] أن ثمة تطور آخر في مؤخرة الجمجمة يتدرج من القرد إلى انسان بكين إلى الانسان الحديث، ويلاحظ ميل الجمجمة إلى الاستدارة في انسان بكين ثم بشكل أوضح في الانسان الحديث، وتزداد سعة صندوق المخ من نحو ٤٥٠سم٣ في القردة العليا إلى نحو ١٠٠٠سم٣ في انسان بكين ثم تصبح نحو ١٣٥٠سم٣ في الانسان الحديث.

كما وجدت بعض جماجم الحيوانات المذكورة مثقوبة من الخلف بفعل فاعل، مما يوحى بأن انسان بكين هذا كان من آكلي لحوم البشر. ويعتقد البعض أن العصر الذي عاش فيه هذا الانسان كان منذ حوالي ٨٠٠,٠٠٠ ألف سنة تقريبا[1].

وظل العمل متواصلا في هذه القبور بالقرب من بكين قرابة عشرين عاما حتى انه في سنة ١٩٤١ كان قد تجمع ماينوف على عظام أربعين فردا من سلالة انسان بكين.

وفي تلك الأثناء كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة الأوار، وكان الاستاذ [فيدنرايخ] قد سافر إلى الولايات المتحدة كما تقدم ذكره، وعهد إلى الدكتور ونج Wong الصيني بأمر المحافظة على هذه الجماجم القيمة إذا ماحدث غزو الصين.

أما البروفيسور [تيلهارد] فقد عثر على مجموعة من صخور الكوارتز المهذبة واتخذ من ذلك دليلا على أن الذي هذبها انما هو انسان بكين القديم المسمى بالسينانثروبيس.

وظل «تيلهارد» متيقنا من رأيه هذا، حتى في خلال رحلته إلى باريس شتاء عام ١٩٣٠، عندما زار الأب «برويل» معهد البلبونتولوجيا الانسانية، ووضع فوق مكتبه قرنا صغيراً لأحد الوعول البرية، عليه نتوءات بارزة . . . . «انني لن أخبرك من أين أتيت بها». هكذا قال الأب: «ولكن ما رأيك؟».

«لقد تم صهره بعد مقتل الحيوان بقليل «أجاب الأب» وهو أداة شكلها انسان بواسطة طرق جبهة الحيوان بحجر، بل يمكن رؤية آثار الطرق بالحجر فوق العنق، كانت في الواقع بالقرب من «شوكوتين». أجاب تيلهارد: «انني لا أعبأ من أين أتت».

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٩.

انســان «سينانثروبليس»

ودون ان ينتظر اجابة من [الأب] سافر «تيلهارد» إلى «كالجان» حيث كان عليه أن يلحق مرة أخـرى بقـافلة سيارات بعثة «ستروين» العلمية، التي كانت على وشك الرحيل إلى وسط أسيا.

وفي الوقت نفسه وبدعوة من مؤسسة «روكفلر» ذهب الأب «برويل» إلى بكين في أخريات عام ١٩٣١. وكانت به رغبة أن يتفحص منطقة «شوكوتين» بنفسه، دون أن يضع في اعتباره وجهة نظر عالم التشريح «دافيد سون بلاك» أو تلميذه السابق «بي - سن - وانـج» أو صديقـه «تيلهـارد». بل كانت تقـويماتـه الأولى تتركـز في أن الـ «سينانثروبيس» ليس انسانا. ومن المرجح أن يكون نوعا من الحيوانات المضادة التي كان يتغذى عليها الانسان الأول، وكان يقذف بعظامها، وكذلك بالأدوات والآلات المصنوعة من قرون الوعول البرية، في محجر «شوكوتين».

وقد أثبت فحص كسرات هذه الصخور البلورية بوضوح أنها مصنوعة بترو، وأن من السهل التعرف عليها «كأدوات». وعلى ذلك لا يوجد شيء يؤكد أنها من أعمال «السينانثروبيس».

ويفسر هذا لماذا تجمدت الأمور، عندما عاد «تيلهارد» إلى بكين. بعد رحلة طويلة ومرهقة عبر آسيا، ولم يلبث أن استأنف أعماله في معمل «سنيوزويك». ثم بدأ في إعادة فحص جميع العينات التي أحضرها معه ثانية من «شوكوتين»، واضعا في اعتباره تلك الشكـوك التي أثـارهـا أصـدقـاء «بـرويل»، مع مقـارنـة العينـات ببقايا الـ «سينانثروبيسي» التي ظهرت في جانبها أثار النيران في صورة طبقة من الرماد سمكها ١٢سم. (١)

(١) بير ليروي - لغز الانسان البكيني - اليونسكو - العدد ١٣٦ - ص٥٣.

لماذا تكونت لدى «بروبل» مثل هذه التحفظات القوية، ولماذا عاد من جديد إلى التفكـير في هذه النظرية غير المحتملة الخاصة بالصياد وحيوانه المضاد؟ ان السبب يكمن في انه لم يستطع أن يلحظ وجود صلة زمنية محتملة بين بقايا الـ «سينانثروبيس» وبين درجة الاتقان في الأدوات المصنوعة المنوعة من العظام والأحجار التي يفترض انه استعملها.

ان «تيلهارد» ليس هو الرجل الذي يسمح لنفسه بأن يتأثر فقط بمجرد «وجهات النظر». فهو يريد أن يبني حكمه على أدلة بينة وقد أرسل فعلا بملاحظاته الخاصة إلى «برويل». وبعد أن تبادل الاثنان العديد من الخطابات لم يتمكن «تيلهارد» من أن يقنع «برويل» وكذلك عجز «برويل» عن أن يزعزع من معتقدات «تيلهارد».

وقد كتب «برويل» عن «تيلهارد» : «كان يؤسفني جدا ان يظل «تيلهارد» متمسكا بموقفه الأصلي. في حين أن «تيلهارد» «ملاحظ» بارع للمواقع الجيولوجية، كما أنه عالم حفـريات ممتاز غير أنه لم يتمرس في دراسات ما قبل التاريخ التكنيكية كما أن النواحي الصناعية ليست في متناوله.

والخلاف بين الاثنين هو : بالنسبة «لتيلهارد» انه يرى أن أدوات «الكوارتز» التي عثر عليها من أعمال الـ «سيتانثروبيس». أما بالنسبة لـ «برويل» فإن الحقيقة الخاصة بوجود أدوات مصنوعة من العظام أيضا تجعل هذا الافتراض يبدو مشوكا فيه تماما[1].

غير أنه بينما عول «تيلهارد» على القيمة الكبرى بالنسبة لتصنيع الحجر كدليل على قدرات انسان الـ «سيناثروبيس» نجد أنه كان أقل يقينا بالنسبة لطبيعة التخصص في تصنيع أو تشكيل الأحجار. وقد كتب في ١٧ يونيو ١٩٣٢، في خطاب إلى صديقه «جورج باربور» : «إن دراسة عن تصنيع احجار «شوكوتين» سوف تظهر في «النشرة» الثانية للهيئة الصينية للمسح الجيولوجي. انها تعرض وجهة نظر أكثر حيطة من تلك التي قدمها «برويل». غير أنني لا أعتقد أن صناعة «منتظمة» للعظام قد وجدت في «شوكوتين» بالفعل».

وقبل ذلك بشهور قليلة (٢٠ مارس ١٩٣٢) عبر «تليهارد» عن هذا الرأي في رسالة إلى «جيه .ج. اندرسون».

(١) المرجع نفسه ص ٥٤.

[وفيما يختص بـ «شوكوتين» فلعلك تسلمت البحث الذي كتبه «بي» (وربما بحث «برويل» أيضا) حول هذه «الصناعة» المكتشفة حديثا، ومنذ أن نشر هذان البحثان، جمعنا أو استخرجنا عددا كبيرا من العينات الجديدة التي تشتمل على مجموعات ضخمة من رقائق جلمودية مستديرة. على أنني آسف فعلا لأنني لست على اتفاق كامل مع صديقي العزيز «برويل». ان ما أشعر به حاليا يتمثل فيما يلي:

١ ـ الأحجار من صنع انسان بالتأكيد.

٢ ـ ولكن، حتى في حالة افتراضنا أن هذه الصخور البلورية في أحسن حالات صنعها، فان هذه الصناعة تبدو بدائية جدا. لم استطع التعرف على «نقطة ارتكاز» واحدة وصادقة. فعلى سبيل المثال ليس ثمة شيء ماقريب في أي مكان، يمكن مقارنته بالصخور الكوراتزية الموجودة في فرنسا، والمتصلة بمفاهيم العصر الموستيري.

٣ ـ اما تصنيع العظام وقرون الوعول فتبدو لي مسألة أكبر من أن تكون محل تساؤل. انني أظن ان «برويل» قد انخدع في المظاهر التي تحدث في أية طبقات مكونة للعظام دائما. ومن المنطقي هنا أنه مسبوق بلمساته وتمييزه لصناعة متشابهة لذلك في هياكل الأسرة المعروفة باسم «نيهوران سوميريان». وهو افتراض بعيد[1].

انني أكره اختلافي هذا مع «بر ويل» لأنني أحبه جدا وطالما ولأنني مسئول إلى حد ما، عن قدومه إلى الصين، ولكن ماذا في مقدوري أن أفعل؟

أن أخطر نقطة في الموضوع أن نثبت ـ وبلا أدنى شك ـ أن صانع هذه الأدوات هو الـ «سينانثروبيس» نفسه. ولكن وجود عظام الفك وجزء من الجمجمة، مع الأدوات، يبدو مقنعا نوعا ما بأنه انسان متكامل.

إنني أعد مع «بن» الآن بحثا جديدا حول هذه القضية. ولكم نأسف انك لاتستطيع ان تحضر معنا هنا، ولو لبضعة اسابيع على الأقل، اننا في حاجة إليك!!...

(١) المرجع السابق ص ٥٥.

لك تمنياتنا بالتوفيق في عملك].

«تيلهارد دي شاردين»

وقد حدث عندما كان «تيلهارد» و «دافيد سون بلاك» في طريق عودتهما من المؤتمر الجيولـوجي الدولي في «واشنطن» عام **١٩٣٣** ان تلقيا برقية من «بكين» تعلن عن اكتشاف يمكن أن يؤدي إما إلى أن يحسم الأمر بوضوح أو إلى أن يزيد من تعقيد الموقف في «شوكوتين».

ففي أعلى قمة تل «شوكوتين»، حيث كان قد تم التنقيب في المكان نفسه من قبل، حفر خندق واقيم ممر غائر، بناء على أوامر من «تيلهارد» وذلك بهدف إيجاد ممرات جانبية إضافية للطبقات «السيناتثروبية» الموجودة في القاع شمال حفرة التنقيب. وفي أثناء هذه العملية اكتشف العمال تحت ركام الحفر. في أعلى التل، مغارة محصنة، هي التي عرفت باسم «المغارة العليا». وقد استعملت كمأوى للحيوان وللانسان. وهناك عثر على بقايا انسانية ـ تشتمل على ثلاث جماجم في حالة جيدة وتتصل بفترة أحدث من الـ «سينانثروبيس» ـ وقد امتزجت ببعض الهياكل المتحجرة للضباع والدببة والماعز البرية والنمور والوعول وعظام النعام والزياد. وفي وسط هذا الخضم تكمن أدلة ذات دلالات ثقافية مختلفة تتصل بوضوح بالعصر الحجري الحديث (أسنان وجماجم مثقوبة، وأحجار مصنوعة بدقة أكبر، وعقود من العظام وقرون وعول مصقولة)[١].

نشـأة اللغات عند الانسان حسب المفهوم الدارويني:

لقد ظل العلماء منذ زمن طويل يبحثون في نشأة الكلام، وتقدموا في هذا الشأن بنظريات لا تحصى كثرة.

ومن أقـدمها نظرية كانت شائعة عند الأغريق الأقدمين خلاصتها أن الكلمات الأولى التي تفوه بها الانسان كانت ضربا من محاكاة الأصوات، أي تقليد الأصوات التي ترتبط بضروب النشاط المختلفة عند الانسان في مصر ما قبل التاريخ. ونظرية أخرى تقول أن الكلمات نشأت من صيحات الخوف والذعر والفرح.. الخ، وهي صيحات لاتتضمن ألفاظا واضحة، وتقول إحدى النظريات الحديثة أن الكلام كان

(١) المرجع نفسه ص ٧٢.

مجموعة من الاشارات والأصوات التي استخدمت للدلالة على حدث معين، فادت إلى ظهور الكلام[1].

ولكن ما من نظرية من هذه النظريات تفسر لنا كيف تحولت الصيحات أو الأصوات التي قلدها الانسان إلى كلمات ومقاطع واضحة، أو تدلنا على العوامل التي حددت نمو النشاط العقلي الذي ترتبط به ملكة الكلام ارتباطا وثيقا. وذلك أن مقدرة الإنسان على الكلام هي الميزة التي تميزه قبل كل شيء عن الحيوان.

ويعتبر البروفيسور [بوناك] من أشد الداروينيين تعصباً في فكره، ويتضح ذلك من قوله:

. . . «والعلم الحديث يجعل بداية التطور البشري في مستهل الدور الجيولوجي الرباعي منذ نحو ١٨ مليون سنة عندما ظهر فرع من الرئيسيات ذات القدمين (أرقى ذوات الثدي). وكان هؤلاء البشر ـ أقدم أسلاف الانسان ـ يعيشون في السهول المكشوفة، ويأكلون اللحم والفاكهة والغصون الخضر والجذور وبيض الطيور والديدان الصغيرة وغير ذلك[2].

ولما كانوا مزودين بالوسائل اللازمة للحياة في السهول المكشوفة فقد تعلموا استعمال الأشياء كأسلحة يدافعون بها عن أنفسهم، وكأدوات للحصول على طعامهم، فاستخدموا الصخور ليقذفوا بها أعدائهم أو فرائسهم، وشظايا العظام لتنظيف الجيف، والعصي والأصداف لاقتلاع الجذور ـ الصالحة للأكل.

وأصبحت هذه الآلات عوامل أساسية تساعدهم في حياتهم اليومية، وتضاعف من قدرة أيديهم، وتحل محل مخالب الدواب الطويلة الحادة».

ويقول [البروفيسور فيكتور بوناك] أيضا:

«فمن المقرر أن سلوك الحيوان محكوم بالغرائز، وهي سلسلة من الأعمال التي يرتبط بعضها ببعض بصورة آلية ولا يعتريها تغير مطلقا، أما الأعمال المبنية على الاختيار والتجربة والخطأ فهي عند الحيوان نادرة ـ جدا.

---

(١) فيكتور بوناك ـ الانسان أول من مشى وتكلم ـ اليونسكو ـ العدد السابق ذكره ص ٥٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٥١.

فالشمبانزي ـ مثلا ـ يستطيع أن يستخدم العصا لتناول قطعة مرغوب فيها من الطعام . ولكن إذا أعطيته عصاتين صغيرتين فانه يلهو بهما بدلا من أن يستخدمها لتناول الطعام . وإذا حاول أن يصل العصاتين معا ليتناول الطعام فإنه يضطر إلى بذل محاولات مضنية ومتكررة بحيث لا تكون لها أي قيمة عملية . والسبب في ذلك أن هاتين الفكرتين : فكرة «الاستعانة بالعصا» وفكرة «اطالة العصا» لاترتبطان في ذهنه ، بل توجد كل منهما مستقلة عن الأخرى[1]» .

ولم ينجح استخدام الآلات ـ إلا بالصدفة كما هو حال الحيوان ـ إلا عندما أخذ اختيار المواد ومعالجتها يتفقان مع هدف مقصود ، وبعبارة أخرى . عندما يوجد ارتباط بين سلسلة الأعمال .

ويعلن [بوناك] صراحة عن خطه الدارويني قائلا :

«وقد خرج الانسان في النهاية من عالم الحيوان عندما أصبح قادرا على أن يكون في عقله صورا ذهنية للاشياء والأحداث المختلفة ، وان يميز بينها ، وان يربط بعضها ببعض . وهـذا مكن الانسـان من أن يكون مدركات حسية عن الخواص المشتركة لأنواع الأشياء . والصور الذهنية لهذه المدركات الحسية المرتبط بعضها ببعض هي ما نسميه المعاني الكلية . وقد كانت القدرة على تكوين المعاني الكلية هي أول ميزة رئيسية تميز «الانسان العاقل» عمن سبقه من البشر .

وكانت المرحلة الثانية في تطور الانسان هي القدرة على الربط والتفرقة بين الخواص المشتركة لأنواع الأشياء» .

ويرى علماء (التطور) أن :

الكلمات الأولى كانت قليلة وحيدة المقطع تتعلق بالأشياء المادية والحقائق الأساسية في حياة القوم البدائيين ، وبخاصة جمع الطعام ، وربما كانت تتعلق ببعض المدركات الحسية ذات المعنى السحري . ثم تكونت كلمات جديدة بمضاعفة المقاطع أو قلبها أو بإحداث تغيير في طبقة الصوت ودرجة النغم ، وحدث في أول الأمر أن أجاد فرد أو عدة أفراد النطق بهذه الكلمات ، ثم تبعتهم الجماعة كلها في ممارسة هذه الكلمات عند

---
(١) المرجع نفسه ص٥٢ .

الحاجة ثم تعدلت هذه الكلمات بالاستعمال .

وفي أثناء العصر الحجري المتأخر أثرى إنسان نياندرتال مفردات لغته بالتدريج ، ولكن يبدو أن ملكاته العقلية وكلامه بقيا على المستوى نفسه في الكلمات المنفصلة ، ثم طرأ تغيير كبير في نهاية العصر الحجري في زمن العصر الجليدي الرابع أو النهائي ، عندما ظهر الأسلاف المباشرون للانسان الحديث (الانسان الحالى) منذ نحو ٣٠٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ سنة[١] .

ويرى العلماء أن مخ هذا الانسان القديم كان يعادل في حجمه مخ أسلافه ، ولكن جمجمته كانت ذات قبة أعلى كما كانت أكثر استدارة وبخاصة الجبهة والقفا . وكان الفك الأسفل أصغر ، وكذلك كانت منطقة الاتصالات العضلية أقل مما ساعد على النطق السريع بالكلمات نطقا واضحا . وكانت الاتصالات العضلية في الفك الأسفل مماثلة أيضا لنظائرها في الانسان الحديث في حين أن العظمة الموجودة في الخارج برزت إلى الأمام لتكون الذقن .

وقد أحرز هؤلاء القوم ـ أهل العصر الحجري الحديث ـ تقدما كبيرا في أساليب قطع الأحجار ، فصنعوا آلات ذات أنواع كثيرة أكثر اتقانا ومنها الأدوات المصنوعة من العظام ، بل لقد صنعوا الابر أيضا . وتقدم فن الزخرفة والنحت والرسم والتصوير . وكانت حرفتهم الأساسية هي بالطبع صيد الحيوانات المتوحشة[٢] .

وفيما يتعلق بالتكنولوجيا والاقتصاد والفنون ، فإن أهل العصر الجليدي الأخير في أوروبا وصلوا إلى مستوى من المعيشة وأسلوب في الحياة لا يقل بحال من الأحوال عن بعض القبائل التي تشتغل بالصيد وجمع الطعام في الوقت الحاضر . ولا ريب أنهم استطاعوا أن يكونوا مجموعات مزدوجة من المعاني الكلية والكلمات (تربط بين الحدث ، وموضوع هذا الحدث) وبعبارة أخرى ان كلامهم واضح النبرات[٣] .

وبظهور انسان العصر الحجري الجديد الذي جمع بين الكلمات المنفصلة والمعاني المختلفة ينهي تاريخ نشأة الكلام بوصفه سمة عامة من سمات البشرية . وقد شاهدت

---

(١) فيكتور بوناك ـ المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) المرجع نفسه ص٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧١ .

العصور التي أعقبت ذلك العصر وضع لغات مختلفة لها أصواتها وتراكيبها اللغوية والنحوية.

● **ويقول البروفيسور [فيكتور بوناك] عن نشأة اللغات عند الانسان القديم:**

«... وتدل الأبحاث التاريخية والأثرية واللغوية على أن اللغات الاساسية ظهرت في أوائل عصر المعادن منذ نحو ٦٠٠٠ أو ٩٠٠٠ سنة. في حين أن نشأة كثير من اللغات المعاصرة ترجع إلى عصور تاريخية[١].

وعلى طول هذا الخط الممتد إلى ما لا نهاية، الذي سلكه الانسان في تطوره، تصادف القليل نسبيا، من الأعمال الفنية.

وفي استطاعتنا، على أحسن تقدير، أن نتخيل أسلاف الانسان الحديث، ومداركهم تنمو وتتطور بالتدريج، وقد استجابوا لدوافع جمالية عارضة، فراحوا يستخدمون أصواتهم، ويدقون بعض الايقاعات ويؤدون بعض الحركات الجسمية، فكانوا على هذا النحو رواد الغناء والموسيقى والرقص.

فإذا اقتربنا من انماط الانسان الأكثر شبها بالانسان الحديث ـ انسان نياندرتال. على سبيل المثال ـ أمكننا ان نضيف إلى هذه الأشكال الفطرية من الابداع الفني أولى دلائل الحفر والتصوير والنحت.

ولم يكتشف حتى الآن أي عمل فني مركب له معنى، من انتاج هذه العهود السحيقة، ولكننا نعلم يقينا أنه منذ ٤٠٠٠٠ أو ١٠٠٠٠٠ سنة مضت كان اناس نياندرتال يستخدمون المغرة (الحمراء) الطبيعية. بل لعلهم قد حفروا خطوطا على شظايا العظام بسن حجر الصوان.

غير أنه لايوجد مع الأسف سوى القليل من الأشياء التي تساعد المشتغل بشئون ما قبل التاريخ على معرفة الكيفية التي نشأت بها الفنون، ومنها آثار قليلة من الخضاب تثبت أن الناس كانوا يهتمون بالألوان. وكانت الأحجار الغريبة الشكل والقواقع المتحجرة التي وجدت بين الأدوات المصنوعة من الصوان وبقايا اللعب في المواطن السكنية القديمة تدلنا على أن أجدادنا الأقربين قد جذبتهم الأشكال الطبيعية

---

(١) المرجع نفسه ص٧٢.

الفطرية، ورسخت هذه الجاذبية نحو «طرائف الطبيعة» بقوة في تصرفات الانسان الجمالية، وظلت حية على مدى التاريخ في وجدانه وكيانه.

المهارات الفنية عند الأجناس البشرية القديمة

كان لا ناس نياندرتال، أي ذلك النمط من الجنس البشري الذي سبق نمطنا مباشرة، مطالبهم الجمالية، وكذا الوسائل التي تيسر اشباع هذه المطالب، نلمس ذلك في مهاراتهم الفنية المتقدمة بالفعل.

وكان تشكيل الأدوات الحجرية داعيا إلى ابتكار رسوم سرعان ما اتخذت خطوطا منتظمة (منها اشكال بيضاوية ونصال بجوانب متوازية تقريبا ومثلثات، وغير ذلك). وكان أول انتاج لمثل هذه الأشكال المصطنعة قد أملته الأساليب المستعملة في إعداد كتل من حجر الصوان التي تنحت منها الأدوات.

وعلى الرغم من انه قد ثبت ان شظايا حجر الصوان التي كانت مشروخة بطبيعتها، كان يمكن استخدامها كما هي كأدوات، فانا نلحظ خلال المليون سنة الأولى التي سبقت تاريخ الجنس البشري سعيا دائبا لتدبير الوسائل الخليقة بتوحيد انماط الأدوات المصنوعة. ونجد فوق ذلك تطورا متدرجا في الأساليب التي نستطيع أن نتعرف بفضلها على الأشياء التي تنتمي إلى مختلف العصور.

ان البحث عن الآلات الفعالة والحاجة إلى استخدام المواد الأولية المتاحة استخداما اقتصاديا ليفسران بجلاء هذا التطور في صنع الآلات. غير أن الحقيقة التي لها دلالة هامة هي أن هذا التقدم التكنيكي المطرد يلازم الاتقان المتزايد للاشكال الجمالية.

ومع ذلك فانه لايتيسر التحدث عن أعمال فنية حقة تنتمي إلى أبعد من ٤٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أعمال لم تبدع بها يد الانسان أشياء مادية فحسب، وإنما ابتكرت فوق ذلك فكرة ورمزا.

● **وفي ذلك يقول البروفيسور «بوناك» :**

. . . « من العسير أن نسطر خطوطا تفصل بين المراحل المتعاقبة لتطور الانسان، مادامت هذه المراحل لا تختص، من الوجهة النظرية بالمخلوقات السابقة للانسان، ونحن منذ البداية نتعامل مع اناس اكتسبوا شيئا فشيئا سمات البشر حتى ادركوا عصرنا الحاضر. ويصدق الشيء نفسه بالنسبة إلى الفن الذي لم يظهر فجأة بصورته الكاملة، وانما قد نما وتطور على مر العصور. وعلى ذلك فان اهتمام انسان نياندرتال بطرائف الطبيعة أو بالأصباغ قد حدد مرحلة حاسمة في تطور مستمر بلغ أوجه فيما بعد.

هذا التطور الذي ينعكس في طبيعة البشر في الوقت الحاضر، قد ارتبط على الأرجح بظهور اللغة، أو على أية حال، بالقدرة على التعبير عن المجردات واليد، شأنها شأن الأعضاء الصوتية، تعبر عن الفكر بصدق وأمانة، . وعلى الرغم من أننا لانملك، حتى ظهور الكتابة، أي دليل مباشر للتعبير الشفوي (الذي ينبع من المراكز المنحية التي ينبع منها التعبير اليدوي)، فانه ليس ثمة مايمنعنا من أن نفترض ان اللغة والمهارة التكنيكية كانتا متلازمتين على مدى التطور البشري.

ولكن إذا كانت اليد منذ البداية قد حملت للفكرة شكلا يتبدى خلال تصوير الفنان الصانع، وتركت ذكرى مطبوعة خالدة تمثل السعي اللاشعوري وراء خلق الأشكال، فانه لم يعثر، بين مخلفات الأناس الذين عاشوا منذ نصف مليون أو مليون سنة ماضية، على أي أثر لأشكال مرسومة بوعي وإرادة، ولها وظيفة رمزية أكثر منها عملية». ثم يقول «بوناك» :

. . . «والشيء الذي لم تعبر عنه اليد لا يحتمل أن يكون له وجود في اللغة. ويبدو أن كل تغيير كان لابد له حتى يتم أن تصل عملية التطور العقلي والثقافي إلى مرحلة معينة. وقد تخطى الانسان «العاقل» ـ وهو النوع البشري الحاضر ـ هذه المرحلة منذ حوالي أربعين الف سنة.

والشيء العجيب ان الحلي (الاسنان المثقوبة والدلايات) قد ظهر أنها ايضا ادنى المحاولات في سبيل الفن التعبيري. وتبدو وسائل التعبير البارزة وكانها تترجم في الوقت نفسه رموز السلوك الاجتماعي (كما هو شأن الحلي) ورموز التعبير المجرد. الأمر

الـذي يؤكـد الـرابـطة بين التعبـير الشفـوي، والبـاعث الجمالي. وهو دائما حامل الأحاسيس الاجتماعية بأوفى معانيها. ولا وجود لهذا الباعث لأنه وسيلة للتعبير عن مشاعر القوة أو الحب أو الخلجات الدينية أو اضفاء شكل على هذه الأشياء.

وفي امكـاننا ان نحكم بأن فنون ماقبل التاريخ، زخرفية كانت أو تعبيرية، قد خضعت للقواعد التي خضعت لها الفنون التي أعقبتها، ومن العسير تحديد التاريخ الذي انبثقت فيه هذه الفنون، لأننا لانعرف شيئا عن عهود ماقبل التاريخ في كل بقاع العالم، ولاننا فوق ذلك نتعامل مع فترة متطورة لا مع لحظة معينة من لحظات الزمان. هناك دائما مخترع وراء كل تجديد، ولكن تلوح وراء المخترع خلفية اجتماعية وتاريخية كاملة. وعندما تغطى الحقائق الكثيرة من المراحل الصغيرة المتناثرة على مدى الآف السنين، كما في هذه الحالة، فانه من السذاجة التحدث عن «اختراع» التصوير أو النحت[1]» ثم يقول [بوناك]:

.... [ويغطى علمنا الحقبة الأخيرة من عصر انسان نياندرتال الأوربي، ونهاية العصر الجليدي الأخير (من عام ٥٠٠٠٠ قبل الميلاد على وجه الاحتمال، حتى عام ٩٠٠٠ ق.م على وجه التأكيد). وكانت البدايات بطيئة للغاية، وقد انصرم أكثر من نصف هذه الفترة قبل أن تظهر التصويرات الكبرى أو النقوش البارزة في كهوف غرب أوربا. ثم كان في النصف الثاني من هذه الفترة عدد هائل من الكهوف المزينة في أسبـانيا وفرنسا وايطاليا، بل كذلك في مناطق الأورال. وغزارة في التماثيل والصور المحفورة على طول الطريق من المحيط الأطلس إلى بحيرة بيكال في سيبريا. ولا ريب في أن اعمالا تنتمي إلى هذه الحقبة الطويلة من التطور الفني سوف تكتشف في بقاع أخرى من العالم. غير أن الآف الصور والنقوش المحفورة التي اكتشفت حتى الآن في أفريقيا وجنوب أسيا، على سبيل المثال، كانت تنتمي إلى عصور أكثر حداثة، ولا يقلل ذلك بالطبع من قيمتها أودلالتها[2].

وثمة نقطة هامة ينبغي أن نذكرها، فيما يتعلق بفنون [ما قبل التاريخ]: ذلك أن وسائلها التكنيكية قد بلغت نضجها الكامل منذ البداية وهذا مايميز الخلق الفني من

(١) فيكتور بوناك ـ المرجع السابق ص٧٢.
(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

الاختراع التكنيكي تمييزا جذريا.

فالصيد البري والصيد البحري والغزل والنسيج والمهارات المنزلية نمت وتطورت ببطء حتى أدركت وقتنا هذا. وليس في الامكان ان نتصور انسان ما قبل التاريخ وهو يخترع طائرة على أساس من المعارف العلمية التي كانت متاحة له في مجتمعه، ولكن الفنان كان يملك من فوره كل وسائل التعبير عندما يحصل على تراب ملون، وآلات من حجر الصوان الذي كانت كفاءته في القطع أعلى من كفاءة الكثير من المعادن .

وأتى الزمن بأساليب جديدة، كأنواع الفسيفساء، والتصوير الزيتي وألوان جديدة كالأخضر والأزرق، وكثير من التنوعات في التنفيذ. ولكن الفنان كان في مقدوره منذ البداية أن يعبر عن ذاته تعبيراً كاملا من حيث الأشكال والتبيانات في الألوان والبروز. الموقف اذن بين الفن وبين التكنولوجيا مختلف كل الاختلاف.

ففيما يختص بالكتنولوجيا، يمكن الاغضاء عن عامل الخيال الخلاق لدى الانسان الصانع قبل التاريخ، إذا ما أخذنا في الاعتبار الآلات التي كان يملكها. أما مستوى انجازاته فانه يتناسب مع المرحلة التي بلغها مجتمعه تبعا لعصره ووضعه الجغرافي(١).

أما بخصوص الفن فان لصلته بالبيئة التقنية والاجتماعية طابعا آخر. فالأعمال الفجة وكذا الأعمال التي تبلغ درجة فائقة من القدرة التعبيرية قد توجد معا في مجتمع واحد، جنبا إلى جنب، أو على التعاقب.

وفيما يختص بالنحت والحفر. فحجر الصوان كان مناسباً تماماً لقطع العظام وكتل الحجر الناعم وجدران الكهوف والصخور الناتئة أو نحتها، بل انه من الميسيور رسم الأشكال بأصبع اليد على الصلصال أو تشكيل الطين باليد. كانت مثل هذه الأعمال إذن موجودة منذ البداية. ولم يظهر النقش الغائر إلا في زمن أحدث نسبيا، لايبعد عن ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد على الأرجح. ولكن محاولة الحصول على التأثيرات ذات «الأبعاد الثلاثة» سمة بارزة تميز تطور فن ما قبل التاريخ(٢).

وفيما يتعلق بالأعمال الفنية «المجوفة» فإنها نقطة تستحق التنوية. فالنقش الغائر لاوجود له إلا في تجاويف ينيرها ضوء النهار، وذلك لأسباب عملية. ويبدو أن تنفيذ

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤.

(٢) المرجع السابق ص ٧٤.

الرسوم كان يستغرق عدة أسابيع، وهذا العمل داخل الكهوف يتطلب نوعا معينا من الاضاءة، مع ضرورة البقاء مددا طويلة تحت الأرض.]

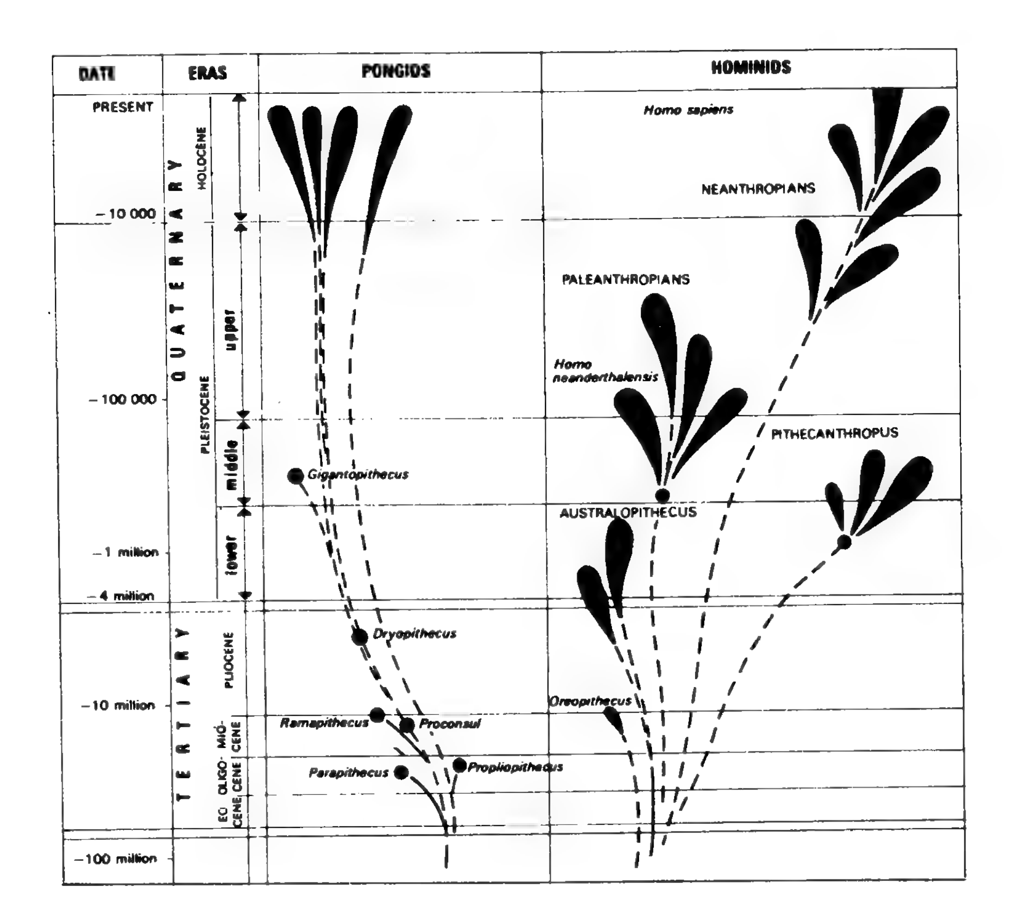
وقفة لابد منها

اني أجد نفسي عاجزاً عن الاستمرار في [عرض] آراء [الداروينيين المحدثين] بما فيها من شطط، وتحريف وضلال وبعد عن العلم والحقيقة، قبل أن أعلن للبشرية جمعاء الحقائق التالية:

● أن الداروينيين المحدثين اتخذوا من مذهب [داروين] وكلامه عن الأعضاء الأثرية وسيلة لنفس الغاية والحكمة من الخلق فأنكروا [الخلق الدفعي المباشر] الذي ذكرته الكتب المنزلة، وزعموا أن الإنسان أصله من القرود، واستدلوا ببعض الشبه بين القرد والانسان .. ولكن هؤلاء القائلين بنشوء الإنسان من القرد تحيروا في كيفية انتقال القرد من الحيوانية إلى الانسانية، نقلته الأخيرة، فقال بعضهم أنها حصلت فجأة وقال آخرون انها حصلت بالتدريج... وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات اللأرض فلم يجدوا لها أثراً... ولم يتمكنوا حتى اليوم من ذلك.... مما هدم الأساس الكاذب لافتراءاتهم.

● أثبت العلماء أخيراً بطلان ادعاء [الداروينيين المحدثين] أن العظام التي عثروا عليها هي للانسان القرد... ومن هؤلاء العلماء البروفيسور [جال بيفتو] رئيس المجمع العلمي الفرنسي. فقد كرس حياته قرابة خمسين عاماً لدراسة أصل الانسان، واستطاع أخيراً أن يؤكد أن الانسان ليس له أدنى علاقة بالقرد.. كما أثبت أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشري وجنس القردة الكبيرة قد سقطت من الأساس بعد أن وضع يده على أدلة تثبت أن ما عثر عليه [الداروينيون المحدثون] من عظام وجماجم ليست إلا لمخلوق ذكي عاقل سوى هو الانسان الأول.

● أن البحث العلمي الذي أجراه أخيراً الدكتور [جونسون] أستاذ علم الأجناس البشرية على الهياكل العظمية القديمة للانسان التي يقدر عمرها بثلاثة ملايين من



رسم تخطيطي يوضح تطور أشكال «الهومينيدات» كما تراه إي . جنيت فارسين E. Genet - Varcin كما جاء في الموسوعة العالمية المجلد الثامن ص٤٩٩ .

وكما هو واضح ، فإن جنيت فارسين تعتبر أنه ابتداء من الحقب الثالث (منذ نحو ٦٠ مليون سنة) فإن السلسلة التي نتج عنها القردة الكبار ـ مبينة إلى اليسار ـ والسلسلة التي منها إنسان اليوم مبينة إلى اليمين ـ منفصلتان تماما عن بعضها البعض . وحتى بالنسبة للفترات السابقة على الحقب الثالث فليس هناك من دليل يوحي بوجود الأصل أو المنشأ المشترك .

السنين، أثبت أنها للانسان القديم سوي الذي كان يسير منتصباً على قدميه منذ بداية تاريخه الانساني، وخرج الدكتور [جونسون] من حفرياته في الحبشة وكينيا. . . وتشاركه في ذلك الأستاذة. . [إى. جنيت فارسين]. . بالحقيقة الآتية:

[إن الانسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت، إنما كانت سلالته متميزة فريدة مستقلة].

● وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية، وتقريرات العلم الحقيقي متأكدون مما جاء به الدين الحق، الإسلام، من أن الإنسان خلق خلقا مستقلاً وأنه سيد المخلوقات، وصدق الله العظيم في قوله سبحانه وتعالى:

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾ «التين/ ٤»

وكل ذلك يدل على تحضر الإنسان القديم. . . واستحقاقه الخلافة في الأرض، واستقلاله بالنشأة السليمة في أحسن تقويم واكرم منزلة.

الذين مهدوا الطريق لداروين

لم يكن «داروين» أول من (فكر) في تطور الكائنات الحية كما لم يكن أول من (زعم) بارتباط تطور الانسان بسلالات أخرى تنتمي (بطريقة ما) لنوع من القردة العليا. . . فقد توصل الدكتور الفريد رسل «Dr. Alfreed Russel» إلى نفس (ما فكر) فيه «داروين» قبل أن ينشر (الأخير)كتابه: (أصل الأنواع) بحوالي ١٧ شهرا كما توصل العالم الفرنسي البيولوجي الشهير «جان بابتيست لامارك ـ Jean Baptiste Lamarck ١٧٤٤م ـ ١٨٢٩م ـ قبل أن يولد داروين بربع قرن ـ إلى قانون الاهمال والصفات المكتسبة. كما لم يكن «داروين» أول من ذهب إلى القول بأن الانسان قد ظهر (نتيجة) لعملية تطور طويل وبطىء من حالة (الحيوانية) كما يمكن القول بأن العلوم الفيزيائية كانت قد اتخذت بالفعل اتجاها تطوريا في مناهجها قبل أن يظهر كتاب «داروين» عن أصل الأنواع.

وعندما يتطرق المرء اليوم لموضوع التطور، فلابد من أن ينصرف ذهنه تلقائيا إلى [داروين]. أَوَلَمْ يكن هو الذي فسر قرب منتصف القرن التاسع عشر نشوء الكائنات الحية بشتى اشكالها تفسيراً يناقض كل مبادىء العلم والدين؟ غير أنه لاينبغي أن ينسينا كتابه الشهير أصل الأنواع الذي ظهر في ١٨٥٩، ثراء تاريخ مذهب التطور. ذلك لأن هذا التاريخ قد بدأ قبل [داروين] وامتد بعده وربما لم تطو صفحاته بعد، أو كما يقول التعبير السائر: ان مذهب التطور قد تطور... وكان [داروين] نفسه على وعي بهذه الحقيقة كما يتضح من «النبذة التاريخية» التي أضافها إلى كتابه أصل الأنواع.

فقد نوه في هذه النبذة أولا بعدد من مفكري العصور القديمة. والواقع أن بعض الفلاسفة الإغريق قد أدركوا في شيء من الغموض أن الكائنات الحية لابد أن يكون قد اعتراها التغيير والتبديل فكان [انكسمندروس] اليوناني في القرن السادس قبل ميلاد المسيح يرى أن «الانسـان قد نشأ في البداية من حيوانات من جنس آخر». والدليل على ذلك في رأيه أن الكائن البشري في مرحلة نموه الأولى يظل غير قادر على تغذية نفسه بنفسه.

● ومما قاله «انكسمندروس»:

.... «إن نشأة المخلوقات الحية منسوب إلى تأثير الشمس في الأرض، وتمييز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة، وأن الأرض كانت في البدء طينية ورطبة أكثر مما هي الآن، فلما وقع فعل الشمس فارت العناصر الرطبة التي في جوفها، وخرجت منها على شكـل فقاقيع، فتولدت الحيوانات الأخرى، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة، وكانت مغطاة بقشرة غليظة تمنعها من التحرك والتناسل وحفظ الذات. فكان لابد من نشوء مخلوقات جديدة... أو ازدياد فعل الشمس في الأرض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها، أما الانسان فظهر بعد الحيوانات كلها... ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها، فخلق أول الأمر شنيع الصورة!!!!... ناقص التركيب.... وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة.

ومما سبق ذكره من [تخريف] هذا الفيلسوف اليوناني، يمكن التوصل إلى الآتي:

ـ أنه رد ظهور الحياة إلى أنها طبيعية صرفة . . . إذ ذكر أنها نتيجة لاختلاط العناصر بحرارة الشمس وأثرها فيها .

ـ أنه أشار إلى تقلب الأحياء في [صور] من الارتقاء والنشوء حتى بلغت حالتها الحاضرة، ولم يستثن ذلك [المخرف] الانسان من تلك المراحل التطورية، بل اعتبره خاضعاً لأثر الانقلابات التي خضعت لها الأحياء كافة على حد زعمه .

وثمة مفكر يوناني آخر هو [امبيدوكليس الأجر يجنطى] كانت له في القرن الخامس قبل الميلاد أفكار غريبة عن نشوء الكائنات إذ كتب يقول :

● «ظهرت على الأرض رؤوس بلا أعناق، وهامت على سطحها أذرع بلا أكتاف، وتنقلت في أرجائها عيون بلا جبهات . . ». وفي رأى هذا المفكر أن هذه الأعضاء المنفصلة قد التقت والتحمت بفعل الحب فنشأت عنها الكائنات الحية . ويجد المرء لديه ما ينم عن فكرة الانتخاب الطبيعي فالكائنات التي لمن يكن لديها مقومات الحياة والنمو قد قضى عليها (كالبقرة التي لها رأس انسان مثلا) بينما بقيت الكائنات التي صح تكوينها !!!

ومن هنا ظن بعض المؤرخين أن أفكار [أمبيدوكليس] كانت نذيراً بقدوم «الداروينية» . غير أن ذلك رأي يصعب إقراره . وقد كان لبعض المفكرين القدماء أحياناً رؤى ملهمة تستلفت النظر من هؤلاء الشاعر والفيلسوف اللاتيني [لوقراتيوس] الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد ووصف على نحو أسطوري «الصراع من أجل الحياة» . وفي رأيه أن من الممكن تفسير منشأ الحيوان بقوانين الطبيعة وحدها دون اللجوء إلى تدخل الآلهة . ولكن هذه الأفكار أيا كانت منهجيتها، لم تطور قط بشكل منهجي منظم . وكان علينا أن ننتظر عدة قرون حتى تظهر تأملات أكثر تحديدا . فلم يؤذن بميلاد مذهب التطور المشئوم إلا في القرن الثامن عشر .

ومن المحتمل أن يكون استحداث المنهج التاريخي قد لعب دورا ما في اتضاح الأفكار البيولوجية الجديدة ذلك أن المفكرين قد اخذوا يتعودون شيئا فشيئا على الأخذ بنهج تطوري في تناول الواقع الاجتماعي (العادات والتقاليد، والمؤسسات، والانتاج، الثقافي . . .) فلا غرو أن يطبق هذا المنهج أيضا على دراسة الطبيعة . وينبغي ألا يعزب عن البال أن المسيحي في ذلك العصر كان عنصرا غالبا في الثقافة الغربية ويرى

بعض العلماء أن [اخـوان الصفـا] قد أشـاروا إلى [التطور] استنادا إلى ما ورد في رسالتهم حول الفرق بين النبات والجماد، خصوصا الفقرة التالية:

واعلم يا أخي أن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلي التراب هي خضراء الدمن، وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النحل، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبـار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار، ثم يصيبها المطر، فتصبح بالغدات خضراء كأنه نبت زرع وحشائش، فإذا أصابها حر الشمس في نصف النهار يجف، ثم يصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم، ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا في أيام الربيع في البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها»..

وانتقلت تلك الأفكـار إلى أوروبـا. وطبقـا لتفسيرات الكتاب المقدس السائدة انذاك. فإن شتى الأنواع النباتية والحيوانية قد خلقها الله مباشرة وانها مستقرة لا يطرأ عليها أي تغيير. لذلك كان يلزم قدر كبير من الجرأة للتصدي لهذا الاعتقاد خاصة وأن علوما مثل علم الأحافير وعلم الأجنة كانت لاتزال في مراحلها الأولى. وبالرغم من كل شيء فقد غامر بعض المفكرين الجسورين بالقول بأن الكائنات الحية ربما تعرضت «لتحولات» على مر الأجيال.

وعلى سبيل المثال، ذكر الفرنسي [بنوا دي مايية] Benoit de Maillet في كتاب لم ينشر إلا بعـد وفـاته في سنة ١٧٤٨، أن جميع الكائنات الأرضية ربما كان منشؤها كائنات بحرية مناظرة. وفي رأيه أن أنواعا من الأسماك قد ألفت الحياة على اليابسة وانجبت حيوانـات جديدة (كما انجبت طيوراً أو كائنات أخرى)، وعلى نحو مماثل انجبت الفقمة الفيل الأرضي، وأتى الانسان بدوره من مخلوق بحري (هو سمندل الماء !!!). ولا شك أننا ننظر اليوم إلى [بنوا دي ماييه] على أنه كان حالما بوهيميا مفرط الخيال. غير أن مفكرين آخرين ينتمون إلى نفس الفترة تقريبا قدموا أفكاراً هامة وغريبة للغاية.

فقـد سجـل مؤرخـو العلم أن [بيير دي موبـيرتوى] ربما تكون قد راودته قرب منتصف القرن الثامن عشر «فكرة واضحة نوعا ما عن عملية الطفرة».

وهذا كله يعني أن (أصل الأنواع) ظهر في جو مشحون بالتفكير التطوري (ورث فيه «داروين»... ولم (يبتكر) مشكلة الاهتمام العام بالتطور حسبما قال البروفيسور

(ليونتن)[1] Lewontin وهذا هو ما أوضحه «هربرت سبنسر» أيضا في كتابة (مبادىء البيولـوجيا) «Principles of Biology » والذي نشر بعد كتاب «داروين» بخمسة أعـوام، رغم أن «سبنسر» سنـة ١٨٥٠ ـ أي قبـل ظهور كتاب «داروين» (أصل الأنواع) بتسع سنين كان يضع أسس نظريته عن (التطور الاجتماعي) ويربط ذلك بالتطور العضوي وذلك في أول كتبه وهو كتاب Social statistics مما يعني أن تفكير «سبنسر» التطوري كان مستقلا عن «داروين» ـ على الأقل ـ في بداية الأمر.

ويبـدو أن اتصـال «هـيربرت سبنسر» (بالتفكير التطوري) كان أقدم من ذلك بكثير. فهو يرجع إلى سنة ١٨٤٠ بالذات حين قرأ كتاب «تشالز لايل» عن مبادىء الجيولـوجيا Principles of Geology الـذي تعـرف فيه عن فكـرة (التـطور) عند «لامارك». . وتخمرت الفكرة لديه عقب اطلاعه على مبدأ (باير) في الفسيولوجيا. (٢) Baer,s physiological principle

وقد جعل [شميل] النظام الطبيعي لا [الدين] أو [الله] منبع الأخلاق والمرجع الأخير في تقرير القيم وصحتها ولم يبق له إلا خطوة واحدة حتى يرفض الدين رفضا قطعيا ويستبعده من نظام الحياة الاجتماعية، لتأثره بمذهب دارون الهدام كما شرحه بخنر وكما أورده شبلى شميل وهذا المذهب المدمر الذي يهدف إلى إقرار مبدأ العلمانية في تنظيم المجتمع وفصل الدين عن الدولة والغاء الوطنية الضيقة وازاحة الأديان و الوجود الذاتي الحاضر للأمة والدعوة إلى المواطنة العالمية ليصبح العالم أمة واحدة تحت لواء القوى العالمية الشيوعية والصهيونية والرأسمالية.

ولقد ووجهت هذه الدعوات والنظريات بردود فعل عنيفة وشجب كامل ورفض جماعي، مما دعا أصحاب الدعوات إلى تخفيف الدعوة ونقلها إلى أسلوب آخر على

---

(١) يمكن الـرجـوع في ذلك إلى مقال «ليونتن» نفسه Lewontin عن التطور Evolution في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية International Enc. of Social S. كما يمكن الرجوع في ذلك إلى: عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد الرابع ـ تقديم التحرير ص ٣ـ٦.

(٢) يرجع في ذلك إلى: Barnes H.E., 1948: (Herbert spencer and the Evolutionary deffence of individualism), in Barnes (ed) : An introduction to the history of Sociology, Chicago University Press, PP. 108-115.

ويقوم قانون (باير) على تفسير نمو وظهور المادة العضوية من (حالة التجانس) إلى (التغاير)، أي من البناء الموحد المطرد إلى الكائن العضوي الكامل بكل بنائه ووظائفه المعقدة المتفاضلة.

النحو الذي دعا به اسماعيل مظهر ثم سلامة موسى.

وكشفت حركة اليقظة أن نظرية التطور البشري ليست إلا استنتاجا وستظل استنتاجا حتى توجد العظام الحقيقية التي تدلنا على كيفية تقدم الكائنات البشرية. وظل الكلام عن الحلقة المفقودة يثير السخرية بالدعاة إلى مذهب [دارون] حتى يومنا هذا الذي يشهد صحوة إسلامية رائعة من جهودها هدم النظرية من أساسها.

وقد ظلت علامات الاستفهام معلقة على رأس [داروين] وتابعيه والداعين إلى فكرته مطالبة بالبراهين، لماذا كانت هناك حلقات مفقودة؟ ولم يستطع [دارون] ولا أتباعه أن يجيبوا، لقد كانت [فروضا] ولم تكن حقائق ولكن الفكر التلمودي والمادي استطاع أن ينتفع بها أعظم انتفاع وأن يثير بها جوا من الالحاد العاصف في كل مكان[1].

والمعروف أن النظرية قد تلقفها من [دارون] مفكرون وفلاسفة وقوى خطيرة أرادوا بها أن تنتقل من ميدان البيولوجيا إلى ميدان الاجتماع والدين. والهدف هو القول بأنه لا شيء ثابت وكل شيء يتغير والهدف هو استغلال هذه الشبهات وهذه الفروض للقضاء على مفهوم الأديان.

وكان ما أحدثته الدارونية في عالم العقيدة وفي الفكر الأوربي كله أن فكرة [التطور] لم تنحصر في الدراسة المعملية التي قام بها [دارون] ولا كان في الامكان ان تنحصر في هذا النطاق وانما دخلت مجالات الفكر الاجتماعي ولم يعد عند الدارونيين المحدثين شيء ثابت حتى فكرة العقيدة والألوهية !!![2].

ومن [دارون] بدأت فكرة التطور المطلق، ومن دارون بدأت فكرة حيوانية الانسان وتفتحت الأبواب للفكر الماركسي والفرويدي جميعا. وبه انفصلت النهضة الصناعية والكشف العلمي والحضارة والاستعمار والرأسمالية عن الدين واتجهت الحضارة إلى الاستهلاك: وقامت على صناعة ادوات ـ سبق ذكرها ـ للترف والزينة والفساد ومزيد من الأ،باح تدخل امبراطورية الربا اليهودية التي تغلغلت في كل شرايين الاقتصاد العالمي ومؤسساته الانتاجية والعلمية والسياسية.

---

(١) أنور الجندي ـ المرجع السابق ص١٧.

(٢) المرجع نفسه ص١٨.

الخلفية التاريخية
للنسيج التطوري ومخاطره على سلامة البشرية

من الممكن القول بأن أول مبادىء (فكرة التطور) قد تخللت كتابات بعض فلاسفة الاغريق القدامى كما سبق أن ذكرنا، خصوصا (ارسطو) الذي اعتقد بأن الكائنات الحية قد ارتقت من (أنواع) بسيطة إلى انواع (معقدة) يعتبر الانسان ذروتها. . . وبعد عدة قرون بدأ الهمس يتحول إلى نقاش بين رجال العلم من وراء أسوار الكنيسة منذ العصور الوسطى حتى القرن السابع عشر الميلادي، ففي انجلترا جاهر (رأى) Ray بفكرة التطور وكذلك فعل هوك Hooke (١٦٣٥-١٧٠٣). . وقال ارازس داروين بالتطور (١٧٣١ - ١٧٨٢). . والعالم الفرنسي «دومابيه» De Maillet (١٦٤٥ - ١٧٣٨) وبيفون Buffon (١٧٠٧ - ١٧٨٨). . وكلهم اعتبروا فكرة (التطور) خير تفسير لوجود (الأنواع) المختلفة من الكائنات الحية وأكثرها احتمالا، ولكنهم لم يتوصلوا إلى دلائل مقنعة على صحة نظرياتهم. .

وفيما بين سنة ١٩٤٩، ١٩٦٠ ظهرت نظرية جديدة تسمى «النظرية التركيبية الحديثة» على انقاض الداروينية الجديدة New Darwinism والتي تقوم على مفاهيم (الطفرة) والاختلاف ومجموعة الأفراد والتوارث والعزلة والنوع. . ويمكن القول انها جاءت لوضع تفسير (للتبديل alteration) التدريجي والمتضاعف في مجال التغيير في التركيب والوظيفة والعادات خلال الاجيال المتعاقبة للكائنات الحية. . وهي ترى أن (الأنواع) نشأت من تراكم عدد كبير جدا من الطفرات الصغيرة لا من طفرة كبيرة واحدة أو أكثر، ولذلك فالنظرية تشك في ظهور (نوع) جديد في جيل واحد. . وتفضل النظر إلى الطفرات البالغة الصغر - والتي لايمكن الاحساس بها - على أنها وراء ظهور (نوع) جديد بمساعدة عامل الانتقاء الطبيعي. . وبذلك لاتخفى النظرية التركيبية الحديثة تأثرها بالداروينية القديمة والحديثة في تأكيد دور الانتقاء الطبيعي في التطور[1]. . ، ومعروف أن فكرة الانتخاب الطبيعي قد بنيت، على أساس التشابه

---

(١) انظر في ذلك : د. علم الدين كمال - المرجع السباق ص ٩٨٥.

مع الانتقاء الذي يقوم به البشر: فعلى نحو ما يفعل مربو الماشية لتحسين انتاجهم بإجراء عمليات انتقاء منظمة، تنتج الطبيعة انواعا جديدة عن طريق فرز الافراد والانتخاب فيما بينهم. فمن كان يحمل منهم تغيرات مواتية بقى وتكاثر ومن كانت تغيراته غير مواتية اختفى وانقرض. فإذا تصورنا أن نظاما كهذا للانتخاب الطبيعي ظل يعمل طوال الآف الأجيال فمعنى ذلك أنه تكونت عن طريق تراكم التغيرات الصغيرة مجتمعات جديدة (أي أنواع جديدة)!!!

وكان [داروين] يسلم بوجود عدة عمليات تطورية أخرى (الانتخاب الجنسي أي حسبما كان الفرد ذكرا أو انثى، واستعمال الأعضاء وعدم استعمالها، والأثر المباشر للظروف. .) ولكنه كان يرى أن الانتخاب الطبيعي هو الذي يلعب الدور الرئيسي. والحق أن هذه النظرية لم تكن قد أثبتت شيئا من فرضياتها كما اعترف بذلك داروين. ذلك أنه كثيرا ما تردد بين اعتراضات أخرى اعتراض مؤداه أن أحدا لم يَرَقط نوعا يتحول إلى نوع آخر. ولم يكن [داروين] أبداً على حق عندما قال ان تفسيراته قد أوضحت كما هائلا من الحقائق التي شاهدها المتخصصون في علمي الأحافير والأجنة وغيرهما من فروع العلم. وقد عارض هذه النظرية الهدامة كثيرون من رجال العلم، غير أنها نجحت بعد بضع سنوات في إرساء قواعدها في العديد من البلدان بعد أن احتضنها أساطين اليهودية في العالم.

ومع ذلك فإن نظرية داروين يشوبها عديد من مواطن الضعف. ويعود ذلك بصفة خاصة إلى أن المعارف عن علم الوراثة في عصر [داروين] كانت محدودة للغاية. فدراسات [مندل] الشهيرة عن النباتات الهجينة، وهي الدراسات التي أذنت بمطلع علم الوراثة الحديث، لم تنتشر إلا في عام ١٨٦٥ كما أن [داروين] لم يستخدم أيا كان من الأفكار التي وردت فيها.

وسرعان ما انبرى آخرون من رجال العلم لتفنيد النظرية المعروضة في كتاب أصل الأنواع ونقدها. فبينما قال [داروين] مثلا بوراثة الصفات المكتسبة، جاء العالم الألماني [أوجست وايزمان] في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأكد أن ذلك مستحيل. وكان هذا سببا في نبذ الأفكار الخاصة باستعمال الأعضاء وعدم استعمالها.

وفي سنة ١٩٠٠، شهد علم الوراثة انطلاقة جديدة بفضل اعادة اكتشاف «قوانين

مندل على أيدي [تشرماك] النمسوي [وكورنز] الألماني [ودي فريس] الهولندي . وتوقع بعض العلماء أن هذا التقـدم سوف يسهم على الفور في تحسين نظرية «داروين» .
ولكن على النقيض من ذلك كان فرصة للخلاف حول طبيعة التغيرات التي ينهض عليها الانتخاب الطبيعي . فمن رأى انصار مذهب [مندل] أن هذه التغيرات فجائية وعارمة، وكان «هوجو دي فريس» مثلا يعتقد أن «التطور» يمكن أن يفسر «بطفرات» غير متصلة، أي «بقفـزات» هي التي تنتـج فجأة اشكالا جديدة (التحولية). أما [داروين] فقد قال بأن التطور يتحقق على نحو متصل عن طريق تراكم التغيرات الطفيفة.

● وانهدمت نظرية «لامارك» التطورية

كـان العـالم الفـرنسي : [جـان بابتيست دي لامـارك قد قدم نظرية عن «التغـير التطوري» سنة ١٨٠٩ في كتابة : [الفلسفة الحيوانية]. ويلخصها في أن المخلوقات أثنـاء الحياة تكثـر من استعمال بعض أجزاء من جسمها وتقلل من استعمال أجزاء أخرى، وأنه تبعا لذلك تنمو الأجزاء التي يزداد استعمالها في حين أن تلك التي يقل استعمالها تضمر، وأن نسلها يرث عنها ذلك سواء في النمو أو الضمور.

وقد تحطمت نظرية [لامارك] لارتطامها بعدة حقائق أهمها :

كانت نظرية [لامارك] تتخيل وجود دافع يقوم به الكائن الحي رغبة في التطور، ولكن ذلك لايفسر مثلاً تولد الألوان الوقائية للحيوان، فكثير من الحشرات تأخذ لون البيئة التي تعيش فيها. . . ومما لا ريب فيه أن الزرافة مثلاً لم تحاول أن تزيد جلدها بقعاً لتورث نسلها بقعاً أحسن.

أن الصفات المكتسبة ـ بكل بساطة ـ لا تورث كما زعم لامارك، وهل أفاد ختان الذكور مثلاً جيلاً بعد جيل بعد جيل في وجود جيل يولد به طفل مختون، أو حتى بزائدة جلدية أقصر من المعتاد؟ . .

. . . . بالطبع لا . . .

وحدث نتيجة ذلك أزمة في الفكر البيولوجي في مستهل القرن العشرين ولم تحل حقا إلا في غضون الفترة ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ عندما وضع «ر.م . فيشر، وس. رايت،

وج. ب. س. هالدين اسس علم الوراثة في مجتمعات الأحياء.

فبفضل هذا العلم الذي يدرس كيفية انتشار الوراثات في مجتمعات الأحياء، صار من المستحيل عرض نظرية «داروين» بشكلها القديم المهلهل.

وللأسف ظهر قرابة عام ١٩٤٠ [تصور هدام] جديد يعرف عادة باسم «النظرية التوليفية» للتطور. وارتكزت أساسا على أبحاث «ثيودوسيوس دوبجانسكي» «وأرنست ماير» «وجورج جيلورد سيمبسرن». وتعرف فيها التغيرات العزيزة على نفس «داروين»، بأنها [طفرات] أي أحداث تقع [مصادفة] وتؤثر في بعض الوراثات. ولم تأخذ النظرية الجديدة في اعتبارها هدم التقدم الذي أحرز في علم [الوراثة] فحسب بل أيضا مختلف النتائج المتعلقة بفكرة النوع، والجغرافيا الحيوية، وعلم الأحافير وما إلى ذلك. وقد لقيت معارضة شديدة من كثير من العلميين وهي تنطوي في خطوطها العريضة على التفسير المادي عند [الداروينيين المحدثين] لنشأة الأحياء وتطورها.

وقد أتاحت التطورات الأخيرة في البيولوجيا الجزيئية والكيمياء الحيوية الفرصة لنقد ودراسة ظواهر التطور المزعومة وتدقيقها. وغدا من الممكن ان نتابع عن كثب مسارات السموم الداروينية الحديثة ونعدلها الرد المناسب.

وبشكل عام أثبتت النتائج التي خلصت إليها مختلف علوم الحياة خطر المخططات النظرية المذكورة آنفاً. على أنه لاينبغي أن نتخيل أن جميع المشكلات قد وجدت حلولا وان النظرية الداروينية الجديدة (أو الشكل الجديد للداروينية الجديدة) قد لفظت أنفاسها النهائية أو ردمت فوقها أشلاءها تماماً. . فالفكر الهدام لا ييأس أبداً.

فقد خرج أحد النشوئيين المحدثين إلينا قائلاً بأن نوع [الانسان] سابق لأنواع القردة بمئات الألوف من السنين، وأن القردة العليا أناسي ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية، وانحدرت في الصفات العقلية والجسدية إلى ما دون تلك المرتبة بكثير أو قليل.

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور [هرمان كلاتش] Klaatsch ، الذي كان يدرس علم الإنسان بجامعة «برسلو» قبل الحرب العالمية الأولى، وعنده أن الإنسان المعروف بانسان [جاوة] الذي وجدت بقاياه المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم «Pithecan thropus » هو المرتبة الوسطى التي صعد منها خلفاؤها إلى ما فوقها وهبط الخلفاء

الآخرون إلى مادونها .

ويزعم [هرمان كلاتش] هذا أن الانسان ينتمي إلى أصول متعددة، ولاينجم كله من أصل واحد، ويمعن [كلاتش] في تخريفه وضلاله، فيقول:

« فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد، وزنوج افريقية والشمبانزي والغوريلا من أصل آخر». ولكنه زعم فاسد لاتؤيده المقابلة بين هذه الأحياء في الخصائص التشريحية .

ولكن مايبشر بالخير أن المفاهيم التي تبدو بسيطة مثل [التكيف] أو [الانتخاب الطبيعي] تتعرض اليوم . لنقد تتفاوت حدته . من ذلك مثلا أن بعض البيولوجيين يلفتون النظر إلى أن من العسير أن نحدد على وجه الدقة ما إذا كانت هذه الوراثة أو تلك قد انتخبت حقيقة بسبب «فائدتها» البيولوجية . ويجمل بنا أن نذكر في هذا الصدد النظرية «الحيادية» للعالم الياباني [م . كيمورا] التي تقول بأن الكثير من الوراثات ليست مفيدة ولا ضارة ولكنها محايدة من وجهة النظر التطورية . وفضلا عن ذلك قدم العالمان الأمريكيان جولد Gould وألدرج Eldredge مؤخرا نظرية (تعرف باسم نظرية «التوازنات المنقطعة» تخالف الأفكار الداروينية عموما . وفي رأيهما أن التطور لم يحدث على نحو منتظم ومستمر بل على هيئة «قفزات» تطورية مفاجئة نسبيا . وتدور المناقشات حاليا بشأن هذه النقاط وكثير غيرها . لذلك فمن المحتمل أن تتناول [النظرية الداروينية الجديدة] في المستقبل القريب يد التعديل والتنقيح، بل قل الهدم والتدمير.

● وثمة فرع علمي جديد يحتل بدوره مكانه في التخريف [الدارويني] وكثر الحديث عنه في الأيام الأخيرة: ذلك هو البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology وهو يستهدف الاستعانة بالبيولوجيا في تفسير السلوك ـ الاجتماعي للحيوان بوجه عام وللانسان بوجه خاص . وكان للعالم الأمريكي إدوارد . ويلسون دور أساسي في نشأة هذا العلم (البيولوجيا الاجتماعية: التوليفة الجديدة، ١٩٧٥) فقد صاغ نظرية شديدة التطرف تستعيد الموضوعات الأساسية للداروينية وتستند فيما تستند إليه إلى علم الوراثة والايكولوجيا وعلم الأخلاق . ووفقا لهذه النظرية، فإن لجميع أنماط السلوك الاجتماعية أساسا وراثياً ويجب أن تفسر بالاستناد إلى الافتراض الأساسي التالي: ان

كل شيء يتم، من وجهة النظر البيولوجية، كما لو كانت أفراد الكائنات لا عمل لها سوى تأمين التكاثر الأقصى للورثات. وبعبارة أخرى، تتسم الوراثات «بالأنانية» لانها تستغل الحيوانات (الحشرات القارضة، الأوز، الماعز، القردة، البشر..) لكي تحقق هدفها في التكاثر، وينبغي أن تفهم ضروب السلوك الاجتماعية (السلوك الجنسي، العدوان، الدين...) على أنها استراتيجيات للحصول على «المكسب الوراثي» الأمثل!!!.

● بيد أن [إدوارد ويلسون] لم يقم بوضع تفسيرات مقبولة لنظريته، وكل ما فعله هو مجرد تخمينات قدمها انطلاقا من الفكرة القائلة بأن البيولوجيين الاجتماعيين هم أقدر الخبراء في مجال السلوك الانساني. وأنه ينبغي لهم أن يصبحوا «معلمي الأخلاق الجدد» وأن يمسكوا بأعنة القيادة في تخطيط المجتمع،. غير أن هذا المشروع المشبوه يثير العديد من الأسئلة.

ذلك أنه يجب أولا أن يُعرف ما إذا كان هذا الشكل الجديد للداروينية ينهض على أسس متينة، وهذا أمر يكتنفه الكثير من الشكوك. فلم يثبت قط أنه توجد ورثات للإيثار، أو ورثات للامتثالية، أو ورثات للجنسية المثلية كما أنه ليس من السهل أن يعزى تحضر المجتمعات البشرية (وهو سريع جدا في بعض الأحيان) إلى التطور البيولوجي المذكور وسرعته فالمقارنة بطيئة للغاية، ولا جدوى من ورائها.

وهناك سؤال آخر يطرح نفسه على الفور: هل يحق للعلميين (أي للبيولوجيين في هذه الحالة) أن يملوا على الانسانية معايير أخلاقية، وسياسية؟ . . . ومن مساوىء النظرية التي ينادي بها [ويلسون] أنها تذكرنا بأن هذه القضية الكبرى ليست جديدة. فقد سبقه داروين إلى طرح نظريته المشبوهة في التطور على النوع الانساني. وأدي به ذلك إلى الحديث عن «الأجناس الأدنى» وإلى أن يعلن أن المرأة هي أيضا أقل من الرجل ذكاء وابتكارا وشجاعة. وكان من السهل، انطلاقا من هذه النقطة، أن تصاغ الحجج «العلمية» تأييداً للعنصرية وللتفرقة بين الجنسين. وعلى نحو مماثل يمكن أن تسفر فكرة «الانتخاب» ببساطة عن مشروعات رهيبة في تحسين النسل تستهدف انتاج مجتمعات من «الانسان الأعلى».

ومن المستبعد أن «داروين» لم يكن يقصد إلى ذلك. ولكن التاريخ ينبئنا بأن عددا

من المـذاهب الفكرية الخطيرة كثيرا ما نمت حول أفكار «داروينية» تكتنفها بعض الشكوك. وإذا كانت هناك دروس يمكن استخلاصها من تلك المذاهب الهدامة فإن قيام النظريات التطورية ليس «مغامرة علمية ساقطة» فحسب بل هو أيضا مشروع هدام يهم الانسانية عن كثب وعلى نحو ملموس. وعلى ذلك فإنه ولئن كان علينا ان نبدي رفضنا لكل من ألقى شعاعا من الضوء ـ ابتداء من انكسيمندروس إلى اليوم ـ على أصل الحياة وعلى أصولها ذاتها، فعلينا في الوقت نفسه ألا ننسى أن النظريات ما هي إلا كيانات من صنع الانسان، فهل نترك العلم الحقيقي الذي جاء من الله خالق الانسان والأكوان، ونتمسك بخيوط واهية من نسج خيال الانسان المخلوق وأوهامه؟

. . . بالطبع لا . . . وألف لا . . .

أصل الأجناس البشرية حسب مفهوم النظرية التركيبية عند «بولك»

جاءت النـظريـة التركيبية الحديثة للعالم الألماني «بولك Bolk » متخذة من ظاهرة النضـج الجنسي Sexual maturity مبررا لاثبـات (احتـمال) ارتقـاء الانسـان من (القردة)[1]. ولكن فكرة [التطور الارتدادي Regressive] تهدم ذلك الرأي وتقول أن التطور في الثعابين مثلا حدث من سحالي لها أطراف وتعتبر أكثر تعقيدا في وظائف أعضائها البيولوجية، والحيتان التي لا توجد بها أطراف خلفية نشأت من ثدييات بها زوجان من الأطراف، ومعظم الحشرات غير المجنحة انحدرت من حشرات مجنحة. . وبذلك تختلف هذه (الفكرة) عن ما تقول به بل وتؤكده النظرية التركيبية الحديثة من أن (الأنواع) الجديدة لا تتطور من الأنواع الأكثر تقدما والمتخصصة دائما تتطور من الأنواع (البسيطة) وغير المتخصصة، مستشهدة بتطور الثدييات من مجموعة الزواحف الصغيرة الحجم وغير المتخصصة وعدم تطورها مثلا من الدينوصورات Dinosaurs وترى النظرية أن (التطور) يحدث في بعض الأزمنة الجيولوجية بسرعة أكبر من حدوثه

---

(١) يقول بولك « Bolk » أنه يحدث اثناء الطور اليرقي larval stage أو حينما يكون الحيوان مازال صغيرا نضوج جنس في شكل (طفرة) قد تكون وراء حدوث التطور في الكائنات.

في أزمنة أخرى وتقول أنه يوصف ـ في وقتنا الحاضر ـ بالسرعة نظرا لظهور أنواع كثيرة وانقراض أنواع أخرى متعددة. لكن [بولك] يمضي في نظريته الهدامة عن التطور قائلاً:

● «ومنذ عصر [داروين] إلى اليوم، يزداد عدد الأحافير التي تكتشف وتعرف المزيد عن سلوك الكائنات الحية وتأثير بعضها في بعض، وغدت ـ التفاصيل عن حقيقة التطور ـ أي الكائنات انحدرت من وعبر أي صنف من المراحل الوسيطة ـ أكثر وضوحا».. !!! ثم يقول:ـ

.... «وفضلا عن هذا وجد أن الانتخاب الطبيعي لم يجر مجراه دائماً على نحو تلقائي مؤكد، وذلك نظرا لوجود عوامل أخرى ذات شأن. فمثلا وجد أن الصدفة تلعب دورا أخطر مما كنا نظن. فحيثما توجد «مجتمعات» صغيرة من نوع معين، ربما يعود الأمر إلى أن الطفرات التي لم تكن مفيدة بصفة خاصة قد ترسخت لمجرد أن بضع ضربات من الحظ قد ضمنت أن يكون البقاء من نصيب أولئك الأفراد الذين يملكون هذه الطفرات. والحق أن بعض العلماء، في أيامنا هذه، مثل استيفن جولد، يبنون تفكيرهم على افتراض أن التطور يمضي بطيئا جدا معظم الوقت ولكنه يحدث بسرعة فائقة في ظل الظروف الاستثنائية»... ويتابع [بولك] آراءه الهدامة في التطور قائلاً:

... «وحيثما يوجد (مجتمع) ضخم من نوع ما، فقد يرجع الأمر إلى أنه ما من طفرة تستطيع أن تترسخ إزاء وجود أفراد عديدين بطفرات أخرى. والأعجب من ذلك أن بضع ضربات من الحظ هنا أو هناك لن تكون كافية لدفع التطور في هذا الاتجاه أو ذاك. ومن ثم فقد يستمر النوع دون تغير يذكر لعدة ملايين من السنين». ثم يقول [بولك]:

... «ومن ناحية أخرى، إذا عزل (مجتمع) صغير نسبيا من ذلك النوع في بيئة قاسية، زاد كثيرا احتمال أن تسبب الصدفة المحضة اندثار بعض الطفرات فيه تماما وبقاء بعضها الآخر بأعداد كبيرة، وفي ظل هذه الظروف، يكون التطور أشد سرعة وقد تتشكل أنواع جديدة في بضعه الآف من السنين. وقد تكون فترات التغير السريع هذه هي العامل الرئيسي لدفع عجلة التطور إلى الأمام»..

● وأخيراً يلخص [بولك] ملامح فكره «الدارويني» في الآتي:

■ **يمكننا بناء على الوضع المَعْرِفي في ١٩٨٢، أن نوجز موقف العلماء من التطور البيولوجي على النحو التالي:**

١ ـ كل العلماء تقريبا مقتنعون بأن التطور البيولوجي قد أخذ مجراه عبر فترة تقدر بالآف الملايين من السنين وان جميع الأنواع الحالية بما فيه [الكائنات البشرية] قد تطورت عن أنواع أخرى كانت موجودة من قبل !!!

٢ ـ كل العلماء تقريبا مقتنعون بأن الطريقة التي حدث بها التطور البيولوجي هي في جوهرها الطريقة التي وصفها تشارلز داروين، وبأن الانتخاب الطبيعي بين الانحرافات الفطرية هو العامل الأساسي.

٣ ـ العلماء الذين يدرسون التطور اليوم يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً حول بعض التفاصيل الخاصة بآليات التطور. ولسنا بقادرين على التنبوء الآن بمن سيعقد له لواء النصر في هذه الخلافات. ومع هذا، وأيا كان الطرف المنتصر، فلن يؤثر ذلك على القبول العام لنظرية داروين، وما أدخل عليها مؤخراً من تحسينات كأساس لوصف كيفية تطور الحياة على الأرض.

أما آرثر كيث [أكبر النشوئيين المحدثين إسفافا]، فقد قال في كتابه شجرة نسب الإنسان . . .

«ان الأستاذ وود جونس لفت النظر إلى بقاء علامات كثيرة في تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليا وعامة القرود، وإن هذه القردة العليا وسائر القرود قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان، ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعي تعديل شجرة النسب التي رسمتها هنا (!!!!) . . ولكني أرى أن تفسيرها ينبغي أن يلتمس في زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة، فإن الكائنات الحية أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفي غيرها. . . . فالغوريلا تولد في أكبادها الفصيصات التي تتولد في أكباد القرود، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب في تركيبها المتماسك من كبد الانسان، ولكننا ينبغي أن نفترض أن هذين الحيوانين تحدرا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبده تركيب كبد الجيبون». .

ثم يستطرد [آرثر كيث] في تخريفه إلى بيان الشبه بين الانسان والقردة الأفريقية

فيقـول. . . «أن الانسان له على جانبي تجويفه الأنفي سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التي تجاورها. . . ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة في نوعين من الحيوان، ويوجد هذا النمط الانساني في كل من الشمبانزي والغوريلا، وإن كانت الجيوب في الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطاً آخر، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجوداً في أنف سلف الأورانج، ويصعب التحقق منه بعد انتكاس تركيب الأنف كله في هذا العضـو الكبـير من أعضـاء الحيوانات القردية العليا وقد عرف أن دم الغـوريلا ودم الشمبـانـزي أقـرب استجـابـة إلى الانفعال بدم الانسان من جميع الفقـاريات، وتبلغ العلامات المشتركة بين الانسان وكل من الشمبانزي والغوريلا نسبة إلى سائر العلامات التي أخصبتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار في المائة، ولهذا أتوقع أن بقية من بقـايا المتحجـرات تنكشف يومـا في أفريقية تعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزي والانسان». . .

● **الرد العلمي على تحريف [آرثر كيث]:**

سنترك البروفيسور [شابمان بنشر] pincher، في كتابه عن تعليل التطور يرد على تحريف «آرثر كيث» قائلا:

. . . «لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتـطور منه تركيب الانسان، إذ كان الانسان قد نما له خلال مليون سنـة دمـاغ أكـبر وتـوأم أقوم ويد ـ فوق هذا وذلك ـ أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال». .

[هكسـلي. . وكتـابه: «معرفة الظـواهر الحيـة».

وضع البروفيسور [هكسلي] كتابا عن النشوء والارتقاء جاء فيه:

. . . «من السهـل أن نبـين أن الانسـان بالنـظر إلى المخلوقـات لا يختلف عن الحيوانات التي هي دونه أو قريبة منه، أكثر مما تختلف هذه الحيوانات عن التي من صنفها. . ونحن لا نغلو في القول بتسلسل الانسان من القرد، وإنما ما نذهب إليه هو: أنه مهما كان من الفروق بين الانسان والقرد الراقي فإن ذلك لا يكون شيئا قبالة الفروق التي تقع بين هذا القرد الراقي، وبين غيره من القرود المنحطة. . فقد قال

«ارنست هيكل» بتسلسل الانسان عن القرد[1]، وكذلك كان يعتقد استاذه، فيرضو «بنفس الفكرة» ثم شك فيها ثم عارضها في آخر أمره بمنتهى القوة. . . وكان وراء - تحريم تدريس نظرية داروين في المدارس بالمانيا حتى اصدر البرلمان قرارا بذلك - ويرى «ريشنباخ» أحد زعماء التجريبية العلمية أن نظرية التطور بأسرها مبنية على أدلة غير مباشرة. . . ويتساءل . . «هل سيكون من الممكن في أي وقت ايجاد ادلة (مباشرة) لها عن طريق (انتاج) انسان في أنبوبة اختبار مثلا»؟ .[2].

ملامح الفكر الدارويني عند جورج كوفييه

حاول [جورج كوفييه] تفسير التطور بحدوث عدة كوارث أفنت الأنواع الأولى البدائية وأدت إلى ظهور أنواع جديدة حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن. . وقد تقدم كوفييه بعدة فرضيات بهذا الشأن، حتى وضع صياغة تصور عام لنشأة الانسان يمكن تلخيصه في الآتي:

١ - لقد قلبت الاكتشافات الأخيرة رأسا على عقب المعايير الزمنية التي قبلت لزمن طويل والتي كانت تشير إلى أن الانسان الحديث قد نشأ منذ ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، حيث أظهرت هذه الاكتشافات بجلاء تواجد الانسان الحديث لا انسان النياندرتال، منذ أكثر من ٦٠,٠٠٠ سنة مضت. وأن هؤلاء الناس قد عاشوا في أوربا بالاضافة إلى أفريقيا والشرق الأوسط وربما أسيا.

٢ - أن الثقافة الموستيرية، نسبة إلى ما عثر عليه من صناعات خاصة بالانسان في «لاموستير» في جنوب فرنسا، يرجع تاريخها إلى مابين ٩٠,٠٠٠ و٣٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان علماء الأنثروبولوجى سابقا يربطونها بإنسان النياندرتال. ولكن الأشياء التي صنعها الانسان الموستيري قد وجدت في أماكن مثل قافطة بفلسطين ولم تكن من

---

(١) ارنست هيكل - فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء - ترجمة حسن حسين - ط٢ - مطبعة الشباب سنة ١٩٢٤ ص٥٦ ومقدمة المترجم ص٦٦.

(٢) دكتور - محمود عثمان - الفكر المادي الحديث وموقف الاسلام منه الانجلو ص١٥٠، ١٥١ نقلا عن هانزريشنباخ - نشأة الفلسفة - ترجمة د. فؤاد زكريا - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - سنة ١٩٦٨ ص١٧٩.

صنع انسان النياندرتال بل من صنع الانسان الحديث.

٣ - أن ادوات . . . . الخ من عصر ما قبل التاريخ من نوع العصر الحجري القديم الأعلى - وهو العصر الذي سبق تحديده زمنيا فيما بين ٣٥,٠٠٠ و ٩,٠٠٠ سنة قبل الميلاد - قد عثر عليها في «سيرنياكا» (وهي منطقة «شمات» في برقة بليبا) كما عثر عليها في بولندا، وأظهرت طرق تحديد العمر الزمني لها بواسطة الكربون ١٤ المشع أنها ترجع إلى ٣٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وبهذا تتداخل مع عصر انسان النياندرتال.

٤ - وعلى هذا فمن المؤكد أن الانسان الحديث وإنسان النياندرتال قد وجدا معا لسنوات عديدة، وإن حضارات العصر الحجري القديم الأعلى والموستيري تداخلت زمنيا.

٥ - يبدو أن الانتقال من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري القديم الأعلى قد حدث في عدد من المناطق وربما تطورت نسبة من سكان النياندرتال إلى شيء ما أقرب إلى الانسان الحديث، وربما كانت هناك في أماكن شتى بعض «العشائر» من الانسان الحديث الذي بدأت صناعته الحجرية في العصر الموستيري أولا وتقدم فيما بعد إلى العصر الحجري القديم الأعلى. . وهذا ما يعرف بنظرية «المراكز المتعددة».

٦ - ويظهر ان علماء الانثروبولوجي يقبلون الآن بما يشبه اليقين أن إنسان النياندرتال الأوربي التقليدي من النوع الذي عثر عليه في مدينة [لا شابل أوسانت] بفرنسا يجب أن يستبعد من أن يكون السلف المباشر للانسان الحديث.

٧ - ويظهر أيضا أنه قد أصبح من المقبول أن خصائص معينة للانسان الحديث قد ظهرت منفصلة أو في مجموعات شتى على نطاق متسع من الأماكن المختلفة جغرافيا وعلى مدى فترات مختلفة. (يؤيد هذا الرأي بقايا الحفريات التي عثر عليها في مدينة «أومو» في أفريقيا .

٨ - وفي مرحلة البحوث الحالية، مازال محتملا أن هناك عددا من الفروض الخاصة بأصل الانسان:

فطبقا للنظرية التقليدية، فإن الإنسان الحديث تطور في منطقة شاسعة تتكون من

شرق أوربا وغرب أسيا، من نوع غير مميز من إنسان النياندرتال وهذه النظرية تعرف بنظرية «الانتشار الوحيد المركز».

وعلى أي حال فإن الدكتور ليكي يرى أن انفصاما قد حدث في جنس الانسان في العصر البلستوسيني الاسفل (حوالي ٢-٣ مليون سنة مضت) في «إنسان جاوة» وفي انسان النياندرتال.

أن أغلبية علماء الانثربولوجي يقبلون وجهة النظر القائلة بأن نظرية التطور المتعددة المراكز هي الأكثر ملاءمة لتفسير وجود حفريات بشرية في أماكن وأزمان مختلفة، وعلى أية حال فليس من المؤكد أن تسلسل السلالات اسهم مباشرة في الارتقاء إلى الشكل الحالي للانسان.

٩ ـ أن الدليل على أن الأنواع المبكرة للانسان الحديث وانسان النياندرتال ليست من أنواع مختلفة ربما يمكن أن توجد في اكتشاف الاجناس الوسيطة في الشرق الأوسط التي ربما نتجت من الهجين حسب «نظرية توما».

١٠ ـ أن بعض علماء الانثريولوجي يرون أن الاختلافات في البيئة والمناخ قد لعبا دورا هاما في تطور الانسان طبيعيا وثقافيا في المناطق ذات المناخ المتطرف وان كان البعض الآخر يؤكد أن التطور الطبيعي قد تحدد بالحضارة أكثر مما هو بالبيئة.

المؤشرات النهائية لآراء الداروينيين المحدثين:

ما أن أعلن علماء [الانسان] عن وجود حلقات مفقودة حتى الآن بين الانسان والقرد.. حتى ذهب علماء الحفريات كل مذهب في سبيل البحث عن هذه الحلقات.. في الجماجم والعظام وبقايا الانسان المتناثرة في أنحاء العالم القديم، من جزر جاوة إلى كينيا، وروديسيا والصين، وعثروا على جماجم وعظام متناثرة يرجع تاريخها إلى ما يقرب من خمسة عشر مليوناً من الأعوام...

فماذا قالت تلك العظام والجماجم؟

قالت... على لسان علماء عظام من أمثال الدكتور [رونالد جونسون] أستاذ علم الأجناس البشرية، والبروفيسور [جال بيفتو] رئيس المجمع العلمي الفرنسي، والدكتور [بير بيرسون] الاخصائي في علم الوراثة في جامعة اكسفورد، والبروفيسور

[جوهانز هودبر] العالم الذري في «سنميال - بسويسرا». . . وغيرهم كثير. . .

أن الحفريات جميعها تدل على وحدة الأجناس البشرية، واستقلالها عن غيرها من الكائنات الحية، وأن نظرية [داروين] ساقطة ولا أساس لها من العلم. وهاهو العلم يثبت أن الانسان من ملايين السنين خلق خلقاً سوياً على أحسن وجه وأتم صورة. . .

أليس في ذلك توافقيه مع قوله تعالى:

﴿ **لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم** ﴾ [التين/٤]

الفصل الثامن
الطريق نحو التوافقية بين العلم والقرآن في معالجة أصل الأجنــاس البشرية

- قصور العلم وشمولية القرآن.
- بخنر وأصل الأجنــاس البشــرية.
- التوافقية بين العلم والقرآن في أصل النشأة من الماء.

الفصل الثامن
الطريق نحو التوافقية بين العلم والقرآن في معالجة أصل الأجنـاس البشرية

مع أن «داروين» أعلن بأن مذهبه في النشوء والارتقاء لا يعارض الايمان بوجود الله على صورة معينة، لكننا لن ننسى أو نتهاون أو نتغافل طابع نظريته المادي الالحادي المتطرف، الذي أفسد به عددا لايستهان به من المفاهيم البشرية حول نشأة الحياة.. لن نتغافل عن إصراره على إدراج الانسان ضمن قائمة الأحياء التي شملها قانون التطور العام.. كما لا يمكن أن نسامحه في (تعليق) مسألة «النفس» الناطقة واعتباره أن الحياة النفسية في الانسان ـ كما في الحيوان. مرتبطة بفعل الأعضاء، وقوله بتطورها من (الدرجات الدنيا) إلى (الدرجات العليا) على هذا الاعتبار[1]..

ولقد كشف الباحثون أن [الدارونية] قد استغلت في محيط السياسة أسوأ استغلال مما أدى إلى سيادة جو مضطرب اطلت منه مذاهب العبقرية وتقديس الجنس، فقد كان قول داروين بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أوتستأصل، قد استغلته حركة الاستعمار العالمي كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة.

ولاشـك أن نظرية التـولـد الذاتي التي قال بها «داروين» و «ولامارك» و«ارنست هيكل» قد اتخذت منطلقا إلى الالحاد، وجعلها البعض سندا في إنكار العقيدة الدينية واتخذت منها فلسفة لنفي [الخالق]، وإعطاء صفة القادر على كل شيء، ومن ثم دعا «هيكل» الملحد إلى تأليه الطبيعة وانكار وجود [الله] تعالى وقال بوحدة الوجود.

واتخذت فكرة التطور وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين وذاتية الأمم باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصا تافها يثير السخرية والاحتقار ثم تطور، فلا قداسة إذن لدين ولا

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٧٩.

لوطنية ولا لقانون ولا لفن ولا لمقدس من المقدسات. وظهر كأنما أخرجت النظرية لرجال السياسة وعلماء الاجتماع ليقتنعوا بها أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء، فقد تركت أثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها.

وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصري والشعوب المختارة كما صيغت نظرية القوة عند [نيتشة]، ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان وبها انتفع دعاة الارستقراطية فوجدوا فيها سلاحهم فأعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الاجداد سادة البشر ومالكي العروش وصانعي التاريخ[1].

وتلقفها معلنوا الحرب على الأديان فأخذوا يضربون بها في جدران الدين وإعلاء العلم المزيف. وظهر من الداروينيين من ينكر الدين من الأساس.

ومعروف أن التطور قانون اجتماعي وليس قانونا أخلاقيا، ويتحرك في دائرة الثوابت ولكنه لايقتضي مطلقا تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له فليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه، لأن التطور في الحياة قد يكون ارتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا.

ومن المؤكد أن دارون لم يفهم العلاقة بين الطبيعة والانسان لقصور نظرته وقلة أدلته حول ما أسماه: التنازع «تنازع البقاء»، وقد حال هذا بينه وبين رؤية التعاون بين الحيوان والنبات الذي هو أوسع وأكبر من التنازع ويرى العلماء أن دارون أخطأ خطأ فادحا عند ما زعم أن تنازع البقاء هو كل شيء، أو يكاد يكون كذلك، وقد تبين للعلماء أن التعاون في الطبيعة أكثر من التنازع بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذي نفهمه لهذه الكلمة.

● وهكذا نتوصل إلى فساد [نظرية الانتخاب الطبيعي] التي جاء بها [دارون]، فقد أعلن العلماء في الأخير أن هذا التفسير الذي تقدمه نظرية التطور والارتقاء، قد اهتزت أساساته من جذورها فقد طالما انتقد علماء الحياة هذه النظرية. أما في هذه المرة فيبدو أن الهجوم كان صاعقا بحيث انفتح الباب أمام نظرية جديدة تفسر اختلاف أجناس المخلوقات.

---

(١) أنور الجندي - سقوط نظرية داروين - دار الاعتصام - ص ١١.

● لقد تبين فساد [نظرية دارون] التي قال بها حين قال أن الزرافة حين أعطتها الطبيعة ارتفاع القامة، فقد أعطتها الأسبقية في البقاء على بقية أبناء فصيلتها، ففي استطاعتها الحصول على الغذاء من لباب الشجر، بينما ظلت الحيوانات الأخرى تقاسي الجوع، فهلك بعضها واندثر.[1].

■ **وقد رأينا كيف (بقيت) أفكار داروين في نطاق «النظرية» فقط ، وشتان بين النظرية العلمية، والحقيقة العلمية..** فالحقيقة العلمية هي التي ثبتت نصوصها وموادها بما لايدع مجالا للشك فيها.. كذلك فالحقيقة العلمية لاتقبل التغيير أو التبديل أو التعديل ومن هنا أقول بامكانية التقاء (الحقيقة) العلمية بعد صدق نظرياتها وافتراضاتها وتجاربها، مع حقيقة القرآن الكريم.. لأن القرآن الكريم هو كتاب الكون المفتوح وهو دستور الاسلام بتراثه الشامل.. ومنهجه القيم وشرعه المستقيم وفكره المتفتح، وحقائقه المجردة[2]..

بينما (النظرية العلمية).. هي التي لم يقم على صحتها دليل يجعلها غير قابلة للتعديل، أو التغيير أو (التطوير).. كذلك فالنظرية لديها القابلية بأن يضاف إليها عناصر أخرى هامة كانت تنقصها، كما أنها تعطينا التفسير الجزئي للأشياء ولا تأخذ شيئا من منطلق الشمول.

وكانت [النظرية المادية] التي قامت خلال هذه العصور الطويلة على أنقاض نظرية [دارون] ترى أن الخليقة كلها من أصل واحد وأن [الانسان] فرع من فصيلة الحيوان في أرقى درجاته وهو [القرد]، وقد عارض الباحثون من العلماء البيولوجيين هذا [الافتراض]، ولكن قوى كبرى كانت وراء الانتفاع بالنظرية وتحويلها إلى نظرية [التطور الاجتماعي المطلق] التي اشتقها «هربرت سبنسر» من نظرية التطور البيولوجي وكان لها أبعد الأثر في معارضه الحقائق الأساسية الجامعة الرابطة بين نظام الثوابت والمتغيرات، من حيث حاولت أن تلقى ظلالا باطله على أنه لا توجد ثوابت مطلقا وأن الحياة كلها في تغير دائم وتطور مطلق. وهذا ما ذاع وشاع وسيطر بعد ذلك على مفاهيم النفس والاخلاق والاجتماع[3].

---

(١) المرجع نفسه ص١٢.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص٨٠.

(٣) أنور الجندي ـ المرجع السابق ص ٢٠.

● والآن وبعد مرور قرابة مائة عام يجيء العلماء ليعلنوا بطلان هذا كله حيث تعلن جماعة العلماء التجريبيين: في صراحة تامة أنه لا علاقة للانسان بالقرد ولا تجانس بينهما.

لقد وقف «جال بيفتو» رئيس المجمع العلمي الفرنسي نصف قرن تقريبا على دراسة [أصل الانسان] واستطاع أن يؤكد أخيرا أن الانسان ليست له علاقة تجانس بالقرد، وهو يثبت بالأدلة أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشري وجنس القردة الكبيرة لم تزل مفتقرة إلى البرهان الحاسم وستظل كذلك وان هذه المشابهات بين «القرد» و«الانسان» غير كافية للجزم بوجود أصل للانسان والقرد.

وليس من المعقول أن الانسان الحاضر ربما ينحط عن منزلته في غضون ملايين السنين القادمة ليترك المجال لحيوان من الحيوانات ليحل محله ويسيطر على الكون. فهذا الافتراض مرفوض لأن [الانسان] لم يظهر على الأرض بمجرد صدفة بل انها كان بمثابة الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك ظهر مركبا في أكمل تقويم[1].

■ فكيف نساوي بين النظرية العلمية و(الحقيقة القرآنية) وكيف نقيم التوافقية بينهما؟ إننا لا يمكن أن نأخذ بأي (نظرية علمية) قد تصدق وقد تكذب.. بل قد تُكَذِّب نفسها بنفسها هكذا.

● إننا علميا وإسلاميا في آن واحد لا نقبل بأي (نظرية) مهما كان صاحبها أو ميدانها إلا إذا تأكدنا من صحة مواد تلك النظرية بما لايدع مجالا للشك فيها.... ولن نقبل (علميا وإسلاميا) بأي نظرية حتى تتحول تلك النظرية إلى (حقيقة علمية)..

فإذا كان السؤال.. ماالنقاط التي اقترب فيها العلم بنظرياته وحقائقه من الحقيقة القرآنية.. كان الجواب «لا» نقاط اقتراب بين حقيقة القرآن ونظريات العلم.. لكن هناك اقتراب ولقاء وتوافقية بين حقيقة القرآن والحقيقة العلمية[2]..

● (قد) تكون الحيوانات انحدرت من حيوانات مثلها سبقتها وتطورت وارتقت.. ولكن ماهي القوة التي تقف وراء كل ذلك وتحركه في دقة مذهلة، وقدرة جبارة نحو

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ـ ص ٥١.

هدف معين فيه ارتقاء وكمال؟ . .

إنها ـ بلا أي شك ـ قوة الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون الذي تعجز عقولنا عن ادراك مبلغ قدرته وعظمته مهما تخيلناها . .

فتطور الكائنات لا يفسر بمثل افتراضات أو تكهنات أو نظريات «داروين» أو غير «داروين»، فما «داروين» وغيره، بل حتى الأنبياء والرسل [وهم أشرف خلق الله جميعا] ما هم الا طين . . تراب وماء لا قيمة له إلا بإشعاعة الروح التي هي نفخة من الله سبحانه وتعالى خالق الأكوان ومسير الافلاك . . رب العرش العظيم . .

فالقول الذي يصر عليه (جراهام كانون) بأن في كل كائن حي قوة تدفعه للسير (والتطور) نحو هدف معين يعني بلا جدال وجود قوة إلهية وراء هذه العملية . . وهنا فقط نقول بأنه (يقترب) من الحقيقة القرآنية . . فالخلق لله وحده . والحيوان لا يتطور إلى (انسان) . . بل على العكس . . ربما ينقلب [الانسان] إلى حيوان إذا انتزعت منه صفات الآدمية التي فطره الله عليها وميزه بها على خلق كثير . قال تعالى: «ثم رددناه أسفل سافلين»[1] .

وإذا تأملنا مخلوقات الله من (أدناها) إلى (أرقاها) . . وهو [الانسان] . . وتعمقنا في التأمل في هذا الخلق المتقن الدقيق المتوافق لما وسعنا إلا أن نسجد لخالق الأرض والسموات ومبدعها . . العظيم المتعال . . .

● وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية وتقريرات العلم الحقيقي ـ لا الفلسفة ـ متأكدون مما جاء به الدين الحق وجاء به الاسلام من أن الانسان خلق مستقلا وأنه سيد المخلوقات وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[2].

﴿فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله مايشاء﴾[3] .

---

(١) سورة التين : (٥).

(٢) فصلت : (٥٣).

(٣) النور : (٤٥).

● لقد تآزر العلم مع أدلة الدين الحق على تأكيد فساد [نظرية دارون] بشقيها، وعلى أنها أسطورة انهارت وصَدَّقَتَ الكشوف الأثرية رأي الدين في أن الانسان خلق من جنس مستقل.

● ان ما أثبته العلم أخيرا لم يكن مفاجأة فإن علماء كثيرين متجردين أعلنوا أن الأنواع كلها ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة دون سابق إعداد أو خطوات [متوسطة]، فلم يكن هناك حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو [الانتخاب الطبيعي] أو تنازع البقاء، وقد قال بذلك كثيرون من قبل.

ولكن انصار «داروين» وأنصار التطور كانوا كالكلاب الضارية يأكلون كل من يحاول أن يكشف زيفهم في محاولة لئيمة تهدف إلى إفساد الفكر البشري كله وتسميم الأديم الانساني كله بما وراء ذلك من غايات وأهداف، ونحمد الله سبحانه وتعالى أن كشف خطرهم فلقد كان أتباع «داروين» من الملاحدة والفجرة يهدفون إلى تدمير الانسان.

● يقول «أودين لويس»: أن المؤمن يرى كل تطور نتيجة فعل القوة الإلهية في الطبيعة لا نتيجة تطور ذاتي. وأن «دارون» خطر على الدين لأن مذهبه لايعطي المقام اللازم للعزة الإلهية في تطور الكون، وأن فئات متعددة من الدارونيين الكفرة، تقول بأن الله نفسه من خلق الانسان وأن أصل كل شيء هو الماء، ونسوا، أو تناسوا بأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

■ **إذا جاء علماء صَدُقَ إيمانهم وقالوا بتشابه الحيوانات في الاطار الاساسي لتكوينها.. فإننا نقبل منهم ذلك ونعتبر هذه الجزئية حقيقة تتفق مع إشارة القرآن الكريم إلى ذلك.. يقول سبحانه وتعالى..**

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[1].. فالخالق واحد.. والنشأة واحدة.. فإذا تشابهت الأنواع في الاطار الأساسي لتكوينها عند العلم، فهو اقتراب وتوافق مع ما جاء به القرآن كتاب الله المقروء. لماذا؟

لأن هذا التشابه يدل على وجود أسلوب (واحد) للخلق يبدعه خالق (واحد أحد فرد

---

(١) سورة يس: ٣٦.

صمـد) فعين القطة مثلا لا تختلف في تكوينها عن عين البقرة أوالأرنب أو (الانسان)[1]. . حتى أن دراسة عين البقرة في معامل كليات العلوم تغني عن (قطع) عين الانسان ودراستها، وكذلك الجهاز الهضمي والجهاز العصبي والغدد الصماء وغيرها من الأعضاء في شتى أنواع الحيوانات[2]. .

- **إذا جاء «داروين» وقال:**

ان هناك منافسة شديدة بين أعضاء بعض الأنواع، وخلال هذا الصراع تفرض التغييرات النافعة نفسها على الجسم فيعيش الأصلح للحياة ويموت غير الصالح لها، وينقل الأحياء لا نسألهم التغييرات النافعة، وأن هذا القول يفسر ظهور أشكال حياة جديدة. وإذا أطلق «دارون» على هذا التغيير المزعوم الطارىء لفظ (الاصطفاء الطبيعي)، ولكي يوضح مذهبه يأخذ الزرافة مثالا على ذلك، ويدعي أنه لأسباب غير معلومة ولدت بعض الزرافات باعناق اطول من غيرها بقليل، وانتصرت ذات الأعناق الأطول في صراعها مع الحياة واستطاعت أن تجد غذائها وعاشت بالاصطفاء الطبيعي، ونقلت إلى أنسالها رقابا أطول قليلا، وأن هذه العملية قد تكررت خلال أجيال كثيرة حتى صارت الزرافة كما هي اليوم.

- **حينئذ نقول لـ [داروين] خسئت وضللت وأخطأت. . .**

. . . هات لنا برهانا واحداً فقط على صدق افتراءاتك ومزاعمك.

. . . بل إننا نتركه لأبناء جنسه أنفسهم يردون عليه بنفس المنهج الذي يؤمن به أهل الغرب فنظرية [داروين] هذه اصطدمت باعتراضات متلاحقة. إذ جاء في كتاب: (علم الأحياء اليوم)[3] المطبوع سنة ١٩٦٤ للأستاذين «كلارك ومولد» مايلي:

- «لقد أثار بعض العلماء اعتراضات كثيرة استندوا عليها في رفضهم لنظرية «داروين» رفضا قاطعا. . . [أولا]: لأن النظرية لم تفسر كل عوامل الارث. . ومثال

---

(١) د. يوسف عز الدين عيسى ـ التطور العضوى للكائنات الحية ـ عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد الرابع ص ١٠٢.

(٢) بشير التركي ـ لله العلم ـ تونس ص ٦٦.

(3) Sayles. B. Clarck, Albert Mould-Biology for to day, PP. 201 - 203.

ذلك انها لا تفسر بوضوح لماذا بعض التغييرات إرثية بينما البعض الآخر غير إرثي، ثم إن كثيرا من التغييرات تكاد تكون ضئيلة جداً، بحيث لا يمكن الظن بأنها قادرة على مساعدة جسم ماعلى الكفاح للبقاء. [ثانيا]: أن النظرية لا تفسر كيف أن تراكم التغييرات البسيطة المستمرة يمكن أن يؤدي إلى ظهور أجهزة معقدة كالتي تراها الأجسام العضوية للكائنات العليا».

● ويقول الأستاذ «ميليرش» في كتابه: (قصة الحياة)[1] ما يلي: . . . «أما بالنسبة إلى نظرية [داروين] فإني أرى بأن المشككين على حق في قولهم حينما يقولون: بأنه لابد للتغيرات من أن تكون فورية حتى ينتفع بها الجسم ليكون حظه أوفر من حظ أمثاله للبقاء حيا وإلا فما الفائدة مما تبذله العين أو أي عضو ظاهر، في مكافحة الهواء، بانتظار أن يتحول ذلك العضو إلى جناح؟ . . إن الاصطفاء الطبيعي لايملك ذكاءً ولا غاية».

● وهكذا فقد ثبت خطأ [نظرية داروين] كما عرضها، ورفضت من وجوه كثيرة. في سنة ١٩٠١ قطعت الخطوة المهمة التالية في إيضاح سقوط نظرية التطور، حيث قام العالم النباتي الهولندي «هوغو»[٢] بتجارب على نبات معين، فشاهد نباتات جديدة لها لون أصفر وأشكال غير مألوفة تظهر بين حين وآخر، ورأى هذه النباتات الجديدة تنقل صفاتها إلى أنسالها، فسمى هذا النبات (المتنقل)، وقد ظن «هوغو» بأن الانتقال النافع الشامل يفسر نظرية التطور، استشهاداً بمثال دارويني عن الزرافات المتنقلة التى صارت لها اعناق طويلة، وهى أقوى على المكافحة في سبيل البقاء من الزرافات ذات الأعناق الأقصر وأن هذه الزرافات المنقلة أنتجت أجيالا ذات أعناق طويلة وهذا، في نظره، يفسر تطور هذا النوع، ولم يلبث أن اكتشف عدم ديمومة ملاحظاته.

ولم تلبث هذه النظرية الجديدة أن أثارت الانتقادات التي وجهت للتغير الفجائي الذي اعتبره «هوغو» سبب التطور من ذلك ما قاله الأستاذ «بيـر»:

● «كثيراً ما كان هذا الانتقال الفجائي يحمل معه الموت العاجل إلى الجسم الذي

(1) H.E.L. Mellersh- The story of life, PP. 177-181.

(2) Ibid., PP. 205-208.

يحمله . . وبصرف النظر عن كونه لايؤدى إلى الحصول على الأفضل من الصفات، فإنه يبدو بأنه عارض مرضي، ولا يوفر أي إيضاح لسبب تقبل الأجسام هذا التغيير، ولا لجعلها أصلح حالا . ومن هذا نستنتج بأن الأبحاث التي أجريت خلال العشرين سنة الأولية من القرن العشرين كلها مضطربة ومبهمة شأنها في ذلك شأن [نظرية التطور] «۱»

■ لكن المذهل حقا أن يقف (إنسان) مثل «جان مونو» وقد نسي أنه طين حقير فصال تيها وعربد . . . ونجده ينادي بالتطور عن طريق (الصدفة) . . يقول هذا الملحد . . «إن الصدفة وحدها منبع كل جديد وكل خلق في المعمورة» . . ويقول أيضا «إن الصدفة الخالصة . . أعني أن الصدفة وحدها والتي هي الحرية المطلقة، والعشوائية هي أساس المبدأ الضخم . . الذي هو (التطور)» . .

. . ويقول . . . «نستطيع أن نقارن مقارنة جيدة، الكائنات الحية بالآلات وذلك من خلال تركيبها الكلي، وأيضا من خلال وظائفها» . .

● ولعل هذا الملحد قد تأثر بما قاله «ديمقريطش» اليوناني منذ (٢٥٠٠سنة) «كل ما يوجد في الكون نتيجة الصدفة والضرورة» . . أي أن كل شيء يأتي (صدفة) قبل حدوثه . . ثم يتبين أن ذلك ضرورة في (الطبيعة) بعد خلقه[1] . .

والرد العلمي عليـــه :

لا يمكن (لعقل) أن يتصور بأي حال من الأحوال أن جهازاً معقداً أشد التعقيد ـ متناسقا (كالمخ) مثلا يكون قد تكون من تلقاء نفسه نتيجة (للصدفة) العمياء[٢] . .

ولن أتناول القـدرة المذهلة للخالق الأعظم في خلق المخ فهو موضوع طويل، ولكنني سأتناول فقط جهازا واحدا يتصل عضويا بالمخ . . وهو جهاز (الأبصار) . . إن جهاز الإبصار يتكون من الطبقة الخارجية (الأكتودرم) ـ أساسا من (المخ) والجلد . . وتبدأ حويصلة الابصار البدائية في الظهور عند الجنين في بطن الأم في الأسبوع الثالث منذ بدء التلقيح، أي مرحلة العلقة، وفي الأسبوع الرابع تبدأ الخلايا في حويصلة

(1) Ibid., PP. 205 - 208.

(٢) ـ انظر د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ـ ص ٩٧.

الابصار تنفصل من حويصلة (المخ المقدمي) . . وفي الأسبوع الخامس تتخذ شكل كوب مكون من طبقتين، والطبقة الخارجية تنشأ بها حبيبات ملونة تغطي شبكة العين فيما بعد، أما الطبقة الداخلية فتكون الجزء الحساس المبصر والمتصل بعصب العين.

وفي الشهر الثالث يتكامل نمو الشبكية التي تلتقط الصور كالكاميرا وتكون قد اتصلت اتصالا وثيقا (بالمخ) عبر العصب البصري، أما العدسة البصرية فيبدأ ظهورها في أواخر الأسبوع الرابع وأوائل الخامس، وتفقد خلاياها أنويتها حتى تصبح شفافة مثل البللور وتدعي عندئذ «العدسة البللورية البصرية» . . وما هي إلا خلية من خلايا الجلد[1] . .

- أتكون هذه الأجهزة من صنع الصدفة؟
- أبعد كل هذه الدقة المتناهية يقول هذا الملحد أنها الصدفة وحدها؟ . . كيف ذلك . .

﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون﴾[2] .

- ومن الآية الكريمة نفهم أن الله هو الذي خلقنا نحن البشر وكذلك خلق جميع الكائنات الحية، فخلق الكائنات إذن وتطورها (صدفة)، أمر مستحيل، وتعجز النظريات القائمة على الالحاد والشرك أن تفسر هذا الخلق، وتتناقض هذه النظريات مع الأصول الأساسية للعلم الحديث نفسه . . فلن يخلق أحد ولو ذبابا سوى الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى . . **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره، إن الله لقوي عزيز . . ﴾** «سورة الحج ٧٣-٧٤» .

---

(١) د. محمد علي البار - خلق الانسان - الدار السعودية للنشر والتوزيع ص١٧٦، ١٧٧.

(٢) سورة المؤمنون ٧٨.

قصـور العلم وشـمولية القرآن

وبعد أن ثبت قصور العلوم ـ باعترافها هى ـ عن إدراك حقيقي لطبيعة الانسان، غدا ضروريا أن يبحث لنفسه عند بيان حقيقي لطبيعته ليدرك دوره، وينتشل نفسه مما يعاني من قلق واضطراب، ولن يرضى الانسان هذه المرة بتصور بشري يتسم بالنقص ويحتاج إلى التطور وإنما يرضيه أن يجد تصوراً مبراً من قصور نظرات البشر في علومهم، ولن يكـون ذلـك بطبيعـة الحـال إلا في تصور رباني يخالف في أصل تكوينه، وفي خصائصه تلك التصورات البشرية، «ومن ثم لا يحتاج ـ في ذاته إلى التطور والتغير، فالـذي وضعـه يرى بلا حدود من الـزمـان والمكان، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصـور، ويختـار بلا تأثـر من الشهـوات والانفعالات. . ومن ثم يضع الكينونة البشرية كلها، في جميع أزمانها وأطوارها أصلاً ثابتاً تتطور هي في حدود وترتقى، وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الاطار». . .

ولن يجد الانسـان ضالتـه هذه إلا في الاسـلام دين الله الذي ارتضاه للناس، مستوعبا كل ماسبقه من مراحل الأعداد للبشرية، وتقضى هذه الخاصية فيه بألا يقبل دين غيره في الدنيا، ولايصير لغير معتنقه جزاء في الآخرة على أي عقيدة تكون ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ «آل عمران ١٩».

﴿**ومن يبتـغ غير الإسـلام غير الإسـلام دينـا فلن يقبـل منـه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ «آل عمران ٨٥».

وحاجة الإنسان إلى عقيدة سليمة في طبيعة خلقه، تحتم عليه أن يأخذها من الإسلام بعد أن عجز غيره عن تقديمها، علوما أو مذاهب فكرية، أو عقائد مشبوهة، وليست مذاهب الفكر البشري بأسعد حالاً ولا أكثر توفيقاً من علوم الإنسان.

وواقـع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محددة في حياتنا الباطنية مازالت غير معروفة.

ولا يعرف سرها إلا خالقها. . سبحانه وتعالى. .

ومن المـدهش حقا أن نعرف أن [داروين] كان يأبى الالحاد كما يقول العقاد ـ

ويؤكـد رفضـه وانكـاره (للصـدفـة). . وقـد ورد بالفعل مايشهد بترجيحه لعقيدة الربوبية. . ونجده (بالفعل) حتى أواخر أيامه مؤكداً ان الاستدلال بمذهب التطور على (إنكار) الله خطأ كبير وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين»[1].

ولكننا نشك في ذلك. . فما كان «داروين» إلا ملحدا راسخا في الالحاد. . وأغلب الظن أنه كان يتظاهر فقط بعدم الصدام مع الدين المسيحي ليصد حملات الكنيسة عليه وعلى مذهبه. . وهذا «بخنر» يشير إلى تمسك «داروين» بالصدفة العمياء في الخلق. . ويقول أن نظرية [داروين] قامت على أفعال طبيعية لا شيء من (القصد) فيها وأن مذهبه الصق بالمادية من مذهب (لا مارك). . على أساس أن لا مارك يقول بنـامـوس عام للارتقاء. . أما «داروين» فيرى أن ارتقاء الأحياء يتوقف على تجمع تدريجي في الأفعال الطبيعية العارضة الضعيفة التي لا تحصى[2]. .

بخـنر وأصـل الأجنـاس البشـرية:

ويرى «بخنر» أن الأحياء نشأت كلها من أصل واحد. . . ويؤكد ذلك الأستاذ «اسماعيل مظهر»[3] فيقول: . . «لم أقع في أي كتاب على ما يسلم بخلق أربعة أو خمسة أصول أولية تحولت عنها العضويات. . . ، ولذا أرجعها كلها إلى أصل واحد هو الماء».

- **فإذا كان ذلك [سليما]:**

فإننا نقول أن هذه [الجزئية] التي ذكرها الأستاذ اسماعيل مظهر قد (اقتربت) من التـوافقية مع الحقيقة القرآنية التي تقول بالأصل الواحد لجميع الكائنات الحية. .

---

(١) عباس محمود العقاد ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين ـ مكتبة غريب ص ٥٨ ، ٥٩.

(٢) لويس بخنر ـ شرح بخنر على مذهب داروين ـ ترجمة شبل شميل ، ضمن فلسفة النشوء والارتقاء، ط٢ ـ مجموعة د جزء ١ ـ مطبعة المقتطف بمصر ـ سنة ١٩١٠ ص١١٤.

(٣) اسماعيل مظهر ـ ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء ـ المطبعة العصرية ـ ص٥٦. . وجدير بالذكر أن الأستاذ اسماعيل مظهر قد عكف على ترجمة كتاب أصل الأنواع لداروين إلى اللغة العربيـة طوال عشر سنوات، كما ذكـر في مقـدمة كتابه (ملتقى السبيل). . . ويؤكد الدكتور «محمود عثمان» في كتابه: الفكر المادي الحديث وموقف الاسلام منه ـ ص١٤٢. . . انه قرأ في كتاب (أصل الأنواع) لداروين تسعة فصول كاملة محاولا العثور على شيء يدل على أن داروين قد حدد عدداً من (الصور) يكون أصلا للأنواع فلم يعثر على شيء ما يدل على ذلك.

مصداقاً لقوله تعالى: . . ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون** ﴾[1].

لمـــاذا:

لأن الآية الكريمة تشير إلى أن كل شيء مصدره الماء كمادة أولية وأن (أصل) كل شيء حي هو الماء، وبهذا يتفق (تماما) مع الحقائق العلمية، فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة (مائي)، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية.

- فلا حياة ممكنة بدون الماء. .

ويدعم ذلك عثور العلماء على طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري Pre cambrien أي في أقدم الأراضي المعروفة، وهذا يدل على أن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات وأن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل. . وتدل الدراسات على أنها أتت أيضا من المحيطات. .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء**﴾. . «النور: ٤٥». .

. . والسائل المنوي ماء . . والبروتوبلازم أيضا ماء . .

وإذا كان العلماء المؤمنـون (وصَدُقَ إيمانهم) قد استمدوا من دراسة المورفولوجيا المقـارنـة للحيوانـات والفسيولـوجيا وعلم الأجنـة والتشريح المقـارن، على أن كل الحيوانـات تتشابه في أن أجسامها مكونة من مادة (البروتوبلازم) المشكلة على هيئة خلايا، وأن هذه الخلايا تتشابه في تركيبها العام في جميع الكائنات الحية. .

التوافقية بين العلم والقرآن في أصل النشأة من الماء

فإننا نرى أن هذه (الجزئية) لا تختلف مع ما جاء في سورة النور . . حيث أشار القرآن الكريم إلى أن كل من عالم النبات والحيوان نشأ من سائل هو الماء وهو أصل كل صور الحياة، وسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموما أو (العنصر) الذي يجعل

---

(١) سـورة الأنبيـاء (٣٠).

النباتات تنمو وتتكاثر في التربة أو كان المقصود هو (بذرة) الحيوان، فإن كل الآيات التي تناولت ذلك تتفق تماما مع معطيات الحقائق العلمية الحديثة . .

ونذكر من الآيات التي تناولت (أصل المملكة النباتية على سبيل المثال، قوله تعالى:

﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** ﴾ «طه : ٥٣».

وقوله تعالى: ﴿**وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**» . . (الحج : ٥).

وذكر الخالق الأعظم أن (الانسان) أيضا ينطبق عليه نفس المبدأ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿**ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين**﴾ «السجدة : ٨»

﴿**خلق من ماء دافق** ﴾ «الطارق : ٦».

﴿**إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج** ﴾ . . «الانسان : ٢»[1] . .

ونحن إذا نظرنا إلى عملية (الانقسام) التي تحدث عن تكوين (الامشاج) حيث يختزل عدد «الكروموسومات» إلى النصف ليعود كما كان عند اندماج الخلية التناسلية الذكرية (الحيوان المنوي) مع الخلية التناسلية الانثوية (البويضة) لتكوين الخلية الملقحة لعرفنا على الفور أنها نتيجة قدرة إلهية واعية مبدعة.

. . «فسبحان الله ، وتبارك الله أحسن الخالقين» . .

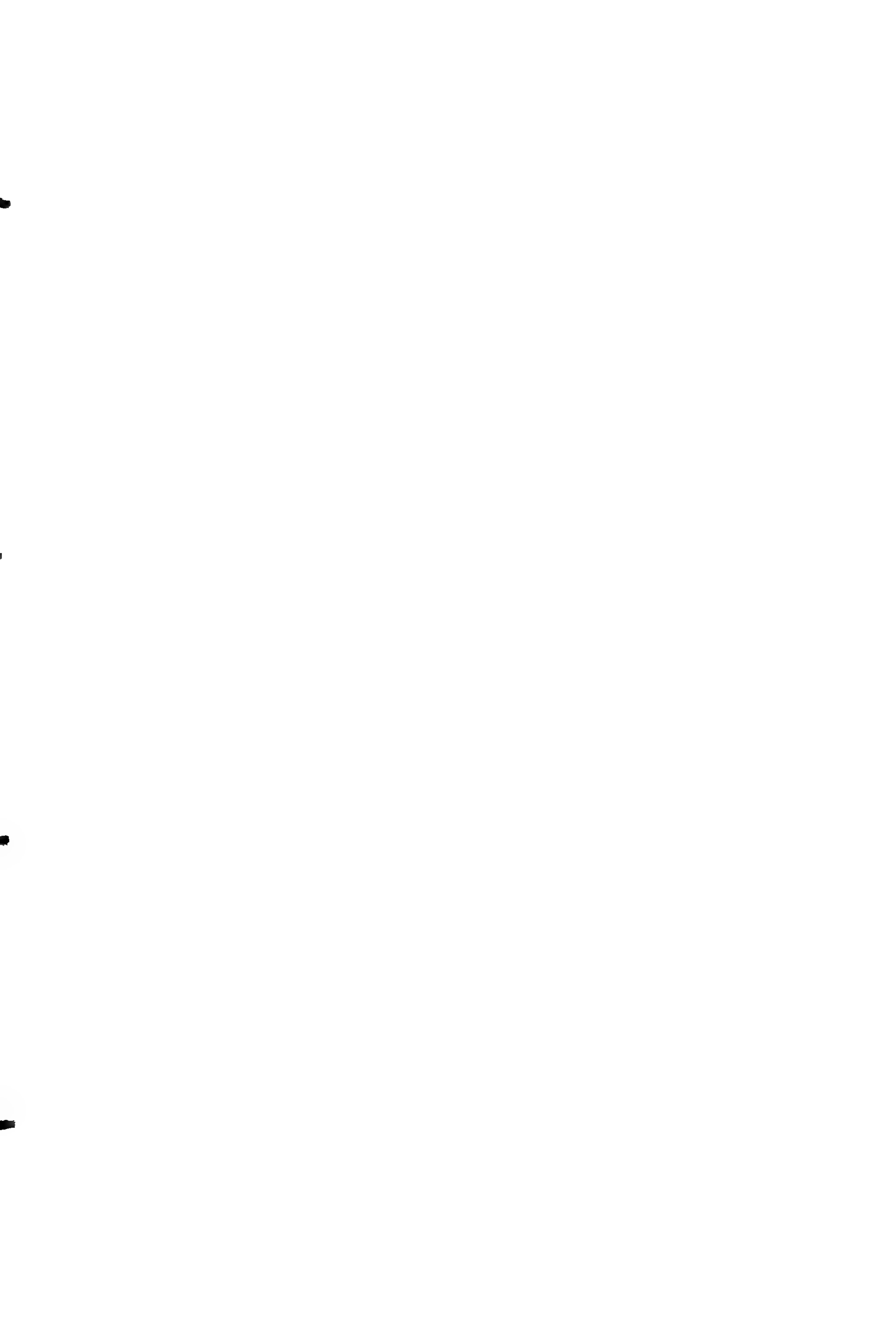
■ مجمل القول أن الطريق إلى التوافقية بين العلم والقرآن يكون بوضع جميع الفرضيات العلمية موضع التجربة والتثبت والتأكد والاستقراء والمشاهدة والدراسة.

فإذا ثبت صدقها، وشمولها، وديمومتها . . . تصبح حقيقة علمية.

وحينئذ [فقط] يمكن أن تتوافق مع الحقيقة القرآنية.

---

(١) الأمشاج : المخاليط أو نقط (المني) ذات العناصر المتعددة كما ورد في صاحب المنتخب الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة.



الفصل التاسع

الأسس العلمية التي نخرج بها من المفهوم القرآني لأصل الأجناس البشرية

- الخلق لله وحـده.
- تطور الانسان في الرقي حسب الخط الإلهـي.
- كمال التكوين الإنســاني.
- الانسان في الديانات الأخرى.
- أدلة أخرى على انحراف نظرية داروين.

الفصل التاسع

الأسس العلمية التي نخرج بها من المفهوم القرآني لأصل الأجناس البشرية

يمكن الخروج من العرض السابق لنشأة الانسان بين شبهات الداروينية Dar-winsm وصدق الحقيقة القرآنية بالمفاهيم الآتية :

الخلق لله وحده:

يقول سبحانه وتعالى . . **﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا في كتاب، إن ذلك على الله يسير﴾** . .[1]

فالله وحده، ولا أحد سواه هو الذي خلق «الانسان» من تراب. . وجعل أبناء سلالته مختلفين في المظهر، متحدين في النشأة والبدء من التراب، وهذا دليل القدرة المطلقة التي لا يتصف بها الا خالق الأكوان ـ الواحد الأحد المنزه عن الصفات، الذي ليس كمثله شيء . .

ولقد رأينا أن القرآن الكريم بتوغله العمودي العليم بأعماق الانسان وتكوينه الذاتي، يحدثنا في أكثر من موضع ـ وبمواجهة إعلانه الأول عن تفضيل بني آدم وسيادتهم ـ عن نقاط الضعف والسلبية في سلوك الانسان. . . وفي سورة التين (٤-٦) يطرح القرآن المعادلة البشرية بطرفيها: **﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** . .

ولقد تبوأ الانسان مركزاً فريداً في هذا الكون. . . فهو يجد كتلة السموات والأرض قد سخرت له لأداء مهمته. . .

---

(١) سورة فاطر ١١ .

قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ «الاسراء ٧٠».

من هنا يحتل الانسان مركزه الذي أراده له الله سبحانه وتعالى في الأرض كسيد للعالمين، فهو يُخضع ولا يخضع، يصوغ ولا يصاغ، يخطط وينفذ، ولا يتخذ مجرد أداة لتنفيذ خطط الطبيعة ومتطلبات العلاقات المادية..

من أجل ذلك كان الانسان عامة... والانسان المؤمن خاصة، غالياً عزيزاً عند الله، لأنه كلمته الفاعلة في الأرض، وإرادته النافذة في العالم... ومن أجل ذلك كان قتل الانسان، أو إهانته في آدميته، أو إلصاق البهيمية من الأمور التي يكرهها الله ويحرمها لأنه هو وحده خالق هذا الانسان.

وفي الآيات الآتية مايدل على انفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق:

﴿**وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق**﴾ «الحجر ٨٥».

﴿**إن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل. له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون**﴾ «الزمر/٦٢-٦٤».

﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ «الدخان ٣٨-٣٩».

﴿**وخلق السموات والأرض بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون**﴾ «الدخان ٢٢».

.. ولو تمعنا قليلاً في القرآن الكريم لوجدنا:

أنه لم يحظ مخلوق من مخلوقات الله بعناية مثلما حظي الإنسان، فقد أرسل الله الرسل إليه وأنزلت الكتب تحمل هدى السماء إلى الأرض من أجل صلاح هذا الانسان وبصلاحه يصلح كثير من مخلوقات الله في هذا الكون.

ولا عجب فالانسان هوالكائن الذي كرمه الله بالعقل ليعي ويتفهم الأمور، ويستمتع بالحياة وفق منهج الله الذي حملته تعاليم الله إلى الإنسان.

وأما الميزة التي تميز بها الانسان وكرم من أجلها كل هذا التكريم، فهي الخلافة التي تعني تنفيذ عدل الله الخالق الواحد ومنهجه قرنا بعد قرن وجيلاً بعد جيل، وهي العبادة بمعنى الخلافة وشمولها لكل نشاط انساني من أجل الدين ونشره...

بعبارة أخرى ميزة [الانسان] على كل الكائنات أنه المخلوق الوحيد الذي كلفه الله بالعمل على عمارة هذا الكوكب الأرضي.

هذا الانسان . . . مخلوق من طين خلقه الله بقدرته وحكمته وجعل من الطين بشراً سوياً.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه**﴾[1] . . والذي بدأ خلق الانسان الأول من طين انما هو الله سبحانه وتعالى ثم سواه وأتمه ونفخ فيه من روحه فكان الانسان مكونا من مادة هي طين لازب ثم من روح هي من الحق تبارك وتعالى . .

ومن الأدلة على انفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق، وكمال قدرته، بعث الحياة في الأرض الخامدة اليابسة التي لا نبات فيها . . يقول سبحانه وتعالى: ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير**﴾[2]

والأدلة على انفراد الله بالخلق موجودة في الانسان نفسه . .

ففي هذا (الغلاف الحيوي) الكبير الذي يغطي به وجه الأرض، والذي يضم أنواعا عديدة من الكائنات الحية التامة التباين، لم يهيأ لنوع ما أن تكون له السيادة المطلقة على سائر الأنواع الأخرى إلا الانسان ذلك المخلوق العجيب الذي ضم في أعماقه وظاهره كل آيات قدرة الله تعالى في الخلق . .

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[3] . .

في الانسان آيات للمتقين . . أليس في نفسك أيها (الانسان) وما فيها من علوم ومعارف، وغرائز وميول واتجاهات للخير تارة وللشر تارة ـ أخرى آيات للمتقين؟ . . أليس في نفسك التي بين جنبيك ومافيها من حواس السمع والبصر والاحساس واللمس والذوق ومافيها من دورة الدم وأجهزة التنفس والبول والهضم والافراز، كل ذلك آيات لمن يعقلها، ولا يعقلها حقيقة ويدرك سرها الخفي ودلالتها على الاله

---

(١) سورة السجدة: ٧ـ٩.

(٢) سورة فصلت: ٣٩.

(٣) سورة الذاريات: ٢١.

القوي القادر الحكيم الخبير إلا المؤمنون بالله.

فالانسان هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الايمان وحين يحرم نعمة اليقين..

.. انه لايملك أجنحة مثل الطيور، ومع ذلك يطير.. وهو سباح ضعيف إذا قورن بالاحياء المائية، ولكنه مع ذلك يقطع الآف الأميال راكبا سفينا يمخر بها عباب أعالي البحار التي كشف أعماقها في غواصته لايتسرب إليها الماء.. ووقودها الذرة..

.. والانسان لايملك مخالب تضارع مايملكه الأسد أو النمر مثلا، ولكنه حفر أعظم الانفاق في باطن الأرض الصخري الصلد، وجسمه عار.. والانسان لايملك أنيابا ولاينفث سما، ولكنه ـ رغم ذلك ـ قادر على قتل أي كائن حي..

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني.. في أسرار هذا الجسد، عجيبة في تكوينه الروحي.. في أسرار هذه النفس.. وهو عجيبة في ظاهره، وعجيبة في باطنه..

● **أما في نظر الماديين :**

فالانسان لايزيد عن قبضة من تراب هذه الأرض... من الأرض نشأ، وعلى الأرض يمشي، ومن الأرض يأكل ... وإلى الأرض يعود..

هو كتلة من اللحم والدم والأعصاب والأجهزة، والغدد والخلايا، وما العقل، والتفكير إلا [مادة] يفرزها المخ، كما تفرز الكبد الصفراء، أو كما تفرز الكلية البول...

هو عند [الماديين] كائن ليس له أهمية... ولا امتياز على غيره.. إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض.. بل هو ـ في نظرهم ـ من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقرود!!!... غاية أمره [عندهم] أنه تطور!!! وبمرور الزمن أصبح هذا الانسان.

لا روح هنالك ... ولا نفحة من السماء يختص بها هذا الكائن الفذ!!!!. يقول أحد ملاحدة الغرب المعاصرين:

«هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة؟ ... نحن لا نساوي أكثر من أنفسنا، وكذلك الحشرات... ونحن لا نريد أن نحقق أنفسنا، وكذلك أيضا

الحشرات. . . والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط. . . وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان، لايفوق كثيرا فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان. . . . ماذا نفقد أو يفقد الكون أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا؟». .

وليس ماذهب إليه [داروين] كما رأينا في الفصول السابقة، وفرويد، وأمثالهما من الماديين بأفضل من هذه النظرة إلى الانسان. . . إنه عندهم أخو الحشرات، وصنو القرود، إنهم لايبصرون فيه إلا القشرة والغلاف، ولايعرفون فيه إلا الطين، والحمأ المسنون. . . فهو مخلوق من طبيعته الانجذاب إلى أسفل، وليس الرقي إلى أعلى من طبيعة الهبوط إلى الأرض. . وليس الارتفاع إلى السماء. . .

هو في نظرهم . . . [حيوان متطور]

ترقى من طور إلى طور حتى بلغ ما هو عليه. فالحيوانية في الانسان قشرته ولبه، ولحمته وسداه !!!. . .

فأي إيحاء للنفس الانسانية أسوأ من هذا الايحاء؟. . . أن يرى الانسان نفسه مخلوقاً هابطاً. . . حيواناً . . . طينا وحمأ!!!. . .

أين هذا التصور المنحط للانسان، من تصور الاسلام الذي جعل الانسان مخلوقا كريماً؟. . . خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والارادة، وجعله خليفته في الأرض.

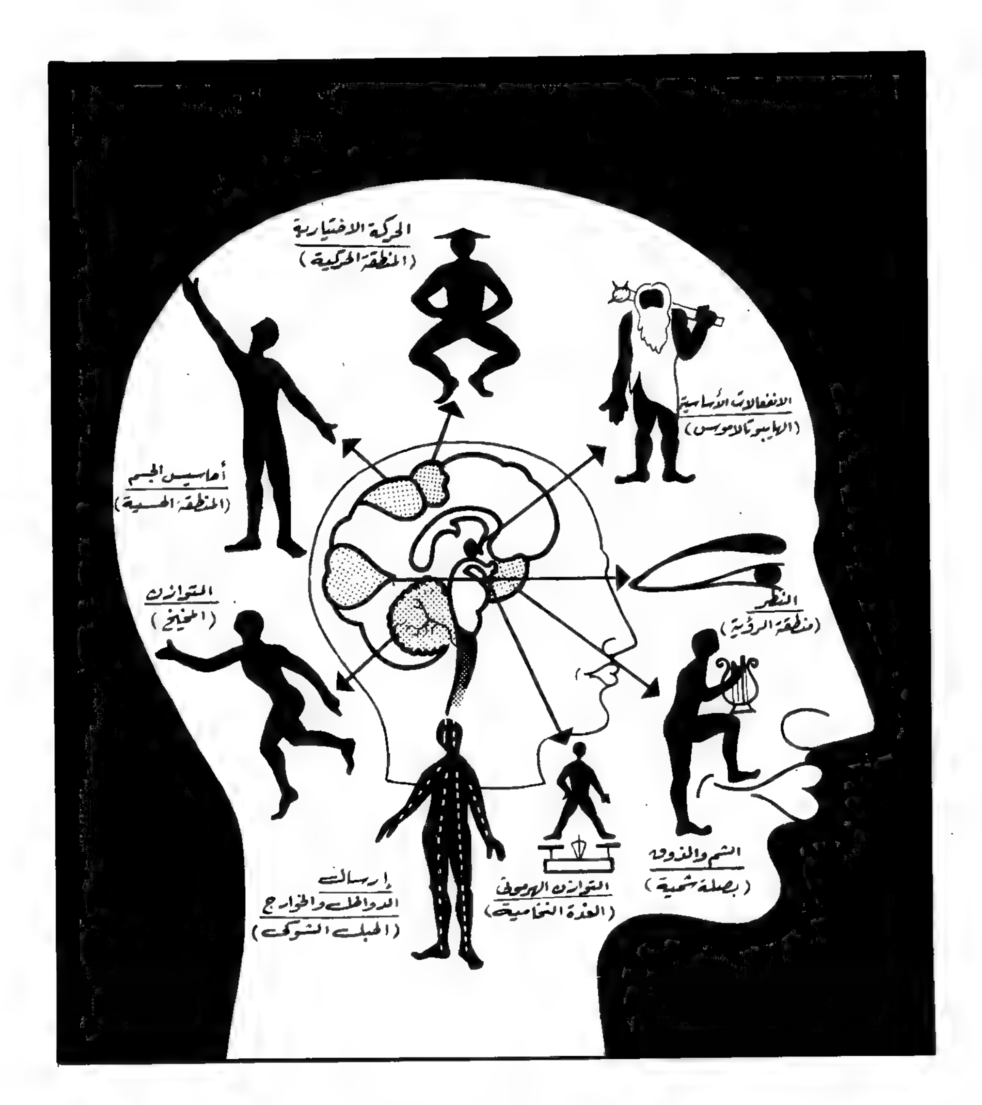
فالانسان يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه، . . لقد خلقه الله سبحانه وتعالى، وهيأه للنجاح في السيطرة على الأرض ومافيها. . لسبب واحد. . هو الخلافة في الأرض. . فالانسان لم يخلق مثل (الحيوان) بحوافر أو أخفاف يسير عليها. . وإنما له قدم متخصصة وقوام منتصب. . وهو مجرد من غطاء ذي ريش أو فراء أو حراشيف، وإنما يغطيه جلد حساس بلا حماية، كما أن يديه ليستا مكيفتين للحفر أو التمزيق أو الضرب. . أما حواسه من نظر وسمع وذوق وشم فمتفوقة في بعض النواحي، قاصرة في بعضها الآخر عما زودت به منها حيوانات أدنى رقيا من الانسان. . ومع هذا فقد تفوق الانسان، وأضاف إلى قدراته بما ابتدعه من تخصصات جثمانية ووظيفة دقيقة. . فعلى سبيل المثال. . أكسبته قامته المعتدلة حرية ليديه اللتان لا يستخدمها في المشي. . . كما أن إبهامه تحسن التعاون مع أصابعه

الأخرى في الامساك والالتقاط وتشكيل المواد. . كما أن فم الانسان وحلقه قد خلقهما الله خصيصا لتأدية وظيفة أساسية هي (الكلام). . ولا (مقارنة) بينهما وبين نظيريهما في (القردة) العليا أو السفلى - أو أي كائن حي على الأرض - التي ليست من الأناس في شيء من حيث أجهزتها العصبية والعضلية الدقيقة.

أما العضو الذي انفرد به (الانسان عن سائر الكائنات الحية كي يحقق الخلافة في الأرض. . هو (المخ) تلك البوصلة الضخمة من النسيج العصبي التي تشغل الجزء الأكبر من الجمجمة بشكل (لايتكرر) عند باقي الكائنات الحية. . إنه هبة الله للانسان. . منحه إياه - دون سائر المخلوقات - كي يستطيع تعلم الأسماء كلها. . إنه العضو الخطير الذي يحتفظ بالقدرة على التكيف لأداء عدد عظيم من الوظائف المختلفة. . أهمها أنه المركز الرئيسي للعمليات العظيمة التي أعطت الانسان قدرات لم يسبقه إليها أحد، ولن يلحقه أحد (إلا بأمر الله ومشيئته). .

وهنا نقول «للداروينيين» أصحاب نظريات التطور - لماذا لم تلحق باقي الكائنات الحية بالانسان وهم أنفسهم يقولون أن الأحياء موجودون على الأرض قبل الانسان بملايين السنين. .

إنني أقول لهم . . وستظل جميع الكائنات الحية هكذا بلا «تطور دارويني» طوال ملايين السنين الباقية إلى يوم القيامة. . لأن الخالق الأعظم هو الذي خلق الانسان (متكاملاً) منذ أن نفخ فيه من روحه . . وهيأ له السيطرة على (البيئة) وسخرها له لتخدم أغراضه، ولن يقوي (حيوان) آخر أن يطبع (الأرض) باستخداماته وآثاره كما فعل الانسان. . وقد يقول قائل أن النحلة تستطيع صنع الشمع بالغريزة وتشكله على هيئة خلايا سداسية متناسقة تماما، كما تستطيع جمع الرحيق الذي يملأ الخلايا، ولكن مهارة النحلة تنتهي عند هذا الحد، فمثلا لا تستطيع معالجة الخشب أو الألياف أو الطين ولا تستطيع ابتكار تصميم آخر للخلايا، ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر مهارة هذا الكائن - (الذي يدل على قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق) - في صنع تلك الأشياء في إطار محدود ونمط متكرر. . أما الانسان فيستطيع اكتساب الخبرات وتخزينها. . وعرف كيف يتجنب العشوائية. . إنه استطاع قبل العصر التاريخي أن يبتكر من العصي والصخور أدوات بدائية تحقق أغراضه وتفي باحتياجاته المتواضعة آنذاك. .



صورة توضح الإعجاز فى أجزاء المخ

وتشهد بعظمة الله سبحانه وتعالى الذى خلق هذا الجهاز العجيب، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولا شك أن هذه المبتكرات قد فتحت المجال أمام احتياجات جديدة. . مما حفزه إلى الانتقال (والتطور) من التكيف والملاءمة إلى تصميم الأدوات، والآلات. . وبعد آلاف السنين (تطور) خلالها عبر اكتشاف النار واستخدام المعادن ومعرفة الزراعة ـ وصل إلى هذه التكنولوجيا الفنية التي شملت عالم اليوم في كل نواحي الحياة. .

نعم تطور الانسان . . . في الرقي حسب الخط الالهي المرسوم له . .

ولم يتطور من قرد أو ضفدعة أو سمكة. .

وإنما تطور في استخدام (الهبة) التي انفرد بها عن سائر المخلوقات. . تطور الانسان في طريقه استخدام (المخ). . ولم يتطور المخ نفسه. . فحجم الجمجمة لا يكبر وكذلك المخ نفسه. . بل ان حجم المخ. . مرشح للنقصان لا للزيادة. . ولا يوجد أي حدث معين يمكننا من أن نقول أن ابناء اليوم أكثر ذكاء من الذين سبقوا كما يقول البروفيسور «بيار قراسي» في كتابه «انت الاله الصغير». .

والانسان ـ بطبيعةالحال ـ قابل للتطور. . . ويجب أن يكون التطور في القيم والمثل العليا، واستغلال الظواهر الكونية فيما يخدم المجتمع الانساني في السلم، وليس في الحرب ووسائلها التدميرية كما يفعل تجار الحروب في عالم اليوم. . .

ويشير القرآن الكريم إلى حقيقتين هامتين حول الانسان :

١ ـ الحقيقة الأولى . . . تتمثل في (وحدة الحياة) لكل ما هو موجود من إنسان وحيوان ونبات، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾. . فالماء مصدر الحياة لكل ما هو كائن.

٢ ـ الحقيقة الثانية. . . وتتحدد في قوله تعالى:

﴿**وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**﴾. وهو يعطي هنا إشارة صادقة لحقيقة الحياة. . . والانسان فيها صانع الحضارة والتطور بما يخدم المجتمع الانساني على أسس روحية وقيم اخلاقية تساير ركب التطور الحضاري للانسانية. .

فالانسان مع مادية أصله مطالب بأن يتسامي إلى الروح المثالية بما أودعه الله فيه من روحه. . . فقد قال تعالى:

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ . .

ولذلك:

نحن نرفض ما يقوله «داروين» بحيوانية الانسان لأنها تتعارض مع تكريم الله للانسان في أحسن تقويم وتمييزه على باقي الكائنات:

- **﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾** - «الاسراء ٧٠»
- **﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** - «الحجر ٢٩»
- **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** - «البقرة ٣٠»
- **﴿خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾** - «النحل ٤»
- **﴿والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** - «سورة العصر».

إذن فالانسان أكرم المخلوقات بسر الروح الذي نفخ فيه، وبسر خلافته في أرض الله، وبسر تسخير الكون كله له . . . وبسر حمله الأمانة . . . وبسر قيامه بأمر الله وعبادته.

خلق الانسان خلقا كاملا على . . . هيئته الحالية في أحسن تقويم:

الثابت بالفعل ان الانسان لم (يرق) أو (يتطور) من (قرد) إلى انسان . . وقد أشار القرآن الكريم إلى إمكانية تحول الانسان إلى قرد بقدرة الله وذلك حينما يغضب الله عليه . . فقال جل من قائل عليما سبحانه وتعالى . . **﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**[1] . .

وقال سبحانه وتعالى . . . **﴿فلما عتوا عن ما نهو عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**[2]

وقال سبحانه وتعالى: **﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مَثُوبةً عند الله من لعنه الله**

(١) سورة البقرة: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٦.

وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سَوَاءِ السبيل﴾[1] . . .

وجميع الأديان تقر خلق الانسان خلقا (مستقلا . . وبأنه لم تتحول أي كائنات حية أخرى إلى (الانسان) . . كذلك لم يشترك الانسان وهذه الكائنات الحية في الانتماء (لأصل) مشترك واحد «اللهم إلا في الرجوع للتكوين الأساسي الأول وهو الماء» . . . فالانسان خلق خلقا كاملا مستقلا في أحسن صورة وأحسن تقويم . . وكلمة أحسن تدل على أرقى صورة كان عليها خلق الانسان منذ النشأة الأولى . .

ويدل على ذلك قوله تعالى . . ﴿**قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى**﴾[2] . . فالهبوط هنا خروج من الجنة . . والطرد لا يكون إلا لعاقل ذي إرادة وقصد للعصيان . . ولا عقاب لمجنون أو لحيوان أو حشرة أونبات . . اذن فقد كان أول وجود لآدم على الأرض هو وزوجه في أحسن صورة وتمام خلقة[3] . .

ولايمكن أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أمر الملائكة ـ وهذا قبل هبوط آدم إلى الأرض ـ أن تسجد (لقرد) أو ضفدعة أو مخلوق ناقص التكوين . .

يقول سبحانه وتعالى . . ﴿**إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين**﴾ «ص ٧١ـ٧٥».

وواضح أحقية آدم بالسجود . . سجود تحية وتكريم من الملائكة وليس سجود عبادة وتأليه . . والأحقية هنا نابعة من تمتع آدم بنفخة الروح من الله سبحانه وتعالى . . .

---

(١) سورة المائدة : ٦٠.

(٢) سورة طه : ١٢٣.

(٣) فقد اكسب الله الانسان جميع المؤهلات ليفهم كل الاشياء بإذنه . . قال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ «البقرة: ٣١».

فبالعقل وحده فضله الله على كثير من المخلوقات وجعله باذنه خليفة في الأرض . .

وقال تعالى . . . ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ . . (الاسراء : ٧٠).

إذن . . فالانسان متكامل الصورة منذ البداية . . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى . .

● ﴿ **لقد خلقنا الانسانَ في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[1] . .

وما كان لمخلوق أن يوصف بتلك الصفات من خالق الأرض والسموات إلا لأنه أهل للعدل والإيمان والهداية والثبات والقوة وحمل الأمانة، وذلك دون غيره من المخلوقات . .

● ويقول سبحانه وتعالى . . . ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾[2] . .

وفي ذلك إشارة إلى ما أودع الله سبحانه وتعالى في آدم من قوى الادراك، والاستنباط والقياس، وتداعي المعاني وتوالدها، ومن هنا كانت له القدرة على انماء قاموسه اللغوي وإضافة جديد إليه في كل يوم. إذ كلما جد جديد في الحياة من المخترعات والمصنوعات التي تفتق عنها عقل الانسان، وضع لهذا الجديد اسما يعرفه به . . ويستدل به عليه دون غيره ففي عقل الانسان، تتولد المدركات، وتتشكل الصور، وتتداعى المعاني، ومن عقل الانسان تخرج الأسماء لكل مدرك، ولكل متصور يظهر في عالم الواقع أو الخيال . .

واستخدم الانسان هذا العقل في تغيير وجه الأرض فأخرج المخبؤ من أسرارها وسخرها لخدمته، فعمر جديبها وأحيا مواتها، واستأنس متوحشها، والان حديدها حتى أقام تلك المدنيات وهذه الحضارات، فركب البحار، وسبح في الفضاء واتخذ سبيله إلى الكواكب والأقمار، حتى وضع أخيرا قدميه على القمر،[3] بأمر الله سبحانه وتعالى وبإذن وسماح إلهي منه .

ولقد سوى الله الانسان جسدا متناسقا قادرا على تحمل قوة (العقل) الذي منحه الله اياه . . ذلك الجسد الحي المتحرك . . له أعضاء ظاهرة عاملة مسخرة لتلبية أوامر

---

(١) سورة التين : ٤-٦ .

يقول ابن كثير في ذلك ـ «خلق الله تعالى الانسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة، سوّى الأعضاء. حسَّنها» . . (تفسير القرآن العظيم) ص٥٢٧ .

(٢) سورة البقرة ٣١ .

(٣) عبد الكريم الخطيب ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥ .



بقايا عظام انسان شرق افريقية

الذى قدم إليها من Asselar منذ نهاية البلايستوسين فسبحان الذى يحيى العظام وهى رميم

هذا العقل، كالسمع والبصر واليدين والرجلين، وأعضاء باطنة، تعمل بغير إرادته كأجهزة التنفس والهضم والدم المتدفق من القلب، والمردود إليه، ثم أن وراء هذا كله مدركات ومشاعر[1] . . وقد عبر القرآن الكريم عن تلك الصورة الرائعة التي خلق الانسان عليها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك**﴾ . . (الانفطار ٦ـ٨) . . إن هذا الخطاب «يا أيها الانسان» ينادي في الانسان أكرم ما في كيانه، وهو «انسانيته» التي بها تميز عن سائر الأحياء، وارتفع إلى أكرم مكان، وتجلى فيها أكرام الله له، وكرمه الفائض عليه، ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل . . «ماغرك بربك الكريم» يا أيها الانسان الذي تكرم عليك ربك . . في أي شيء؟ يفصل سبحانه وتعالى شيئا من هذا الكرم الإلهي . . فخلق الانسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق والأدب الجم والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلا منه ورعاية منه . . فقد كان قادرا أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . وان الجمال والسواء والاعتدال لتبدوا في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه العقلي وفي تكوينه الروحي سواء، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء . .
. . فتبارك الله أحسن الخالقين . . .

كمال التكوين الانساني

وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الانساني العضوي ودقته وإحكامه وليس هناك مجال للتوسع في عرض عجائب هذا التكوين ولكنا نكتفي بالاشارة إلى بعضها:

تقول [مجلة العلوم الانجليزية]: أن يد الانسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة، وانه من الصعب جدا ـ بل من المستحيل ـ أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف[2].

(١) المرجع نفسه ـ ص٢٧.

(٢) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ المرجع السابق ـ ص ٣٨٤٧ نقلا عن (الله والعلم الحديث للدكتور سيد نوفل).

وان جزءا من اذن الانسان (الاذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة متدرجة بنظام بالغ في الحجم والشكل، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية، ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ، بشكل ما، كل وقع صوت أو ضجة، من قصف الرعد إلى حفيف الشجر فضلا عن المزيج الرائع من انغام كل أداة موسيقية في الاركسترا ووحدتها المنسجمة[١].

ومركز حاسة الابصار في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلا ونهارا، والذي تعتبر حركته لا إرادية، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهداب على العين من ظلال، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين، أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع، فهو أقوى مطهر[٢]. .

● وجهاز الذوق في الانسان هو اللسان، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات غشائها المخاطي، ولتلك الحلمات اشكال مختلفة فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذي الحلمات فروع من العصب اللساني البلعومي والعصب الذوقي، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية فينتقل الأثر إلى المخ. . وهذا الجهاز موجود في أول الفم حتى يمكن للانسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة والبرودة والسخونة، والحامض والملح، واللاذع، ونحوه، ويحتوي اللسان على تسعة الآف من نتوءات الذوق الدقيقة، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب، فكم عدد الأعصاب، وما حجمها؟ وكيف تعمل منفردة، وتتجمع بالاحساس عند المخ[٣]. .

● ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم، وتتصل بغيرها أكبر منها، وهذه بالجهاز المركزي العصبي، فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

المحيط، نقلت الشعيرات العصبية هذا الاحساس المراكز المنتشرة في الجسم، وهذه توصل الاحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف، وتبلغ سرعة سريان الاشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية . .

● ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد فقط، فإننا ندرك توا أنها عملية عجيبة، إذ تهضم تقريبا كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها، وحين تتحلل هذه الأطعمة، وتجهز من جديد، تُقَدَّمُ باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا، والتي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً من تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعنية لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان.

فهاهنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الانسان، وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل والتوزيع عرفه العالم(1)، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام وتبقى للانسان خصائصه العقلية والروحية الفريدة التي هي موضع الامتنان في هذه السورة بصفة خاصة «الذي خلقك فسواك فعدلك بعد ندائه: «يا أيها الانسان» . . هذا الادراك العقلي الخاص الذي لا ندري كنهه، إذ أن العقل هو أداتنا لادراك ماندرك، والعقل لايدرك ذاته ولايدرك كيف يدرك . .

هذه المدركات. نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي الدقيق، ولكن أين يختزنها، إنه لو كان هذا المخ مسجلاً، لاحتاج الانسان في خلال الستين عاما التي هي متوسط عمره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثيرات، لكي يتذكرها بعد ذلك ويذكرها فعلا بعد عشرات السنين . .

● **هذه إحدى خصائص الانسان المميزة.**

ان الفارق بين الانسان والحيوان هو أن الانسان بما أوتي من طاقاته كان مكلفاً وان الحيوان لنقصان طاقته لم يكلفه الله بشيء، وان الانسان الذي يرفض أن يقوم بعبء التكليف قد أقام نفسه بمنزلة الحيوان . . ولذلك فقد سقط عن رتبة الانسانية: وقد

(١) كريسي موريسون ـ العلم يدعو إلى الايمان ـ المرجع السابق ـ ص٩٨.

ذكر الله عز وجل في أكثر من آية من القرآن ان الكافرين ليسو جديرين بصفة الانسانية بل هم حيوانات، وشر الحيوانات، لأنهم عطلوا حكمة وجودهم:

- **﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾** «الفرقان ٤٤».
- **﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾** «الأنفال ٥٥».

إن الله عليم.. وجعل الانسان على استعداد للعلم.

والله مريد وجعل للانسان إرادة.

والله قادر وجعل للانسان قدرة.

والله حي ونفخ في الانسان من روحه وجعل له حياة.

والله سميع وجعل الانسان سميعاً.

والله بصير وجعل الانسان بصيراً.

والله متكلم وجعل الانسان متكلماً.

والله حكيم وجعل عند الانسان استعداداً للحكمة.

والله كريم وجعل عند الانسان استعداداً للكرم.

والله رحيم وجعل عند الانسان استعداداً للرحمة.

والله هاد وجعل عند الانسان استعداداً للهداية.

والله حليم وجعل عند الانسان استعداداً للحلم.

هذا مع ملاحظة أن هذه عند الخلق غيرها عندالله.. فالله سميع وليس كسمعه شيء.. وبصير وليس كبصره شيء.... ومريد وليس كإرادته شيء.. وهكذا..

ولكننا فقط أردنا أن نبين للانسان كم كرمه الله سبحانه وتعالى على كثير من خلقه...

أفلا يكون لله من الشاكرين؟..

وهناك ذلك القبس العجيب من روح الله، هنالك الروح الانساني الخاص الذي يصل هذا الكائن بجمال الوجود، وجمال خالق الوجود.. هذا الروح هو هبة الله الكبرى لهذا الانسان، **ثم يأتي نداء الله للانسان ﴿ما غرك بربك الكريم﴾**.. انه عتاب وتنبيه حين يتصور «الانسان» حقيقة مصدره وحقيقة مخبره، وحقيقة الموقف الذي يقفه بين يدي ربه، وهو يناديه ذلك النداء ثم يعاتبه هذا العتاب.

الانســان في الديانات الأخـرى

لقد نصت الـديـانـات السماوية الأخرى كذلك على أن الانسان (خلق خلقا مستقلا) وأنه لم ينحدر من (أصل آخر). . فقد جاء في الاصحاح الأول من سفر التكوين في الكتاب المقدس:

«وقال الله لتنبت الأرض عشبا، وبقلا يبذر بذراً وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه»[1] . .

«فخلق الله التنـانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها الحياة كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه» . .

«وقـال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم، ودبابات ووحوش أرض كأجناسها».

وفي الفصل الثاني من السفر الأول في التوراة، وهو سفر التكوين جاء ما يلي[2] :

«وإن الله خلق آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه الحياة، فصار آدم نفسا ناطقا، وغرس الله جنانا في عدن شرقا، وصير هناك آدم الذي خلقه، وأنبت الله من الأرض كل شجرة حسن منظرها، وطيب أكلها. . وجعل نهراً من عدن ليسقي الجنان، ومن ثم يفترق فيصير أربعة أنهر، اسم أحدها النيل، وهو المحيط بجميع بلاد زويلة، واسم النهـر الثـاني جيحون، وهو المحيط بجميع بلد الحبشة، واسم النهر الثالث دجلة، وهو يسير شرقي الموصل، واسم النهر الرابع الفرات.

فأخذ الله آدم، وأنزله في جنان عدن ليفلحها ويحفظها. . وأمر الله آدم قائلا: من جميع شجر الجنان تأكل، ومن شجرة معرفة الخير، والشر لا تأكل. . وحشر الله من الأرض جميع وحش الصحراء، وطير السماء، وأتى بها إلى آدم ليريه مايسميها به. . ».

«قـال الله: لنعمـل الانسـان على صورتنا كشبهنا ويتسلطوا (كذا) على سمك البحر، وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التي تزحف على الأرض».

---

(١) علي أحمد الشحات ـ المرجع السابق ص١٣٩ .

(٢) عبد الكريم الخطيب ـ المرجع السابق ـ ص ٢١ .

وانظر كذلك: موريس بوكاي ـ القرآن الكريم والانجيل والعلم ـ دار المعارف ص٤٧ .

«فخلق الله الانسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه، ذكر وأنثى خلقهما. وباركهما الله وقال لهما: أثريا وأكثرا واملاء الأرض، واخضعاها، وتسلطا على سمك البحار، وطيور السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض.. وقال الله: اني قد اعطيتكما كل بقل يحمل بذراً على وجه الأرض، وكل شجر فيه ثمر ويحمل بزرا، لكما يكون طعاما، ولكل الوحوش ولكل طيور السماء، ولكل ذبابة على الأرض وكائن حي أعطيت كل خضرة النباتات طعاما «..» وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا، وكان مساء وكان صباح اليوم السادس..

وفي رواية ثانية[1].. «عندما عمل يهوه الرب الأرض والسماء، كل شجرة البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لان يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الأرض. ولا كان انسان ليفلح الأرض، لكن كان سيل يطلع منها ويسقى كل وجهها.

وعندئذ جبل يهوه الانسان من طين الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الانسان، نفسا حية..

وهذه الرواية تدع لنا الفهم الضمني انه عند خلق الله للانسان لم تكن هناك نباتات أرضية (فلم يكن المطر قد نزل بعد).. هذا برغم أن المياه الآتية من جوف الأرض كانت تغطى سطحها.. وهذا ما تؤكده البقية التالية للنص.. «زرع الله بستانا في نفس الوقت الذي خلق فيه الانسان «.. والتوراة بذلك تجعل خلق الانسان مصاحبا لخلق النباتات.

● ورغم أن ذلك يخدم قضيتنا.. أن يدعم قولنا بأن الانسان خلق خلقا مستقلا ولم ينحدر من أي أصل آخر.. إلا أننا للأمانة العلمية نقول أن رواية التوراة خاطئة تماما.. فقد ظهر الانسان على الأرض حين كانت الأرض حاملة للنباتات بل وفصائل الحيوانات منذ ملايين السنين وان كنا لا نستطيع ـ علميا ـ ان نقول كم من مئات الملايين من السنين قد مرت بين مرحلة تعمير الأرض بالكائنات الحية وفترة ظهور الانسان.

---

(١) الاصحاح الثاني: ٤ ـ ٧.

وتلك هي الرواية اليهودية الموجودة في نصوص كتب العهد القديم الماحه الآن.

● وجاء في كتاب «منو سمرتي» وهو أحد كتب الهنادكة المقدسة ـ قوله: «ثم ان برماتما ـ الاله الأعظم ـ الذي لا يدرك بالعقل وحده، اللطيف الخفي والمحيط بجميع المخلوقات أظهر ذاته بذاته. ثم بدا له ان يخلق المخلوقات من جسمه، فخلق أولا الماء بفكرة، ثم القى فيه بذرته، فصارت هذه البذرة بيضة ذهبية لها لمعان كلمعان الشمس وانبعث منها «برماتما» ذاته في صورة براهما (هو أحد آلهة الثالوث عند الهنادكة) جد العالم كله». (فقرات ٧، ٨، ٩). (ثم إن براهما خلق هذا العالم ومافيه، وقد انصرف كل مخلوق حين ظهوره إلى عالم الوجود إلى ما خلق له وإلى عمله الذي خصه براهما منذ الأزل (فقرة/٢٨).

وأكد هذا القول بقوله: (وذلك لأن كل مخلوق حصل حين ظهوره إلى عالم الوجود على الصفة التي اختص بها من بطش ورأفة ولين وشدة، وصلاح وفساد، وصدق وكذب، وغير ذلك فقرة/٢٩).. ولا يكتفي الهنادكة أن تكون الأجناس قد خلقت مباشرة بل انهم يرون أن الله خلق الفِرَق مباشرة ايضا وذلك لأن الهنادكة كاليهود يؤمنون بالطبقات في المجتمع، اذ تقول [الفقرة ٣١] مايلي: (خلق براهما البراهمة من وجهه والكثيرين من ذراعيه والريش من فخذيه والشودر ـ أي المنبوذين ـ من قدميه)[1].

● ومن هذا يبدو أن كل الديانات تقول بالخلقة المباشرة لجميع الكائنات التي خلقها الله منذ البداية بأشكالها وأجناسها مباشرة كما هي الآن.

● وكما أن علماء الأديان قد استنكروا نظرية [التطور] ونبذوها وفندوها استنادا إلى كتبهم الدينية، فإن فريقا من علماء الطبيعة وعلم الأحياء قد استنكروا الفكرة وفندوها أيضا، كما يرى القارىء ذلك بالتفصيل في الفصل السابق وكذلك اللاحق. ولم تعد نظرية التطور إلا «ظاهرة» تذكر في معرض الشطحات التي تصدر عن بعض الناس. وقد ظهر الاختلاف بين التطوريين أنفسهم إذ أن بعضهم قد انكروا وجود الله بتة، وآخرون لم ينكروا وجوده تعالى بل قالوا: ان الله هو الذي خلق الخلية الأولى ثم تركها تنمو وتتطور بفعل نفسها.

ومن غريب أمر التطوريين أنهم نظروا إلى هذه الأرض وماعليها فراحوا يخترعون

---

(١) د. احسان حقي ـ المرجع السابق ـ المقدمة ص٧.

أسبابا لوجودها، ونسوا أن هذا الكوكب وما عليه من مخلوقات إنما هو ذرة في هذا الكون الواسع. فإذا كانت مخلوقات هذه الأرض وجدت من غير خالق فمن أوجد الأرض ذاتها، ثم من خلق هذا الكون ومافيه من آيات؟

● **نظرية التطور تقوم على ثلاث قواعد رئيسية هي :**

١ ـ ان الكائنات الحية تتبدل أشكالها جيلا بعد جيل تبدلاً بطيئاً وتنتج في النهاية انسالا تتمتع بصفات غير صفات أسلافها.

٢ ـ ان هذا التطور قديم وجد يوم وجدت الكائنات وهو السبب في وجود كل أنواع الكائنات الحيةفي هذا الكون وتلك التي انقرضت وهذا هو التناسخ الذي تقول به بعض الديانات.

٣ ـ ان جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات مرتبط بالبعض الآخر ارتباط صلة وقرابة وكلها تجتمع عند الحد الأعلى للكائنات كلها.

ولكي يسهل دعاة التطور على الناس هضم هذه الفكرة يقولون: بأن التطور لا يحصل فجأة ولا يتم في جيل أوجيلين أو بضعة أجيال بل يحتاج إلى ملياري سنة. وإذا علمنا بأننا لا نستطيع أن نعود بوسائلنا التاريخية إلى أكثر من ستة آلاف سنة، وبوسائلنا العلمية إلى أكثر من عشرين أو ثلاثين الف سنة ونظل على شبه اليقين مما نقول، أدركنا أننا نعيش فيها وراء ذلك على فرضيات لا بل وتخرصات يختلف العلماء بشأنها اختلافا كبيرا. فالقول بالرجوع إلى ملياري سنة إلى الوراء لا يزيد عن حديث خرافة[١].

● وملخص القول أن جميع الديانات السماوية قالت بنشأة الانسان نشأة راقية ومستقلة وترفض تدرج الكائنات الحية إلى طور (الانسان)[٢]. .

■ **يقول الحق تبارك وتعالى في تطور الانسان من التراب إلى الانسان السوي. . ﴿ما لكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا﴾[٣]**

---

(١) المرجع نفسه ص ٨.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٧٤.

(٣) سورة نوح ١٣ ـ ١٤.

والآية الكريمة تشير إلى خلق الانسان في (اطوار) مختلفة وفي أحوال تكاد تكون متباينة. . الم يخلقكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم أخرجكم أطفالا، ثم كنتم شيوخا، أليس صاحب هذا بقادر على كل شيء فما لكم لا تخافون عظمة الله. .

(والأطوار) التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لابد أن تكون أمراً يدركونه، أو أن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه، فيكون من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر يقودهم إلى الاستجابة. .

- **والذي عليه أكثر المفسرين :**

أنها (الأطوار) الجنينية. . من النطفة ـ إلى الطاقة ـ إلى المضغة ـ إلى الهيكل ـ إلى الخلق الكامل. . وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار (وهذا أحد مدلولات الآية).

- **ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة :**

من أن الجنين في أول أمره يشبه (حيوان) الخلية الواحدة، ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا ثم يأخذ شكل (حيوان مائي) ثم حيوان ثديي، ثم شكل المخلوق الانساني. .

(وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح). . فقد كشف هذا منذ سنوات قليلة فقط. . وقد يكون هذا الكشف هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين **﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[1]. . وبعض المسلمين[2] تجرأ وسبق

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) من المدهش حقا أن نشير هنا إلى «ابن خلدون» تجاوز ذلك. . قائلا بأن أنشأناه خلقا آخر هو تحوله من (القردة) صاحبة الادراك إلى الانسان السوي ـ في ذلك يقول . . «ثم لننظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من (المعادن) ثم النبات، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج، آخر أفق المعادن متصل بأول افق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له وآخر افق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف. . ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر افق كل منها مستند (بالاستعداد الغريب) لان يصير أول أفق الذي بعده. . واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه. . وانتهى في تدرج التكوين إلى الانسان صاحب الروية ترتفع إليه من عالم (القردة) الذي اجتمع فيه الحس والادراك. . ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل. . وكان ذلك أول أفق من (الانسان) بعده. .=

«داروين» بالقول بتطور الكائنات حتى تصل إلى (القردة). . ثم الانسان، ولاشك ان قصة خلق الانسان (مرحلة) بعد (مرحلة)، و(طورا) بعد (طور) أمر مثير للاهتمام والتفكير، والتعجب من هذه القدرة الباهرة التي تحول (النطفة) التي لا ترى إلا بتكبيرها مئات وآلاف المرات. . تحولها إلى انسان كامل البنية سوى الخلقة بديع التكوين. .

● فهل التطور أمر واقع حقا؟

للجواب على هذا الاستفهام يكفي ان نحلل بدقة وامعان نظر تصريحات الذين يؤمنون بالتطور كواقع لكي نرى وضعا محيرا. يبدو أن أكثر الناس يجهلونه وهو عديم المثل في فروع العلوم الأخرى.

فقد كتب «دارون» منذ أكثر من مئة سنة في الفصل السادس من كتابه (أصل الأنواع) المطبوع سنة ١٩٥٩ يقول: «اني لا أشك بأن اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارىء قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى حد أننى حتى اليوم، لا أفكر بها إلا وتعتريني هزة».

فهل نستطيع أن نصف التطور بأنه حقيقة رائعة واقعة، بينما [دارون] نفسه يهتز للاعتراضات الواردة على هذه النظرية؟

● لقد تآزر دليل العلم مع أدلة الدين الحق على فساد نظرية داروين بشقيها، وعلى أنها أسطورة انهارت وصدقت الكشوف الأثرية رأي الدين في أن الانسان خلق من جنس مستقل.

إن ما أثبته العلم أخيراً لم يكن مفاجأة . . . فإن علماء كثيرين متجردين أعلنوا أن الأنواع كلها ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة دون سابق إعداد أو خطوات متوسطة، فلم يكن هناك حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو الانتخاب الطبيعي أو تنازع البقاء. . .

وها قد مضى أكثر من قرن على [دارون] وعلماء التطور مستمرون في أبحاثهم.

وهذه غاية شهودنا. . .»

يرجع في ذلك إلى: دكتور محمد علي البار ـ المرجع السابق ص١١ . . وقال بذلك أيضا الدميري ـ البلخي ـ الفخر الرازي ـ الفارابي.

فهل أثبتت هذه الأبحاث واقعة التطور؟

● كلا إنها لم تثبت ذلك، وهاهو كتاب (سنة العلم) المطبوع سنة ١٩٦٦ يعترف بما يلي:

«على الرغم من النجاحات التي أحرزها علم الآثار، فإن العلماء مازالوا في بداية المهمة العظيمة التي يتوخونها ونعنى بذلك معرفة تاريخ الانسان» ونحن نقول: ان البداية التي وصلوا إليها لا يمكن اعتبارها واقعا راهنا.

ويبدو تناقض الآراء، بهذا الشأن واضحا من مطالعة كتاب «الأساس الحيوي لحرية الانسان» للعالم «دويز هنسكي» حيث يقول: «لقد ثبت بما لايدع مجالا للشك، حتى العشر الأخير من القرن التاسع عشر، بأن التطور أمر واقع «ولكنه بعد صحيفتين من هذا القول يرجع ليقول: «مما لاشك فيه أن المظاهر التاريخية المتممة لحلقات التطور مازالت غير معروفة تماما.. ولا نستطيع أن نرى الأسباب التي قررت تطور النوع الانساني إلا من خلال ضباب».

فهو من جهة يؤكد بأن التطور أمر واقع، ومن جهة أخرى يعترف بأن المظاهر التي قررت حلقات هذا التطور غير معروفة تماما بل أنه يراها من خلال ضباب.. وهل يرى المرء شيئا ثابتا من خلال ضباب؟!

● وتقول «الموسوعة البريطانية» أيضا مثل هذا القول حيث تقول أولا: «ليس لدينا أي شك فيما يتعلق بكون التطور حقيقة واقعة وأن الأدلة عليها، في الوقت الحاضر، غير قابلة للرفض «وبعد بضع صفحات تصف الموسوعة المذكورة الأدلة «بأنها غير كافية وغير متسلسلة، بل هي كثيرة الفجوات».

وتضيف الموسوعة قائلة: «إننا مازلنا لا نعرف شيئا عن هذه الظواهر الحيوية التي قررت هذا التغيير».

وقد اعترف بنقص الأدلة رئيس «الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم» في مقال نشره في مجلة «العلوم» بصدد حديثه عن التطور فقال: «تعال معي لنقوم برحلة فرضية فيما قبل التاريخ، ولنتصور الزمن الذي ظهر فيه نوع الانسان العاقل (سابين) ولنقطع بسرعة آلاف السنين التي نعتمد في القسم الأكبر من معلوماتنا الحاضرة عنها، على الحدس والتخمين والاستنتاج إلى ان نصل إلى فترة الوثائق التاريخية التي تسمح

بالتقاط بعض الوقائع». وإليك ما نقرره نحن:

مضت الآف السنين قبل أن يبدأ عصر الوثائق الأولية، والعلماء يعترفون بأن مراحل التطور التي يظن بأنها سبقت عصر الوثائق، انما بنيت على الحدس والتأويل والبحث النظري، وهي بالتالي صرح من الفرضيات.

وفيما يتعلق بكتاب «دارون» الشهير: (اصل الأنواع) فقد أبدى عليه العالم المذكور الملاحظة التالية:

«لقد أحصى ما جاء في كتاب (أصل الأنواع) وحده أكثر من ٨٠٠ جملة ارتيابية مثل قوله: قد نستطيع أن نستنتج.. قد يمكن أن يكون.. الخ. فالمرء الذي يبحث ليفهم لا يلبث عند سماع هذه العبارات الارتيابية، أن يقع في حيرة من هذه التناقضات، إذ يرى بعض العلماء يؤكدون على التطور بكل صراحة، ويرى آخرون يعترفون بأن كل الاستنتاجات فرضية»

وهذا التناقض هو الذي دفع العالم الفسيولوجي «تهميسان» الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية، إلى القول: «ان العلماء الذي يؤكدون على أن التطور واقع علمي هم منافقون، أن مايروونه من احداث انما هو من الشعوذات التي ابتدعت ولا تحتوي على نقطة واحدة من الحقيقة»، وقد وصف هذه النظرية بأنها «خليطة مضطربة من الأحاجي وشعوذة الأرقام».

ومما أسهم في هدم نظرية [داروين] من جذورها، ذلك الكشف الذي توصل إليه أخيراً البروفيسور [ليكي] في جبال كينيا، ثم قام بتحليله بأجهزة التحليل الذري، وأثبت أن الجمجمة التي عثر عليها وكذلك العظام الآدمية تدل على وجود الانسان السوي منذ تلك الحقبة السحيقة الموغلة في القدم، وأن ذلك المخلوق لا علاقة له بتاتا بالقردة العليا... وكان من أهم مايميز هذا المخلوق، أن شكل الجمجمة والأسنان وعظام الساق تشير إشارة واضحة إلى أنه انسان متكامل عاقل سوي، وتكشف عن كيفية سيره على الأرض... إذ أكدت زاوية ارتباط العمود الفقري بقاع الجمجمة أنه كان قادراً على المشي مثلنا تماماً، ولم تكن له صفات الوحش المفترس.

وذلك كله يثبت خطأ النظريات الاجتماعية التي بنيت على نظرية [داروين] المشئومة من أن الصفات العدائية في الانسان ترجع إلى أجداده القردة!!!!....

ومما أسهم أيضا في هدم نظرية [داروين]. . . أبحاث البروفيسور [جوهانز هودبر] من علماء سويسرا سنة١٩٥٦، التي أجراها حول أصل الانسان، فقد عارض نظرية داروين بشدة وقال انه لا يوجد دليل واحد على أن الانسان من سلالات القرود، وأثبتت أبحاثه وتجاربه الواسعة أن الانسان منذ عشرة ملايين سنة يعيش منفرداً وبعيداً جداً، كذلك أعلنه الدكتور [دوفير] المشرف على أبحاث جامعة كولومبيا، وأيده البروفيسور [هوردلر] أن نظرية داروين هي مجرد [رأي] لا أساس ولا أصل علمي له، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً فمنها [الانسان] الذي يمشي على رجليه، ومنها الدواب التي تمشي على أربع، ومنها الزواحف التي تمشي على بطنها. . .

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء﴾ «النور/٤٥».

وقصة خلق الانسان وتطوره في القرآن لها (أطوار) كثيرة. . وأولها بداية الخلق (التطور) الطيني وخلق آدم. .

يقول سبحانه وتعالى . . **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾**[١].

ويقول سبحانه وتعالى . . **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾**[٢].

ويقول سبحانه وتعالى . . **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾**[٣].

ويقول سبحانه وتعالى . . **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾**[٤].

---

(١) سورة آل عمران : (٥٩).

(٢) سورة الروم : ٥٩.

(٣) سورة السجدة : ٧ ـ ٨

(٤) سورة الحج : ٥.

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين﴾[2].

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون﴾[3].

ويقول سبحانه وتعالى . . ﴿خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار﴾[4].

وقد شرح أصحاب الفضيلة المفسرون (الحمأ) بأنه الطين الأسود المنتن والمسنون أي الذي أسن (وتغير) . . وهو صفة للحمأ . . ويقول العلم الحديث أن نشأة الحياة كانت من الطين الاسن . . وهو طين المستنقعات التي تتصاعد منه الغازات الكريهة الرائحة . . وهي غاز (الميثان) Methane وغاز كبريتور الهيدورجين H2 S وغاز النوشادر، (الأمونيا) Ammonia .

وفي متحف التاريخ «بلندن» شروح كاملة (لتطور) الغازات المنتنة التي تجمعت من الحمأ المسنون لتكوين الأحماض (الأمينية) . . ثم كيف تطورت هذه لتكون (البروتينات) وأهمها الحامض (النووى) الذي كان الوسط الوحيد المناسب لاستقبال اشعاعة الحياة من الله سبحانه وتعالى .

● لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتفكير والنظر في خلق الانسان وتطوره بعد (مرحلة الطين) فقال جل من قائل عليما . .

﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ . . «المؤمنون ١٢-١٦»

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢-١٣

(٢) سورة ص : ٧١-٧٣

(٣) سورة الحجر : ٢٦

(٤) سورة الرحمن : ١٤ - ١٥

● [مـرحلة النطفة] مذهلة في دلالتها على قدرة الخالق الأعظم. . ففيها اختصار لوجـود (الانسـان) كله، واشتملت على كل ما في كيانـه من قوى عاقلة، ناطقة، مبصرة، سميعة، مريدة، فما النطفة إلا الانسان (مضمرا) في كيانها، وما الانسان إلا النطفة سابحا في محيطها متحركا في فلكها.

[مرحلة العلقة] (اعجاز علمي آخر). . فقد جعل الله سبحانه وتعالى (مرحلة ايجاد الانسان من الطين عملية خلق. . **﴿وخلقنا الانسان من سلالة من طين﴾** . . وجعل توالد الانسان من (النطفة) عملية وظيفية تخضع لسنن ظاهرة يدركها الانسان ويعمل على تحقيقها وقد عبر عنها القرآن بلفظ (وجعل) **﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾**.

وموضوع الاعجاز العلمي في نظري يكمن في (تحرك) النطفة نحو غايتها إلى أن تكـون مولـودا بشراً، ينتقل من نطفة إلى (علقة). . إلى (مضغة) . . إلى (هيكل عظمي) إلى (هيكل بشري) يكسوه اللحم. . إلى (جنين) . . ثم طفل وهذه الأطوار هي في الواقع انطلاقة لهذه ـ النطفة . . والله (وحده) هو الذي يعلم ما تحمله المرأة في بطنها أهو ذكر أم أنثى. . قال سبحانه وتعالى . . **﴿الله يعلم ما تحمل كل انثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾**[1].

● ثم [مرحلة المضغة]، وهي (تطور) من العلقة. . وقد تكون «مضغة مخلقة وغير مخلقة» . . ويصل خلق الانسان إلى هذه المرحلة عند بداية الأسبوع السابع. . وهي مقدار مايمضغ من اللحم، وقد حددها الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه بانها تبدأ بعد أربعين يوما من (العلوق) (أو٧ أسابيع منذ بدء التلقيح). . ثم تستمر في النمو لمدة أربعين يوما أخرى[2]. .

---

(١) سورة الرعد ـ (٨).

(٢) تنمو المضغة حتى تبلغ في نهاية نموها سبعة سنتيمترات وهو مقدار طول (السبابة) وذلك أكبر حجم للمضغة يمكن أن يأخذها النهم في طعامه.

وفي هذه المرحلة يتم نمو الأجهزة المختلفة، فالقلب ينمو سريعا من انبوب مغلق بسيط التكوين إلى أن يتم اكتمال القلب بانتهـاء (مـرحلة) المضغة وفي تلك المرحلة تتشكل ايضا العينان والأذنان والأنف ـ والشفتان ويتكون الوجه ويتصور وتتشكل الأطراف وكذلك الجهاز العصبي والمخ والعظام. . فسبحان الله أحسن الخالقين.

ثم ينفخ الله سبحانه وتعالى فيها الروح .
حينئذ تصير خلقاً آخر . . .
فتبارك الله أحسن الخالقين . .

● [مـرحلة الهيكل العظمي والبشري والاكتساء باللحم] . . وفيها يشكل الخالق الأعـظم جميع معـالم البنيان البشري ويحـدد فيها مواضع الفصل والوصل ثم تبنى الأعضاء شيئا فشيئا . . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **وانظر إلى العظام كيف ننشـزهـا ثم نكسوها لحما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ . . «البقرة : **٢٥٩**» .

● [التطور إلى جنين] . . ونجد الجنين الانساني في هذه ـ (المرحلة) مزود بخصائص معينـة هي التي تسلك به طريقه الانساني فيها بعد، وهو ينشأ «خلقاً آخر» في آخر أطواره الجنينية، بينما يقف (الجنين الحيواني) عند التطور الحيواني . . لأنه غير مزود بتلك الخصائص، ومن ثم فإنه لايمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية .

● . . نقول (للداروينية) . . لا يمكن أن يتجاوز (الحيوان) مرتبته (الحيوانية) . .

● . . أي أن (الحيوان) لن يتطور في يوم من الأيام إلى مرتبة (الانسان تطورا آليا كما تدعي النظرية المادية . . .

■ لمــاذا ؟ . .

لان (الحيوان) . . و(الانسان) . . نوعان مختلفان . . اختلفا بتلك النفحة الالهية التي بها صارت سلالة الطين انسانا .

واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الانساني «خلقاً آخر» قابلا لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير (مقصود)، لا عن طريق (تطور آلي) من نوع الحيوان إلى نوع الانسان . . .

أدلة أخرى على انحراف نظرية داروين

● تقوم نظرية الارتقاء «لداروين» على أساس مناقض . . كله تخريف . . فالنظرية (تفترض) أن الانسان ليس إلا (طورا) من أطوار (الترقي) الحيوانية، (وتفترض) أن الحيوان يحمل خصائص التطور إلى مرتبة (الانسان) . . والواقع المشهود (يكذب) هذا الفرض لتفسير الصلة بين الحيوان والانسان، ويقرر أن الحيوان (لايحمل) هذه الخصائص[1] . .

فالحيوان يقف (دائما) عند حدود جنسه الحيواني لايتعداه.

ولكن يبقى (النوع) الانساني متميزاً بأنه يحمل خصائص معينة [تجعل منه إنساناً] وليست نتيجة (تطور آلي) . . وإنما هي هبة مقصودة من قوة خارجية تمام هي قوة (الله) سبحانه، وهو بكل شيء عليم[2] . .

● يستدل من هذا الاهتمام الدارويني بتعليل هذه الظاهرة التي يستند في تعليلها وأهميتها الكبرى ـ إلى جانب تلك السُّنة الاحيائية ـ على سُنَة الانتخاب الطبيعي، على ما تكوكب في عقلية داروين من نزعة علمية تميل بكنهها وماهيتها إلى الالحاد. لماذا؟ . . .

لأنه جعلها مفتاحا لأبواب النشوء التي فتحها على مصاراعيها[3]. ومهما يكن من أمر، فإن نظرية أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي تتضمن بالضرورة ظاهرة انحراف الصورة المنتخبة عن صفات أصولها لأن الفرد الذي يغوص في التحول، لا بد من أن ينحرف عن جوهر نوعه، وأثبتت نظرية «داروين» بما لايدع مجالاً للشك أن العلوم البشرية تظل ناقصة مهلهلة طالما ظلت تفتقر إلى الصدق والشمولية والديمومة . . وهكذا تبقى الحقيقة القرآنية هي الصدق المطلق . . لأنها من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . إنه تنزيل العزيز الحميد . . فسبحان الله وتبارك الله أصدق القائلين.

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص٨١.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢.

(٣) باسمة كيال ـ اصل الانسان وسر الوجود ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ص ٣٦.

الفصل العاشـــر

سقوط نظرية داروين

- الأدلة العلمية على سقوط نظرية داروين.
- أين هي المخلوقات المتوسطة ؟
- الرد العلمي والايماني على هراء الداروينية.
- علماء المسلمين يهدمون فرضية التطور [ابن مسكويه].
- علماء الغرب يسقطون نظرية داروين.

الفصـــل العاشـــر

ســـقوط نظريـــة داروين

قبـل كل شيء يجب أن يفهم البشر ـ كل البشر ـ اليهـود والنصـارى والوثنيون والملحدون أننا نحن المسلمين (نقبل) أي رأى أو (حقيقة) علمية تخدم الانسان وتحقق خلافتـه في الأرض وتكـون قد (اختمـرت) تمامـا في وعاء (التجربة ـ والملاحظة ـ والاستنتـاج ـ والشمول ـ والوضوح ـ والحقيقة)[1]، وعندئذ فهي (عندنا) «جزئية» صادقة من «معادلة كلية» مطلقة في قانون الله الالهي العام الاعظم للكون[2]. . فإذا كانت منسجمـة مع هذا [القـانـون] فهي ليست في حاجة إلى تأييد أو رفض من انسان. . ولقد قوبل إعلان مذهب [النشوء] لداروين في الغرب نفسه بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية، وحرمت زمرة من معاهدالعلم في أوروبـا تدريس هذا المـذهب الهدام. . . بل لقد حوكم البروفيسور [سكوب] في «دايتون» ـ في شهر يوليو سنة١٩٢٥ ـ لأنه خالف القانون الذي ـحرم تدريس هذا المذهب الفاسد لخروجه على العقيدة الدينية.

وقد صدر كتاب سنة ١٩٢٠م للبروفيسور [ث. ب. بيشوب] بعنوان:

[النشـوء منتقـداً Evolution Critieised]. . يهاجم نظرية «داروين» ويطالب الداروينيين المحدثين بالاتيان بدليل واحد على صدق مزاعمهم. . وأثبت أن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن انسان يخالف في تكوينه الثابت. تكوين النوع الانساني المكرم في صورته الحاضرة. . وأهم من ذلك، أثبت [بيشوب] أنه لا توجد أدلة تؤيد تحول الأنواع في عالم الحيوان أو عالم النبات. وأن أدلة النشوئيين على التشابه القديم

---

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٣.

بين أنواع الحيوانات تكمن في تشابه الأجنة، أدلة كاذبة، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه، وماعدا ذلك من الصور المتشابهة فهو «مزور» باعتراف واضع تلك الصور، العالم الألماني [ارنست هيكل]. . . فقد أعلن بعد انتقاء علماء «الأجنة» له أنه اضطر إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة لوجود نقص في الرسم المنقول !!!!. . .

ولم يترك البروفيسور [بيشوب] إدعاءً ارتكنت عليه التطورية إلا وهدمه من الأساس بأدلة علمية رائعة. . . وأثبت أن كل ما ورد بخصوص [الحلقة المفقودة] في تطور الكائنات ـ حسب تخريف الداروينية ـ هراء لاأساس له من العلم.

وإذا كان [داروين] قد اعترف صراحة بأن الطريقة التي وجدت بها الحياة على وجه الأرض، لاتزال مجهولة حتى يومنا هذا، فإن جهله بالطريقة التي تسلسلت بها الكائنات الحية وتنوعت [كما يزعم] لا يقل عن جهله بالطريقة التي وجدت بها الحياة الأولى على وجه الأرض وكيف ومتى وجدت؟.

فالمتتبع لما كتبه ونشره [داروين] عن نظرية التطور والارتقاء يجد أن «داروين» لم يبن هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة، لا يمكن الرجوع عنها، وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات بعيدة كل البعد عن مناهج البحث العلمي المعترف بها في عالمنا المعاصر.

فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء [وعلى رأسهم «داروين»] يعترفون بأن هذه النظرية هي فرض علمي يعوزه الدليل الحسي، بل ان جوهر بحوث علماء [التطور] والارتقاء جميعاً تشير كلها إلى أن أصول هذه النظرية وفروعها هي من باب الافتراض لا القطع، والتخمين لا التأكيد.

ومن الأدلة العلمية على سقوط نظرية داروين، ما أعلنه العالم الفلكي الشهير «كراما سانج». ومما قاله في ذلك[1]:

---

(١) مالين شاندرا وكراما سنج ـ استاذ الرياضيات التطبيقية وعلم الفلك بالكلية الجامعية، كارديف ويلز ومدير معهد الدراسات الأساسية، سرى لانكا في عام ١٩٦٢، عندما كان يعمل في جامعة كيمبردج، منح جائزة «بأول» في الشعر الانجليزي، علما بأنه من أصل سري لانكي. وقد وردت تفاصيل الآراء التي يعرضها في هذا المقال في كتابين اشترك في تأليفهما مع السير فريدهويل.

● [لا أكاد أذكر بالضبط متى كان أول عهدي بنظرية التطور لداروين. ولكنني لابد أن أكون قد تعلمتها في قاعة الدراسة في سن مبكرة لم أكن عندها في وضع يؤهلني لتقييم الحقائق. وقد قدمت لنا ضمنيا على الأقل، على أنها حقيقة مثبتة لاتتزعزع. وطلب منا آنذاك أن نصدق أن المادة غير العضوية وغير الحية قد بعثت إلى الحياة عن طريق خلط عشوائي للجزيئات في زمن ماض سحيق على كوكبنا. وطلب إلينا كذلك أن نسلم بأن الحياة التي نشأت على الأرض بعدئذ كانت بأكملها نتيجة التطور وفقا للمذهب الدارويني الجديد. فالأنواع القوية تعيش لتصبح أكثر قوة أما الضعيفة فتموت وتتوارى في زوايا النسيان. وقد راعتني كنظرية عظيمة الشأن وجذابة ومقنعة على الرغم من أنها كانت على طرف النقيض مما ورثته ولقنته من معتقدات بوذية ترى أن الكون خالد سرمدي وأن لانماط الحياة صور ذات طبيعة دائمة].

ثم يقول «كراما سانج»:

.. «ورسخت الأفكار الداروينية الجديدة في ذهني وأصبحت جزءا لا يتجزأ من زادي العلمي. وقد تخصصت أولا في الرياضيات ثم درست الفلك وكنت عندئذ أسلم ضمنيا بصحة الأفكار البيولوجية السائدة. ونظراً لأنني، إلى مايقرب من خمس سنوات خلت، لم أقم بدراسة منظمة للبيولوجيا، لم يتسن لي حتى ذلك الحين أن أعرف كنه الحقائق أو أن أسبر أغوارها[1].

... ويرجع منشأ نهوضي للتصدي للمعتقدات المسلم بها في «التطور الدارويني» إلى ما أجريته من دراسات مشتركة مع السير فريد هويل. ذلك أننا شرعنا سنة ١٩٦٢ في البحث في طبيعة الغبار فيما بين النجوم وتوصلنا حينذاك إلى نتيجة مؤداها أن جسيمات الغبار في الفضاء لابد أن تحتوي على مكون في شكل كريات مجهرية من الجرافيت يقل حجم الواحدة منها عن الميكرون. واستمر جهادنا الطويل المضني بعد ذلك لاكتشاف ما قد يكون في الغبار الفضائي من مكونات أخرى خلاف الجرافيت، حتى كان عام ١٩٧٢ حين اكتشفت وجود البوليمرات العضوية ـ وهي سلاسل طويلة من جزئيات عضوية مؤلفة من ذرات الكربون. ومنذ عامين توصلنا إلى أن مجموعة كاملة من البيانات الفلكية تشير إلى وجود كائنات دقيقة في الفضاء على نطاق هائل إذ

(١) المرجع نفسه.

يقدر عدد الخلايات المنفردة في مجرتنا بنحو ١٠^(٥٢) خلية. وكانت طريقة اعتام طيف النجـوم من شتى الألوان بالغبار الفضائي هي التي هدتنا إلى وجود خلايا حية في الفضاء وقد تحول بعضها على نحو انتقائي إلى جرافيت. وخلصنا الآن ونحن على قدر كبير من الثقة إلى أن الميكروبيولوجيا تعمل على نطاق كوني ـ بسبب التوافق الشديد المبين هاهنا من جهة، ولأن هذا التوافق من جهة أخرى لم يحدث إلا بعد قرابة عقدين من الاخفاق والاحباط في الحصول ولو على توافق معقول مع نفس البيانات باستخدام نماذج مألوفة من هذا الغبار.

وعند دراسة سلوك أطياف الكائنات الدقيقة في المختبر لاحظنا وجود أثر تشخيص للبيولوجيا في منطقة الأطوال الموجبة دون الحمراء. وقمنا بمقارنة البيانات المختبرية مع طيف الامتصـاص في المنـطقة دون الحمراء لضوء نجم في مركز مجرتنا، ولمسنا التناظر الوثيق الرائع بين الميكروبيولوجيا والفلك. ومن ثم يبدو أن البكتريا موجودة في كل أرجاء المجرة.

وفي رأى السير «فريد هويل» ورأيي أن أوجه التطابق هذه لا تقل حسما عن أي أوجه تطابق أخرى يمكن الحصول عليها من مقارنة البيانات المختبرية بالمشاهدات الفلكية. كما تم مؤخـرا الاكتشاف الحاسم لأحافير الكائنات الدقيقة في الأحجار النيزكية الكربونية، وهي شظايا من الصخر تسقط من السماء ولايمكن أن تكون لها أية علاقـة بالأرض. ويعـزى سبب تخلف اغلب العلماء اليوم عن الاعتراف بهذه الحقائق البينة، لحد كبير، إلى تشربهم منذ صغرهم لنظرية «داروين» التي تفترض ضمنيا ان الحياة بدأت على الأرض.

وتشير الحقائق التي في حوزتنا بوضوح إلى أن الحياة على الأرض مشتقة مما يظهر أنه نظام حياة شامل يعم أرجاء المجرة جميعا. وتمتد أصول الحياة على الأرض إلى سحب الغاز والغبار الفضائية التي اندمجت وتضخمت فيما بعد في المذنبات. أي أن الحياة قد استمدت ولاتزال تستمد من مصادر خارج الأرض على طرف النقيض مما تقوله نظرية داروين]. ثم يقول:

● [ويتبين من الأدلة الحديثة أن الحياة ظهرت أول ما ظهرت على الأرض منذ قرابة ٣,٨ بليون سنة.

ولاشك في أن الثغرات الواسعة الكثيرة في سجل الأحافير وغيبة الأشكال الانتقالية في أشد مراحل تطور الحياة حسما تبين بجلاء أن «الداروينية» عاجزة عجزا يرثى له عن تفسير الحقائق. ويوضح سجل الأحافير بشكل قاطع أن خواص جديدة للحياة قد أدخلت على مستوى الورثات عن طريق التجارب الطبيعية المتعاقبة، وأن التغيرات الناجمة عنها لا تدوم إلا عندما تنجح هذه التجارب. ومن ثم اندثرت السلالات عندما فشلت فيها إضافة الورثات أو كانت متعذرة التطبيق.

ويمكن أن تحدث إضافات الورثات عن طريق التفاعل بين الفيروسات والفيرويدات المتولدة في الفضاء وجميع أشكال الحياة القائمة على الأرض في أي وقت معين. وحين اكتشفت فيروسات التركيب لأول مرة قال بعض العلماء أن هذه الجسيمات هي الحلقة المفقودة التي طال البحث عنها بين المادة غير الحية والحياة في التصور «الدارويني». بيد أنه سرعان ما تبين أن بروتينات الفيروسات أكثر تعقيدا من أن تتيح التسليم بصحة هذا الفرض. والواقع أن تركيب مختلف البروتينات الفيروسية قريب الشبه بتركيب البروتينات في أشكال الحياة العليا لدرجة أدت إلى الاعتقاد لفترة ما بأن هذه الجسيمات يمكن أن تكون مشتقة على نحو ما من الحياة العليا. وقد قلنا في كتابنا أنا والسير فريد هويل وعنوانه:

(أمراض من الفضاء)، أن مجموعات صبغياتنا مكتظة بالفيروسات والفيرويدات. وعمليات الغزو الفيروسية قد تؤدي إلى أمراض وبائية كما في حالة الانفلونزا مثلا. وقد أثبتت نماذج انتشار الانفلونزا بوضوح وجود تأثير مباشر من الفضاء بالنسبة لمسببات المرض][1]. ثم يقول:

● [ومن رأينا أن أية خاصية حاسمة جديدة قابلة للتوريث تظهر أثناء تطور الأنواع لابد أن يكون لها أصل كوني خارجي. ومع أن من المسلم به أن القرد والانسان يشتركان في سمات كثيرة، فما أوسع البون بينهما من النواحي البيوكيميائية والتشريحية والفسيولوجية. وليس في وسعنا أن نقبل أن الورثات اللازمة لانتاج روائع الفنون التشكيلية أو الأدب أو الموسيقى أو لتنمية قدرات الرياضيات العليا قد انبثقت من طفرات أتفاقية حدثت لورثات القرود قبل أن يكون لها أية صلة ملموسة بالبقاء

(١) المرجع نفسه.

بالمفهوم الداروينى بوقت طويل. وكما هي الحال بالنسبة لمعظم أشكال الحياة البدائية على كوكبنا، كان لابد لجميع هذه الخواص أن تغرس من الخارج. فلو كانت الأرض معزولة تماما عن كافة مصادر الورثات الخارجية لاستمرت الفسافس في التكاثر إلى يوم القيامة ولكنها لن تعدو أن تكون فسافس ولتناسلت مستعمرات القرود أيضا ولكن لانتاج المزيد منها ليس إلا، ولكانت الأرض مكانا كئيبا بلا نزاع][1].

● ثم يقول:

... [بيد أنه ربما تكون أهم صعوبة تقترن بالمذهب الداروينى الجديد للحياة هي أن الكائنات الدقيقة مفرطة في التعقيد. فعندما خلقت البكتيريا أو اكتملت أو شكلت حسبما تكون الحالة، فمن الصحيح أن نقول: أن ٩٩,٩٩ في المائة من الكيمياء الحيوية للحياة العليا كانت قد اكتشفت بالفعل. والمعروف أن زهاء الفين من الخمائر (الانزيمات) تعد حاسمة على امتداد نطاق واسع نسبيا للحياة ابتداء من الكائنات الدقيقة البسيطة وانتهاء بالانسان. والاختلافات في سلاسل الأحماض الأمينية في هذه الخمائر طفيفة إجمالا. وفي كل أنزيم تحتل أحماض أمنية لا تكاد تتغير عددا من المواضع الحساسة. ولنبحث كيف أمكن لهذه الخمائر أن تشتق من خليط أصلى يحتوي على نسب متساوية من الأحماض الأمينية العشرين الهامة بيولوجيا. ولنقل، على سبيل إعطاء تقدير معتدل، إنه يجب تخصيص ١٥ موقعا لكل انزيم لملئها بأحماض أمينية معينة حتى تضمن أداء بيولوجيا سليما. ويمكن بسهولة حساب عدد محاولات التجميع اللازمة للحصول على هذه الفئة، وقد وجد أن يناهز (١٠)^٤٠٠٠٠ وهو عدد فلكي هائل حقا. واحتمال اكتشاف هذه الفئة عن طريق الخلط العرض يساوي واحد من (١٠)^٤٠٠٠٠. ويمكن أن يتخذ هذا العدد الأخير مقياسا لكمية المعلومات عن الحياة كما تنطوي عليها الخمائر وحدها. كما أن عدد مرات الخلط اللازمة للعثور على الحياة يفوق ببلايين البلايين عدد جميع الذرات في الكون المرصود بأسره. والحق أن إعصارا يهب من خلال حطام طائرة لأقدر على أن يجمع من ذلك الحطام طرازا جديدا كل الجدة من البوينج ٧٤٧ ـ من العمليات العشوائية على تجميع كائن حي من عناصره.

---

(١) المرجع نفسه.

● وأنا أرى أن الحياة لا يمكن أن تكون مصادفة، لا على الأرض فحسب، بل في أي مكان على الاطلاق في الكون. والحقائق كما نراها اليوم تشير إلى واحدة من وجهتي نظر واضحتين: أما إلى فعل من أفعال الخلق المتعمد، أو إلى دوام لا يمحي لصور الحياة في كون سرمدي لا نهائي الابعاد. وقد يبدو الرأي الأخير غير متعارض مع الأول في أعين من يقبلون وجهات النظر الكونية الحديثة كحقائق منزلة، وإني أرى وأصرّ على أن تؤخذ الحياة على أنها أحد أفعال الخلق المتعمد من إله عظيم جبار، يسيطر على الكون بقوته، ولايشاركه في ذلك أحد. ففكرة وجود خالق يهيمن على الكون من خارجه هي أقرب الأفكار منطقية وليس من اليسير عليَّ أن أرفضها . . وما أميل إليه فلسفيا هو في جوهره كون سرمدي لا نهائي الابعاد، خلقه الله على نحو ما، وعلى نحو طبيعي هو خالق الحياة. . أو نوع من القوة الخارقة الذكاء التي ليس كمثلها شيء بالقياس إلى ذكائنا. وقد أعرب زميلي السير فريد هويل عن تفصيل مشابه لذلك. وفي وضعنا المعرفي الراهن عن الحياة وعن الكون، ينطوي الانكار القاطع لشكل من أشكال الخلق العشوائي البعيد عن الحقيقة لأنه غطرسة لايمكن الصفح عنها. وكما ثبت أن الأرض ليست هي المركز الفيزيائي للكون، فإنني أرى بالمثل أن «الذكاء الأعلى» في الكون لايمكن أن يكون مركزه كوكبنا الأرضي، لأنه في كل مكان.

● إن ما أسماه [داروين] بتطور الكائنات الحية من نوع إلى آخر، وتحول البقرة إلى حصان، أو كتطور القرد إلى إنسان، عملية خيالية غير واقعية، لم تحصل لا بالتجربة، ولا في الحياة العامة، ولم يلاحظ ذلك على الاطلاق عبر تاريخ البشرية الطويل إلى يومنا هذا، وبالتالي فلا يمكن اعتبار النظرية علمية، وفي ذلك قال الأستاذ [وحيد الدين خان]. :

« هذه النظرية هل لاحظها أحدهم، أو جربها في معمله ؟

والجواب لا . . . .

فذلك ضرب من المستحيل».

واستحالة ملاحظة نظرية داروين وخروجها عن دائرة التجربة والاخضاع لاختبار، وبالتالي خروجها عن نطاق العلم التجريبي ـ رغم أن أنصارها يحاولون

إقحامها على العلم التجريبي ـ هي التي جعلت العلامة [جيمس كونانت] الرئيس السابق لجامعة هارفارد، يقول:

«إن كثيرا من تلك النظريات المتعلقة بأصل الحياة ومنشئها، ليست نظريات علمية على الاطلاق، بل مجرد أفكار تأملية لايمكن إخضاعها للاختبار».

إن النظرية الساقطة . . . [نظرية داروين] اعتمدت على الحفريات، لكن الاكتشافات العلمية الحديثة المتطورة والأجهزة العلمية الدقيقة والتي لم تكن متوفرة في عصر [داروين]، قد كشفت عكس ما ذهب إليه [داروين]، فقد قام «د. ليكي» مدير المتحف الوطني في كينيا بأبحاث في هذا المجال ـ سبق الاشارة إليها ـ دامت حوالي ٢٨ سنة، وانتهت ١٩٦٤، وقد اكتشف خلالها أنموذجين من الجماجم وقيس عمرها بأجهزة الاشعاع الذري، ووجد أنه بلغ مليونين وستمائة ألف سنة، وحجم مخها ضعف حجم مخ القرد. فماذا نستنتج من ذلك؟

نستنتج من ذلك أنها جماجم انسان سوي متكامل.

- إن الاكتشاف العلمي الذي هدم نظرية داروين من أساسها هو اكتشاف وحدات الوراثة التي أثبتت استحالة تطور الكائن الحي وتحوله من نوع إلى آخر.
- جاءت أفكار «داروين» قميئة، مهلهلة، قاصرة، عاجزة عن الدخول في حيز الصدق المطلق. . إنها مجرد (أفكار). . ظهرت أفكارا. . وانهدمت بعد أن تغيرت عدة مرات، تغييرات جذرية من الأساس بعد أن (انهارت) أمام مجرد (افتراضات) أخرى من أفكار البشرية، ومازالت تضاف إليها (فروع فرضية). . ويحذف منها أجزاء كاملة.
- ونحن لا نقبل بالفرضيات. .
- نحن نرفض «الداروينية» إنها لم تتسم بالشمولية والبقاء والاستمرار. .
- نحن نرفض «الداروينية» لأنها انعدمت من الصدق. . صدق التطبيق على الماضي والحاضر والقدرة على إضافة المفاهيم المستقبلة في حيز مجالها. .
- إننا نحن المسلمين لا نعرف (التعصب) لفكرة ما أو (نظرية) ما أو حقيقة ما لاعتبارات (الدين) أو اللون أو الجنس لأننا نؤمن ونعمل بقوله عز من قائل عليما

سبحانه وتعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ان الله عليم خبير﴾. . (الحجرات ١٣):**

□ **ومن الأدلة العلمية الأخرى على سقوط نظرية داروين:**

● عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد ألوف السنين.

● طول الـزمان اللازم لحصول الترقي بين الأحياء، فإن عمر الأرض كما قالوا لا يكفي لاحداث كل مايرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف.

● عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل.

● إذا كانت الكائنات ذات الخلية الواحدة قد تحولت، في الماضي إلى كائنات عليا في الحياة الحيوانية والنباتية، فمن الواجب أن نجد أدلة على هذا التطور في وثائق «علم الحفريات» ولابد أن تكون الكائنات ذات [الاشكال المتوسطة] البدائية قد تركت آثارا متحجرة، أو بصمات، أو أدلة أخرى في طبقات الأرض. فماذا تكشف لنا الحفريات؟

لقـد أبـدى «شارلز داروين» منـذ أكثر من مئة سنة. اضطرابه من شهادات الحفريات، حيث قال في كتابه: (أصل الأنواع) ما يلي[1]:

«هنـاك صعوبة أخرى، ولكنها أخطر شأنا. . وأعني بذلك الظهور المفاجىء، لأنـواع تعود إلى التقسيمات الرئيسية لعالم الحيوان، في صخور أقدم الحفريات التي نعـرفهـا. . فإذا كانت نظريتي في التطور صادقة فمن الواجب أن تكون فترتها قد انقضت قبل ترسب الطبقات [الكامبريانية الدنيا]، وهو زمن بعيد ولعله أطول من زمن أي فترة من الفترات الواقعة مابين زمن الكامبريانية وعصرنا الحاضر، وهي الفترة المجهـولـة التي تكـاثرت فيها الكائنات الحية على وجه الأرض. . أما لماذا لا نجد مستودعات غنية بالحفريات تعود إلى هذه الفترات البدائية التي سبقت فترة الكامبريانية؟

فهذا سؤال لا استطيع الجواب عليه جوابا مقنعا. وأسباب الصعوبة في الاجابة على ذلك هو عدم وجود طبقات واسعة من الحفريات تحت طبقات النظام الكامبرياني الأعلى».

---

(١) باسمة كيال ـ المرجع السابق ص ٥٤.

فكيف يمكن تفسير هذا الأمر؟ وهل يمكن تفسيره إلا أنه هروب دارويني واضح من الحقيقة والعجز عن إثباتها؟ أما القائلون بالتطور، الذين سبق ذكرهم والذين قبلوا هذا الأمر على أنه حقيقة واقعة فقد أضافوا إلى ذلك الملاحظة الغريبة التالية: حيث قالوا: «ان هذا الاعتراض قائم على أدلة سلبية فقط. وقد دلت التجارب على أن لا قيمة لمثل هذه الأدلة». أو بمعنى آخر: على الرغم من أن هؤلاء التطوريين لم يجدوا أي حفريات صادقة يعود تاريخها إلى ما قبل الفترة الكامبريانية، وعلى الرغم من أن النصف الأول، على الأقل، من كتاب عمر الدهر لا يحوي إلا صحائف بيضاء، فإنهم يعتبرون التطور أمرا واقعا بدعوى أن عدم وجود حفريات يشكل دليلا سلبيا فقط. ومثل هذا القول بعيد جد البعد عن التفكير العلمي، لأن الطريقة العلمية الحقيقية هي استخلاص النتائج من الوقائع الراهنة، فإذا فقدت الوقائع الراهنة وجب إهمال النتائج. ولكن التطوريين يصرون على الاستنتاج متحدين الوقائع. ولا يقبل مثل هذا القول ويعتبره أساسا صلبا لنظرية التطور إلا ساذج![1].

● **أين هي المخلوقات المتوسطة؟**

. . . إن نحو ثلاثة ارباع المراحل التي تخيلها التطوريون لم توجد قط. فماذا كشفت لنا الحفريات المكتشفة حقا؟ هل قدمت لنا أدلة على التطور؟ أو هل أن وثائق المستحدثات تحتوي، على الأقل، على المراحل الأخيرة من الربع الأخير من المراحل التي يدعيها التطوريون؟ لنبحث الوقائع[2]:

يقول [تشارلز داروين] في كتابه: (أصل الأنواع) بشأن المخلوقات المتوسطة مايلي:

«إذا كانت الأنواع تنحدر من أنواع أخرى بتدرج بطيء وغير محسوس، فلماذا لا نجد أشكالا كثيرة من المخلوقات الانتقالية المتوسطة بين النوعين؟ لماذا لا يوجد شيء في الطبيعة في حالة مشوشة؟ لماذا لكل من الأنواع شكل ووصف محدد؟ لماذا لا نجد باستمرار، على قشرة الأرض بقايا هذه الأشكال الانتقالية العديدة التي تقضي فرضية التطور وجودها». ؟ . . . ثم يقول: ـ

(1) Glenh L. Jepson, E. M. Genetics Paleontology and evolution, P. 131

(2) D'Arcy Thompson - on growth and form, PP. 51-66.

« ان الأبحاث الجيولوجية لا تقدم لنا السلم التدرجي اللامتناهي وغير المحسوس للكائنات التي توسطت الأنواع الحاضرة وأنواع الماضي كما تقتضيه نظريتي».

● **فكيف يفسر «داروين هذا الفراغ ؟»**

● يقول في الرد على ذلك مايلي :

«إني أكتفي بالقول هنا : بان الوثائق التي قدمها علم الجيولوجيا هي من القلة بمكان يفوق التصور».

ثم بعد ذلك يقول: «ولكننا إذا حصرنا بحثنا بكائن واحد غدا من الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا لا نجد سلسلة مترابطة متدرجة من الأشكال التي كان من الواجب أن تربط الأنواع المتشابهة بعضها بالبعض الآخر».

«وقد نجد أنفسنا أمام الأمر الواقع ذاته في ميدان حياة النبات».

● وهنا يرد عليه الأستاذ «نيسلون» أستاذ النباتات في جامعة لاند في كتابه «التنويع الاصطناعي» يقول:

إذا ما فحصنا المجموعات الكبيرة الخاصة بنباتات الحفريات، فإننا نفاجأ حينما نرى ظهور مجموعات تظهر فجأة بأوقات منتظمة على مدى العصور الجيولوجية وهي مليئة بالأزهار وذات أنواع مختلفة. ويعجب المرء حينما يرى، بعد حقبة من الدهر، لا تقاس بالملايين بل بعشرات الملايين من السنين، اندثار هذه الأزهار فجأة كما ظهرت. وهي خلال حياتها لا تتغير في أشكال انتقالية تتصل بالأشكال الرئيسية للحقبة القادمة، بل ان الأشكال الانتقالية المتوسطة معدومة بتاتا.

وفي جماعة القردة الموجودة حالا والتي من المفترض أن تكون أقرب الحيوانات إلينا لا نجد أي نوع وسيط بيننا وبينه، ولا نجد أي قرد يشبه الانسان، وكذلك لا يوجد بين الحيوانات الحية حالا أي حيوان يمثل [الشكل الوسيط]، ويرينا أصل القرد الانسان، ولا نجد أيضا في الحفريات واحدا من أجداد الحيوان المفترض أنه قرد انسان !

● وهناك من علماء الغرب من سخر من نظرية [داروين] الساقطة، وتهكم عليها عندما استيقن من فسادها، ومنهم العلامة الدكتور الفسيولوجي [إيلي دوسيون] الذي قال عن النظرية:

«الـداروينية لا تقـوم إلا على حكايات مخترعة لا تعلو قيمتها العلمية على قيمة حكايات المرضعات» . . !!!

● وقد جاء، بهذا الصدد، في كتابه: (الانسان الأول) المطبوع بالفرنسية سنة**١٩٦٦** ما يلي:

« من المؤسف أنه لايوجد لدينا إلا وثائق غير تامة من الحفريات عن أصل القرد الانسان ولا نعلم في أي وقت ولا في أي مكان بدأ شكل الانسان يختلف عن شكل القرد»[١].

● إننا نرفض بمنتهى الحزم والشدة ما قاله «داروين» عن انتماء الانسان وانحداره من (القردة العليا) . . ونؤمن بشدة وبلا حدود بما جاء في [القرآن الكريم] من أن الانسـان خلق خلقا مستقلا . . متكاملا . . . في أحسن صورة . . ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى . .

﴿**لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم**﴾ (التين : ٤).

﴿**خلق السموات والأرض بالحق، وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير**﴾ . . (التغابن : ٣).

﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**» (الاسراء : ٧٠).

● يقول الشيخ «حسين الجسر» مخاطبا [الداروينيين]:

وأنتم لا داعي لكم إلى ترجيح النشوء، والجزم به بعدما أظهرت لكم منزلته من الثبوت، هذا وبعدما تقدم، إذاً لم يثبت النشوء فلا يبني عليه اشتقاق الانسان والقرد من أصل واحد كما تزعمون، وقولكم أنه بمقتضى مشابهته للقرد لا يمتنع أن يكون قد اشتق هو إياه من أصل واحد شبهة في غاية السقوط. لأن المشابهة الصورية لا توجب هذا الأمر ولا تقتضيه كما هو ظاهر. . وإن قلتم نعم هي لا توجبه ولكن لا أقل من أنها تحدث الظن به، قلت أن أتباع محمد عليه السلام لايعتمدون الظن في باب الاعتقاد، ولا يعتبرونه معارضاً لظواهر نصوص شريعتهم.

على أن تلك المشـابهـة يعـارضها أمر يدفع ما أحدثته من الظن، وهو أننا نرى

---

(1) N.J.Berrill - L'Origine des vertebres, PP. 108-113.

[الانسـان] في أول ولادته في غاية من الضعف عقلاً وجسداً لايقدر على مشي ولا جلوس بنفسه ولا أدنى حركة جسدية تكون منتظمة، وهو في غاية البلادة والبله، لا يدري ما هو محيط به، ولا يعرف الأرض من السماء، ولا النار من الماء، فلا يتجنب مؤذياً، ولا يختار نافعاً حتى لا يدري كيف يأخذ ثدى أمه. فتعالجه الأيام حتى يهتدي إليه، ثم بعـد كل ذلـك الضعف وجميع تلك البـلادة نراه قد أخذ يترقى في القوة والادراك حتى يبلغ درجة فيهما لم تكن منتظرة منه فيما لو قيس على بقية الحيوانات التي تكون عند ولادتها أقوى منه حالاً جسداً وإدراكا. وهذه الحالة فيها من أعجب أعمال الخـالق سبحانه وتعالى، ودليل ساطع على عظمته. .قدرته من ترقية أضعف حيوان وأبلده إلى درجة لم يلحقه فيها لاحق، فيغدو قويا جباراً يقتلع الصخور ويشيد المباني الهائلة بعد أن كان في غاية الضعف والعجز، ويصبح عالماً مدققاً وفيلسوفاً محققاً. .(١).

ويقول الشيخ «جمال الدين الأفغاني» . . في كتابه [الرد على الدهريين]:

«رأس القائلين بهذا القول داروين، وقد ألف كتاباً في بيان أن الانسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة، وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ [أوران أوتان]، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان، فكان صنف النيمنم، وسائر الزنوج، ومن هنا عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسي».

ثم يقول . . .

«وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والانسان، وكأن ما أخذ به من الشبهة الواهية ألهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة، وحسرات العماية». . . (٢).

● أن علماء المسلمـين انـما يأخذون عقيدتهم عن (العقل) يوجبون ما أوجبه، ويحيلون ما أحاله، ويجيزون ما اجاز. . (٣)

(١) الشيخ حسين أفندي الجسر ـ كتاب الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية ـ بيروت ـ ص ٣٢٦.

(٢) محمود عباس العقاد ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٨.

(٣) يمكن مراجعة مقال: «اتجاه العلم الحديث نحو روحانية الشرق» المنشورة بملحق العدد الصادر في ١٤أكتوبر=

ومن صريح القرآن أخذ المسلمون . . لأنه لا يعارض العقل ولا يصادمه . .

وقد جاء في القرآن بأن (الله) سبحانه وتعالى قد خلق شخصا اسمه (آدم) وزوجته (حواء) وأنهما أصل (النوع) الانساني . . وأنه خلق آدم من الطين، ونفخ فيه من روحه وجعله (بشراً) .

وهذا القول (عندنا) صريح لا يعدل عنه إلى تأويله إلا إذا قامت الأدلة التي لا تُرَد على نظرية «داروين» وأن الانسان ليس (أصلاً) بنفسه بل جنس أو نوع مشتق من غيره .

فإذا صارت أدلة (داروين) ـ على سبيل الافتراض طبعا ـ بديهية في حكم (السماء فوقنا والأرض تحتنا) وجب أن نسلم بها، وأن نلجأ إلى (تأويل) نصوص القرآن بما لا يخالف الواقع . . . لأن القرآن هو الواقع لكل العصور التي مر وسيمر بها الانسان .

ولكن نظرية «داروين» لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمراً قطعيا «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[1] . . بل على العكس من ذلك تماما، فإن هذه النظرية لم تبلغ شيئا من الصحة على الاطلاق . . والمسلم الحقيقي لا يترك الساق إلا ممسكاً ساقاً أقوى منها وأمتن .

فهل يترك المسلم حبل الله المتين في القرآن ويتعلق بخيط العنكبوت الدارويني؟ بالطبع لا .

● يقول الشيخ جمال الدين الأفغاني منتقداً أفكار الداروينية الخبيثة :

«ومن واهياته ما كان يرويه [داروين] من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب . . كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته، وهل صُمَّت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفاً من السنين، لا يولد مولود حتى يختن . . . . وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختوناً إلا لإعجاز»[2] .

سنة ١٩٣٢ من جريدة السياسية، فانكم واجدون أن فطاحل العلماء مثل (هلدان) واللورد (رزرفورد) قد هدموا المذهب الذي بنى عليه «داروين» نظريته ـ المقال بقلم أحمد خيري سعيد أفندي .

(١) قال عالم الماني أن (القرد) انسان متقهقر، وليس الانسان قردا مرتقيا ونظريته التي يقول بها عكس نظرية «داروين» واتباعه وقد جعل أدلة وبراهين على صحة نظريته . . وعلى العموم فمادام الأمر مجرد نظرية . . فإنها لا تكون حجة ملزمة لا حد . .

(٢) عباس محمود العقاد ـ المرجع السابق ص٣١٩.

لم يتمكن محامو «نظرية النشوء والارتقاء» ـ وأتحادهم أن يتمكنوا ـ من تمكيننا من مشاهدة أو تجربة أي أساس تقوم عليه مزاعمهم فعلى سبيل المثال ليس بوسعهم أن يثبتوا لنا بالرؤية المباشرة في معمل ما كيف توجد (الحياة) من مادة لا حياة فيها. . وكل ما استطاعوا قوله هو الأول كان (لمادة بدون حياة). . وان الحياة بعد ذلك بدأت تدب في الكون.

- فأين هذا من قوله تعالى . .

﴿يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾[2].

إن الداروينية نظرية. . لا تثبت شيئا أكثر من أن الأنواع المختلفة لم توجد في وقت واحد، بل وجدت أنواع مختلفة في مراحل مختلفة وأن هناك ترتيبا زمنيا في الأنواع الحية أي أن الأنـواع البسيطة للحياة (وجـدت) قبـل الأنواع الحية المعقدة . . فإذا قال (تطورت) رفضنا ذلك مثلما قال. . «إن الماعز تطور إلى زرافات نتيجة لعمل طبيعي طويل الأمد».

ونحن غير مستعدين لقبول (هراء) لم يثبت على الاطلاق.

وخير دليل على أن ما قاله الداروينيون في هذا المجال هراء في هراء ما قالوه عن تطور الانسان، ومما قيل:

«وكان من بين الحيوانات التي اتيح لها البقاء خلال التغيرات المناخية الكبرى في العصر الأوليجوسيني، سلالة من التارسيويدات أمكنها أن تتحور لتلائم ظروف الحياة الجديدة. وقد تدرجت هذه الكائنات شيئا فشيئا أثناء تلك العمليات التطورية حتى أصبحت من القردة العليا. وقد أدخلت هذه المجموعة من الرئيسيات ذات القوام شبه المنتصب شيئا جديدا على العالم، إذ أنها توصلت إلى حل دائم للمشكلة القديمة

---

(١) سورة الروم : ١٩

(٢) سورة العنكبوت : ١٩ ـ ٢٠

التي سببت فناء الكثير من أنواع الحيوان التي سبقتها، ألا وهي مشكلة «الملاءمة والتخصص». وذلك أنها كونت دماغا أفضل بدلا من أن تكون عضلات اقوى، ونجحت في البقاء بتغلبها بسعة الحيلة على أعدائها الطبيعيين الذين يفوقونها سرعة وقوة إلا أنهم يقلون عنها ذكاء. والقردة العليا تسير جماعات في حلها وترحالها. ولابد أن أوائل هذه القردة قد أدركت ان السلامة في التجمع. وإذا انحصرت فائدة الأرجل الطويلة القوية ذات السرعة الفائقة في الأراضي المكشوفة وحدها فإن التعاون الفكري مفيد في كل مكان (وزمان).

ولكن ما السر في تطور الدماغ، ذلك العضو الذي له هذه الفوائد والميزات، إلى مثل هذه الدرجة الكبرى من التقدم في هذه المجموعة دون غيرها؟ أو لم يكن في وسع الكريودنتات أن تتلافى مصيرها المحتوم لو أنها اتخذت في تخصصها اتجاها مماثلاً ؟.

يبدو أن الأمر يختلف بالنسبة للكريودنتات. فالقردة العليا توصلت إلى أن تخطو هذه الخطوة لأنها، كانت قد ورثت على أسلافها الأعضاء الضرورية اللازمة للخطوة التطورية التالية، حتى تكون منها في أوائل العصر البليستوسيني جماعة عجيبة من القردة العليا الشبيهة بالانسان، أو القرود الانسانية، اسمها العلمي «استرالوبيثيكاس» Australopitheous وقد وجدت أحافير لأنواع كثيرة من هذه الجماعة في الكهوف والسهول النهرية في جنوب افريقيا. وقد تبين أن هذه القردة، التي يبلغ طولها أربعة أقدام، كانت تسير وتجري وقوامها منتصب تمام الانتصاب، ودليلنا على ذلك وجود نقطة الاتزان في الجمجمة في موضع أمامي، واتساع عظام الحوض، وانثناء العمود الفقري على شكل حرف (S) »...

ومن دلائل حماقة الداروينيين أيضا قول [نابيير] :

«لقد فتحت يدا هذا [القرد ـ الانسان] عالما جديدا غاية الجدة من الامكانيات. فالقردة العليا تعيش على الديدان المختلفة والفاكهة والحشرات وتستخلصها من البيئة بصعوبة وعناء. ولكن يدى «الاسترالوبشيكاس» كانتا على درجة عالية من المهارة والقدرة توصلتا اليها بعد [تطور] دام سبعين مليون عام من تاريخ الرئيسيات. وتضاعفت فائدة اليدين مرات عديدة باستعمال الأدوات المختلفة، فإن حجرا صلبا

يستخرج من مجرى الماء يجعل من قبضة اليد سلاحا قاتلا. كما أن الحافة الحادة لحصاة مكسورة يمكن استعمالها في قطع اللحم أو استخراج جذور النباتات. وهكذا أصبح في الامكان ان تضاف إلى قائمة الطعام أصناف أخرى كالضفادع والسحالي أو حتى البابون وصغار الوعول التي يمكن القضاء عليها باستعمال هذه الأدوات»...

.. «وأحدث ما اكتشف من هذه [القرود الانسانية] في أفريقيا نوع اسمه العلمي «زينجانثروباس» Zinjanthropus ويطلق عليه بالانجليزية اسما معناه «كسار البندق». فقد أدى البحث الدقيق في الصخور الرسوبية في تنجانيقا حيث وجدت أدوات بدائية إلى أقصى درجة كان يستعملها هذا [القرد الراقي]، إلى العثور على جمجمته سنة ١٩٥٩، بعد عشرين سنة من البحث والتنقيب. ويستنتج من كبر حجم ضروسه الخلفية (التي يرجع إليها السبب في التسمية الانجليزية) أن غذاءه كان يشتمل على مقادير كبيرة من الطعام النباتي كالقردة العليا. وإذا صح ما يعتقده البعض من أن صنع الأدوات يميز [الانسان] عن [القرد الراقي] فإن استنتاجنا يكون خاطئا. ويضع بعض علماء التصنيف جميع الاناس القردية في نوع واحد أطلق عليه الاسم العلمي «هوموواريكتاس» Homo erectus، رغم أن الاحافير تبين وجود سلالات عديدة تميزها فروق واضحة. وقد عاش [الانسان القرد] الأول في جاوة في الفترة بين الثلجية الأولى. وجاء من بعده قوم استمروا حتى الفترة بين الثلجية الثانية. وكان بين كل من السلالتين الجاوية والبيكينية فرق أساسي هو اختلاف حجم الدماغ. فجماجم سلالة جاوة تتسع لدماغ يتراوح حجمه بين ٧٧٥ و ١١٠٠سم^{٣} في حين أن سعة جماجم سلالة بيكين تصل أحيانا إلى ١٣٠٠سم^{٣}».

■ وتتجلى أبشع صور الحماقة الداروينية في تساؤل أحدهم:

● «هل كان [هومو اريكتاس] ناطقا»؟ ثم إجابته: نحن نعتقد انه ربما كان كذلك. ومن الأدلة على هذا الأمر ان الطابع الداخلي لجمجمته يبين أن أجزاء نصفي الكرتين المخيتين المختصة بالكلام والاتصالات العصبية كانت نامية نموا كبيرا. ولكن بعض العلماء انتقد هذه الطريقة في جمع المعلومات من دراسة الأحافير انتقادا مرا إذ اعتبروها نوعا من «الفرينولوجيا» Phrenology أي دراسة خواص العقل عن طريق بروزات

في الجمجمة ولكن الأدوات الحجرية التي وجدت مع بقايا القوم تعتبر برهانا آخر ذا أنها دليل على وصولهم إلى مستوى من الثقافة البدائية يستدعي التفاهم بالكلام. فمن المستبعد أن يستطيع البعض منهم تعليم الآخرين ما اكتسبوه من مهارة في صنع تلك الأدوات دون تفاهم بالكلام.

لقد وصف ليكي Leaky وطوبياس Tobias ونايير Napier الأدميات المبكرة في عصر البلايستوسين بأنها أنواع جديدة من الجنس البشري ومن الانسان الحاذق Homo Habilis . وكما هو الشأن بالنسبة لانسان جنوب افريقيا القرد فإن هذا النوع يتألف من آدميات لها أمخاخ صغيرة كأمخاخ القردة، بينما أسنانها وهيكاكلها العظيمة تشبه أسنان الإنسان وهيكله العظمى وثمة عينة على درجة عالية من الروعة والأهمية تتألف من مجموعة عظام القدم المتحجرة تبين بوضوح أن الانسان الحاذق Homo Habilis يمشي منتصبا على قدمين ولا يسير على أربع»...!!!...

■ **ومن صور الهراء الداروِيني قول بعضهم :**

● «كذلك كان هذا الانسان صانعا للآلات، وقد أمكنه أن يصنع أشكالا من الأدوات الحجرية على درجة كبيرة من الدقة تدعو للدهشة. ولقد كان الحظ حليف الدكتور ليكي وزوجته حين اكتشفا موقعا كاملا يضم عددا من الالات والبقايا الحيوانية في حالة جيدة وبه بعض الدلائل التي تشير إلى أن «الانسان الحاذق» عرف بناء المساكن التي يأوى إليها. وهذا الاكتشاف الأخير على درجة كبيرة من الأهمية، فهو يوحي بأنه منذ نحو مليوني عام كانت جماعات أشباه البشر تمضي فترات من الوقت في مكان واحد يصطادون فيه ويعيشون في تجمعات متميزة».

● **ومن صور الهراء الداروِيني ما يقوله «ليكي»:**

[إلا أن هناك جدلا طويلا لا يزال يدور حول الوضع الحقيقي الذي يحتله «الانسان الحاذق» في التطور الانساني. ورأيي باختصار هو كما يلي] :

« لقد ساد عصر البلايستوسين الأوسط أشباه البشر الأواخر في مناطق كثيرة من العالم القديم، وليس من غير المعقول أو من غير المنطقي أن نفترض أن الأجداد المباشرين لهذه الأدميات «أشباه البشر» كانوا هم أيضا منتشرين في كثير من المناطق.

والـواقـع أن العينات الخاصة بإنسان جنوب أفريقيا القرد في العصر البلايستوسيني المبكر جمعت من هذه الأنواع الأولى المبكرة (الأسلاف)، وكذلك كان الحال بالنسبة لأنواع الانسان الحاذق Homo Habilis في شرق أفريقيا. وأعتقد أن كلا من إنسان جنوب أفريقيا القرد والانسان الحاذق كانا ببساطة فئتين من البشر منفصلتين جغرافيا ولكنهـــما تنتميان إلى نوع واحـــد، وليس من شك في أن هنـاك أقـواما من عصر البلايستوسين المبكر تنتمي إلى هذا النوع قد وجدت في مناطق أخرى من العالم ولكنها لم تكتشف بعد».

الرد العلمي والايماني على هراء الداروينية

- لنترك (الداروينيون) أنفسهم ينقدون النظرية الداروينية فهم خير من يهدمها من الأساس.. فهذا هو السير «أرثركيت» ١٨٦٦م - ١٩٥٥م يقول.. «الارتقاء غير ثابت.. ولا يمكن إثباته»..
- كما وردت في القرآن الكريم بشأن خلق الانسان [كما رأينا] نصوص تدل على أن الله تعالى بدأ خلق الانسان من طين، وأنه خلق من تراب، ومن طين لازب ومن سلالة من طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء، وأن الله خلق البشر من (نفس واحدة) وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء[1].
- ولقـد ورد في نصـوص الشريعـة الاسـلامية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق [الانسان].. أن الله بدأ خلقه من طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء، وقد قال بعض المفسرين أن التراب والماء أصلان للانسان، أي أنه خلق منهما، فتارة تذكر النصوص هذا، وتارة تذكر ذلك. وورد أن الله خلق الانسان بيديه، وورد أنه خلق البشر من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

(١) دكتور محمود عثمان - المرجع السابق ص ٢٢٤.

فهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله خلق الانسان نوعا [مستقلا]، لا بطريق النشوء والارتقاء من نوع آخر. وليس في تلك النصوص صراحة بأن الله خلق الانسان الأول من تراب [دفعة واحدة] . . . أو بتكوين متمهل على انفراده، فسبيل هذا عندنا التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين، وإن كان قد يظهر من بعض النصوص الأحادية أن تكوّن الانسان الأول. وهو [آدم] كان بتمهل، ومرت عليه مدة من الزمان، ولكن ظواهر النصوص التي عليها مدار الاعتقاد تدل على الخلق المستقل.[1].

ولايجوز تأويل هذه النصوص، وصرفها عن معناها الظاهر، إلا إذا قام الدليل العقلي القاطع على ما يوجب ذلك.

مجمل القول إذن أن النصوص القرآنية ـ وهي الصدق المطلق ـ تؤكد خلق الانسان خلقا مستقلا متكاملاً في أحسن تقويم.

● وكل تلك النصوص يدل ظاهرها على أن الله تعالى خلق الانسان (نوعا) مستقلا، لا بطريق النشوء . .

ولو فرضنا ـ وهذا لم يحدث بالطبع ـ أن يصل أصحاب (التطور) إلى دليل يقيني على (النشوء) حينئذ يجوز تأويل هذه النصوص ـ وتأويلها ممكن[2] ـ ويجوز للمسلم ساعتها أن يعتقد بالنشوء والتطور ـ على شرط:

أن يعتقد بأن هذا النشوء والتطور يسير حسب القانون الالهي العام الأعظم للكون والذي وضعه الله تعالى ليسير كل شيء في الكون حسب الخط الالهي المرسوم. . وهي أسباب عادية على رأي أهل السنة. أو حقيقة على رأى المعتزلة.[3].

● ويقول العالم الشهير «جان روستان» في كتابه (التطور) ما يلي:

«هل حقيقة أن قضية التطور قد حلت الآن حقا كما يقول أصحاب نظرية الداروينية الحديثة؟ . . . إني لا أعتقد ذلك ولا أستطيع أن أصر، ككثير غيري، على الاعتراف بهذه النظرية . . إن الانتقال، الذي نعرفه، والذي ينسبون إليه عالم الأحياء إنما هو، على الغالب الحرمان من عضو أو زيادة عضو على عضو موجود قبل ضياع

---

(١) الشيخ نديم الجسر ـ قصة الايمان ـ دار العربية ـ ص٢١٤.

(٢) دكتور محمود عثمان ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٢٥.

(٣) المرجع نفسه ـ ص ٢٢٤.

الصبغيات أو انعدام زائدة ما، وهذا، على كل حال، لا يأتي بشيء جديد أو مبتكر بالنسبة إلى الكيان العضوي ولا يأتي بشيء يمكن أن يظن بأنه قابل أن يكون أساسا لعضو جديد أو بداية لعمل جديد.

إنني بكل تأكيد، لا أستطيع بأن أعتقد بأن هذه (الهفوات) ـ في الصفات الارثية قد استطاعت، حتى مع مساعدة الاصطفاء الطبيعي، وحتى مع طول الزمن الذي اقتضاه تطور الحياة، بأن تنشىء كل عالم الأحياء بكل مايحويه من ثراء ولطافة هيكل ومن مؤهلات عجيبة.. إنني لا أستطيع أن أتصور بأن العين والاذن ودماغ الانسان قد تكونت بهذه الكيفية.. إني لا ألمس شيئا يؤهلني لفهم هذا التغير العميق وهذا التحول العجيب الذي نتصوره في تاريخ التطور حينما نستعرض «فيلم» مرورنا من مخلوقات غير فقارية إلى مخلوقات فقارية»...

● وجاء في «الموسوعة العالمية»[1] طبعة ١٩٦٦ قولها: «إن [نظرية التطور العضوي] تنطوي على ثلاث فكر رئيسية هي :

١ ـ أن الكائنات الحية تتبدل جيلا بعد جيل وتنتج نسلا يتمتع بصفات جديدة.
٢ ـ إن هذا التصور قديم جدا وبه وجدت كل أنواع الكائنات الحية.
٣ ـ إن جميع الكائنات الحية يتصل بعضها بالبعض الآخر بصلة قرابة.

وهذا ليس بصحيح، لأن مجرد التغيير الذي يطرأ على أي كائن حي لا يمكن اعتباره دليلا على التطور بل هو مثال على أنواع مختلفة في نطاق جنس واحد، وهذا ما نجده في النباتات والحيوانات والانسان. فوجود هرر كبيرة مثلا وأخرى صغيرة، وغيرها متوسطة الحجم، وألوانها مختلفة لا يعني أن هذه الهرر نوع واحد، بل هي أنواع خلقت كذلك وليست أجسامها نتيجة تطور عضوي».

● وأما فيما يتعلق بالزمن اللازم لحدوث التطور، فيقول الأستاذ «دوبزهنسكي»[2]، الأستاذ في جامعة كولومبيا، في كتابه: [الوراثة وأصل الأنواع].. ما يلي: «إن التطور يحتاج إلى نحو ملياري سنة، وأن هناك عوامل فاعلة تجب دراستها دراسة تجريبية حتى نصدق حدوثها».

---

(1) World book Encyclopedia.
T. Dobzhansky,
(2) Genetics and the Origin of species, pp. 121-127.

. . ولكن . .

لم يقم حتى الآن أي دليل على الاطلاق يشير ولو بطريقة ما لحدوث ما يسمى بالتطور . . فكل أدلة النشوئيين على أن الانسان ليس خلقا مستقلا كانت مجرد فروض ظنية لا أكثر، وانهدمت منذ مدة طويلة . . بعد أن طرأ عليها من شطب، وتعديل وإضافة حتى تغير جوهرها تماما، خلال أقل من قرن من الزمان، وهو في حد ذاته شيء نسبي قياسا بحقائق القرآن النهائية والمطلقة والتي لا يخضع مصدرها للزمان ولا للمكان.

علماء المسلمين يهدمون فرضية التطور

● ابن مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بابن مسكويه المتوفي يوم ٩ صفر سنة ٤٢١هـ (١٠٢١م) أما تاريخ ميلاده فلم يرد ذكره فيما وقع تحت أيدينا من مراجع، وإنما يمكن تقديره على ضوء ما جاء من قصيدة له شكا فيها أثر الهرم، وبلوغه إلى أرذل العمر، مما يرجح أنه أشرف على أوائل القرن الرابع الهجري[(١)].

وهو عالم إسلامي ذائع الصيت عمل خازنا للملك عضد الدولة [ابن بويه]، كما كان كاتب سر الوزير المهلبي، وأمين خزانة كتبه، وصحب بعد ذلك ابن العميد. وقد خلف لنا ابن مسكويه عشرات المؤلفات العلمية النادرة، ولكن دائرة المعارف الإسلامية أغفلت ذكر العديد من مؤلفاته مثل كتب: [الفوز الأصغر ـ الفوز الأكبر ـ ترتيب السعادات ـ المستوفي ـ الجامع ـ كتاب السير].

وفي كتابه: [الفوز الأصغر]. . . تناول ابن مسكويه علم الأحياء [البيولوجيا] بالشرح العلمي النادر، ووضع القردة وأشباهها في مرتبة الثدييات الراقية. . . ولكنه جعل مكانها بعيداً، منفصلاً عن مرتبة الانسان. . وشرح في كثير من الدقة، الفروق بين القردة والانسان، فميز الانسان بانتصاب القامة، وبالنطق الكامل، أي باختراع اللغة.

---

(١) د. حسين فرج زين الدين ـ المرجع السابق ـ ص ٣٣٤.

وهنا تجدر الاشارة إلى أنه لم يتعرض إطلاقاً إلى انحدار الانسان عن القردة، أو إلى إمكان بلوغ القردة بالترقي مبلغ الانسان، ومما يساند رأي «ابن مسكويه» عن التفرقة بين القـرد والانسان، ما يقول به علم الحيوان الحديث من أن الانسان يفترق عن القـردة بمميزات أربـع، هي انتصـاب القـامة في أثناء المشي، والتركيب التناسبي للأيدي والأرجل، واختراع اللغة والاعتماد على الكلام في التفاهم، وأخيراً خاصية الإدراك.

فشتـان مابـين القـرد والانسان ـ كما يقول الشيخ [حسين الجسر] . . فلو كان الانسان مشتقا هو والقرد من أصل واحد. ومترقياً عنه لكان من حقه أن لايكون في تلك الحالة التي ذكرناها فيه، فلا يكون عند ولادته دون القرد الذي ترقى هو عنه إذ يقال ما السبب في ذلك الانحطاط في القوة والادراك في طفل الانسان مع أن شريكه في الاشتقاق من أصل واحد الذي ترقى هو عنه نراه أكمل منه فيهما، ولو قيل أنه ترقى عند شريكه في حسن الصورة وانحط عنه في القوة والادراك لأسباب أوجبت ذلك قلنا: فما الذي أكملهما له عند الكبر ورقاه منهما على القرد بكثير؟ . .

فالحق أن هذا مما يوهن كل الوهن قولكم ـ والكلام هنا للشيخ حسين الجسر موجه للداروينيين ـ باشتقاق الانسان والقرد من أصل واحد إذا لم نقل أنه يبطله.

فإذا تأملتم أيهـا المـاديون بعين الانصاف، ظهر لكم أن المشابهة الصورية بين الانسان والقرد لا تقاوم هذا الفرق العظيم الذي شرحناه لكم بينهما، هدانا الله تعالى وإياكم لما فيه الصواب، فهذا ما أردت الآن إيراده عليكم وهو كاف في أن دلائلكم ومعتمداتكم في النشوء ظنية . . . [(١)].

والمسلمون على صواب عندما يتمسكون بظواهر النصوص القرآنية ولا يتركون هذه الظواهر إذا عارضتها (أدلة ظنية) من صنع الانسان الظلوم الجهول وليس لهم ان يتركـوهـا . . إلا لداع قوي يتمثـل في دليل عقـلي قطعي يتـوافق مع عطاء القرآن ومدلولات آياته الكريمة . .

فمثلا . . يقول القرآن الكريم . . **﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين﴾**

---

(١) حسين الجسر ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢٧.

. . «المؤمنـون : ١٢» . . فإذا خرجت نظرية في النشـوء والارتقـاء «لـوالاس» و «داروين» . . (تفترض) ان الحياة بدأت خلية واحدة وان هذه الخلية نشأت في الماء، وانها انتهت إلى خلق الانسان . .

فهل يجوز (لنا) أن نحمل الآية القرآنية ونلهث جريا وراء (نظرية) [داروين]، ونقول: (هذا هو الذي يقصد القرآن)؟ . .

- . . بالطبع لا . .
- لمـاذا ؟

● لأن الدراسات المعملية أثبتت وجود نقص في (قطاع) وحدات الوراثة التي نحتفظ لكـل (نـوع) بخصائصه ولا تسمح بانتقال (نوع) إلى آخر . . **الشيء الذي يهدم النظرية من الأساس.**

● ولأن الحقيقة القرآنية (نهائية) . . وليس من المقبول (عقليا) أن يكون معناها هو نفس فحوى نظرية «داروين» فالحقيقة القرآنية تثبت فقط أصل نشأة الانسان ولاتذكر تفصيلات هذه النشأة . .

● ولأن الحقيقـة القـرآنية (نهائية) في النقـطة التي تستهدفها وهي (أصل) النشأة الانسانية . . وكفى . . ولا زيادة.

● ولأن نظرية التطور (فرض) . . وذلك باعتراف غلاة التطوريين الماديين . . ومن هنا نستطيع القول بأن عدم (ثبوت) نظرية التطور بدليل كاف حتى لتوصيلها إلى مرتبة (الظن) يجعل من المستحيل علينا أن نقول بأن الانسان والقرد هما من أصل واحـد، أو أن الانسان (متطور) عن القرد اعتمادا على المشابهة الظاهرة علاوة على نقصها وزيفها فإنها لا تؤدي بأي حال من الأحوال إلى وحدة الأصل وكل ما يمكن أن تعطيه هذه المشابهة هو الظن السيء.

والمسلم لا يربط تحليل المفاهيم العلمية بالظن . . وإنما بدليل عقلي قاطع . .

بل إنه لايجوز لنا أن نقف فنجرى مقارنة بين معطيات القرآن الكريم عن خلق [آدم] الأول . . وبين نظريات النشوء والارتقاء والاختيار الطبيعي التي قال بها ذلك [المخرف] داروين وغيره من [الطبيعيين]، مادام التطور في القرآن لا يعدو أن يكون تطوراً في عملية خلق آدم بإرادة الله ، أو خلقه مباشرة بما هو عليه من تكوين نحن ثماره

المحمولة في مجريات القوانين الوراثية المعروفة. . . إن الله قد خلق آدم كفعل مباشر لا نملك مقاييسه الزمنية الكافية. . . وهو خلق يجيء متمماً لخلق الأرض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي أتيح له أن يتخذ مكانه في الأرض خليفة.

إننا ـ حتى على مستوى خلق الانسان ـ نجد المسألة الزمنية كما يطرحها القرآن فيها الحل المقنع للتناقض القائم منذ بدايات [الداروينية] الأول بين القائلين بالخلق المباشر المستقل، والقائلين بنظرية التطور الطبيعي والارتقاء التدريجي. . . ففي لحظة كونية واحدة، تبلغ بحسابنا ملايين الوحدات الزمنية، يصدر الأمر النهائي الالهي بخلق آدم من الطين اللازب الممزوج بالماء.

ولنتمعن في هاتين الآيتين :

- **﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾.** «النور/٤٥».
- **﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا﴾.** «الفرقان/٥٤».

وهكذا. . فسواء قلنا بأن عملية الخلق هذه تمت مباشرة، أم عبر سلسلة طويلة من التطورات والتغيرات الطبيعية المتمخضة عن لقاء الحياة بالطين اللازب في فجر الابداع الالهي على الأرض، فإننا سوف لن نخرج عن الاطار الزمني الذي يطرحه القرآن نفسه، وسوف لن نكتشف أبداً [سر الروح] الذي أبدع الحياة[1]، والذي عجز عنه الطبيعيون كافة، وقال عنه القرآن:

- **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.** «الاسراء/٨٥».

يقول علماء التطور إن الهوة بين الانسان والحيوان قد ملاءها إنسان ما قبل التاريخ أو الانسان القرد الذي لم يوجد قط. وتقول مجلة «العلوم» في عددها الصادر فى مايو **١٩٦٥** ما يلي:

---

(١) د. عماد الدين خليل ـ التفسير الاسلامي للتاريخ ـ دار العلم للملايين ـ ص١٢٢.

« يتصور علماء التطور أجدادنا أجلافا وبلا ذنب وهو أضخم بقليل من الانسان القرد الـذي يعيش في أيامنا هذه. وأنهم كانوا يتمتعون بعضلات وجه متحركة، ولكنهم لم يكـونوا شديدي الذكاء. وكانوا يتسلقون الأشجار ويعيشون على الأكثر عليها، كما يعيشون على وجه الأرض. وكانوا يستطيعون أن ينتصبوا انتصابا غير تام كما كانوا يمشون على أربع وعلى رجلين، ويبدو أنهم لم تكن لهم لغة محكية» !!!!...

وتبعا لهذا الوصف نجد كتب العالم ومتاحفة مليئة بصور أو بتماثيل تمثل إنسان ما قبـل التاريخ بهذا الشكل. ويجد الطلاب أنفسهم، إزاء ذلك أنهم أعقاب إنسان قردي ذى جسم حيواني. ولكن هل هذه البنوة تقوم على واقع علمي أو أنها قائمة على خيال؟ إليكم ما قاله العالم التطوري «جان روستان» في كتابه (التطور) بالنسبة إلى هذه البنوة المزعومة.

..«ما هي الأدلة التي تقدمها الحفريات التي تدعم هذه القرابة المشتركة »؟..

● لقد أجابت على هذا السؤال مجلة «العالم الحديث» في عددها المؤرخ في ٢٥ من شهر مارس ١٩٦٥ بقولها:

« إن القرابة، التي يريدونها، بين الانسان والانسان القردي لا تدل بصراحة على أن لهما جدا مشتركا، ثم إن هذا الجد لم يوجد قط حتى الآن»...

علـماء الغرب يسقطون نظرية داروين

لقد أضحى واضحا أن العلماء القائلين بالتحول ـ مع تمسكهم بالقول بوجوب انحدار الانسان من قرد هو جد الانسان القردي أيضا ـ عاجزون ـ عجزا كاملا عن أن يقدموا الدليل على ذلك، ولا تقوم استنتاجاتهم على دليل أو واقع. وتعترف مجلة [ستردي إيفننغ بوست] في عددها الصادر في ٣ ديسمبر ١٩٦٦، أنه «على الباحثين عن أصل الانسان أن يستمروا في البحث حتى يكتشفوا أصول أجدادهم، والمؤكد أنهم لن يجدوها قردة أو ضفادع»..

● يقول العلامة [والاس]..

«إنه من المستحيل أن يكون الانسان قد تم تكوينه على طريقة[التطور]والارتقاء» . . ثم يقول: « . . إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الانسان، ولابد من القول بخلقه رأساً . . .

● ويقول البروفيسور [فرخو] . .

«قد تبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان من سلالة قرد أو غيره» . .

● ويقول [أجاسير]

إن النشوء لا يتم إلا وفقا لخطة إلهية حكيمة وإن الاصطفاء الطبيعي إذا ما حل محل الخلق الالهي فإن الانسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء . . إن التفسير الحرفي لنظرية داروين يفسح المجال لتأليه سوبرمان [نيتشة] وتمجيد القوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس .

إن الفكرة التي يعتنقها [الداروينيون] عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة .

هل هناك أدلة على وجود المراحل الأولية التي يفترض أنها جاءت بعد الجد المشترك؟ يجيب مؤلف كتاب «الانسان الأول» على هذا السؤال بقوله: «من المؤسف أن تظل، حتى الآن، المرحلة الأولى من التطور الانساني سراً غامضاً» . وتقول مجلة «العلوم الأمريكية» لشهر نوفمبر ١٩٦٦ : «إن نوعية نسب أجداد الإنسان مازالت نظرية محضة» .

«وفي الواقع إن أدلة المستحاثات التي سبق ذكرها أدلة واهية، بمعنى أن بعض علماء التطور لا يوصلون نسب أجداد الإنسان بالحيوان الأول (Proplio) [١]، بل يوصلونه بالقرد المعروف باسم غيبون . ويقولون بأن (Dryopith) [٢] يتصل بنسب الانسان القردي الكبير المتطور وهم يرون أن أقدم أجداد الانسان حيوان أسموه (Ramapith) [٣]، وهذا كله مجرد افتراض» .

---

(١) الدكتور محمود عثمان ـ المرجع السابق ص٢١٤ـ٢٢٠، وكذلك: د. احسان حقى ـ المرجع السابق ـ وحيث أنه لا توجد مسميات ـ عربية لهذه الحيوانات فاني مضطر أن أذكرها باسمائها الغربية، وقد اختصرتها للتسهيل فهذا الاسم هو في الأصل [Propliopithecus]

(٢) وهذا الاسم في الأصل [Dryo Pithecus]

(٣) وهذا الاسم هو [Ramapithecus]

وقد كتبت مجلة «نيويورك تايمس» بهذا الصدد تقول: «منذ نحو ١٢ مليون سنة - أي في منتصف الطريق بعد ظهور الحيوان الأول - (Dryopith) ظهرت مخلوقات قردية[١] لها ملامح الانسان اكتشفت في سلسلة جبال سيواليك[٢] في شمال غرب الهند وكان من البديهي أن يوسع هذا القول الثغرة بين هذا المخلوق وبين المخلوق الذي يفترض أنه الجد المشترك للانسان وللانسان القردي معا، مما يجعلنا أمام مجموعة من الفرضيات المتعارضة.

وهناك كثير من الحفريات التي ليست في الواقع إلا أنواعا من الانسان العاقل تعرض في الصور والمتاحف بأشكال حيوانات. ولكن هذه الصور وهذه الهياكل العظمية التي جمعت لا تمثل الحقيقة، إذ أننا لا نستطيع أن نتبين من خلالها مظهرها البدائي ولا هيكلها ولا لون جلدها»... !!!

● كتب العالم التطوري «غرو كلارك» في كتابه: (أدلة علم الحفريات في تطور الانسان) يقول: «لا يوجد جنسان تتميز صفات جمجمة الواحد عن الآخر مثل الجنس الأسود والاسكيمو وقد لا يتفق الخبراء بشأنها حينما يكونون أمام جمجمة من المفروض أن تكون لأحدهما. فإذا كان يصعب البت بأمر التمييز بين هذين الجنسين فكم من الصعب - لا بل من المستحيل - التمييز بنثرات من الهيكل العظمي بين جماعات عرقية صغيرة علاماتها المميزة أقل ظهوراً من هذين العرقين»؟

ويؤكد هذا القول الأستاذ «إيفار» في كتابه • (وكان الله هناك) حيث يقول: «لقد بدأنا نشعر بأن الانسان البدائي لم يكن متوحشا، وقد بقى علينا أن نقتنع بأن انسان - بليستوسين - لم يكن جلفا ولم يكن قردا ولذا فإن الهياكل العظمية التي أعيد تركيبها والتي يقال بأنها تمثل النياندرتال أو غيره من الناس لا تمثل الحقيقة»..

■ **سقوط نظرية «داروين» لعجزها عن الرد على السؤال التالي:**

نحن نسأل «داروين».. لو افترضنا جدلا وجود (مشابهة) تعطى (الظن) باشتراك الانسان والقرد في أصل واحد.. أو أن الانسان متطور عن القرد.. فلماذا يوجد

---

(١) اسموه Simiesque

(٢) جبال سيواليك توجد أمام جبال همالايا.

(فرق) رهيب بين سلسلة تطور القرد الطفل، وسلسلة تطور الطفل الانسان؟

فالعلم، والعقل، والمشاهدة البحته تثبت أن (البون) شاسع جدا بين (الانسان) . . والقرد في مرحلة (الطفولة) . .

فالانسان الطفل يولد (عاجزا) من الناحيتين البدنية والعقلية ويترقى فيهما ببطء شديد، وتستمـر حالة العجز فيه زمنا طويلا . . ولكنه عندما يكبر يصل إلى درجة عظيمة من (القوة) و (الذكاء) .

بخلاف القرد . . فإنه بمجرد ولادته، يساعد أمه في رعايته، ويستطيع أن يعتمد على نفسه اعتماداً كاملا، وهو مايزال (جروا صغيرا) .

ولو كانت هناك أدنى صلة بين الانسان والقرد لما كان بينهما هذا البون الرهيب .

فهل يملك «الداروينيون» لسؤالي هذا جوابا؟

وإن أجابوا . . فلن يخرج هذا عندنا عن مفهوم قدرة الله وانفراده بالخلق . . ولكني متأكد أنهم «بكم» لاينطقون . . ولن ينطقوا إلى يوم الدين[1] .

● ولقد كشفت حركة اليقظة الفكرية في العالم أن نظرية [التطور البشري] ليست إلا استنتاجاً، وستظل استنتاجاً حتى توجد العظام الحقيقية التي تدلنا على كيفية تقدم الكائنات البشرية . . ومن المؤكد أننا لن نعثر على شيء من ذلك . . . لأن الفرضية ساقطة من الأساس .

ولقـد ظلت علامـات الاستفهام معلقة على رأس داروين وتابعيه والداعين إلى فكرته مطالبين بالبراهين، لماذا كانت هناك حلقات مفقودة؟ ولم يستطع [داروين] ولا أتباعه أن يجيبوا . . . لماذا؟ . .

لأن أفكارهم كانت مجرد [فرضيات] . . ولم تكن حقائق . . ولكن الفكر التلمودي والمادي استطاع أن ينتفع بها أعظم انتفاع وأن يثير بها جوا من الالحاد العاصف في كل مكان . .

● حينما يؤكد علماء التطور على أن الانسان وجد على سطح هذه الأرض منذ مئات الآف السنين، ويرفضون أقوال التوراة التي تعطي الانسان عمرا أقصر بكثير، يظن النـاس أنهم قادرون على إثبات اقوالهم بوثائق تاريخية، وهذا ما كان يعتقده العالم

(١) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ الانسان في الكون بين القرآن والعلم ـ ص ١٠٢ .

بالفيزياء الذرية الاستاذ «ليبي» الحائز على جائزة نوبل. وفي طليعة العاملين بطريقة الاشعاع الكربوني لمعرفة التواريخ. وإليكم ما كتبه في مجلة [العلم] بتاريخ ٣ يناير ١٩٦١:

«ان الأبحاث الضرورية لتطوير طريقة معرفة التواريخ هذه يجب أن تتم عن طريق معرفة تاريخ الأشياء التاريخية، ثم فحص نماذج عائدة إلى زمن ما قبل التاريخ. لقد عجبت أنا ومساعدي «أرنولد» حينما أخبرنا مستشارونا بأن التاريخ لا يصعد إلى أبعد من ٥,٠٠٠ سنة.

إننا كثيراً ما نقرأ تصريحات تؤكد بأن الجماعة الفلانية أو المكان الأثري الفلاني يرجع بتاريخه إلى ٢٠,٠٠٠سنة. وقد علمنا فجأة بأنه ليس بالمستطاع تعيين هذه التواريخ والأزمان، المغرقة في الزمن، تعيينا دقيقا قط. وفي الواقع أن أقدم الأزمان التاريخية التي حددت بشيء من الدقة تعود إلى زمن السلالة الفرعونية الأولى».

● وجاء في مجلة «ساينس ورلد» في عدد (١) فبراير ١٩٦١ بهذه المناسبة مايلي: «إن الانسان قد وقف عن التطور، فالجنس البشري الذي نحن منه لا يختلف في شيء عن الكائن البشري الذي عاش قبل مئة ألف سنة.

إن ماضي الانسان منذ أقدم العصور قد سار على نمط واحد من غير أن يغير شيئا في الانسان والاختلاف الكبير الذي يوجد بين نمط صنع الآلات من الأحجار الصوانية، فيما مضى، وبين ورثتهم، أبناء اليوم، إنما هو حصيلة المدنية والثقافة المتراكمة المنقولة اليهم عبر الأجيال، بالتقاليد الاجتماعية. ولو كان بالامكان - وبصورة خارقة - بعث طفل عاش منذ ذلك اليوم لأصبح إنسانا مثلنا تماما».

● وكتبت «الموسوعة الأمريكية» بهذا الصدد تقول: «ان القسم الأكبر مما نعتبره، غالبا، تطورا إنسانيا إنما هو تطور اجتماعي وليس تطورا عضويا وليس تطور الانسان إجتماعيا هو نتيجة تطور عضوى»[1].

وليس هناك من شك فى أن الانسان القديم كان على درجة عالية من الذكاء بدليل هذه البرقية التي نشرتها جريدة «نيويورك تايمز» بشأن اكتشاف ظهر في العراق قالت:

«منذ ألفي سنة ق.م كان لتلاميذ شاديبور، وهي بلدة في إمارة سومير، كتاب

---

(1) Biology and Human prrogress. L. Eisman. C.Tanzer PP. 113 - 115.

يحتوي على حل لقضية المثلث الشهيرة، أي قبل «إقليدس» بسبعة عشر قرنا. . وكان هذا الكتاب مصنوعا من لوحات من فخار تحتوي على خلاصة موسوعية لمعلومات علمية تابعة لذلك الزمن. وقد اقتضى هذا الاكتشاف إعادة النظر الكاملة في تاريخ تطور العلوم وبالتالي في تاريخ تطور الفكر الانساني».

«وهذا يدل على أن الرياضيات بلغت قبل ألفي سنة درجة من التطور لم تخطر على بال علماء الآثار والمؤرخين».

«وهذا الاكتشاف يساعدنا على أن ندرك أننا إذا أخذنا طفلا من الأقوام البدائية، التي يسميها بعض العلماء، بأقوام ما قبل التاريخ وعلمناه خلال جيل من الزمن، وأدخلناه في جماعتنا المعقدة . . فقد يكون في بداية الأمر دوننا، ولكن لا من حيث الطاقة الدماغية بل من حيث تكديس المعلومات، فإذا تعلم، كما يجب، فإنه يرتقي كأي شخص منا. وهكذا كان شأن الانسان منذ وجوده أي منذ ٦,٠٠٠ سنة »[١].

● لقد كان من نتيجة انتشار الانسان على سطح الأرض أن انتشرت ثقافات مختلفة ومتفاوتة الدرجات في تقدمها، ولكن تقدمها ونموها لم يكونا نتيجة تطور بل كانا نتيجة أسباب جغرافية ولغوية.

وإذا كانت بعض الثقافات قد انحطت عن مستواها الأول حتى صار أهلها يعيشون عيشة أهل العصر الحجري، كما هي حال قبائل غينيا الجديدة، وبعض قبائل إفريقيا، وسكان أوستراليا الأصليين، وأهل الهند الأصليين المعروفين، فإن هذا يثبت بأن ارتقاء الانسان لا يظل مطردا في التقدم، بل قد ينحدر بعد ارتقاء. وكل هذه الأقوام التي ذكرناها والتي هي، اليوم، في أدنى درجات الانحطاط، كانت في يوم من أيام الدهر أمما راقية، على اعتبار أن الله خلق الانسان في أحسن تقويم[٢].

إن مجموع النصوص القرآنية في خلق [آدم] عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، تدل على أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الانسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقي من تاريخ البشرية كان ترقيا في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها، ولم يكن ترقياً في وجود الانسان من تطور الأنواع، ووجود أطوار

(1) New diseoveries in Babylonia about Genesis, PP. 210 - 226.

(٢) د. احسان حقي ـ المرجع السابق ص ١٣٣.

مترقية من الحيوان تتبع ترتيبا زمنيا هو مجرد نظرية ظنية واهية، وليست يقينية. على أنه على فرض التسليم بمستند النظرية من تقدير أعمار الصخور، فإنه ليس هناك ما يمنع من وجود أنواع من الحيوان وفي أزمات متوالية بعضها أرقى من بعض بفعل الظروف ومدى ما تسمح به من تلاؤم.

ولكن هذا لا يحكم أن يكون بعضها متطوراً من بعض.

وعندئذ تكون نشأة الانسان [مستقلة] في الزمن، وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية من نشأة البشرية، وتفرد الانسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية هذا التفرد الذي اضطر معه [الداروينيون المحدثون] ومنهم الملحدون بالله للاعتراف به - هذا التفرد دليل مرجح على تفرد النشأة الانسانية وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى من تطور عضوي.[1]

● ولقد سقطت نظرية التطور لعجزها عن اثبات (الاتفاق) بين الانسان والحيوان في مجال النفس والعقل.. ولينتبه شباب الاسلام إلى خطورة استغلال المحلدين في أوروبا وروسيا لنظرية التطور وادعائهم بانها تقول بوجود اتفاق بين «النفس» الانسانية «والعقل» الانساني، وبين النفس الحيوانية، والعقل الحيواني.

فقد اعتبروا الانسان حيوانا، وغرائز حيوانية وتفكيره في الأغلب له صلة وثيقة بالحيوان[2].. (وغزوا) بلاد الاسلام بنظريات في «علم النفس» تطالب باشباع غرائز الانسان ورغباته بدون قيود - على غرار الحيوان - وتدعي أن توازن النفس الانسانية لن يحدث إلا عن هذا الطريق الاباحي القذر. وذلك توصلا إلى تقويض الوازع الديني وهدمه في نفوس شباب المسلمين كخطوة حاسمة لهدم الإسلام ثم الاستيلاء على كل شيء في عالم الاسلام..

ليس الخطر الحقيقي في نظرية داروين راجعاً إلى إهانته للعلم والدين معاً فحسب، وانما الخطر في محاولة إذاعتها وفرضها على علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والدين والأدب، ذلك هو ما حاولته القوى التلمودية الصهيونية التي اتخذت من النظرية منطلقاً إلى نشر الدعوى المادية وإلى تدمير المجتمعات..

---

(١) عثمان جمعة ضميرية - التصور الاسلامي للكون والحياة والإنسان - دار الأرقم - الكويت ص٩٧.

(٢) د. عبد العليم عبد الرحمن خضر - المرجع السابق ص٨٩.

ويكفي خطراً على البشرية ما زعمته [الدارينية] عن فكرة التطور المطلق الذي يعارض طبيعة الحياة، ومفهوم الفطرة، ومقررات الدين الحق.

ويكفي خطراً على البشرية أن [الداروينية] قد فتحت باباً خطيراً من الشبهة حمل لواءه رجال الفلسفة من بعده بالدعوة إلى حيوانية الانسان، معارضين لمفهوم الدين الحق الذي أعلن كرامة الانسان واحقيته في الخلافة.

ويكفي خطراً على البشرية جمعاء أن الباحثين كشفوا استغلال [الداروينية] في محيط السياسة، مما أدى إلى ايجاد جو مضطرب من العنصرية والتمييز والقول بوجود أجناس عبقرية وأخرى غبية... ومما زاد الطين بلة، استغلال الاستعمار العالمي كنظرية لتطبيق أفكار [الداروينية] على البلاد المحتلة.

ويكفي خطراً على البشرية أن نظرية [التولد الذاتي] التي قال بها داروين ولامارك وأرنست هيكل، قد اتخذت منطلقا للالحاد، وجعلها البعض سنداً في انكار العقيدة الدينية، واتخذت منها فلسفة لنفي [الخالق]، وإعطاء [المادة] صفة القادر على كل شيء!!!... ويكفي أن [هيكل]، دعا إلى تأليه الطبيعة وانكار وجود الله تعالى...

- ويكفي خطراً على البشرية...

أن نظرية [التطور] الداروينية اتخذت سمومها وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين، وذاتية الأمم باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً تافها يثير السخرية والاحتقار، ثم تطور، فلا قداسة إذن لدين ولا لوطنية، ولا قانون، ولا فن، ولا لقدس من المقدسات، وظهر كأنما أخرجت النظرية لرجال السياسة وعلماء الاجتماع ليقتنعوا بها، أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها:

لقد تلقف مجرموا الحرب من صهاينة أوربا وأمريكا نظرية [داروين]، وأخذوا يضربون بها صرح الأديان والأخلاق والقيم..

أفبعد ذلك كله نجد مسلماً يؤيد نظرية [داروين] الهدامة ؟

مادام جميع علماء التطور مجمعين على أن الانسان منحدر من إنسان مستوى القامة، أو ليس من حقنا أن نظن بأنهم يستندون إلى أدلة قاطعة لا تقبل الرفض؟

فماهي هذه الأدلة ياترى؟ تجيب على هذا السؤال الموسوعة الأمريكية ذاتها وتقول: «ليس هناك أي دليل مباشر عن الانتقال»، فكيف يستطيع الانتقاليون، إذن، ان يتفقوا على أن الانسان مستوى القامة قد تحول إلى الانسان العاقل بينما هم يعترفون بأنهم لا يستندون إلى أي دليل؟ ألا يمكن أن نفسر هذا النوع من الاتفاق بأنه عقيدة وسذاجة في التصديق، لا بل وإيمان أعمى لا ناس يجعلون من رغبتهم أمرا واقعا. ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا التفكير لا يستند إلى واقع علمي.

● ولنذكر أيضا بأن «المجلة العلمية الأمريكية» ذكرت في عددها الصادر في نوفمبر ١٩٦٦ بأن الحفريات التي اكتشفت في المجر قد دلت على أن جماعة راقية تنتسب إلى الانسان الحالى كانت تعاصر جماعة من الانسان مستوى القامة. وبهذه المناسبة كتب الدكتور «وينشستر» أستاذ علم الحياة في كتابه: (علم الحياة وعلاقته بالانسان) المطبوع سنة ١٩٦٤ ـ يقول:

«إن بقايا الإنسان [سوانسكومب] في أوروبا، وبقايا انسان «كانجيرا» في أفريقيا وغيرهما، توحي بأن الانسان الحقيقي وجد منذ نحو ٣٠٠ألف سنة وبهذا يكون قد عاصر الانسان مستوي القامة.

فإذا كان الإنسان مستوي القامة إنسانا فإنه، على الغالب، يحتل فرعا من الإنسان، ولعله انحط ثم انقرض مثل غيره من الأجناس. وهناك حفريات أخرى اعتبرت فيما مضى دون الانسان الحاضر وهي تعتبر اليوم مماثلة للانسان، وقد صنفت في صنف الانسان العاقل». وكتبت [الموسوعة العالمية] تقول بهذا الصدد ما يلي:

«إن لفظ ـ الانسان العاقل ـ هو الاسم الذي يطلق، غالبا، على جميع الأجناس ذات الجسم السوي والدماغ الذي لا يقل حجمه عن ١١٠٠سم مكعب، ويتراوح وسطيا بين ١٣٥٠ وبين ١٥٠٠سم مكعب وهذه الجماعة تضم كل أشكال الانسان الحديث. وإنسان ما قبل نياندرتال هو المثال الأول على الانسان العاقل ويرجع وجود هذا الانسان إلى نحو ٣٠٠ألف سنة ق. م وقد وجد علماء الآثار بقايا جمجمة بالقرب من [سوانسكوب] في إنجلترا و[ستينهيم] في المانيا».

هذا، ولم يمض بعد وقت طويل على علماء التطور يوم كانوا يظنون بأن إنسان نياندرتال هو انسان قرد والحلقة المفقودة للجد المباشر للانسان الحاضر. فجاءت مجلة

[هابر] لتقول في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٦٢ مايلي: «إن إنسان نياندرتال لم يكن دميما ولا محدودبا، ولا كان شكله شكل حيوان كما يظن غالبا، بل كانت جماعة منهم تشتكي من التهاب المفاصل». وكتبت مجلة «نيويورك تايمز ماجازين» في عددها الصادر في ١٩/٥/١٩٦١ تقول إن حجم جمجمة إنسان نياندرتال كانت ١٦٢٥سم٣ أي أنها أكبر من حجم جمجمة الانسان الحاضر.

■ فما معنى ذلك؟

● ذلك معناه أن الانسان لم يتطور.. ومعناه سقوط نظرية داروين من الأساس.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم أنكم بعد ذلك لميتون، ثم أنكم يوم القيامة تبعثون**﴾(المؤمنون ١٢-١٦)

.. فليتذكر الانسان «أنه ميت لا محالة»..

وسيعرض على خالق السموات والأرض.. ويسأل عن نكرانه وجحوده..

.. وليتذكر الإنسان أن (الموت) برزخ مابين الدنيا والآخرة.. وهو إذن (طور) من أطوار النشأة الانسانية وليس نهاية (الأطوار).. ثم هو البعث المؤذن (بالطور) الأخير من (أطوار) تلك النشأة.. وبعده تبدأ الحياة الكاملة، المبرأة من النقائص الأرضية.. حياة الخلود، إما في جهنم، وإما في جنات النعيم.. **وأخيرا فإنه مما لا شك فيه أن فشل نظرية [داروين] وبطلانها وثبوت زيفها خلال صفحات كتابي هذا يؤكد ما يلي:**

● عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بشري قابل للخطأ والصواب، وقابل للتعديل كلما اتسعت معارف الانسان، وكثرت وتحسنت وسائلة للمعرفة كما قال المفكر الاسلامي الشهيد سيد قطب.

● تأكيد عظمة الفكر الاسلامي وسموه على جميع المذاهب الأرضية البشرية، وخلوه من التناقض وأنه يجب أن يبقى القول الفصل دائما للقرآن الكريم في كل الكشوف العلمية التي ورد بشأنها نص في القرآن الكريم.

● إفلاس الفكر الغربي وتفاهته، فإذا كانت نظرية [داروين] التي حاولت أن تتكىء

على العلم، قد فشلت، فإن نظريات أوجست كونت ـ وماركس ـ وفرويد ـ ودور كايم ـ وسارتر في الفلسفة والعلوم الانسانية هي نظريات افتراضية وتفسيرات ذاتية قد أسست على المنهج المادي الغربي، وبنيت على تصور قاصر في فهم الكون والانسان والحياة، لأنها لا تضع في اعتبارها دور الخالق عز وجل في خلق الكون وتاريخ الانسانية.

● أن القرآن الكريم كتاب هداية ونور، لا يستغنى عنه عالم ولا إنسان. وأن العالم إذا واظب عليه تأملاً وتدبراً، فلا ريب يزيده هداية وعلماً ونوراً، حتى في اختصاصه، وأنه كلما تعلم وتعمق، وإختص، زاد إيمانه بالقرآن وفهمه له ولأسراره، ووجوه إعجازه التي تتجدد ولا تتحدد، ولم يجد فيه أدنى تعارض مع العلم الصحيح، وأنه يضع العلم والجهد والسعي في المسار الصحيح الذي يؤمن للناس الهداية لما هو أقوم دائما، ولما فيه خير المعاش والمعاد.

والله تعالى عند حسن ظن عبده به، وهو سبحانه العليم اللطيف الخبير، تقدست أسماؤه، وتباركت صفاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

● أنه لو سار الناس في المسار الصحيح، لما زادهم علمهم إلا تمسكا بدين الله، ولما زادهم دينهم إلا علماً، ومن لم يوصله إلى الدين عقله أوصلته فطرته، لكنها الأغراض الدينوية والشهوات هي التي تحول دونهم والرؤية الصحيحة، وهي التي تمنع الايمان أو تضعفه.

● أنـه ـ يجب التنبيه إلى أن بعض دوائر التنصير والماركسية تحاول إحياء نظرية [داروين] وبعثها من جديد، وإعادة الاعتبار لها، لتستخدمها كسلاح للغزو الفكري والتشكيك في قيم الاسلام وعقيدته النقية.

● سلامة النوع الانساني من أي هزات عضوية[1]، أو فجوات من النشأة، واستمرارية صفاته الهيكلية والعقلية في أحسن صورة كما كان أول مرة منذ النشأة الأولى.

● انعدام الثقة في الادعاء بوجود الحلقة المفقودة بين الانسان وأسلافه المزعومين[2].

---

(1) Biology and its relation to mankind, PP. 18-13.

(2) Ibid., pp. 33-41.

- عقم المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن الكريم بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية.
- عدم احتياج المسلمين إلى مصادر غربية، أو نظريات فكرية معينة تستورد من الخارج، فلديهم القرآن الكريم الذي يشتمل على كل إجابة لأي سؤال في أي مجال من مجالات العلم والمعرفة، إنه تنزيل من رب العالمين.

الفصل الحادي عشر
نظرية داروين والتفرقة العنصرية
بين الأجناس البشرية، وموقف الاسلام منها

- العنصرية والأجناس البشرية.
- العنصرية ومنطق الافتراض.
- العنصرية والأصول الثقافية للأجناس البشرية.
- صور التفرقة العنصرية.
- التفسير الطبقي للعنصرية.
- الخلفية التاريخية للتفرقة العنصرية.
- الاستعمار وسياسة التفرقة العنصرية في العالم.
- الصلة بين العنصرية والداروينية.
- النسيج الطبقي للأجناس البشرية في الدول المُسْتعمرة.
- المستعمرون السادة وسكان المستعمرات العبيد.
- نظرية داروين وحاجز اللون بين البشر.
- نظرة الاسلام إلى الأجناس البشرية.

الفصل الحادي عشر
نظرية داروين والتفرقة العنصرية بين الأجناس البشرية وموقف الاسلام منها

لم يتوقف الأثر التدميري لنظرية [داروين] عند تحطيم المثل العليا والتشكيك في الديانات السماوية فحسب، بل لقد صحبت النظريات الخاصة بالتطور البيولوجي نظريات أخرى خاصة بالتطور الاجتماعي مثل دراسات [لويس مورجان] الذي أهتم فيهـا أهتماما خاصا بنظام القرابة والزواج والملكية فقد قسم التاريخ كله إلى ثلاث مراحل رئيسية متعاقبة هي الوحشية والبربرية والمدنية(١)، وربط كلا من هذه المراحل الثلاث بانجازات فكرية واقتصادية معينة، ولما كانت مرحلة المدنية مرتبطة بتعليم الكتابة كان معنى هذا أن كل الجماعات التي لا تعرف الكتابة بما فيها كل الشعوب الزنجية في أفريقيا اعتبرت في مستوى أدنى وأكثر بدائية من الأوربيين(٢).

وفضلا عن أن الجزء الأخير من القرن التاسع عشر قد اتصف بأنه فترة تقسيم أفريقية السوداء بين القوى الأوربية فانه تميز أيضا بوجود استعداد عقلي لدى الأوربيين لتقبل الاتجاهات الاستعمارية، وانضم البريطانيون إلى هؤلاء الذين يمسكون بالخرافات العنصرية مثل فكرة الآرية والنوردية والتيوتونية التي تؤمن جميعها بتفوق الجنس الأبيض، وتنسب إلى الأجناس الملونة صفات بيولوجية تجعلها في مراتب أدنى(٣).

---

(1) MAC-MILLAN, W.M. Africa emergent. Faber, 1938 P.151.

(2) MAC-WILLIAM, Carey, Brothers under the skin. Little, Brown and Co., 1944. PP. 30-41.

(3) MYRDAL, Gunnar. An American dilemma. Harper, 1944. PP. 113-141.

العنصرية والأجناس البشــرية

لقد قويت عادة النظر باحتقار إلى العناصر الملونة نتيجة للاهتمام المتزايد بنظرية [التطور] والعلاقة بين الانسان وغيره من الكائنات التي تنتمي إلى مملكة الحيوان، فقد قدم للجمعية الفلسفية في [مـا نشستر] عام ١٧٩٦ بحثاً بعنوان «دراسة للترتيب المتدرج في الانسان وفي مختلف الحيوانات والنباتات ومن السابق إلى اللاحق» وكانت النقطة الرئيسية في هذا البحث هي أن الزنوج في شكلهم العام يعدون من المخلوقات الدميمة(١)، وأنهم بذلك بعيدو الشبه عن الأجناس البشرية الأخرى وانتشر بعد ذلك في خلال القرن التاسع عشر تداول نظريات علم الحياة بين العامة بما تضمنه من أمثال تلك الأفكار التي نجمت عن الإيمان بنظرية [داروين]، ويبدو أن تلك الأفكار قد حلت محل الحجج السابقة التي كانت تساعد على تأكيد سيادة الأجناس البيضاء على اعتبـار أنها قد بقيت وكـانت أكثر نجاحا من الأجناس الأخرى فلا بد أن في تنظيماتها وقدراتها ما يرتبط بامتيازها في مختلف الصفات الجسمية المميزة(٢).

ولابد في أية دراسة للجنس والمجتمع من فهم واضح للاصطلاحات المستخدمة، فالتطور التاريخي لا الجنسي هو العامل الرئيسي الذي يسبب اختلاف الثقافات وتباين مستـوياتها بين سكان العالم، والحقيقة أن هذه الاختلافات لا تعد سببا كافيا يبرر الاعتقـاد السـائـد لدى البعض في وجود تفاوت أصيل بين الأجناس في القدرات الفطرية على النمو العقلي والوجداني(٣).

العنصـرية ومنـطق الافتراض

إذا كان الاستعلاء الجنسي مجرد خرافة تفتقر إلى السند الصحيح حسب مزاعم العنصريين فلماذا إذن يقوم الجنس بذلك الدور الهام في شئون الحياة الحديثة حتى لقد

(1) PLERSON, Donald. Negroes in Brazil. Chicago University Press, 1942. PP. 201-203.

(2) REUTER E. B. Race and culture contacts. Mc - Graw - Hill, 1939. pp. 155-170

(٣) كينيث ليتل ـ السلالة والمجتمع ـ ترجمة جلال عباس ـ الألف كتاب ص١٦ .

أصبحت الاختلافات بين الأجناس في جهات كثيرة من العالم أساسا للقوانين التي ينص فيهـا على التمييز، فضـلا عن أنها أصبحت سببا للكثير من تصرفات بعض المجتمعـات نحو الأجناس الملونة، وتدل على الانكار السافر لوجهة النظر العلمية والاسلامية التي تؤكد المساواة بين الأجناس فالبيض في الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة الأمريكية وفي جمهورية جنوب أفريقية مازالوا يجادلون في أن الزنجي ـ من وجهة النظر البيولوجية يعد أقل في الدرجة من الرجل الأبيض، ويصل الأمر بالكثير من البيض الجنوبيين في الولايات المتحدة الأمريكية إلى الادعاء بأنهم مخلوقات تختلف تماما عن الزنوج[1].

ويغلب وجود ظاهرة [التفرقة العنصرية] حيث تتحكم أقلية من الناس في أكثرية أخرى، تختلف عنها في صفاتها الجسمية وخاصة في لون البشرة كما هو الحال في بعض المناطق الأفريقية التي نكبت بالاستعمار والاستيطان الأوربي.

كما تظهر التفرقة العنصرية حيث توجد بعض الأقليات المستضعفة في وسط محيط واسع من البشر، يختلفون عنهم جنسياً، كما هو حال الملونين في الولايات المتحدة ـ والذين ـ بالرغم من تحررهم ومنحهم حديثا حقوقهم المدنية ـ فإنهم لايزالون يعانون الكثير من الاضطهاد والعنت، وخاصة في الولايات الجنوبية، مما جعلهم في وضع أقل شأناً من سائر المواطنين.

وليس هذا فحسب. . بل إن الأفكار والمذاهب العنصرية وصلت في التفرقة بين الأجناس البشرية إلى حد رهيب. . . فقد نادت بحاجز الرائحة الذي يقال أنه يجعل الرجل الأبيض يحس بنفور طبيعي من جسم غير الأبيض ورائحته[2].

وبطبيعة الحال هذه إدعاءات خاطئة. . .

لا تستند إلى أسس علمية مثلها مثل الآراء التي تنادي بأنه يمكن تمييز الأجناس البشرية من الناحية العقلية، رغم أنه من الحقائق المسلم بها علميا أن الفروق العقلية والنفسية، ما هي إلا نتيجـة لظروف بيئية، فقـد تأتي نتيجـة لأن أفراد جماعة من

---

(١) المرجع نفسه ـ ص١٨.

(٢) ر. د. ج. سيمونز ـ لون البشرة وأثره في العلاقات الانسانية ـ ترجمة على عزت الأنصاري ـ مجموعة الألف كتاب ـ سنة١٩٦٤. ص٢٠.

الجماعات قد سنحت لهم فرصة التعليم عن طريق الاحتكاك الحضاري، أو لأن بيئتهم سمحت لهم باستغلال مواردها الطبيعية استغلالا حسناً الأمر الذي أعطى لحضارتهم المادية وقوتهم الاقتصادية والسياسية نوعاً من التميز عن الحضارات الأخرى.

وليس أدل على ذلك من التجارب التي أجريت على طلبة المدارس بأمريكا حيث وجدوا أن المستوى العقلي لتلاميذ [الزنوج] في الولايات الشمالية، يفوق مستوى أشقائهم من الولايات الجنوبية.(١).

وهذا يدل على أن المسألة ليست مسألة جنس . . بل هي مسألة بيئة، وفرص متاحة. . . ومستوى حضاري مهيأ.

● وتعبد مسألة الجنس والمجتمع مشكلة معقدة من الناحية السيكلوجية فإن اختلاف المشاعر ووجهات النظر الخاصة بالأجناس لا يمكن أن تعيش في فراغ، ولما كان الأساس البيولوجي ليس هو السبب في وجهات النظر الخاصة بالأجناس لا يمكن أن تعيش في فراغ، ولما كان الأساس البيولوجي ليس هو السبب في وجهات النظر العنصرية فلا بد لها من أساس اجتماعي ومعنى ذلك أن وجهات النظر العنصرية جاءت نتيجة لنوع الاتصال الذي مارسته الجماعات فيما بينها في الماضي، ولهذه النقطة أهميتها لما هنالك من اختلاف في المدى الذي تصل إليه المشاعر العنصرية بين مجتمع وآخر ففي بعض المجتمعات لا يلفت اختلاف الصفات بين الأجناس أنظار الناس بينما تصبح هذه الاختلافات في مجتمعات أخرى مسألة تثير الكثير من الاهتمام. بل وتؤدي في بعض الحالات إلى سن قوانين خاصة لتنظيم الاختلاط بالتزاوج، وفي بعض الحالات الأخرى قد لا يترتب عليها تنظيم الاختلاط بالتزاوج. وفي بعض الحالات الأخرى قد لا تترتب عليها أية نتائج اجتماعية.

وبينما قامت هذه النظريات العامة لتفسير أي مجتمع على الإطلاق كانت نظرية مجتمع الأغلبية قد برزت بنوع خاص بتفسيرها للمجتمع الاستعماري وقد وضع [ح. س. فيرنفال]، هذه النظرية لتفسير التباين بين المعالم الانسانية لبناء المجتمعات الاستعمارية الاستوائية كأندونسيا والمجتمعات الرأسمالية في أوروبا. أما «م. ح

(١) د. عبد العزيز كامل ـ الاسلام والتفرقة العنصرية ـ اليونسكو ـ ص٦٥.

سمت» فقد رؤى أنه يقوم أطارا مناسبا لدراسة مجتمعات الكاريبي ، أكثر مما تسلم به النظرية التقليدية لعلم الاجتماع .

وقد تسلم «فيرنفال» بما يمكن أن ندعوه ببيت القصيد في دراسة «دوركيم» لمجتمعات السوق الحديثة ، أعنى بالرغم من أن علاقات السوق الفردية هي أس العلاقات ذاتها قد قامت في إطار الارادة العامة ، وأن الإرغام والتدليس المشترك يعدان دائما جريمة حتمية على الاقل .ومهما يكن ما رآه في وضع اندونسيا ، فإن السوق قد نشأت بعيدا عن هذه الارادة العامة وانطوى الناس في جماعات متحدة في بنائها وثقافتها بعيدا عن السوق ، فمن ناحية كان هناك عالم ، كانت الحياة فيه ـ كما يقول [هربز] ـ في غاية الفقر والتعاسة والوحشية والاملاق ومن ناحية أخرى كان هناك عالم آخر لجماعة عنصرية عاشت متوافقة متماسكة بعيدا عن أي حياة اقتصادية في حياتهم الخاصة ، وكانت العقبة التي واجهت «فيرنفال» أن يرى كيف يتسنى للارادة العامة أن تفرض وجودها على السوق متجاوزة الارادات العامة المنفصلة في قوتها المتأصلة في الحياة القبلية والعائلية .

العنصرية والأصول الثقافية للأجناس البشرية

يرى الكثيرون أن العامل الرئيسي للمشكلة هو الثقافة وأن الاحتكاكات والنزاع سوف يبقى مادام هناك اختلاف في اللغة والعادات وبين أفراد ينتمون إلى مجتمع واحد. غير أن هناك ظاهرة أخرى هامة ، فبينما توجد جماعات ذات ثقافات مختلفة تعيش في مجتمع واحد حياة وئام يوجد في نفس الوقت عداء بين الأجناس التي تعيش في مجتمعات ذات ثقافات متجانسة ، وبالعكس تسود المودة والوئام في مجتمعات أخرى بين أجناسها المختلفة في ظل الثقافة المتجانسة ، وفي الأمثلة التالية سوف نتبين هذه الحقيقة بوضوح :

● ففي جامايكا بجزر الهند الغربية البريطانية شعب يتكون من خليط من عناصر بيضاء وعناصر ملونة ذات دماء مختلطة وعناصر أخرى سوداء ولكنهم جميعا يشتركون في دين واحد ويتكلمون لغة واحدة ويخضعون لسلطة قانون موحد ، ولكن البيض

يتمتعون هناك بمميزات خاصة.

وكان الفكر [الماركسي] يقوم أصلا، وحتى في الغرب، على أن التركيز على الأقليات والجماعات العنصرية ما هو إلا لتحويل الأنظار عن الواقع الأصيل للاستغلال الطبقي، وسط اهتمام متزايد خلال الستينات بالأوضاع المختلفة للعلاقات الطبقية، ولربما بأساليب الانتاج أيضا سواء في المركز أم في الهامش في نظام الاقتصاد العالمي. بينما نزع الماركسيون أنفسهم في الوقت نفسه منزع الديمقراطيات في الحوار، فقدموا تفسيرا للوضع في تلك البلاد على أساس من الدراسة المقارنة لنظام العبودية في المزارع الاستغلالية.

● ويقول «فان دربيرج» ان اهتمامه كان بالعناصر كجماعة إنسانية ترى نفسها أوتراها الجماعات الأخرى مختلفة عن غيرها من الجماعات في سماتها الطبيعية الفطرية الثانية. وهذه السمات الطبيعية [معنوية وعقلية] في جوهرها، وفي كل مالها من سجايا أو قدرات أخرى، غير طبيعية ويتركز الاهتمام في هذا على الوصف الاجتماعي (وإن لم يكن صحيحا من الناحية العلمية) بما يستشهد به من السمات الطبيعية، كما يستبعد أن يقوم الاختلاف والتمايز بين الجماعات على سمات غير طبيعية (ثقافية أو تاريخية مثلا) وإن كان هناك في الواقع اختلاف حاد وتمايز بين الجماعات[1].

● وعلى أية حال فإن «فان دربيج» يعترف بأن الاختلافات ـ الطبيعية [يمكن أن توجد] وإن لم تكن قوية حادة، وفي هذا اعلان صارخ باعتناقه لمذهب داروين التطوري.

ولننظر قوله: «فإلى جانب اختلافها الطبيعي . . . فإنها تختلف ثقافيا أيضا (على الأقل عندما تلتقي لأول مرة) وتغدو خاضعة لتمايز مقنن حيث تتأصل فكرة التباين الفطري في العنصر.

● ويبدو التباين الثقافي والتميز في النظام قائما في حالات الغزو العسكري وغلبة جماعة على أخرى، والامتداد الاقليمي، والهجرة الدائمة للعمال (كتجارة الرقيق مثلا)، أو عندما ينزح الناس كلاجئين[2].

---

(١) جون ركس ـ العلاقات العنصرية والأقليات ـ ترجمة د. حسين النجار ـ ص ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه ـ ص١٥٣.

وإذا كان «فـان دربـيرج» لم يلجـأ إلى تقديراته للمواقف التي يبدو فيها التباين العنصري قويا حادا ويكون قاعدة لتصنيف العلاقات العنصرية فأنه قد وضع صيغة تجريبية للتمييز بين المواقف التي يصفها بأنها [أبوية] وتلك التي يصفها بأنها [تنافسية] بينما هو في الوقت نفسه، قد دخل في حوار حول الأغلبية والأقلية فالتفرقة بين المواقف الأبوية والتنافسية ميدان فسيح، ويبدو كما لو كان مطابقا لما بين المجتمعات الرأسمالية وما قبل الرأسمالية، وأن اساء التفرقة بين المجتمعات الزراعية التي تعد الزراعة فيها مشروعات رأسمالية للتسويق، وتلك التي تتسم بطابع إقطاعي بوصفهما معا على أنهما متلازمين.

كما أنه في حديثه عن الأغلبية والأقلية يقرر أن العلاقات العنصرية ليست غير [صورة] خاصة منها تبدو في وضعها الاجتماعي الناجم عن ثنائية التشريع قائمة تماما على التفرقة الاجتماعية الناجمة عن التمييز العنصري مما يؤدي إلى بقاء تميز الأغلبية واستمراره أكثر منه في أية حالة أخرى.

● وعلينا أن نقرر أن البداية التي انتهجها «فان در بيرج» تستند تماما إلى حكم الأغلبية وأنها مليئة برؤى بديعة لم تكتمل، أكثرها اثارة أنها لا تجد لها مكانا في الاقتصاد ولا في الأسلوب ولا في العلاقات الاجتماعية لعلاقات الانتاج العنصري، وهو ما يندرج إلى حد ما على البحث الذي قام به «ريتشارد شيرمير هورن» وإن كان بحثه أكثر تنظيماً[1].

صـور التفرقـة العنصـرية

وتختلف الصورة التي تتخذها [التفرقة العنصرية] من مكان لآخر حسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كل منطقة. وقد تكون التفرقة العنصرية نوعا من التحيز العنصري [Racial Prejudice]، ومؤداه أن يعتقد عنصر من العناصر أنه أرفع شأنا من غيره من العناصر.

فبعض الأوربـين مثـلاً يعتقـدون بأنهم أرقى عنصراً من غيرهم، وأن صفاتهم

(١) المرجع نفسه - ص١٥٤.

العنصرية الممتازة من شأنها أن تعطيهم نوعاً من المميزات العقلية والحضارية لايمكن لغيرهم من الأجناس البشرية أن تصل إليها، ويطلق علماء النفس على هذه الظاهرة اسم توكيد العنصر [Ethno - Centrism] .

وقد سبب هذا التحيز العنصري الكثير من المشاكل العنصرية التي تتمثل في النازية والفاشية، وكراهية الأجانب وغيرها من المظاهر . . . وفي جميع الحالات يحابي الأفراد من نفس العنصر، ولا تعطي نفس الحقوق لأفراد من العناصر الأخرى.[١]

وقد يكون التحيز العنصري ضد مجموعة جنسية واحدة، كما هو الحال في تحيز الأوربيين ضد الزنوج، أو قد يكون ضد الأجناس غير البيضاء، كما هو الحال في استراليا، أو ضد العناصر غير النوردية كما كان في ألمانيا النازية، أو ضد البشر جميعاً كما هو الحال عند اليهود.

والحقيقة أن فكرة العنصرية ـ في العصر الحديث ـ لم تقتصر على الصراع بين الألمان واليهود، أو سيادة الجنس الآرى على غيره من الأجناس، إنما يبدو بوضوح فيما يسميه بالحاجز اللوني . . .[٢]

التفسير الطبقي للعنصرية

أما نظرية[سميث] عن الأغلبية السوداء فكانت تقوم على تشجيع إخضاعها في ظل الأوضاع التي نما فيها الاقتصاد الرأسمالي بصورة بارزة، للأقلية البيضاء، على زعم أنها هي القادرة على استغلال الموارد الطبيعية بالصورة الأمثل، وعلى زعم أنها تملك التكنولوجيا واللوائح التنظيمية لحياة عصرية، وأنها تفتح أبواب العمل لآلاف العمال من السود الذين لايجدون مورداً للرزق سوى مؤسسات البيض في جنوب إفريقية» وهو ما رفضته بشدة، مدللا على أن العمال الأفريقيين في جنوبي أفريقية هم جماعة مطحونة انتظمت في طبقة من العمال النازحين من الأدغال وأن مافي جنوبي

(١) د. فؤاد محمد الصقار ـ المرجع السابق ـ ص٩٢.

(٢) د. يسري الجوهري ـ الانسان وسلالاته ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ـ ص٤٨٢ .

أفريقية يفوق مايسمى بالصراع الطبقي ويتعداه إلى استعباد الانسان الأبيض لجموع الوطنين السود. وفي ذلك يقول الدكتور [فان هورست]:ـ

«عند شرح موقف شعب البانتو في جنوبي أفريقية في صورة طبقية وجدت نفسي في مواجهة حادة ـ حينذاك ـ مع الماركسيين في أفريقيا الجنوبية، بسبب تفسيري لدور طبقة العمال البيض الأفريقيين في علاقتهم بعمال البانتو، حيث قلت أن هؤلاء العمال النازحين الذين يعملون تسعة أشهر متصلة في السنة بعيدا عن أسرهم، ويعيشون في معازل لا يجدون رعاية من النقابات، تختلف علاقاتهم بوسائل الانتاج عما عليه العمال البيض[(١)]».

ومن المظاهر الواضحة للطبقية الصارخة في ميدان العلاقات الاقتصادية تلك الصلة الوثيقة بين نوع العمل والطائفة الاجتماعية، فالوضع في جنوب أفريقية ـ كما يصوره الدكتور [فان هورست] ـ يشكل صورة من الفوارق العميقة بين الأوربيين والأفريقيين في ميدان العمل، فالملونون والآسيويون يحتلون مراكز متوسطة في المناطق التي يسكنون فيها أو الجهات التي يعملون بها. أما الوظائف الرئيسية والأعمال الفنية العليا فلا يشغلها إلا البيض الأوربيون وفي قليل من الأحيان يشغلها بعض الآسيويين أو الملونين، بينما هي محرمة تماما على الأفريقيين، وينطبق هذا على كل نواحي النشاط الاقتصادي مثل الزراعة والصناعة والنقل وإدارة الأعمال فضلا عن الوظائف الرسمية. ولا يستثنى من هذه القاعدة سوى وظائف التدريس والتمريض والوظائف الدينية حيث نجد أن الأفريقيين يشغلونها ولكن في مجالات خدمة مواطنيهم فحسب[(٢)].

وتبدو مظاهر التفرقة الصارخة بصورة واضحة بين الأوروبيين وغير الأوربيين في مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة، وصدر تشريع جديد بني على سياسة الحكومة القائمة وهي سياسة الأبارتهيد (Abartheid) أو الفصل بين عناصر السكان، وينص هذا التشريع على الفصل بين الأوربيين وغير الأوربيين في محال إقامتهم فتعين

(1) LITTEL, K.L. Negroes in Britain. Routledge and Kegan Paul, 1948. pp. 75-81.

(2) LOCKE, A. and STERN, B. J. When peoples meet.
Ninds, Hayden and Eldredge, 1964. pp. 104-114

لغير الأوربيين معازل خاصة لكل طائفة منهم، ومعنى ذلك أنه لا يمكن لشخص ما أن يسكن في منطقة من المناطق إلا إذا كان من نفس الطائفة المخصص لها هذا المعزل، ويستثنى من ذلك العمال الذين ترتبط أعمالهم ارتباطا مباشرا بطائفة غير التي ينتمون إليها، ومعنى ذلك أن الأفريقيين الذين يشتغلون في خدمة المنازل أو في المزارع التي يملكها الأوربيون يمكنهم أن يعيشوا في مناطق خاصة بجوار الأحياء الأوربية أو مساكن بجوار قرى البيض الزراعية(١).

فإذا نظرنا إلى الوضع في جنوبي إفريقية، وإلى الوضع في الولايات المتحدة وأوربا. فإن الانسانية تحتم إثارة موضوع العلاقات المتبادلة بين العنصر والطبقة وبتعبير أدق بين العنصر والصراع الطبقي الذي ولدته التفرقة الاجتماعية التي اتبعها البيض إزاء السود في جميع نواحي الحياة. والانسانية تحتم التدخل لتطبيق مبادىء حقوق الانسان الذي نادت به الأمم المتحدة باسم الإعلان العالمي لحقوق الانسان ولم تطبقه حتى الآن وإذا تركنا جنوب إفريقيا وغيرها من البلدان الرأسمالية التي تطبق فيها التفرقة العنصرية، وتوجهنا إلى الدول الاشتراكية فلن نجد غير القليل من المفكرين في البلدان الاشتراكية الذين يساعدونا على توضيح الدراسة المقارنة لعلاقات العنصر والسلالة، لا لقلة ما كتبه علماء الاجتماع الاشتراكيون، ولكن لأن النظرية مثلها في ذلك مثل غيرها من الدراسات العملية [طبقية]. ومادامت الطبقية قد زالت شعاراً وإسماً، فإن استمرار السلالة يحتاج إلى تفسير أخر. وقد عمل علماء السوفييت بالذات على متابعة هذا الموضوع في صورة بدت لأقرانهم في الغرب، وحتى لأولئك الماركسيين منهم وكأنها من المخلفات الأثرية، ومن الطبيعي أن يتصدى نقاد العالم الاشتراكي من الغربيين لمناقشة ما يقال من أن الخلافات السلالية باقية لأن الخلافات الطبقية باقية، وإن لم يكن ثمة دليل لدينا حتى الآن على اختفاء الخلافات السلالية في العالم الاشتراكي وإن كان هناك دليل من كوبا يبدو على درجة من الأهمية مادام يزودنا ببينة عن تأثير الاشتراكية على مجتمع كان من قبل طبقيا وخاضعا للاستعمار ولكنه لم يتحرر من الاستعمار إلا ليقع في [أتون] ـ الصراع الدموي بين الطبقات الذي يقوم عليه الفكر الماركسي.

---

(1) MAC-CRONE, I.D. Race attitudes in South Africa. Oxford University Press, 1937. pp. 63-69.

ومازال بعض الماركسيين الغربيين إلى عهد قريب يحاولون في الحاح وإثارة موضوع العلاقات العنصرية والصراع العنصري بصورة عامة. ومن بين هؤلاء «أوليفر كرمويل كوكس» الزنجي الأمريكي الماركسي، ولكن الموضوع لديه لم يتعد التدليل على أن استغلال السود وقهرهم هو ظاهرة للقهر الرأسمالي للطبقة العاملة، وأن بدا عاجزا عن تفسير طبيعة الطبقة المميزة من البيض، لاختلاف نظم العمل في العالم الرأسمالي الذي يستخدم السود في هذا الميدان النسبى للرق.

الخلفية التاريخية للتفرقة العنصرية

كانت الفضيحة الكبرى التي تردّت فيها الامبريالية في الغرب عن سلوك العمال البيض في جنوب أفريقية، فقد كانت الأسطورة التي تدعي أن العمال البيض قد نشروا أعلامهم عام ١٩٢٢ منادين «ياعمال العالم اتحدوا من أجل البيض في جنوبي أفريقية «قد انكشفت ونجدها قد غدت قاعدة للادعاء بألا دخل للعنصرية في الرأسمالية وأن الديموقراطية ليست غير وباء في صفوف الطبقة العمالية في مؤسسات البيض.

ويعتبر وضع العلاقات بين الأجناس في جنوب أفريقية نتيجة من نتائج الاستعمار الأوروبي الذي بدأ سنة ١٦٥٢ بإقامة أول مركز استيطان هولندي قرب مدينة [الكاب]، وحينما استولى البريطانيون على هذه المستعمرة سنة ١٨٠٦ كان عدد السكان بها نحو ٧٦ألف نسمة من بينهم ٣٠ألفا من الرقيق الذين ترجع أصولهم إلى [مدغشقر] «والهند الشرقية»، ونحو ٢٠ الفا من الوطنيين الذين ينتمون إلى جماعات [الهوتنتوت] والباقي من البيض الذين بلغ عددهم ٢٦ ألفا تقريبا، ولم يكن للجنس أو اللون في ذلك الوقت مكان للاعتبارات الدينية من أهمية، ولذا تزوج الكثير من الاماء المعتقات اللائي عمدن من رجال بيض وكان المجتمع في ذلك الوقت يعترف بتلك الزيجات ويعتبر نتاجها من الأبناء جزءا من مجتمع البيض، غير أن زواج البيض من نساء [الهوتنتوت] كان نادرا جداً، واقتصرت الصلة بين البيض «والهو تنتوت» على

حالات الاتصال غير الشرعي .

ولقد وجد هذا الاحساس بالفوارق بين الجماعات انعكاسا له في مشاعر الاستعلاء العنصري والاجتماعي الذي يتفق مع فكرة التمييز بين الناس على أساس من العقيدة واللون. ومن هنا أصبح اللون علامة تميز بين السلالات، وبدأت التفرقة على أساس اللون تظهر لأول مرة في تاريخ جنوب إفريقيا، وتقبل كظاهرة اجتماعية معترف بها .

وصدر أول القوانين من اتحاد جنوب إفريقيا سنة ١٩١١، وبمقتضاه منع الأفريقيون من الحصول على التصاريح التي تمكنهم من شغل أنواع معينة من الأعمال الفنية، كما حدد هذا القانون أنواعا من الأعمال خصصت للبيض وحدهم ثم وضع قانون آخر تضمن كل التشريعات والتنظيمات الخاصة بالعمل في مناجم الذهب والماس، ونص القانون على أن الأفريقي الذي يفسخ عقد عمله أو يضرب عن العمل يعتبر مذنبا ويقدم للمحاكمة[١] .

وفي العمارات الجديدة هناك مصاعد خاصة تستخدمها العناصر غير الأوربية وتحدث التفرقة حتى في غرف الاستراحة والأمانات في جميع محطات السكة الحديد، بل وفي المظلات التي توجد على طول امتداد الخطوط الفرعية في المحطات الصغيرة، وفي النقل البري أيضا يوجد الفصل الواضح، فهناك سيارات مخصصة للأفريقيين وحدهم، وأخرى مخصصة للملونين، وللأوروبيين سياراتهم التي لا يسمح لغيرهم بركوبها، وتستمد هذه المقاييس وتلك النظم التي تحدد العلاقات بين الأجناس قوتها من السيطرة السياسية للعناصر الأوربية، فلا يرشح للانتخابات البرلمانية إلا من يرجع إلى أصول أوروبية، ولقد ألغيت بالتدريج معظم الحقوق السياسية التي منحت لغير الأوربيين[٢] .

(1) Cf. Sheia T.van der Horst in Handbook of Race (1) Relations in Soth Africa, ed. Ell en Hellman, O.N.P., 1949. p. 134

(2) Ibid., pp. 137.

الاستعمار وسياسة التفرقة العنصرية في العالم

● ظهر في الآونة الأخيرة الكثير من السياسيين المتحمسين لمبدأ الفصل العنصري يرون أن بلادهم سوف تحقق كسبا اقتصاديا وصناعيا أكبر إذا ما استخدمت القوى العاملة المدخرة من غير الأوربيين استخداما كاملا، غير أن الكثير من البيض، وبخاصة العناصر الأفريكانية، لديهم فكرة لا تتفق مع هذه المبادىء، إذ أن اتجاهاتهم مليئة بمعارضة الاجتماع بالملونين والاختلاط بهم، وتتعارض تلك الاتجاهات كلية مع فكرة المساواة بين الأجناس[1]، وهذه الاتجاهات في أصلها موروثة عن المزارعين البوير الذين يعتبرون الطلائع الأولى التي كونت جنوب أفريقية الحديثة، وبمعنى آخر يقوم عدم قبول فكرة المساواة بين الأجناس على أساس من المعتقدات والتعاليم التي سادت في عهود الجهالة، ومازالت تمثل محور المعارضة القوي ـ ذلك المحور الذي يقف في وجه أي حل للمشكلة لا يقوم على أساس مبدأ الفصل بين الأجناس.

● ولقد تميزت في مجتمع البرازيل، منذ السنين الأولى لتكوين المستعمرة، ثلاث طبقات في كل من المدن والريف هي: الطبقة العليا التي تتكون من البيض أو ملاك الرقيق، والطبقة المتوسطة التي تتكون من العناصر المختلطة، والطبقة الدنيا من السود، وبانتهاء نظام المزارع الكبيرة ارتقى ذوو الدماء المختلطة بحيث ارتفعت منزلتهم في المجموع وقد ساعد على ذلك التحول الفكرة التي أخذت تتبلور في أذهان المثقفين البرازيليين منذ أواخر القرن الثامن عشر من أن الزنوج هم بناة اقتصاديات البرازيل بما تميزوا به من قوة بدنية في أذرعتهم المفتولة وصدورهم العريضة وأن من بين ذوي الدماء المختلطة من ساهم في بناء التاريخ الثقافي للبرازيل مؤلفين ورسامين ونحاتين وموسيقيين وعلماء[2] . . ممن لا يمكن حصرهم إلا في ثبت طويل، وعلى الرغم من نجاح هؤلاء المولدين أو [المولانو] [الأفتح لونا] ـ في صراعهم من أجل اثبات وجودهم بأن أصبح معظم العناصر الناهضة من بينهم. إلا أنهم لم يحتكروا ميادين الثقافة والفنون والعلوم، بل أن بعض العناصر التي هي أكثر سمرة قد لحقت

---

(1) Ibid., pp. 141-145.

(2) Donald Pierson. Negroes in Brasil, Cloe of a Unit. Press 1947.

بهم بل وتفوقت عليهم أحيانا . ومع ذلك فإنه من المتوقع في بلاد مثل اتساع [البرازيل] أن نجد اختلافات محلية كثيرة في السلوك العنصري، فمثلا تتكون نسبة كبيرة من سكان [ساوباولو] من حديثي الهجرة من أوروبا، بينما تتركز معظم العناصر السمراء في أماكن أخرى وبخاصة الولايات الشمالية مثل [باهيا]، ولكن التوزيع المتناسب للعناصر هو الظاهرة الأكثر شيوعا ويقل الاهتمام بلون البشرة والأصل الجنسي بالنسبة للشخص الذي يتمتع بميزات شخصية أو يظهر قدرات خاصة، ويمكن لأي شخص مهما كان لونه سواء أكان من السود أو [المولانو] أن يكتسب شهرة خاصة أو تقديرا بين مواطنيه أو أن يكون له اعتباره في الأقليم الذي يعيش فيه لما اختص به من مزايا شخصية، وبصفة عامة ربما يبدو التمييز على أساس اللون في بعض الأوساط الاجتماعية في البرازيل غير أنه لايمارس بصورة علنية لأن الرأي العام هناك يعارض أي نوع من أنواع التمييز العنصري المبني على أساس الجنس(١).

الصلة بين العنصرية والداروينية

● في انجلترا بصفة خاصة يبدو تأثر الانجليز واضحا بأثار [نظرية داروين] والتطور البيولوجي على الأفكار العنصرية لديهم نحو كل من هو أسمر.

بسبب لون بشرتهم وغيرها من صفاتهم الجسدية، وتضاف إلى ذلك أيضا الآثار الثقافية المترتبة على ربط اللون بشعور النفور والخوف والاشمئزاز وينعكس ذلك في فكر البعض بأن سواد الزنوج سوف يمتد أثره إلى الأفراد المحيطين بالزنجي بل وبالأشياء الأخرى حتى أن البعض يعتقدون أن الاقتراب الجسدى قد يدنسهم !!!، وتتحدث النساء على وجه الخصوص بكثير من الاشمئزاز من مجرد تصور مس الزنجي بشرتهن البيضاء(٢).

● ويستنتج من هذا أن لون البشرة له اعتباره الهام عند الكثير من الانجليز، فالبشرة القاتمة تقلل من قبول صاحبها في المجتمع، وعلى ذلك فإن هناك نزعة عامة لتجنب

(1) Emilis Willeniss, Race Attitudes in Brazil Journal of sociology. Vol 54, 1948-pp. 462-8.

(2) BENEDICT, Ruth. Race, science and politics. Viking Press, 1945. pp. 111-113.

الأفريقيين وأبناء جزائر الهند الغربية الملونين، لا لأنهم يختلفون من ناحية جنسهم عن الانجليز والانجليزيات الذين يخالطونهم ولكن بسبب الارتباط الذهني بين وصمة اللون وتلك المعاني السائدة المرتبطة به[1]. وبتعبير آخر يرتبط التمييز اللوني إلى حد ما بالتمييز الطبقي، وعلى ذلك فإن هناك تفرقة واضحة تمتد حتى إلى البريطانيين الذين يتميزون بشيء من تلون البشرة وينتمون إلى الطبقة المتوسطة مهما كان قدر التعليم الذي بلغوه[2].

- وعلى أي الأحوال سواء كانت الاتجاهات تتضمن التمييز اللوني أولا تتضمنه فإن الحقيقة التي لا سبيل إلى انكارها هي أن الكثير من الملونين يعيشون وهم يتوقعون مقابلتهم بالتمييز على الدوام، ولذلك فإن الرجل الملون العادي يكون شديد الحرص في علاقاته مع البريطانيين وفي بعض الأحيان يصبح شديد التخوف من الاهانة لدرجة تجعله يعتزل طريق الرجل الأبيض ولا يخاطر بالسير فيه[3].
- وتكشف لنا دراسة السياسة الغربية خلال القرن التاسع عشر الستار عن وجود صلة وثيقة بين الخرافات التي انتشرت عن الجنس وبين الأطماع القومية والاستعمارية[4]. وعلى ذلك يمكن وصف وجهات النظر والخصومات العنصرية بأنها من آثار التنظيمات الكبرى للمجتمع الغربي، ونتيجة من نتائج الحركات الاجتماعية التي شكلت تطوره في أثناء القرون الستة الماضية[5] والبعض يفترض أن كل المجتمعات التي احتلها الاستعمار الأوربي، كانت لعبة هشة في يديه. وإن كانت المؤسسات الاجتماعية في بعض الحالات قد دمرت تماما في موجة النهب الاستعماري وغدا الأفراد أداة للاستغلال الفردي، كما تعرضوا للخطف في حالات أخرى، واقتلعوا من جذورهم الثقافية والاجتماعية، ليتم تصديرهم عبيدا إلى مجتمعات جديدة في طور الانشاء، وأن بقيت فيهم فضلة من ثقافتهم الأولى وحياتهم الاجتماعية

---

(1) BROOMFIELD, A.W. Colour conflict, Edinburgh Hous, 1943. pp.201-203.

(2) BROWN, Ina C. Race relations in a democracy. Harper, 1949., pp. 60-63.

(3) COX, Oliver C. Caste, class and rac. Doubleday, 1948., pp 28-31.

(4)DINGWALL, E.J. Racial pride and prejudice. Watts 1946., pp. 88-93.

(5) DOLLARD, J. Caste and class in a southern town. Yale University Press, 1937, pp.105-108.

القديمة قبل أن يغتالهم الاستعمار امتزجت في أعماقهم بثقافة التحدي والمقاومة، هذا إلى حالات أخرى بداية من تلك العصابات القبلية التي تصدت لشركة خليج [الهدسن] في كندا إلى امبراطورية المغول القوية حين جاءت إليها شركة الهند الشرقية أول مرة، ولم تكن الثقافات والأبنية الاجتماعية التي تلاقت وواجهت بعضها البعض قابلة للاستواء إلى حد كبير أو أن تدقها المرامي الرأسمالية والاستعمارية.

ولا شك أن الفكر الاستعماري العنصري يلتقي بفلسفة التاريخ، مستعينا بعلم مقارنة اللغات، على الدعوة لنزعة عنصرية تعصبية تولى المناداة بها والالحاح عليها لفيف من المفكرين والفلاسفة الأوربية الذين اتخذوا من [نظرية داروين] منطلقا لأفكارهم.

ومن الحق أن توصف هذه القاعدة الفكرية التي تقوم عليها النزعة العنصرية بأشكالها المختلفة، وصورها المتعددة، بأنها استخدام للفكر في نزعة شريرة، وتسخير لفروض العلم ونظرياته في تبرير الظلم وترسيخ الفساد وكان من العنصريين الأوائل الارستقراطي الفرنسي الكونت جوزيف آثروه جوبيو (ت ١٨٨٢م)... فقد تحدث في رسالته: [عدم المساواة بين الأجناس] عن تفوق الأجناس الآرية في شمال أوروبا في صنع الحضارة للجنس البشري.[1].

كما زعم اليهود أنهم شعب الله المختار وأن لهم مميزات خاصة عن سائر الجنس البشري... بل يقولون أنهم أبناء الله أحباؤه!!!!

ولقد جاءت الحركة الصهيونية التي قامت على مزيج من النزعة العنصرية المتطرفة، وتعاليم الأسفار الدينية اليهودية ـ وبخاصة التلمود ـ لتؤكد نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم نظرة ازدراء وكراهية ومقت.

ولقد نشأت النزعة العنصرية الحديثة في مناخ الشعور المفرط عن المستعمرين الأوربيين بالاستعلاء والتفوق في الجنس والحضارة والنظام الاجتماعي.

وكانت المجتمعات التي شهدت تدخل الاستعمار في إعادة صياغة نسيجها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تتمثل في الآتي:

ـ إمبراطورية المغول في الهند.

---

(١) عمر عودة الخطيب ـ نظرات اسلامية في مشكلة التمييز العنصري ـ مؤسسة الرسالة ـ ص١٦١: ص١٨٠.

- إمبراطورية العنصر البرونزي في أمريكا الوسطى.
- إمبراطوريات افريقية الغربية التي استغلت انظمتها قاعدة لتجارة العبيد.
- مجتمعات العبيد والعمال المنقولين إلى مجتمعات استعمارية حديثة البناء.
- المجتمعات الرعوية الصغرى المغلقة داخل محابسها.

وقد ظلت تلك المجتمعات حقلاً خصباً للدراسات الاثنوغرافية والبشرية والاقتصادية لثلاث أسباب:

أولها: أن بناء المجتمع الاستعماري الناشىء يختلف فيما كان عليه نمطه الاجتماعي قبل الاستعمار عما أصبح عليه أن يتعامل معه.

ثانيا: تتوقف على الأصول الاجتماعية والثقافية للشعوب المستعمرة إمكانية ذوبان الانتماء الوطني أو صموده.

ثالثا: بدأ خلال الفترة التي تلت الاستعمار أن الوضع الاجتماعي لفترة ما قبل الاستعمار يمكن أن يكون عونا لمجتمع ما بعد الاستعمار على التقدم المستقل.

وعلينا أن نشير بنوع خاص إلى أن البحوث الأوربية حول المجتمع الاستعماري قد اتخذت مساراً خاصا ملخصه أن هذا النمط من العنصرية الفكرية قد أدى إلى توكيد التباين بين المجتمعات الوثنية وسادتهم من المستعمرين المسيحيين. وأن هذه السمة كانت محلا للنقد من جانب الأحرار الذين يقفون ضد العنصرية وينادون بأن جميع الناس سواء ولا فرق بينهم. وكان من الأرجح أن ينمو هذا النوع من المعرفة العلمية للعنصرية التي تقوم على الحط من الثقافات جميعا ماعدا الثقافة الغربية التي يعدونها ثقافة عالمية. وهو مايراه كل من «فيبر» و«ماركس» وإن كان «فيبر» يرى أن الرأسمالية الغربية المعقولة يمكن أن تؤدي إلى التقدم الاقتصادي، بينما يرى [ماركس] أن الاحتلال البريطاني للهند كان هو الثورة الوحيدة التي شهدتها آسيا.

وقد ظهر نوع من المتغيرات السلبية في حياةالشعوب المغلوبة على أمرها، فقد ظهر في مجال المشروعات الاستعمارية المتنوعة، وهي المشروعات التي قامت عليها اقتصاديات المستعمرة، وهو ما يقوم أساسا على الحرف البسيطة، تلك الحرف التي تقوم على التدليس والأرغام، كما تقوم على ابتياع محاصيل الفلاحين وتسويقها وزراعة الأراضي المؤجرة من الملكيات الواسعة والمزارع والمناجم التي تستغل العبيد وعمال

السخرة وأراضي الجباية، مما ساد خلال القرنين السادس عشر وخواتيم القرن التاسع عشر، لا عن طريق المغامرين الاستعماريين من الأفراد، ولكن على الأخص، عن طريق الشركات - الاستعمارية الرسمية بطابعها الامبريالي الاجتماعي المميز الذي عرفه العالم القديم والتي أصبحت مركزا للتوسع الأوربي عبر البحار.

ومن المعترف به أن استغلال المزارعين حقيقة استعمارية عالمية فالمزارع هو من يقوم بزارعة الأرض، وليس حرا تماما، ولكنه يخضع لنظام متين من أنظمة الخضوع، أما الفلاح المستقل فهو الذي يقوم بزراعة يملكها ويقوم عليها معاشه، ولا يدخل في دائرة النظام الاستعماري.

ومن المعترف به في هذا الصدد أيضا، أن هذه المشروعات وان عدت من قبيل المشروعات الرأسمالية، إلا أنها قد تنتكس لتصبح نوعا من الجباية عندما تفتقد السوق لتصريف منتجاتها، فضلا عن ذلك فإن القوى الاستعمارية قد تحتوي البعض ممن تقل لديهم النزعة الرأسمالية من بعضهم الآخر، وفي هذا تتباين المشروعات الاستعمارية بين من ينشدون الاستغلال الرأسمالي ومن يكتفون بالبحث عن مأوى أوملك ثابت.

إلا أن المجتمع الاستعماري لا يفسر بالرجوع إلى مشروعاته الاقتصادية الأولية، فالتسليم بتلك الفروض، يعني قيام جماعات أخرى يمكن أن تنجز أعمالها الأساسية التي اكتسبتها في ظل الاستعمار بينما ينبذ النظام القائم جماعات جديدة لها من ظروفها المحدودة ما يوجب اندماجها بصورة ما في المجتمع الاستعماري الجديد مقابل تنازلات خاصة للمستعمر حتى يرضى بظهور تلك الجماعات الوطنية الجديدة على مسرح الحياة في البلد المُسْتَعْمر.

النسيج الطبقي للأجناس البشرية في الدول المُستَعْمرة

في معظم الدول التي غلبت على أمرها ووقعت فريسة للاستعمار كان النسيج الطبقي للأجناس البشرية هناك يتكون من:

- أولئك الحواشي من الأفراد الذين شردوا من أماكنهم المريحة كالعبيد المحررين

والملونين وفقراء البيض في المجتمعات الزراعية.

- أصحاب الحرف الثانوية من الأجناس غير السلالة الاستعمارية أو من غير القوة الأساسية من العمال الذين شغلوا حرفا غير مجزية أو تلك التي يعزف عنها المستعمرون الأوائل لأنها لا تليق بهم.

المستوطنون البيض، وهم أصلا من المستعمرين النازحين من العاصمة وليس لهم مكان في المؤسسات الاستثمارية، ولكنهم يبحثون وغالبا ما يجدون الفرص السانحة ليكونوا رأسماليين أحراراً عمالا أو فلاحين ومع ما يناوشهم من صراعات داخلية حول مصالحهم فانهم يبتغون أن يكونوا طبقة مميزة لها مصالحها المشتركة التي تجتمع على الدفاع عنها.

الكادر الاداري للدولة الاستعمارية وتبدو علاقة أصحابه بالمستعمرين الأوائل غامضة من حيث أنها على الأقل شبيهة بعلاقة الدولة برأسمالية العاصمة.

كادر الاكليروس الذين يتساوى لديهم الواجب الأخلاقي مع الواجب السياسي للاداريين ولهم، كما لاصحاب الادارة دورهم المستقل فيما يقومون به.

وفي الآونة الأخيرة وبعد مناشدة الأمم المتحدة لشعوب العالم (المتقدم) بتطبيق مبدأ حقوق الانسان في المستعمرات وفي كل بقاع الدنيا، تم الاصلاح الزراعي. وصار العبيد أحراراً.

● ولكن الفلاحين ظلوا أسرى للرأسمالية لا يفيدون من المنافسة الحرة، وضرب عليهم الكفاف في صورة جديدة، وبينما رأى العبيد المحررون الذين نزحوا إلى المدن، أنفسهم مقيدين فيما يشبه الجيتو، محرومين من الأعمال الصناعية الجديدة التي يظفر بها المهاجرون الجدد من المستوطين الأوربيين وما من مكان تبرز فيه ظاهرة هذا التحول كما تبرز في الولايات المتحدة فالمهاجرون السود وهم ينشدون التحرر من وصمة الزنجية في الجنوب، قد لا يعانون هذه الوصمة في شيكاغو ولكنهم يجدون أنفسهم في مواجهة الحقيقة القاسية في التنافس على طلب العمل والمأوى.

● ومن الواضح أيضا، أن إجراءات التحرر أبعد من أن تكون عامة تأو متكاملة، فالعبيد في جنوبي أفريقية لم يصبحوا عمالا أحرارا ولكنهم أجبروا على الانتقال للعمل بعقود وغالبا تحت وطأة نظام جائر بعقود قصيرة الأجل وكانت تلك هي القاعدة

وبقيت قاعدة الوضع الاجتماعي في التعدين وفي المشروعات الصناعية، فالتحرر وحرية العمل، كما يجب أن نعلم مازالا ناقصين وفي صورة قبيحة تقترن بالاستعمار.

وفي أمريكا الشمالية كان للتحالف بين الأوتوقراطية الزراعية والمستوطنين الرأسماليين دوره في حرب الاستقلال كما اعترك أطراف هذا التحالف عندما حان الوقت للسيطرة على النظام في الحرب الأهلية.

المستعمرون السادة وسكان المستعمرات العبيد

ويمكن القول أن أهم ما تمخضت عنه النهضة في أوربا هو الاقبال على الكشوف الجغرافية واستغلال البلاد المكتشفة ابشع استغلال... وكان الأوربي يشعر بتفوقه الثقافي والاجتماعي تجاه أي واحد من الهنود الحمر في أمريكا، والزنوج في أفريقية. ولا شك أن الثورة الصناعية في أوروبا كانت وراء استعباد الأوربيين لكثير من سكان المستعمرات الذين استخدموا كوقود للتقدم الصناعي في أوروبا وزيادة الانتاج بأي ثمن.

ولقد واكب تهجير السود إلى العالم الجديد عملية هجرة معاكسة من الأوربين البيض إلى إفريقية... ورغم قلة عددهم بالنسبة للسكان الأصليين فقد فرضوا سيطرتهم على المناطق التي استعمروها وليت الأمر توقف عند مجرد استغلال موارد البلاد التي استعمرها الأوربيون وانما تعدى ذلك إلى الاستهانة بسكانها والتشكك في آدميتهم، ومن ذلك قول [المستر لونج] في كتابه «تاريخ الخامايك».

«لا يمكننا التأكيد أنهم غير خليقين بالحضارة جذريا، طالما نستطيع تعليم القرود أن تأكل، وتشرب وتستريح وتكتسي مثل البشر. ولكن بالنظر إلى سفالة عقولهم الطبيعية فيبدو أنهم أقل جميع الأجناس البشرية المكتشفة حتى يومنا هذا قدرة على التفكير والتصرف كبشر... ولا أعتقد بأن من المشين لامرأة زنجية أن يكون زوجها قرداً»..

وهكذا آتت نظرية داروين الخبيثة أكلها... وبهذا المنطق الساقط صارت الاختلافات بين البشر سبيلاً إلى البرهنة على تفوق البيض السادة الأوربين.. وانحطاط السود العبيد في أفريقيا.

وفي أمريكا اللاتينية حملت الحركات التي قادها «بوليفار» المولدين والمستوطنين من البـورجـوازيين فورا إلى السلطة في معـظم أرجـاء أمـريكـا الأسبانية، وفي بلدان [الكومنولث] البريطاني القديم ظل البيض في جنوبي أفريقية يمارسون سياسة العسف الرأسمالي الأولى[1].

● وتـطبيقـا لهذا الأسلوب في الـدراسـة نجد أن نظام الرق الذي ساد في مزارع الولايات المتحدة هو الذي ساعد على نمو فكرة انحطاط الزنوج في أذهان البيض هناك[2]

نظـرية داروين وحـاجز اللون بين البشـر

ماكـاد داروين يخرج على النـاس بكتـابـه المفسد [أصل الانسان] حتى تهافت المفسدون من أنصاره على بناء نظريات التفرقة العنصرية بين الأجناس البشرية على أساس الأصل والجنس واللون. . . وظهر من يقول منهم أن الملونين في أفريقيا من حيث كثرة عددهم بالنسبـة للبيض ـ إذا ما سوى بينهم وبـين البيض في الحقوق العـامـة، وإذا ما منحوا حق الانتخاب، وكان لهم صوت مسموع في أداة الحكم والادارة ـ فسوف يكتسح طوفان السود والملونين جماعات البيض في إفريقيا!!!. .

ومن هنا نادي البيض ـ لصد التيار الملون ـ بفكرة ما يسمى (حاجز اللون ـ Co-lour bar). . وهو تيار عنصري يقوم على اتخاذ أي وسيلة تجعل الأسود في منزلة أدنى من الأبيض من حيث المستوى الثقافي والمكانة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. . . بحيث تظل في إفريقيا للبيض الغلبة والسيادة على السود.

وممن عبَّروا عن هذا المبـدأ الـرخيص الجنـرال [سمـطس] في جنـوب إفريقيا سنـة ١٩١٧ قائـلاً: «إننا بدلاً من الخلط بين البيض والسـود جزافاً على الطريقة القديمة فقد أخذنا نعمل على وضع سياسة ترمي إلى المباعدة بينهما بقدر الامكان في نظمنا، فمن ناحية تملك الأراضي، والاستقرار بها. وفي أوضاع الحكومة. يجتهد في

---

(1) FRAZIER, E.F. The negro in America. Macmillan, 1950. PP 17-22.

(2) FREYRE, G. The masters and the slaves. Knopf, 1947. pp. 35-38.

أن يباعد بينهما، وبهذه الطريقة نضع ملخصاً للسياسة العامة التي قد يستغرق تنفيذها مئة سنة، ولكنها في النهاية سوف تؤدي إلى حل هذه المشكلة الوطنية». .

بل إن البيض في أفريقيا الجنوبية وروديسيا يرون أن اختلاطهم بالسود سوف يؤدي إلى ضياع الحضارة البيضاء. . ويرى السود في ذلك الادعاء كذب وافتراء ويرون أن البيض المستعمرين يخفون وراء دعواهم الخوف من ضياع السيادة على السود تلك السيادة التي ترتكز على التعصب والكراهية والظلم والاضطهاد. ومن حق السود أن يقاوموا تلك التفرقة الرخيصة بتحطيم حاجز اللون Colour- bar ، الذي لا يقوم على أي أساس.

هل من المعقول أن يقيم البيض في جنوب إفريقيا حواجز بين الأبيض والأسود في مكاتب البريد بتخصيص نوافذ خاصة لكل منهما؟ . . هل من المعقول أن توجد في محطات السكك الحديدية قاعات للانتظار ومرافق خاصة بالبيض يحظر على السود الاقتراب منها؟

لقد تناولت سياسة الميز العنصري في إفريقيا التفرقة الاجتماعية التي اتبعها البيض نحو السود والملونين في جميع نواحي الحياة تقريبا، بل لقد شملت التفرقة كل شيء في المسكن ومحال الاقامة، ونوع العمل، والانتخابات والادارات. .

ولقد تم تطبيق كل ذلك بقوة القانون !!!

وفي جنوب أفريقيا. . . كانت الحواجز الاجتماعية والمدنية التي أقامها البوير هي السبب الرئيسي الذي أدى إلى تلك النظرة التي ينظر بها البيض إلى الوطنيين الأفريقيين والملونين غير الأوربيين على أنهم عناصر منبوذة ومعاملتهم على أساس هذه النظرية.[1] ولم يكن التطور التاريخي العامل القطعي الوحيد، ففي [جاميكا] كان الرقيق يعملون في المزارع في ظروف مشابهة لتلك التي كانت في جنوب الولايات المتحدة وكذلك الحال في [البرازيل]، غير أن العلاقات التي قامت بين الأجناس في كل من جاميكا والبرازيل قد اتخذت شكلا مغايرا لما قام في [الولايات المتحدة] فقد ساد في البرازيل وجاميكا نوع من التسامح في العلاقات بين الأجناس[2].

---

(1) HANKINS, F.H. The racial basis of civilization. Knopf, 1927., pp., 55-66.

(2) HELLMAN, Ellen (ed.) Handbook on racial relations. Oxford University Press, 1949., pp. 121-133.

● كانت ظاهـرة امتهـان العنـاصر السوداء والملونة عقب الحرب بين المستعمرين البيض والوطنيين في جنوب أفريقيا، لها ما يقابلها في [نيوزلندا] حيث قامت حروب بين البيض والوطنيين واستمرت نحو مائة عام(١).

نـظرة الاسـلام إلى الأجنـاس البشـرية

في الاسلام جميع الأجناس البشرية متساوية تماما، فكلها خلق الله.

وفي هذا يقـول الله تعالى : **﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا﴾** «النساء: ١».

ومن هنا جاء منهج الاسلام عاماً للناس جميعاً، يخاطبهم بالتكليف والأمر والنهي. بوصفهم الانساني الواحد الذي لايميز فيه لجنس على جنس، أو شعب على شعب، أو لون على لون، فهم جميعـاً عبـاد الله مكلفون بعبادته سبحانه وتعالى، وحده لا شريك له، مدعوون إلى الاستمتاع بما في الحياة من طيبات ويشهد التاريخ للاسلام بسبقه الزمني الهائل في تقرير الوحدة الانسانية من حيث الأصل، والتكوين والنشأة البشرية، ومـا تقتضي هذه الحقيقـة من كرامـة الانسـان وحريته، وحقه في العدل والمساواة والتكافؤ أمام فرص الحياة، دون تمييز أو تفريق(٢).

الانسان إذن ـ في التصور الاسلامي ـ مخلوق مكلف، مهمته الخلافة في الأرض، وهو عامل رئيسي مهم في نظام الكون. . . قال تعالى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ «البقرة/ ٣٠» وفي هذا ما يدل على تكريم الانسان .. كل انسان. . دون تفريق أو تمييز على الأطلاق. . وفي هذا أيضا ما يدل على أن الانسان. . . كل انسان. . . هو سيد هذه الأرض. . ومن أجله خلق كل شيء فيها، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض. . فلا يجوز ـ في الاسلام أن يستعبد الانسان أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي، ولايجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقومات

---

(1) JOHNSON, C.S. Patterns of negro segregation. Harper, 1943 . 135-141.

(٢) عمر عودة الخطيب ـ المرجع السابق ص١٣٢.

انسانيته الكريمة، ولا تهدر أي قيمة من آدميته لقاء تحقيق أي مكسب مادي.[1]

والاسلام لا يُقِرُّ أي نوع من أنواع التميز والاستعلاء والكراهية والبغضاء ويرفض تحيز البشر ـ بباعث عنصري أو طبقي ـ إلى فئات متناحرة أو أجناس متنافرة، أو ألوان يستبد بعضها ببعض. قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات/١٣].

والاسلام ـ كما قرر وحدة الجنس البشري في النشأة والمصير ـ حث البشر جميعاً على التعارف والتعاون، والعمل الانساني المشترك، دون أن يكون لاختلافهم في الجنس واللغة واللون أي أثر في تشويه هذا المبدأ السليم ولقد قرر الاسلام المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، ورفض كل أسباب التفاوت والتفاضل، لأن أصل الانسانية المشترك واحد من حيث خلق كل إنسان من تراب...[2].

قال تعالى: ﴿**والله خلقكم من تراب ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً**﴾ «فاطر ١١».

والاسلام قد اهتم بالعمل على إزالة الرق بوسائل كثيرة ترجع جميعها إلى حقيقة أن عتق الرقيق، وفكه من قيود التبعية والملكية لانسان آخر، عمل عظيم يتقرب به الانسان إلى الله تعالى، كما قرر الاسلام إعطاء جزء من الزكاة لتحرير الأرقاء. كما أوصى بحسن معاملة الرقيق.

والاسلام قبل كل شيء أقر أن الناس جميعاً تضمهم وحدة إنسانية أنعم الله بها عليهم من حيث: الخصائص والاستعدادات والميول.. فقد غرس سبحانه في كل إنسان فطرة نقية سليمة، وركز في الطباع البشرية ألوانا من الميول والرغبات... وبهذا تتجلى الوحدة الانسانية في نشأة الانسان وتكوينه، وطبيعته، ومواهبه واستعداداته... وأصله المشترك.

● ويؤكد ربنا ذلك بقوله: ﴿**وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا**﴾ «الفرقان: ٥٤» أما اختلاف اللون واللغة فمن مظاهر آيات الله وقدرته

---

(١) المرجع نفسه ـ ص١٥٢.

(٢) د. محمد البهي ـ الاسلام في حياة المسلم ـ ص٤٦٣.

﴿ومن آيته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم : **٢٢**) وجاءت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مؤكدة هذا الاساس العريض الذي تقوم عليه الحياة الانسانية «أيها الناس أن ربكم واحد، وان أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى» هذه وصيته في حجة الوداع[1]..

(١) د. عبد العزيز كامل ـ المرجع السابق ـ ص١٧.

أهم المراجع العربية

- القرآن الكريم.
- الأحاديث النبوية الشريفة.
- أحمد خيري سعيد أفندي - اتجاه العلم الحديث نحو روحانية الشرق - جريدة السياسة - ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٢م.
- أحمد أبو زيد - الأصول البشرية - عالم الفكر - المجلد الثالث - العدد الرابع.
- إسماعيل مظهر - ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء - المطبعة العصرية - الفجالة سنة ١٩٢٤م.
- إسحق أزيموف - السؤال الذي أجاب عنه داروين - ترجمة: اليونسكو / العدد ٢٥٢ سنة ١٩٨٢م.
- ألفرد شيروود رومر - أصل وتطور الحياة في البحر - الترجمة العربية - القاهرة.
- إرنست هيجل - فضل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء - ترجمة حسن حسين ط٢ مطبعة الشباب سنة ١٩٢٤م.
- أنور عبد العليم - قصة الانسان القديم وحضاراته - الدار المصرية للتأليف والترجمة - سنة ١٩٦٥م.
- أنور الجندي - سقوط نظرية داروين - دار الاعتصام - القاهرة.
- بشير التركي - لله العلم - تونس.
- الأب بيير ليروي - اقتفاء آثار «السينانتروبيس» - فيارد - باريس - ١٩٧١م.
- الأب بيير ليروي لغز الانسان البكيني - اليونسكو - العدد ١٣٦.
- ابن خلدون - مقدمة ابن خلدون - المطبعة الأزهرية - القاهرة - سنة ١٩٣٠م.
- باسمة كيال - أصل الانسان وسر الوجود - دار ومكتبة الهلال - بيروت.
- جون نابيير - الرحلة الطويلة للحيوانات العليا - اليونسكو - العدد/ ١٣٦.

- جون ركس ـ العلاقات العنصرية والأقليات ـ ترجمة د. حسين النجار.
- خلق لا تطور ـ تعريب : د. إحسان حقي ـ دار النفاس ـ بيروت.
- روبرت ل. ليرمان ـ الطريق الطويل إلى الانسان ـ ترجمة د. ثابت جرجس قصبجي ـ بيروت.
- سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ دار الشرق.
- شارليس داروين ـ أصل الأنواع ـ ترجمة ترجمة اسماعيل مظهر ـ جزء ١ ـ دار العصور للطباعة ـ سنة١٩٢٨م.
- عباس محمود العقاد ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين ـ مكتبة غريب. القاهرة.
- د. عبد العزيز كامل ـ الاسلام والتفرقة العنصرية ـ اليونسكو ـ القاهرة.
- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ الانسان في الكون بين القرآن والعلم ـ عالم المعرفة ـ جدة.
- عبد الكريم الخطيب ـ التفسير القرآني للقرآن ـ جزء ١٨/١ ـ دار الفكر العربي.
- د. عبد الفتاح محمد وهيبة ـ الجغرافية التاريخية ـ دار النهضة العربية.
- د. عماد الدين خليل ـ التفسير الاسلامي للتاريخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت.
- عمر عودة الخطيب ـ نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
- على أحمد الشحات ـ نظرية التطور ـ القاهرة.
- علم الدين كمال ـ تطور الكائنات الحية ـ عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد الرابع.
- د. فيليب رفلة ـ الجغرافية البشرية ـ الانجلو ـ القاهرة.
د. فؤاد محمد الصقار ـ التفرقة العنصرية في إفريقية ـ القاهرة سنة١٩٦٢م.
فرانسوا بوردي ـ حياة إنسان العصر الحجري ـ اليونسكو ـ ١٣٦.
فسيغولوب. ياكيموف ـ الانسان الأول ونشأة الأجناس ـ اليونسكو.
- فيكتور بوناك ـ الإنسان أول من مشى وتكلم ـ اليونسكو ـ العدد ١٣٦.
- كينيث ليتل ـ السلالة والمجتمع ـ ترجمة جلال عباس ـ الألف كتاب ـ القاهرة.

- لويس س. ب ليكن أجدادنا الأفريقيون اليونسكو ـ العدد ١٣٦.
- لويس بخنر ـ شرح بخنر على مذهب داروين ـ ترجمة شبل شميل ـ ط٢ مجموعة ـ جزء١ ـ مطبعة المقتطف.
- د. محمد البهي ـ الاسلام في حياة المسلم ـ القاهرة.
- د. محمد فتحى عوض الله ـ الماء ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة.
- د. محمد فتحى عثمان ـ الأرض في القرآن الكريم ـ بحث للمؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول ـ الرياض ـ ١٣٩٩هـ.
- د. محمد محمود حجازي ـ التفسير الواضح ـ مطبعة الاستقلال الكبرى ـ القاهرة.
- د. محمد السيد غلاب ـ تطور الجنس البشرى ـ الاسكندرية ـ ١٩٥٥م.
- د. محمود عثمان ـ الفكر المادي الحديث وموقف الاسلام منه ـ الانجلو ـ القاهرة.
- د. محمد عوض محمد ـ سكان هذا الكوكب ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
- د. محمد على البار ـ خلق الانسان بين الطب والقرآن ـ الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة.
- موريس بوكاي ـ القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ـ دار المعارف ـ القاهرة.
- هانز ريشينباخ ـ نشأة الفلسفة ـ ترجمة د. فؤاد زكريا ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر سنة١٩٦٨م.
- يوسف قوني ـ الجغرافيا الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي ـ محاضرات الموسم الثقافي للجمعية الجغرافية المصرية لسنة ١٩٦٥م. القاهرة سنة ١٩٦٢.
- يوسف عز الدين عيسى ـ التطور العضوي للكائنات الحية ـ عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد الرابع.
- د. يسري الجوهري ـ الإنسان وسلالاته ـ منشأة المعارف بالأسكندرية.
- يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ـ دار المعارف بمصر ـ سنة ١٩٦٢م.

أهم المراجع الأجنبية

- A.k. Weller, 1938: Outlines of Geological history, London.
- A.R. Hall; 1954: The scientific Revolution, "The formation of the modern scientific attitude, Beacon Press.
- Barnes, H.E., 1948: (Horbert spencer and the evolutionary Defence of Individualism), in Barnes (ed.): An introduction to the History of Sociology. Chicago University Press.
- C.E.M. Joad. Guide to modern thougth, 1972, N.Y.
- D. Darwin, The origin of species, published by the new American Library, A Menetor Book, N.Y.
- Comte A. : Polit Positive, 1.
- C.A. Cotton, 1947, Geomorphology, New York.
- C.A. Cotton, 1918: Landscape, Willington.
- Carrol L. Fenton John, 1943: Along nature's Highway, johnday Co.,.
- C.A.M. King, 1963 : An introduction to oceanography, N.Y.
- Clarke, A.C., 1951 : The Exploration of space, New York.
- Cllman, Modern theories of the Universe. Signet Science library.
- D.R. Belbeem, 1968 : Human Origins, Advancement of Sciene-ence.
- E.A. Fath, 1955 : Astronomy, London.
- Edward. P. Men, Mirrors and stars. Harper.
- F. L. Whipple, 1968: Earth, Moon, and planets, Harvard, u.p.
- G. Shubert, c.o. Dumbar, 1914: Historical Geolgy, New York.
- Green, J.C. 1963: Darwin and the midern world view, Mentor, N.Y.
- Gray, L.H. 1954: "Cosmogony and cosmology". Encyclopedia
- Gressy, G.B. 1954: Asia, s lands and peoples, N.Y.
- G.L. Pickard, 1963: Discriptive physical Geography of the ocean, oxford.
- Hofstadter, R., 1966, social Darwinism in American though, Boston. Beacon press.

- Herrison S., 1951: Everyday Weather and how it works, Me Grow - hill.
- Harrison B., 1954 : The challenge of Man, S future N.Y.
- Holton, Gerald, 1968 : Mach, Einstein, and the search for reality, Daedalus.
- Imanuel Kant, 1955 : A General theory of the heavens - or Eassay on the mechanical structure of the universe.
- John R. platt, 1966, the stop to man, wiley.
- John J.O. Neil, Almighty atom, New York.
- Jerome S, Meyer. Loherop lee and shepard : Picture Book of astronomy.
- Kardiner A. and preple, E, 1963: The studied man, mentor Book, N.Y.
- Lynn White, J.r., 1967 : The Historical Roots of our Ecologic Crisis, science, 1155.
- Lewontin : Evolution, International Encyclopedia of social S.
- Lyttleton, Raymond, 1957 : The modern universe, London.
- Lovell, A.C.B. 1959: The individual and the universe London.
- Laland : Vocabulaire technique et critique de la philosophie.
- Ley W, 1962 : Sattelites, Rockets and outer space; Signet sciences, L.
- Lewis, R.S. 1962 : Appointment on the moon, N.Y.
- L.C. King, 1963 : Morphology of the Earth, Edinburg.
- Mirican P. waugh., 1941 : What, s in the sky, Oxford university press.
- M.G. Gross, 1969 : Oceanography, Ohio.
- National Geographic society,vol 160, No 1 July 1981 : Saturn Riddles of the Rings.
- O.D. ven Engeln, 1955 :Geamorphology, New York.
- Oberth, Herman, 1969 : Man into space, New York.
- Pffeiffer, J.E. 1910 : The Emergence of man, Thomas Nlson.
- Philip pollock, 1945 : Careors in science, Dutton.
- R.B. Bunnet, 1971 : Physical geography in Diasram. London.
- Realm of flight, 1947, Superintendent of Decoments Catalog No c 31.
- Sir James : The mysterious universe, N.Y.
- Sir James. J., 1960 : The universe around us, C.U.

- Sparks., B.W, 1961 : Geomorphology, London.
- Smart, W.M., 1950 : The Origin of the Earth, Pelican Book.
- Safe Handling of Radioactive Isotopes. Superin ten dent, catalog c 13. 11.
- Tax sol. (ed(, 1960 : Evolution after Darwin, vol. 2. Chicago.
- Thornley, G.C., 1965 : Changing Horizon, London.
- The international control of Atomic Energy, Supern tendent, C.S. 1.49.
- The Geiger - Mueller Counter. Superintendent of Documents, C. 13.4 : 490.
- Wheeler, J.H., and others, 1961 : Regional geography of the world, New York.
- Walderman K. 1945 : Science today and tomorrow, viking.
- Webster, S Biographical dictionary, 1951, G & Merriam co.
- W.D. Thornbury, 1962 : Principles of Geomorphology, N.Y.
- Zeuner, F.E. 1960 : Dating the past, London.

الفهرســـت

الموضـوع | الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: **الكتاب العربي السعودي**

صَدرمنها:

• الجبل الذي صار سهلا (نقد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (الطبعة الرابعة)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نقد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
• نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر

• السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك (الطبعة الثالثة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خواطر جريئة	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• السنيورة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• جسور إلى القمة (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• الحمى (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• الشوق إليك (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد	الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم	الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي (الطبعة الثانية)	الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف	الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولاّدة (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• سير وتراجم (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون	الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• حوار.. في الحزن الدافيء	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة	الدكتور زهير أحمد السباعي
• سباعيات (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• البترول والمستقبل العربي (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• إليها.. (ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي

- أيامي — الأستاذ أحمد السباعي
- التعليم في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- أحاديث وقضايا إنسانية — الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
- البعث (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي مغربي
- شمعة ظمأى (ديوان شعر) — الدكتور أسامة عبدالرحمن
- الإسلام في نظر أعلام الغرب (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- حتى لا نفقد الذاكرة — الأستاذ سعد البواردي
- مدارسنا والتربية (الطبعة الثالثة) — الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
- وحي الصحراء (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالله بلخير، الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
- طيور الأبابيل (ديوان شعر) (الطبعة الثانية) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- قصص من تاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية) — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- زوجتي وأنا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- لن تلحد — الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- عمر بن أبي ربيعة (الطبعة الثانية) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- رجالات الحجاز (تراجم) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- حكاية جيلين — الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- من أوراقي — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- الإسلام في معترك الفكر — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- إليكم شباب الأمة — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- هكذا علمني وردزورث — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- في رأيي المتواضع (الطبعة الثانية) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- العالم إلى أين والعرب إلى أين؟ — الدكتور بهاء بن حسين عزّي
- البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف — الأستاذ عبدالرحمن المعمر
- محمد سعيد عبدالمقصود خوجة (حياته وآثاره) — الدكتور محمد بن سعد بن حسين
- جزء من حلم — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- إنتاجية مجتمع — الدكتور محمود محمد سفر
- خواطر مجنّحة — الأستاذ محمد حسين زيدان
- العقاد (الجزء الأول) — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- مغازلات ومعاكسات — الأستاذ حمد الزيد
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- سفينة الصحراء — الأستاذ عبدالعزيز المسند
- مقالات في التنمية — الأستاذ أحمد صالح التويجري
- الاعلام والصراع العالمي — الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- من ذكريات مسافر (الجزء الثاني) — الأستاذ محمد عمر توفيق

سلسلة: **الكتاب الجامعي**

صدر منها:

العنوان		المؤلف
• الإدارة: دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	(الطبعة الثانية)	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	(الطبعة الثالثة)	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا		الدكتور عبدالمنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره		الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج		الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• مبادئ القانون لرجال الأعمال	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية		الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)		الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية		الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب		الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	(الطبعة الثانية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• الوحدات النقدية المملوكية		الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)		الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	(الطبعة الثانية)	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
• التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن		الدكتور خضير سعود الخضير
• مبادىء الطرق الإحصائية		الدكتور جلال الصياد الدكتور عبدالحميد محمد ربيع
• مبادىء الإحصاء		الدكتور جلال الصياد الأستاذ عادل سمرة
• المنظمات الدولية والتطورات الاقتصادية الحديثة		الدكتور حسين عمر
• التعلّم الصفي		الدكتور محمد زياد حمدان
• أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية		الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• دراسات في الإعراب		الدكتور عبدالهادي الفضلي

- الاقتصاد الصناعي — الدكتور سليم كامل درويش
- أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- الجيولوجيا المعملية (المستوى الأول والثاني) — الدكتور عبدالعزيز عبدالملك رادين، الدكتور عبدالعزيز عبدالقادر
- الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي — الدكتور عمر الطيب الساسي
- أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم — **الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر**

سلسلة:

رسائل جامعية

صدر منها:

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية) — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة أثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تقويم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

الكتاب	المؤلف
• الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار (باللغة الانجليزية)	الدكتور فاروق صالح الخطيب
• تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن السابع الهجري	الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
• أثر الاستماع في تعلم اللغة الانجليزية	الأستاذ مأمون يوسف بنجر

تحت الطبع :

الكتاب	المؤلف
• حقوق المرأة وواجباتها في الاسلام	الدكتورة فاطمة نصيف

مطبوعات تهامة
TIHAMA PUBLICATIONS

صدر منها :

الكتاب	المؤلف
• حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي	الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	إعداد إدارة النشر بتهامة
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية)	إعداد إدارة النشر بتهامة
• تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
• كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني	الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم	الأستاذ إبراهيم سرسيق
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية)	الدكتور عبدالله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام	الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك	الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي	الدكتور عاطف فخري
• رعب على ضفاف بحيرة جنيف	الأستاذ شكيب الأموي
• العقل لا يكفي (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة (مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟	الدكتور اسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية	الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
• القرآن وبناء الإنسان	الأستاذ صلاح البكري
• اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية	الأستاذ علي عبده بركات

• **الطب النفسي معناه وأبعاده**	الدكتور محمد محمد خليل
• **الزمن الذي مضى** (مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
• **مجموعة الخضراء** (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• **خطوط وكلمات** (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخرجي
• **ديوان السلطانين**	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• **الامكانات النووية للعرب وإسرائيل**	الدكتور صدقة يحيى مستعجل
• **رحلة الربيع**	الأستاذ فؤاد شاكر
• **وللخوف عيون** (مجموعة قصصية)	أحمد شريف الرفاعي
• **البحث عن بداية** (مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
• **الوحدة الموضوعية في سورة يوسف**	الدكتور حسن محمد باجودة
• **المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس** (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذة منى غزال
• **من فكرة لفكرة** (الجزء الأول)	الأستاذ مصطفى أمين
• **رحلات وذكريات**	الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
• **ذكريات لا تنسى**	الأستاذ محمد المجذوب
• **تاريخ طب الأطفال عند العرب**	الدكتور محمود الحاج قاسم
• **مشكلات بنات**	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• **دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية**	الأستاذ يوسف ابراهيم سلوم
• **نفحات من طيبة** (ديوان شعر)	الأستاذ علي حافظ
• **الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية**	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
• **الماء ومسيرة التنمية** (في المملكة العربية السعودية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
• **الدليل لكتابة البحوث الجامعية** (الطبعة الثالثة)	الدكتور عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان
• **القطار والجبل** (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
• **المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية**	الدكتور علي علي مصطفى صبح
• **مسائل شخصية**	الأستاذ مصطفى أمين
• **مجموعة النيل** (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• **عام ١٩٨٤ لجورج أورويل** (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• **الزكاة في الميزان** (الطبعة الثانية)	الدكتور محمد السعيد وهبة الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد جمجوم
• **من فكرة لفكرة** (الجزء الثاني)	الأستاذ مصطفى أمين
• **البسمات**	الدكتور حسن نصيف
• **مشكلات لغوية**	الدكتور شوقي النجار
• **مجموعة فاروق جويدة** (دواوين شعر)	الأستاذ فاروق جويدة
• **صور وأفكار**	الأستاذ عثمان حافظ
• **ديوان حمام** (ديوان شعر)	الأستاذ محمد مصطفى حمام
• **اتجاهات نفسية وتربوية**	الأستاذ فخري حسين عزي الدكتور لطفي بركات أحمد
• **التليفزيون التجاري في الولايات المتحدة**	الأستاذ غازي زين عوض الله
• **العلاقات الدولية** (الطبعة الثانية) (ترجمة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

• الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث		الأستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتي
• في بيتك طبيب		الدكتور محمد عبدالله القصيمي
• السبئيون وسد مأرب		الأستاذ محمود جلال العلامات
• مرشد الأسماء العربية	(الطبعة الثانية)	إعداد وزارة الصحة
• سعودية الغد الممكن		الأستاذ شاكر النابلسي
• سرايا رسول الله		الشيخ أبوتراب الظاهري
• الطريق إلى القمر		المهندس سعد أحمد شعبان
• الماركسية والإسلام	(باللغة الانجليزية)	الدكتور مصطفى محمود
• الإدارة والعلاقات الإنسانية		الأستاذ سليمان عبدالرحمن الجبهان
• صورة العربي في الصحف الأمريكية		الأستاذ غازي زين عوض الله
• ايدز (مرض نقص المناعة المكتسبة)		الدكتور أحمد عطا الهرفي
• في ظلال الخيام السوداء (باللغة الانجليزية)		تيري ودانييل موجيه
في ظلال الخيام السوداء (باللغة الفرنسية)		تيري ودانييل موجيه
في ظلال الخيام السوداء (باللغة العربية)		تيري ودانييل موجيه
• ١٠٠ ورقة ورد		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الاستثمار بالأسهم في المملكة العربية السعودية		الأستاذ غازي محفوظ فلمبان
• الأمـــراض الجلديـــة		الدكتور محمود حجازي
• القـــــــات		الدكتور حمد المرزوقي الدكتور أحمد نبيل أبو خطوة
• الزواج وفترة الخطوبة		الدكتور يسري عبدالمحسن

تحت الطبع :

• مغامرات سفير عربي في اسكندنافيا منذ ألف عام	الأستاذ أحمد عبدالسلام البقالي
• نوع من العشق وشجون أخرى	الدكتور اسامة عبدالرحمن
• سيرة شعرية	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

كتاب للأطفال

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب اسحق

- القرد • الكلب • السلحفاة • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة
- البوم • البجع • الهدهد • الكنغر • الخفاش • النعام • فرس النهر • التمساح
- الضفدع • الدب • الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصـــوم
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- الصــلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضـــوء

قصص متنوعة :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب
- نتيجة الطمع — الأستاذة رباب الدّباغ
- الدعوة الخفية — الأستاذة رباب الدّباغ
- الحارس الذكي — الأستاذة رباب الدّباغ

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني

إعداد — الأستاذ يعقوب محمد اسحق



Books Published in English by TIHAMA

- **Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.**
  By: F.M. Zahran / A.M.R. Jamjoom / M.D.EED.
- **Zaki Mubarak: A Critical Study.**
  By: Dr. Mahmud Al Shihabi
- **Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.**
- **Education in Saudi Arabia, A Model With Difference.** *(Second Edition)*
  By: Dr. Abdulla Mohamed A. Zaid
- **The Health Of The Family In A Changing Arabia.** *(Third Edition)*
  By: Dr. Zohair A. Sebai
- **Diseases of Ear, Nose and Throat.**
  By: Dr. Amin A. Siraj / Dr. Siraj A. Zakzouk
- **Shipping and Development in Saudi Arabia.**
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- **Tihama Economic Directory.** *(Second Edition)*
- **Riyadh Citiguide.**
- **Banking and Investment in Saudi Arabia.**
- **A Guide to Hotels in Saudi Arabia.** *(Second Edition)*
- **Jeddah City Guide**
- **Who's Who in Saudi Arabia. (Second Edition)**
- **An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.**
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **The Role of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of The Al-Hasa of Eastern Saudi Arabia.**
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- **An Analysis Of The Effect of Capitalizing Exploration And Development Costs In the Petroleum Industry — With Emphais On Possible Economic Consequences in Saudi Arabia.**
  By: Mohiadin R. Tarabzune
- **Community Health in Saudi Arabia**
  By Dr. Zohair A. Sebai
- **Marxism and Islam**
  By: Mostafa Mahmoud
  Translated from Arabic by: M.M. Enani,
- **The Demand for Housing Application at a Portfolio-Balance Model.**
  By: Dr. Farouk Saleh Khatib
- **In The Shadow of the Black Tents**
  By: Thierry & Danielle Mauger
- **The Effect of Listening Comprehension Component on Saudi Secondary Students' EFL Skill**
  By: Mamoun Yousef Banjar

Books Published in French by TIHAMA

o **A L'ombre De Tentes Noires**
  Therry ET Danielle Mauger